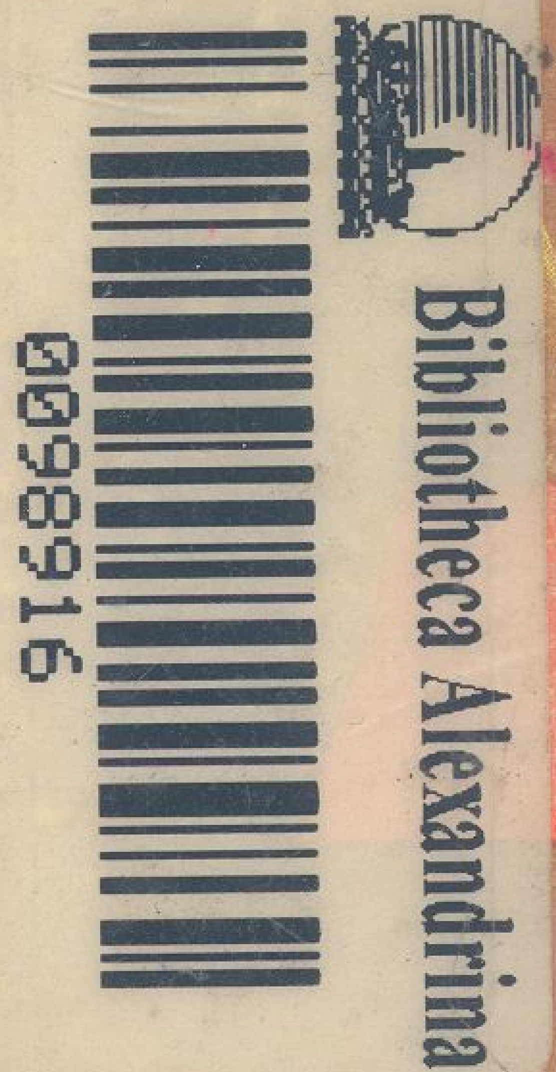
الغزو الصليبي .. والعالم الإسلامي

تأليف الدكتور
علي عبد الحليم محمود



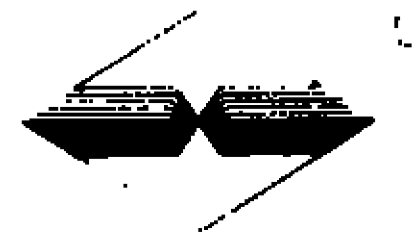
عكاظ
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الغزو الصليبي.. والعالم الإسلامي

تأليف الدكتور
علي عبد الحليم محمود

أستاذ الأدب المشارك
بكلية اللغة العربية
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



شركة مكتبات عكاظ
للنشر والتوزيع

جدة ت : ٦٥٢٢٣٤٤٨
الرياض ت : ٤٠٤٠٨١٤
الدمام ت : ٧١٤٣٤

المملكة العربية السعودية

الطبعة الثانية
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

إهداء

إلى الذين ينتمون بأعمالهم إلى خير أمة أخرجت للناس

تمهيد :

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولاالضالين ٠

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى جاء للبشرية كلها بالكتاب الذى أنزله الله إليه ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، الكتاب الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ٠

ولقد نزّل الله هذا الكتاب على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وقضيته الكبرى هى : توحيد الله وطاعته ، لتستقيم البشرية على هدى هذا الكتاب تعبد الله وحده لاشريك له آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، حتى لايعبد غير الله فى الأرض ٠

وفى هذا الكتاب شرع الله لمحمد صلوات الله عليه وسلامه من الدين مالم يختلف فى أصوله وجوهره عما شرعه لأنبياء الشريعة صلوات الله عليهم وسلامه : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وهو توحيد الله وعبادته والالتزام بشريعته ٠

وصدع محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الدين وبلغه للناس جميعا ، فكبُر على المشركين مايدعوهم إليه ، وتفرق الذين أوتوا الكتاب أمام دعوته فمنهم من هدى الله ومنهم من جحد فكفر ، ومنهم من كان فى شك مما جاء به محمد صلوات الله عليه وسلامه ، فأخذ يجادل ويحاج ثم يمارى ويتبجح ٠

وكان أمر الله لرسوله صلى الله عليه وسلم واضحا وصريحا ، فى أن يستمر فى دعوته إلى التوحيد ، ولايتبع أهواء من ضلوا وخالفوا ، وإنما يعلنهم بأنه ملتزم بهذا الكتاب مأمور بأن يعدل به بين البشرية كلها ٠

فوقف أهل الكتاب يجادلون ويمارون ـ وهم يعلمون أن ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ـ لكنهم ماجاءوا فى جدلهم ذلك إلا بالحجة الداحضة ، فاستحقوا غضب الله وعَذابه •

ولقد أدى هذا الجدال وتلك المماراة إلى صراع بين الحق والباطل بين الضلال والهدى ، بين الكتاب الحق وتلك الكتب المحرفة ، بين الإسلام وأهل الكتاب من يهود ونصارى حرفوا الكلم عن مواضعه •

ولقد بدأ الصراع بين النصرانية المحرفة « الصليبية » والإسلام ، منذ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد ، فضلّ النصارى ووقفوا لدين التوحيد بكل مرصد ، وقعدوا لدعاته ورجاله بكل سبيل •

منذ وقف الروم للإسلام وللمسلمين فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى حياة خلفائه الراشدين ••• وإلى أن كانت الحروب المعروفة ـ فى التاريخ ـ بالحروب الصليبية ، منذ ذلك الحين والصراع يأخذ صورة حرب سافرة تتقابل فيها الجيوش وتتصارع القوى فى ميادين القتال •

وفى الجانبين إصرار ـ استمر على طول التاريخ ـ لايحيد عنه أحدهما : المسلمون يصرون على دين التوحيد وشرعه ومنهاجه ، والصليبيون يصرون على الباطل ، ويدعون مع الله إلهين آخرين : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » والصراع مستمر بين الحق والباطل بين التوحيد والشرك •

ولقد كان للإسلام والمسلمين معارك نبيلة نازلوا فيها الضلال والباطل ، واستطاعوا فى زمن غير طويل أن يبلغوا دين الله لعباد الله فى كل أرض وصلوا إليها ، بل استطاعوا أن يضموا لجانب التوحيد أعدادا كبيرة ممن هدى الله من النصارى •

وكما انتصر المسلمون فى كثير من هذه المعارك النبيلة غاية وهدفا ، جاء عليهم حين من الدهر ذاقوا مرارة الهزيمة ، ودفعوا بها ثمنا باهظا لتفريطهم فى العمل بما جاء به كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم •

ومن الجدير بالتأمل أن المسلمين فى مرحلة من مراحل انتصارهم على الصليبيين توهموا أنهم انتصروا عليهم الانتصار الأخير ، أو هزموهم الهزيمة التى لا تقوم بعدها للصليبيين قائمة ، كان ذلك يوم نجح المسلمون الذين اتحدت كلمتهم فى طرد الصليبيين من الشرق الإسلامى باستيلاء الأشرف خليل بن قلاوون على عكا آخر ماكان بأيدى الصليبيين من بلاد المسلمين من حصون ، فى أخريات القرن السابع الهجرى ٠

وكان المسلمون فى هذا التصور واهمين مخدوعين عن أنفسهم وعن عدوهم ، انخدعوا عن أنفسهم حين ألقوا السلاح ، وانخدعوا فى عدوهم إذ تصوروه قد ألقى السلاح مثلهم ، بينما كان عدوهم قد غير السلاح فقط ولم يلقه وإنما استمر فى حرب جديدة فى أسلوبها ، فكان الصليبيون يحاربون من لا يحاربهم ، ويكيدون لمن ألقوا إليهم السلام ٠

ولقد استطاع الصليبيون أن يحققوا انتصارات كبيرة على المسلمين فى مواطن عديدة ، وبخاصة فى الفترة التى تحالفوا فيها شرقيين وغربيين على أن يقضوا على دولة الخلافة العثمانية فى بداية القرن الرابع عشر الهجرى ٠ وقد نجحوا فى ذلك وقضوا على دولة مسلمة استطاعت يوما أن تصل إلى جنيف وأن ترفع صوت الإسلام صوت الحق من قلب أوربا الصليبية ٠

ولقد ضعف المسلمون فى هذه الآونة الأخيرة إلى الحد الذى أغرى الصليبيين بأن يعودوا إلى السلاح السافر والاحتلال العسكرى لكثير من بلدان المسلمين ، فتوزع الصليبيون فيما بينهم بلدان العالم الإسلامى ، واحتلوا من أرض المسلمين فى أقصى المشرق إلى أرضهم فى أقصى المغرب ماجعلهم يمسكون بناصية الأمور فى هذا العالم الإسلامى المترامى الجوانب ، الذى ضعف حماته يوم تركوا كتابهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام ٠

وكما كانت الدول التى حاربت المسلمين فى الماضى هى إسبانيا والدولة البيزنطية ، والدول الأوربية الغربية ، كذلك كانت نفسها هى التى توزعت ميراث دولة الخلافة العثمانية ، كل ماحدث من تغيير أن الدولة البيزنطية حلت محلها دولة الاتحاد السوفيتى الشيوعية ٠

وأصبح العالم الإسلامي نهبا للسوفيت في الشرق إذ استولى على عديد من الولايات الإسلامية ، ونهبا لانجلترا في الشرقين الأقصى والأوسط ولفرنسا في الشرق الأوسط والمغرب العربي ولإيطاليا في جزء من المغرب العربي ولإسبانيا في المغرب العربي كذلك ولهولندا ولكل دولة من الدول التي تقاسمت حق دولة الخلافة العثمانية ٠

وما إن استيقظ أبناء العالم الإسلامي بحركات الوعي الإسلامي في النصف الأخير من القرن الرابع عشر الهجري ، حتى أجبر هؤلاء المحتلون على مغادرة البلاد الإسلامية بإزالة الوجود العسكري منها ٠

غير أن الأعداء تحايلوا ـ وهي عادتهم ـ فما خرجوا من بلد مسلم إلا تركوا فيه من آثارهم ورجالهم مايطمئنون به إلى أن يظلوا مسيطرين غالبين ، وهم يدركون أنه لن تكون لهم سيطرة على بلاد المسلمين إلا بشيء واحد : هو أن يحولوا بين المسلمين والتمسك بدينهم ، بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ٠

ولقد أفلح أعداؤنا في إبعاد المسلمين عن كتابهم وشريعتهم إلى حد كبير :

أفلحوا حينما عملوا جادين على إغراء معظم دول العالم الإسلامي على أن تحكم بقوانينهم الوضعية ، متجاهله الحكم بما أنزل الله وفق شريعة الإسلام ، وعلى هدى من منهجه ، وحينما جعلوا أغلب الدول الإسلامية تأخذ في نظام حياتها بكثير من عادات الغربيين وتقاليد مجتمعاتهم المخالفة لشريعة الإسلام ، فاتبعت تلك الدول المسلمة يوم قبلت ذلك فاتبعت غير سبيلها وتبنت غير منهجها ونظامها ٠

أفلح أعداؤنا في ذلك إذ استجاب لهم بعض الحكام المسلمين الذين تجاهلوا تماما نداء الله على المسلمين في كل زمان ومكان بأن لايتبعوا سبيلا غير سبيل الله ، حتى لايضلوا متفرقين ضعفاء ضائعين ، فلقد خاطب الله الأمة الإسلامية وحذرها من اتباع غير الحق فقال سبحانه : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (١)

---

١ ـ سورة الأنعام الآية : ١٥٣ ٠

أفلح أعداؤنا فى أن يؤرثوا نيران الفرقة والخصام بين المسلمين ـ وهم فى الأصل موقدوها ـ وأن يجعلوا من الأمة الإسلامية الواحدة أمما عديدة وجماعات شتى ، لتذهب ريحهم وتضيع هيبتهم ، مع أن المسلمين يدركون حقا أنهم أمة التوحيد أمة واحدة تعبد ربا واحدا وتدين بشرع واحد ، بل يدركون أن رسل الله جميعا أمتهم واحدة أمة الإسلام ، قال سبحانه وتعالى : « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » [1] فإذا كان المسلمون اليوم أكثر من اثنين وأربعين دولة أو جماعة ، فإن ذلك يوضح لنا إلى أى حدٍّ نجح أعداؤنا فى تمزيق الأمة الإسلامية وتشتيت أمرها وتفريق وحدتها ، بل نجحوا فى إغراء بعض المسلمين بالمناداة بشعارات زائفة توحد بينهم بدلا من أن يوحد بينهم دينهم وكتابهم ·

أما الصليبيون المعاصرون ، فقد أفلحوا فى أن يقتنصوا من أبناء المسلمين من يكونون أبواقا لهم ودعاة لباطلهم وحماة لكل زيغ عن الحق ينادون به ، ولكل انحراف عن منهج الإسلام يجاهدون فى سبيله ، ـ وبغض النظر عن أسلوب اقتناص أبناء المسلمين ، فهذا ليس مجال الحديث فيه ـ فخرج علينا هؤلاء الأبناء المخدوعون وأولئك الأعداء الخادعون ينادون بالبِدَع والضلالات ، ويروجون للأباطيل والخزعبلات ويبتكرون من أساليب التمرد على القيم الإسلامية كل خبيث وهدام ، وكل ضار بالدين والدنيا معا ·

فغشيت المجتمعات الإسلامية موجاتٌ إثر موجات من التيارات المعادية لدين الله المحاربة لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الصادة عن دين الله وعن سبيله المغرمة بالباطل والهوى ·

فهذه موجة إلحادية زائفة ألبسوها ثوب حرية الفكر وحرية العقيدة ، وزيفوها بقالتهم الضالة المضلة من أن الدين والتدين من المسائل الشخصية التى لا يلام فيها الناس على إلحادهم وزيفهم وضلالهم ·

وتلك موجة عاتية من الانحلال والفسوق ألبسوها خرقا بالية مما أسموه الحرية أو

١ ـ سورة المؤمنون الآية : ٥٢ ·

الحرية الشخصية التى لامعنى لها سوى أن ينطلق الحيوان الكامن فى الإنسان يعبر عن حيوانيته فى عُرض الطريق •

وهذه موجة ضارية صاخبة تستهدف إفساد المرأة المسلمة ، وتمزيق شمـل الأسرة المسلمة ، غطوها بغلالة خادعة من قولهم : تحرير المرأة وتحرر المرأة وإخراجها من سجنها « بيتها » لتنهبها الأعين فى الطرقات ، ولتفسدها مخالطة الرجال وتذهب بحيائها أزين مافيها وأجمل ماكـمَّلَ الله به الإنسان •

ومالوا على أبنائنا بنين وبنات يغرونهم بالتمرد على الأسرة وعلى سلطة الوالدين ، ودعموا ذلك بالقصص والمسرحيات ونظم التعليم واستأجروا لذلك كتابا وأدباء •

وماتركوا لنا من جانب من جوانب حياتنا الإسلامية إلا حاولوا أن يفسدوه ، ومن عجب أنهم نجحوا فى أغلب ما أرادوا •

وموجات إثر موجـات من الفـكر المنحـرف من وجـودية وفوضـوية وهيبية وعـرى و« خنفسة » وضياع •

وإن تعجب فعجب أن تجد هذه الدعاوى قبولا فى المسلمين وأن يروج لها بعضهم ، ولكن المتقبلين هؤلاء هم أصحاب النفوس المريضة والقلوب الآسنة والعقول العطنة •

وأخشى أن يتزايد هذا الوبال فينسى المسلمون أنهم خير أمة أخرجت للناس بمايأمرون به من معروف وماينهون عنه من منكر •

وبعد :

فهذه حال الأمة الإسلامية أو قل : الدول الإسلامية العديدة المبعثرة ـ على غير نظام ـ فى رقعة فسيحة من الأرض ، تحاول حين تصحو أن تبحث لها عن روابط تلم شعثها ، فيهيئ لها ضعفها أن رابطتها فى الإقليم أو العرق أو اللسان ، ذاهلة عن الرابطة الوحيدة التى لا رابطة سواها وهى : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، الكتاب الذى يجعل منها الأمة الواحدة ، خير أمة أخرجت للناس •

ومن أجل التعرف على هذا الواقع إيجابياته وسلبياته ، ومن أجل التعريف بهذا الماضى البعيد أو القريب للأمة الإسلامية فى صراعها من أجل الحق ، ومن أجل الاطمئنان إلى مستقبل للأمة الإسلامية يوحد صفوفها ويلم شعثها ويربطها بسر قوتها وعزتها بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ـ كان هذا الكتاب الذى بين يديك أيها المؤمن المسلم •

من أجل إدراك الأهداف الحقيقية التى شن الصليبيون من أجلها حروبا ضد المسلمين كان هذا الكتاب الذى أعده حلقة من سلسلة طويلة فى صراع الصليبيين مع المسلمين •

وربما كانت غايتى من هذا الكتاب وهى التعريف بأبعاد هذا الصراع زمانا ومكانا وفكرا وحضارة ، ربما كان تحقيق هذه الغاية يتطلب منى أسفارا وكتبا ، لاكتابا واحدا فى هذا الحجم الذى ترى •

غير أنى فى هذا الكتاب أركز على الفترة التى بلغت فيها الحرب الصليبية ضد العالم الإسلامى أوجها ، فاحتلت جيوش الصليبيين أرضا فى الشرق الإسلامى عزيزة غالية ، أرض فلسطين وبيت المقدس ، تلك الفترة الواقعة بين نهاية القرن الخامس الهجرى ٤٩٠ هـ ـ ١٠٩٥ م ونهاية القرن السابع الهجرى ٦٩٠ هـ ـ ١٢٩١ م ، وهى فترة عانيت البحث فيها والتحرى عن أبعادها فى الفكر والحضارة مايزيد على سنوات خمس أمارس تدريسها لأبنائى فى الجامعة ، وأثير فى أذهانهم حولها من المسائل والقضايا مالابد من إثارته •

فإذا مد الله فى العمر وهيأ من الأسباب ، تحدثت فى كتاب آخر عن الحرب الصليبية ضد المسلمين فى الأندلس ، وفى كتاب ثالث عن الحرب الصليبية التى شنتها على المسلمين الدولة الرومانية الشرقية « البيزنطية » • وفى كتاب رابع عن الحرب الصليبية فيما بعد العصر المسمى بعصر النهضة الأوربية وإلى قرب نهاية القرن الثالث عشر الهجرى

ـ التاسع عشر الميلادى تقريبا ـ وبخاصة فيما يتصل بحرب دول الصليبيين فى الشرق والغرب ضد دولة الخلافة العثمانية ٠

أما صليبية القرن العشرين الميلادى ـ الرابع عشر الهجرى ، فتحتاج إلى أكثر من كتاب ، فقد وصلت من جديد إلى احتلال بيت المقدس مرة ثانية وإلى احتلال فلسطين كلها وأجزاء من بلدان العالم الإسلامى حول فلسطين ، ذلك أن الصهيونية العالمية ـ وإن كانت تضمر الشر لكل البشر ومنهم الصليبيون ـ إلا أنها استطاعت بمساعدة صليبيى القرن العشرين أن تحصل على أرض إسلامية وأن تحتل ثانى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ٠

وليس هدفى من وراء كتابة هذه السلسلة أن أؤرخ لهذه الحروب فللتاريخ رجاله وعلماؤه ، وإنما الهدف الكبير هو أن أعرِّف الأمة الإسلامية على ألوان من الكيد لها يمارسها ضدها من يدعون صداقتها ، ومن تربطهم بها علاقات سياسية واقتصادية وثقافية ٠٠٠ أملاً فى أن يستفيق المسلمون على حقيقة واحدة هى ضرورة التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعندئذ لن يسع أحفاد الصليبيين إلا أن ينقمئوا كما انقمأ أسلافهم ، وأن يغيبوا عن سماء العالم الإسلامى ويزولوا عن أرضه ٠

من أجل ذلك سوف أتتبع أثر هذا الغزو الصليبى للعالم الإسلامى فى الفكر وقضاياه المطروحة أمام المسلمين ، بل وفى الفكر لدى الصليبيين ، وفى الحضارة الإسلامية بكل ماتدل عليه كلمة الحضارة ، وفيما خلفته هذه الحروب فى ثقافة المسلمين وعلومهم وفنونهم وأنماط حياتهم ، أى مانسميه « أدب الأمة الإسلامية » (١)

---

١ ـ لنا رأى فى الأدب الاسلامى ـ عبرنا عنه بتوسع فى كتابينا من سلسلة نحو أدب إسلامى معاصر : مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه وجمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه ـ الأول نشر جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية والثانى شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع

عسى الله أن يجعل من كلماتى هذه تبصرة وذكرى لكل من ألقى السمع وهو شهيد ٠٠ إن الله على مايشاء قدير ٠

وإذا كان لابد من حديث عن منهجية هذا البحث وخطوطه العريضة ، فأقول : بدا لى وأنا أفكر فى الموضوع وأمارس تدريسه تلك السنوات ، وأتهيأ للعمل فيه ليصبح كتابا ، بدا لى أن أجعله أبوابا أربعة :

الباب الأول منه تسيطر عليه قضية دوافع هذه الحروب الصليبية ، وهى دوافع دينية للكنيسة فيها قدم راسخة ، ودوافع سياسية مهدت لها بالحديث عن الغزو الصليبى للأندلس المسلمة والغزو الصليبى البيزنطى لعدد من بلدان العالم الإسلامى ، وتوسعت فى الحديث عن الغزو الصليبى الغربى للعالم الإسلامى ـ لأن ذلك صلب الكتاب وعموده ـ فبينت أثر الكنيسة فى هذا الغزو ، وعرفت بالحملات الصليبية المشهورة ، وبالممالك التى استطاع الصليبيون أن يقيموها فى بلاد المسلمين ، ثم تحدثت عن إخراجهم من هذه الجنة التى نفيض لبنا وعسلا كما تحدثت بذلك التوراة التى فى أيديهم ٠

ثم تحدثت عن الدوافع الاجتماعية والاقتصادية لهذه الحروب ٠

وجعلت الباب الثانى : عن العالم الإسلامى الذى واجه الصليبيين فأوضحت ظروفه جملة ، ثم تحدثت عن الدول المسلمة التى واجهت الصليبيين فأوجزت فى الحديث عن مسلمى الأندلس وعن دولة الخلافة العباسية ، لأن ذلك كان قبل الفترة التى نركز عليها الأضواء فى هذا البحث ٠

ثم توسعت ـ خضوعا لمنهجية البحث ـ فى الحديث عن الفاطميين والسلاجقة والأراتقة والأتابكة والأيوبين والمماليك ولكنه توسع نسبى معقول ، وذلك أن هؤلاء هم الذين واجهوا الصليبين ، وأن عددا منهم اتحدوا فى جبهة حينا من الزمان ، فأصلوا الصليبيين بهذا الاتحاد نيرانا حامية وكان ذلك من أكبر أسباب خروجهم من بلادنا ٠

وجعلت الباب الثالث لرصد نتائج هذه الحروب الصليبية فى العالم الإسلامى وفى العالم الصليبى ، وبخاصة النتائج السياسية والاجتماعية والاقتصادية وهو باب يعد مدخلا للباب الرابع والأخير من البحث ·

ثم كان الباب الأخير من الكتاب وهو أوسع أبواب البحث وأهمها ، إذ تحدثت فيه عن الفكر الإسلامى والحروب الصليبية ، وكيف انشغل ذلك الفكر بتلك الحروب فأثر فيها وتأثر بها ، وكيف سجلها ورصد أحداثها فى فنون القول شعرا ونثرا وتأليفا ، ثم تحدثت عن مشاهير المفكرين علماء وشعراء وكتابا ، ممن كان لهم جهد فى الحديث عن هذه الحروب فصاغوا فى ذلك علما وأدبا ·

ثم كانت خاتمة البحث ، فرصدت فيه أبرز ماتوصلت إليه ، وأهم مادعوت إليه فى هذا الكتاب ·

وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ·

د . على عبد الحليم محمود

الرياض فى غرة المحرم من عام ١٣٩٩ هـ .



الباب الأول



دوافع الصليبيين فى حرب المسلمين

الباب الأول

دوافع الصليبيين فى حرب المسلمين

ويتناول :

١ ـ توطئة فى دوافع هذه الحروب

٢ ـ الدوافع الدينية

٣ ـ الدوافع السياسية

وتشمل موضوعات ثلاثة :

أولها : الغزو الصليبى للأندلس المسلمة

ثانيها : الغزو الصليبى الذى قام به البيزنطيون

ثالثها : الغزو الصليبى الغربى للشرق الاسلامى

ويشمل :

أ ـ الكنيسة وهذه الحروب

ب ـ الدول الأوربية التى شاركت فى هذه الحروب

ج ـ الحملات الصليبية على الشرق الإسلامى

د ـ الممالك الصليبية فى الشرق الإسلامى

هـ ـ إخراج الصليبيين من الشرق الإسلامى

٤ ـ الدوافع الاجتماعية والاقتصادية لهذه الحروب

١ ـ توطئة فى دوافع هذه الحروب

اشتركت عوامل عديدة فى إثارة هذه الحروب ودفعها إلى الوصول إلى غاياتها ، ولم تكن هذه العوامل فى جوهرها وحقيقتها إلا ظروفا أحاطت بالصليبيين فى مجتمعاتهم التى يعيشون فيها .

وربما كان بعض هذه العوامل راجعا إلى ظروف المجتمع فى العالم الإسلامى آنذاك ـ وبخاصة عندما تكون ظروف العالم الإسلامى ، قد بلغت من السوء والاضطراب والفرقة ذلك الحد الذى بلغته ـ غير أن مايعنينا فى هذه الكلمات ، هو العوامل التى تتصل بالصليبيين أنفسهم .

تلك العوامل التى دفعت الحروب الصليبية إلى غايتها ، كان أبرزها مايتصل بالناحية الدينية ، وموقف الكنيسة من هذه الحروب ، وإن كانت هذه الناحية لم تكن وحدها هى المؤثرة الفاعلة ، وإنما تعاونت معها نواح أخرى لاتقل عنها أهمية ، كالناحية السياسية والناحية الاجتماعية والاقتصادية .

ومن جملة هذه العوامل أو الدوافع ، قامت الحروب الصليبية على قدم وساق ، وامتدت أخطارها وآثارها فى العالم الأوربى كله ، وفى العالم الإسلامى غربه وشرقه .

ولسنا نبالغ حينما نقول : إن هذه الدوافع قد استمرت ، حتى بعد أن وضعت الحملات العسكرية أوزارها ـ فى أخريات القرن السابع الهجرى ـ استمرت إلى مابعد ذلك بكثير من القرون ، بل استمرت إلى الفترة التى تحالفت فيها دول أوربا ـ من جديد ـ ضد دولة الخلافة العثمانية فى القرن الرابع عشر الهجرى ، والتى استطاعت بهذا التحالف أن تقضى على دولة الخلافة وأن تتقاسم فيما بينها بلدان العالم الإسلامى غربه وشرقه .

ولقد وضّح « ألنبى » وهو يحتل بيت المقدس فى العقد الثانى من القرن العشرين الميلادى ، أن تحالف دول أوربا ضد دولة الخلافة كان امتدادا لتلك الحروب الصليبية التى

بدأت فى القرن الخامس الهجرى عندما قال وهو يستولى على بيت المقدس : « الآن انتهت الحروب الصليبية »

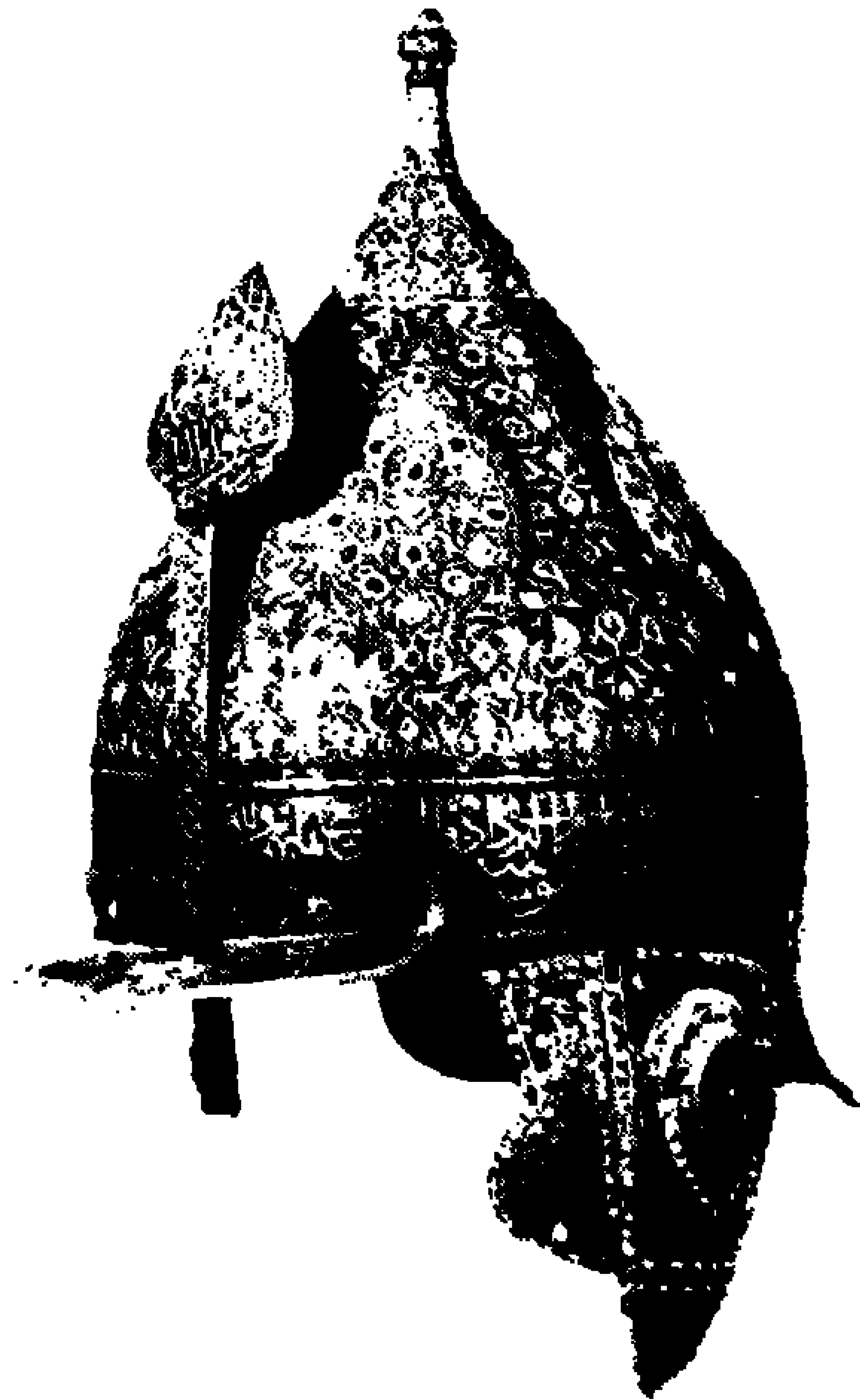
ونحن بدورنا نقول : إن الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامى لم تنته بعد احتلال الصليبيين لبيت المقدس ، ولابعد زَرعهم لدولة إسرائيل فى قلب الجزء العربى من العالم الإسلامى ، ذلك أن الدوافع قائمة والأسباب متجددة ·

ويوم يفيق العالم الإسلامى على تلك الحقيقة التى ذكرنا ، ربما يفكر فى خطة تنهى الحروب الصليبية ، وتضع حدًا لأخطارها وآثارها ·

أما قبل ذلك الوعى ، فسوف تظل هذه الحروب تزيد المسلمين خسارة إلى ماخسروا فيها من قبل ، وسوف يظلون الجانب المغلوب ، إلى أن تتغير ظروف دول الغرب فتعجز عن تأريث هذه الحروب والحشد لها ، وربما طال أمد الفترة الزمنية التى تتغير فيها ظروف دول الغرب نحو الوضع الذى يعجزها عن المضى فى هذه الحروب ·

والأمر إذن متروك لأبناء العالم الإسلامى ، إن شاءوا خرجوا من دائرة الهزيمة ، وإن شاءوا ورثّوا أجيالهم أسوأ مايورث الآباء للأبناء ·

وعن هذه الدوافع سوف تكون كلماتنا فى هذا الباب الأول من الكتاب والله الموفق والهادى إلى سواء الصراط ·



٢ ـ الدوافع الدينية

لابد لنا من إشارة إلى الظروف الدينية التى عاشتها أوربا ـ غربيها وشرقيها ـ قبيل الحروب الصليبية ، قبل أن نتحدث عن الدوافع الدينية التى أدت إلى هذه الحروب ٠

والظروف الدينية فى أوربا مرتبطة أشد الارتباط بالكنيسة ، والكنيسة قد انشقت منذ زمن باكر إلى كنيسة كاثوليكية يرأسها بابا روما ـ أوربا الغربية ـ وأرثوذكسية وبروتستانتية ، فضلا عن الانقسام الكبير الذى حدث فى أخريات القرن الرابع الميلادى

عندما انقسمت الامبراطورية الرومانية إلى امبراطوريتين ، البيزنطية فى شرق أوربا والغربية فى روما ٠

وفى القرن العاشر الميلادى ـ الرابع الهجرى تقريبا ـ عاشت البابوية أسوأ ظروفها ، وكانت السلطة تباع وتشترى حسب الأهواء السياسية ، فقد سيطرت على الكنيسة والبابوية أسر كبيرة مثل أسرة « أورسينى » وأسرة « كولونا » فأضعفت سلطان الكنيسة ٠

أما فى القرن الحادى عشر الميلادى ـ الخامس الهجرى ـ وهو القرن الذى حدث قرب نهايته أن وجهت الكنيسة الحروب الصليبية إلى الشرق الإسلامى ـ فقد كانت الكنيسة الرومانية الغربية قد استعادت كثيرا من نفوذها بعد الإصلاحات الكنسية الهامة التى قام بها البابا « جريجوريوس » السابع ٠

كما استطاع البابا « انيونشانسيوس » الثالث ، أن يكون الحَكَم المسموع الكلمة فى أى نزاع ينشب بين دول أوربا ٠

لكن كنيسة الدولة الرومانية الشرقية « بيزنطة » كانت على خلاف يفتر حينا ويشتد حينا مع كنيسة روما ٠

وكان بابا كنيسة روما يوطد سلطته على كل مكان يستولى عليه الإسبان من

المسلمين ، قبيل الحروب الصليبية ، مما زاد نفوذ البابا ووسّع سلطانه ، وجعله فى زمن ليس بالطويل لايجد منافساً له فى إسبانيا كلها ، من أى كنيسة ·

ولم تتحسن العلاقات بين الكنيستين أو الدولتين رومة وبيزنطة إلا فى سنة ١٠٧٣م ـ ٤٦٦ هـ حينما قرر الامبراطور ميخائيل السابع امبراطور بيزنطة أن يعقد اتفاقا ودّيا مع روما ـ وخصوصا بعد أن تم فى العام نفسه انتخاب « الكاردينال هيلد براند » المعروف بصلابته ليكون « بابا » لرومة فاتخذ اسم جريجورى السابع ، فأرسل ميخائيل السابع إلى البابا الجديد يهنئه بانتخابه ويلمح إليه فى رغبته فى ازدياد الصلة بينهما ·

وقد رحب البابا بذلك وأرسل من قبله بطريرك البندقية « دومنيكوس » مندوبا عنه إلى القسطنطينية لينهى إليه بما يجرى من الأمور فيها ·

واقتنع البابا جريجورى بأن الامبراطور ميخائيل صادق فى عرضه ، وبخاصة بعد أن انتهى إليه ماكتبه « دومنيكوس » من أحوال القسطنطينية ، كما وقف جريجورى كذلك على الأحوال فى آسيا الصغرى ، لما لذلك من أهمية فى حركة الحجاج إلى بيت المقدس ·

ولم تكن فلسطين آنئذ مقفلة فى وجه الحجاج ، غير أن الرحلة إليها عبر آسيا الصغرى لم تلبث أن أصبحت مستحيلة إذا لم يجر منع الغارات التركمانية ·

أعد « جريجورى » سياسة جديدة ، فى ضوء ماتراءى له من فكرة سياسية بارعة تكاد تكون خيالية ، فالحرب المقدسة التى أحرزت نجاحا كبيرا عند اندلاعها فى إسبانيا ، لابد من امتدادها إلى آسيا الصغرى ·

والمعروف أن أصدقاءه فى بيزنطة فى أشد الحاجة إلى مساعدة حربية ، فيبعث إليهم جيشا من الفرسان المسيحيين ، يخضعون لأوامر الكنيسة ، وفى هذه الحالة يتولى البابا بنفسه قيادتهم ـ نظرا لأن ثمة من المشاكل الكنسية التى تتطلب الحل ، فتقوم عساكره بطرد المسلمين من آسيا الصغرى (وهذا جزء من الخطة الخيالية) ، ثم يعقد بعدئذ مجمعا بالقسطنطينية ، حيث يحسم مسيحيو الشرق ـ فى ذلة ومسكنة ما كان بينهم من منازعات ،

ويعترفون بسيادة روما (وهذا هو الجزء الثانى من الخطة الخيالية) •

غير أن « جريجورى » لم يستطع أن ينفذ خطته هذه ، لأن صلابته التى عرف بها أدت إلى وقوعه فى مشكلات عديدة مع حكام الغرب وأمرائه ، مما أنساه اهتمامه أو مطامعه فى الشرق ••

على أن العلاقات بين العالم المسيحى فى الشرق والغرب ، لم تبلغ من البرود مثلما بلغته سنة ١٠٨٧م ـ ٤٨٠ هـ وهى السنة التى مات فيها « جريجورى » السابع •

فالإمبراطور الشرقى « البيزنطى » ـ الذى وجد فى هنرى الرابع ملك ألمانيا حليفا ضد البابا ـ وجد نفسه وقد قطعه البابا من الكنيسة ، ولم يكتف البابا بذلك بل أخذ يشجع المغامرين الغلاظ من النورمانديين على أن يهاجموا إخوانهم المسيحيين ، على حين أن العدو الأساسى للبابا ـ وهو هنرى ملك ألمانيا ـ كان يتلقى علنا المساعدات من « البيزنطيين » ، فاشتدت حدّة المرارة والكراهية بين الجانبين •

وفى سنة ١٠٨٨م اجتمع مجلس الكرادلة واختاروا « أودو دى لاجيرى » بابا لهم وأسمى « إيربان الثانى » •

وإذا كان « إيربان » قد ورث إرثا شاقا فإن ماتمتع به من كياسة ودهاء جعله يضعف مركز هنرى الرابع ملك ألمانيا بأن شجع ابنه « كونراد » على التمرد عليه •

كذلك نجح « إيربان » فى أن يخضع لسيادته كل النظام الكنسى فى فرنسا،وفى إسبانيا كان لنفوذه السيادة والسلطان ، وأخذت بعد ذلك البلاد النائية فى أوربا تعترف بسلطته الروحية •

وأظهر « إيربان » مزيدا من الصبر والتحمل مع الأمراء العلمانيين فى كل مكان فى أوربا •

ولم يجىء عام ١٠٩٥م ـ ٤٨٩ هـ إلا وكان البابا « إيربان الثانى » السيد المطاع فى العالم المسيحى فى الغرب • (١)

١ ـ ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ـ ترجمة د • السيد الباز العرينى ١/١٥٠ ـ ١٥٣ باختصار وتصرف

البابا « إير بان الثانى » يعد للحروب الصليبية

بعث البابا برسائل إلى أساقفة فرنسا والبلاد المجاورة يطلب إليهم الاجتماع به فى « كلير مونت » فى شهر نوفمبر فى الفترة مابين ١٨ و ٢٨ من هذا الشهر ـ وشهده نحو ثلاثمائة من رجال الدين ، وناقش معهم البابا إيربان عددا من الأمور التى تتصل بالكنيسة وأنظمتها ، وكان ذلك هو الهدف القريب لهذا المؤتمر ، أما الهدف الحقيقى أو البعيد فقد اتضح عندما أعلن البابا أنه سيلقى خطابا هاما فى جلسة علنية يوم الثلاثاء ٢٧ من نوفمبر ، وألقى خطبة هامة فى هذا المؤتمر هى خطبة الدعوة إلى الحروب الصليبية ـ المقدسة ـ وقد احتشد لهذا الخطاب جموع من القسس والعلمانيين ، بلغ عددهم من الضخامة أن « الكاتدرائية » التى انعَقد بها المجمع لم تتسع لهم ، فتقرر إقامة الكرسى البابوى على منصة مرتفعة تطل على الفضاء ، خارج الباب الشرقى للمدينة ، ولما اكتمل اجتماعهم نهض البابا إيربان فخاطبهم قائلا : « أيها المسيحيون : إن تلك الأرض المقدسة بحضور شخص المخلص فيها ، وتلك المغارة المرعية المختصة بفادينا ، وذاك الجبل الذى عليه تألم ومات من أجلنا ، وذلك الضريح الذى تنازل لأن يدفن فيه ضحية للموت ٠٠ كلها أضحت ميراثا لشعب غريب ، وغاب بهاؤها الأصلى ، وهياكلها قد خربت ، وأشعة نورها الساطعة تحولت إلى ظلام حالك ، وهى تستحق الندب الشديد والبكاء ٠

ولم يعد لله من معبد داخل المدينة المقدسة الخصوصية ، وجهات آسيا الأكثر ثروة وغناء أضحت فى فقر مهين ٠

وأنطاكية ، وأفسس ، ونيقية ، قد صارت مدن الإسماعيليين ، والأتراك قد مدوا ولايتهم إلى حدود « هاليبوتوس » لا ، بل إلى أبواب القسطنطينية ٠

ومن هناك ذراع هذه الشعوب القوى يهدد بالاستيلاء على كل ممالك الغرب ٠٠

ثم واصل قائلا : « لقد آن الزمان الذى فيه تحوِّلون ضِدَّ الإسلام تلك الأسلحة التى تخذها فريق منكم حتى الآن ضد فريق آخر ، لأخذ الثأر عن بعض إهانات ٠

فالحرب المقدسة المعتمدة الآن ليست هى لأخذ الثأر من إهانات ضد البشر ، بل عن الإهانات الصادرة ضد الله ، وليست هى لاكتساب مدينة واحدة فقط ، بل هى أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التى لاتحصى .

فاتخذوا محجة القبر المقدس ، وخلصوا الأراضى المقدسة من أيادى المختلسين ، وأنتم املكوها لذواتكم ، فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبنا وعسلا ..

ثم واصل قائلا : فإذا انتصرتم على أعدائكم ، فالملك الشرقى يكون لكم قسما وميراثا ، وأما إذا قتلتم فلكم المجد لأنكم تموتون فى المكان الذى فيه مات يسوع المسيح » ..

ثم أخرج علامة الفداء المقدسة وهى « صليب الخلاص » عندهم وقال : « احملوه على عواتقكم ، أو على صدوركم ، وليشرف فوق أسلحتكم وفى رءوس سناجقكم » [١]

وهذا الخطاب أو تلك الخطبة على لسان أى مؤرخ ممن أوردوها ، ليست الرواية اللفظية الدقيقة ، وإنما هى صياغة هؤلاء المؤرخين ورواياتهم فى ضوء الأحداث التالية [٢]

ولكى يدعم البابا إيربان الرغبة فى الاشتراك فى الحروب الصليبية فى نفوس الأمراء والنبلاء ـ وبخاصة أن أكثر من استجابوا له فى مجمع « كلير مونت » كانوا من الفقراء والوضعاء ـ على حد تعبيرهم ـ أصدر قرارا ببذل التحلل من العقوبات الدنيوية عن الذنوب التى ارتكبها من اشترك بنية خالصة فى الحرب المقدسة .

ولم يكتف البابا بذلك ـ فى باب التشجيع ـ وإنما أضاف إليه : أن كل ماامتلكه المشتركون فى القتال من متاع الدنيا ، سوف يكون تحت حماية الكنيسة أثناء تغيبهم فى الحرب ، ويعتبر الأسقف المحلى مسئولا عن سلامته ، وينبغى أن يرده كاملا حينما يعود المحارب إلى وطنه .

---

١ ـ باركر أرنست : تاريخ الحروب الصليبية : تعريب مكسيموس مظلوم ط دير الفرنسيسكان .

٢ ـ ستيفن رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ـ ترجمة الباز العرينى : ١٦١/١ .

ط دار الثقافة بيروت ١٩٦٧ م .

وعمل إيربان على أن يكون قائد الحملة من رجال الكنيسة وتحت إشرافه وليكن مندوبا عنه ، فاتخذ المجمع قرارا بالإجماع بأن يكون أسقف « لى بويه » قائدا للحملة ـ هو أدهيار ـ

وجعل «إيربان» لهذه الحروب قوانين أهمها :

أن كل مشترك فى هذه الحملة لابد أن يحمل علامة الصليب ، ولابد أن يجعل على كتف سترته صليبا من نسيج أحمر اللون ، وكل من يتخذ الصليب ينبغى أن يوفى بالوعد بالمسير إلى بيت المقدس ، فإذا لم يوف تعرض للقطع من الكنيسة ٠

ولا ينبغى لأحد أن يسير لهذه الحروب إلا بعد مشورة مستشاره الروحى ، وينبغى أن يتجهز كل فرد لمغادرة وطنه فى عيد العذراء (١٥ من أغسطس) فى السنة التالية بعد أن يتم جمع المحصول ٠

وينبغى أن تلتقى الجيوش فى القسطنطينية ٠ (١)

ولم يكتف إيربان الثانى بذلك ، وإنما أخذ يتنقل بين المدن والبلدان داعيا للحرب الصليبية ، فعقد مجمعا فى ليموج فى شهر ديسمبر ١٠٩٥م ـ ٤٨٩ هـ وكرر الدعوة نفسها فى : أنجزومان وتورز وبواتيه وبوردو وتولوز وغيرها ، واستغرق ذلك من شهر يناير إلى شهر يونيو سنة ١٠٩٦م ـ ٤٩٠ هـ

كما طلب البابا من الأساقفة أن يبشروا للحروب الصليبية ، فانبرى أساقفة من أمثال : روبرت أربسيل ، والراهب الطوّاف بطرس الزاهد ، ولعلنا بذلك الذى قلنا ـ نؤكد أن فكرة الحروب الصليبية نبعت من البابا إيربان الثانى ومن خطبته التى كانت فى مجمع كلير مونت ، وليس صحيحا ماتردد فى عدد من البحوث الحديثة (٢)

---

١ ـ السابق : ١٦٣/١

٢ ـ مثل كتاب : الحروب الصليبية واثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام ـ لمحمد سيد كيلانى ٠

غير أن بطرس الزاهد هذا قام بدعاية لهذه الحروب لاينكر أثرها ، يقول عنه : ستيفن رنسيان : « عرفه معاصروه باسم بطرس الصغير ، غير أن ما اتخذه فيما بعد من رداء الزاهد جعله معروفا عادة باسم « الزاهد » الذى اشتهر به فى التاريخ ·كان بطرس قصير القامة داكن اللون ذا وجه طويل نحيل أشبه مايكون فى قبحه بوجه الحمار الذى يمتطيه [1] ، والذى لقى من التكريم والتبجيل مثل مالقى بطرس · درج بطرس على أن يسير حافى القدمين وقد ارتدى ملابس رثة · لم يتناول فى طعامه الخبز أو اللحم ، بل جعل غذاءه السمك ، واتخذ النبيذ شرابا له ·

وعلى الرغم من حقارة مظهره ، فإنه ادخر من القوة ماكان يثير الرجال.أحاط به جو غريب من السلطة والنفوذ ، فيروى « جيبرت نوجنت » الذى يعرفه شخصيا فيقول : مايردده بطرس أو يعقله ، يتراءى على أنه من صنع الله » [2]

ومالقيه بطرس من نجاح فى دعوته ليس مرده إلى قدرته البيانية فحسب ، وإنما يرجع إلى أسباب عديدة كانت تشجع الناس فى أوربا على الانخراط فى هذه الحروب ، فقد كانت أحوال شمالى غربى أوربا فى غاية السوء سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، فنظام الإقطاع بكل مفاسده ، والفيضانات والأوبئة وماتلاها من جفاف ومجاعة سنة ١٠٩٥م ، فضلا عن تساقط الشهب فى تلك الفترة ـ الذى أدى إلى هجرة كبيرة بين الناس ـ كل ذلك كان من أسباب استجابة الناس لما يردده بطرس عن حرب يستولى فيها الناس على البلاد التى تفيض عسلا ولبنا بلاد الشرق الإسلامى ·

١ ـ هذا الوصف غير لائق من المؤلف لأن عيب الخلقة غير أخلاقى وغير مرضى ·

٢ ـ ستيفن ونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية : ١٦٩/١

وهذه الأزمات التى عانت منها أوربا أشار إليها البابا إيربان فى خطبته فيما يذكره روبرت الراهب : « ليس بوسعكم أن تدبروا فى هذه البلاد الطعام للسكان . وهذا هو السر فى أنكم تستهلكون سلعها وتشنون فيما بينكم حروبا لانهاية لها » [1]

وأوشكت أن تتجه الحملة إلى غايتها بقيادة الأسقف أدهمار نائب إيربان لولا أن ريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس وأحد كبار قادة فرنسا وأمرائها أعلن عزمه على المشاركة فى هذه الحروب التى دعا لها البابا .

ولم تكن هذه المرة الأولى التى أعلن فيها ذلك الأمير الحرب على المسلمين ، إذ سبق له أن شارك فى حربهم فى إسبانيا كما يروى ميخائيل السريانى أن ريموند سبق أن حج إلى بيت المقدس .

وهكذا تجمعت عوامل عديدة لتجعل الزعامة العسكرية للحملة الصليبية المقبلة لريموند على أن تبقى الزعامة الروحية للمندوب البابوى أدهمار . [2]

وإذا كان بطرس الزاهد قد قام بمجهودات فى الدعاية للغزو الصليبى ، وجمع من حوله ألوف الراغبين فى الاشتراك فى هذا الغزو من مختلف أقاليم فرنسا ، إلا أن هذه الجموع كانت من الطبقات الدنيا وكانت على جانب كبير من الفوضى والاضطراب ، بل أبعد مايكونون عن التنظيم السياسى أو العسكرى .

ونستطيع القول بأن جموع بطرس الناسك هذا لم يجمعهم نظام ولم يتول أحد قيادتهم ، ولاشك أن البابا كان يأمل فى أن يصل هؤلاء الحجاج وأتباع بطرس سالمين إلى القسطنطينية ، وأن ينتظروا بها حتى يقدم المندوب البابوى والقادة العسكريون فيدخلونهم فى صفوف الجيش المسيحى الكبير . [3]

---

١ ـ السابق : ١٧١/١ .

٢ ـ د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ١٣٤/١ ط الانجلو المصرية سنة ١٩٧١م

٣ ـ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية : ١٧٢/١ .

وكانت خطة البابا فى تجميع جيوش الغزو الصليبى بالقسطنطينية تعكس ثقته فى الامبراطور ألكسيوس وفى ترحيبه بهذه الجموع . إذ كان ألكسيوس هو الذى طلب من أوربا الغربية المعونة بهذه الجيوش ليقف بها فى وجه السلاجقة الذين يهددون بيزنطة .

وكان ألكسيوس فى صراعه مع السلاجقة بآسيا الصغرى يتخذ كل الوسائل التى تمكنه من التغلب عليهم ، حتى أسلوب الدس وإحداث الفرقة والحروب الداخلية بين السلاجقة ، ولما ضعف السلاجقة بهذه الخلافات رأى أن يستعين بجيوش أوربا فى القضاء على السلاجقة ، وهاهى الجيوش قد وصلت .

غير أن تلك الكثرة التى تجمعت بها الجيوش وهذه الأنباء التى سبقتها إلى بيزنطة من أعمال التخريب والعدوان التى قامت بها هذه الجيوش على البلاد التى مرت بها فى الطريق إلى القسطنطينية ، جعلت امبراطور بيزنطة ألكسيوس يتخوف من العاقبة .

فقد كانت هناك جيوش غير نظامية أخرى جمعها زعيم يسمى والتر الملقب بالمفلس وعبر بها هنغاريا إلى أراضى الدولة البيزنطية ، وفى هذا الطريق نهبت « الجيوش » وسلبت واعتدت على الناس .

فكان قرار ألكسيوس أن تظل هذه الجموع خارج أسوار القسطنطينية إلى أن يصل بطرس الزاهد ، ولما وصل بطرس أحسن الامبراطور استقباله ووفر له ولغيره ما استطاع من المؤن ، ونصحهم جميعا بانتظار قوات نظامية من الغرب قبل مواجهة السلاجقة .

ولكن بقاء هذه الجيوش خارج أسوار العاصمة أدى إلى كثير من العدوان والسلب والنهب للقرى المجاورة ، بل حدث اعتداء من هذه الجيوش على بعض الكنائس .

ونستطيع أن نسمى جموع بطرس الزاهد وجموع والتر المفلس حملة العامة أو الدهماء أو حملة الشعوب كما سماها بعض كتاب الغرب [1] ، بينما يمكن أن نسمى الجيوش المنظمة بحملة الأمراء .

١ ـ صاحب هذه التسمية : حملة الشعوب هو : رنسيان .

بعد هذا الاستعراض لكبريات الأحداث فى هذا الغزو الصليبى ، تلك الأحداث التى يرجع معظمها إلى رغبة الكنيسة فى شن هذه الحروب والتى بسببها قال بعض المؤرخين إن الدافع الدينى كان من وراء هذه الحروب • بعد هذا الاستعراض يحين لنا أن نناقش هذا الدافع الدينى ونبين فيه وجه الصواب بإذن الله تعالى ، فنقول :

عندما ننظر إلى هذا الدافع الدينى للغزو الصليبى للشرق الإسلامى نجد الكنيسة قد حملت العبء الكبير فى الدعاية للحرب والتبشير بها وذكرت فى دعايتها والتبشير بها سببا جوهريا ـ من وجهة نظرهم ـ هو أن حجاج بيت المقدس من النصارى كانوا يلقون معاملة سيئة من المسلمين ـ السلاجقة ـ الذين كانوا يحكمون بيت المقدس وفلسطين ، وذهب بطرس الزاهد وغيره فى تصوير مايعانيه النصارى على أيدى المسلمين مذاهب أبعد ماتكون عن الحقيقة ، إذ زعم أن المسلمين يعتدون على الحجاج النصارى ويستولون على أموالهم ويفتكون بهم وبمن معهم ـ وهذا سوف نبين وجه الصواب فيه بعد قليل •

أقول : لعل تدخل الكنيسة بهذا الشكل السافر واشتراك القساوسة وإثارة هذا السبب الخاص بما يلقون من سوء معاملة ـ على زعمهم ـ لعل كل ذلك هو الذى صبغ هذه الحروب بصبغة دينية ، وجعل بعض المؤرخين يتحدثون بتوسع عن الدافع الدينى لهذه الحروب •

غير أن الحق : أن هذا الدافع لم يكن وحده ـ بل لم يكن أقوى الدوافع ـ فى إثارة الحروب الصليبية ، بل أكاد أؤكد أن الدوافع السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت أقوى من هذا الدافع الدينى •

ويمكن أن نلخص هذا الدافع الدينى ـ من وجهة نظر الأوربيين ـ فى أمور أهمها :

إدعاؤهم أن المسيحيين المقيمين فى العالم الإسلامى يلقون من سوء المعاملة من الحكام المسلمين مايستوجب على المسيحيين الأوربيين نجدتهم •

وادعاؤهم أن الحجاج المسيحيين يتعرضون للعدوان فى طريقهم إلى الحج وإلى مزيد من الاضطهاد وهم يؤدون حجهم •

وادعاؤهم أن كنائس المسيحيين فى الشرق الإسلامى قد تعرضت للتخريب وأن الأديرة تعرضت للإغلاق أو المصادرة ، وأن بعض هذه الكنائس قد تحولت إلى مساجد ..

ونحاول أن نناقش هذه الادعاءات فى ضوء الحق والواقع وربما استعنا فى ذلك ببعض أقوال الأوربيين أنفسهم .

أما ادعاؤهم أن المسيحيين المقيمين فى البلدان الإسلامية يلقون معاملة سيئة من الحكام المسلمين . فهو ادعاء باطل فى جملته من وجهة نظر الإسلام ومن حيث الواقع الذى عاشه المسيحيون فى بلاد الإسلام .

فمن وجهة نظر الإسلام :

الأصل فى معاملة المسلمين لأهل الكتاب من يهود ونصارى ـ إذا كانوا يعيشون بدار الإسلام قوله تعالى : « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الأخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (١)

قال القرطبى : « وخص أهل الكتاب بالذكر إكراما لكتابهم ، ولكونهم عالمين بالتوحيد والرسل والشرائع والملل ، وخصوصا ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وملته وأمته ، فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجة وعظمت منهم الجريمة ، فنبه على محلهم ، ثم جعل للقتال غاية وهى إعطاء الجزية بدلا عن القتل . وهو الصحيح . (٢)

وقال القاضى أبو يعلى : الجزية موضوعة على الرءوس .. إما جزاء على كفرهم لأخذها منهم صَغَارا ، أو جزاء على أماننا لهم لأخذها منهم رفقا . (٣)

« والجزية تؤخذ من الرجال المقاتلين الأحرار البالغين » ..

---

١ ـ سورة التوبة : الآية : ٢٩ .

٢ ـ القرطبى : الجامع لأحكام القرآن الكريم : ٢٩٤٨ ط دار الشعب القاهرة .

٣ ـ أبو يعلى الحنبلى : الأحكام السلطانية : ١٥٣ ط الحلبى القاهرة ١٣٨٦ هـ .

وإذا أعطى أهل الجزية الخيرية لم يؤخذ منهم شيء من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم إلا أن يتجروا فى بلاد غير بلادهم التى أقروا فيها وصولحوا عليها ..ويخلّى بينهم وبين أموالهم كلها وبين كرومهم وعصرها ما ستروا خمورهم ولم يعلنوا بيعها من مسلم ، ومنعوا من اظهار الخمر والخنزير فى أسواق المسلمين ..

ولا يعترض لهم فى أحكامهم ولا متاجرتهم فيما بينهم بالربا ...

وعلى الإمام أن يقاتل عنهم عدوهم ويستعين بهم فى قتالهم ..

وما صولحوا عليه من الكنائس لم يزيدوا عليها ولم يمنعوا من إصلاح ماوهى منها ، ولا سبيل لهم إلى إحداث غيرها ...

ويأخذون من اللباس والهيئة ما يبينون به من المسلمين ..

ومن لَدَّ منهم فى أداء جزيته أدّب على لدده وأخذت منه صاغرا ...

قال علماؤنا : أما عقوبتهم إذا امتنعوا من أدائها مع التمكن فجائز ، فأما مع تبين عجزهم فلا تحل عقوبتهم ، لأن من عجز عن الجزية سقطت عنه ، ولا يكلف الأغنياء أداءها عن الفقراء .(١)

أما معاملة أهل الكتاب من يهود ونصارى فى بلاد المسلمين ، فقد روى أبو داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء الصحابة عن ابائهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئا منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة »(٢)

وروى الإمام البخارى بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما (٣)

---

١ ـ القرطبى : الجامع لأحكام القرآن الكريم : ٢٩٤٨ ـ ٢٩٥٤ باختصار .

٢ ـ أبو داود : سننه باب الإمارة الحديث رقم ٣٣ .

٣ ـ الإمام البخارى : صحيحه : ١٢٠/٤ ط دار الشعب القاهرة .

هذا هو الأصل فى معاملة المسلمين حكاما وأفرادا لأهل الكتاب فى بلاد المسلمين ، لا يحل لأحد ظلمهم ولا انتقاص حقوقهم ، فضلا عن اضطهادهم فى تدينهم والعدوان عليهم .

فإن أخطأ حاكم أو واحد من المسلمين فأساء معاملة أحد أهل الكتاب فهو آثم لمخالفته أصول الدين الإسلامى وآدابه ، وماتعرض المسيحيون بشىء مما يدعيه هؤلاء المدعون فى دينهم أو أموالهم إلا فى حدود هذا الخطأ الذى يكون فرديا فى أغلب الأحوال وهو فى الوقت نفسه خروج من المخطىء عن نظم الإسلام وأحكامه .

ولن ينسى التاريخ للمسلمين أنهم يوم فتحوا الأندلس سنة ٩٣ هـ ـ ٧١١م وأدخلوا الإسلام إلى أسبانيا معظمها ، لم يلغوا المسيحية منها ولم يمنعوا مسيحيا من إقامة شعائر دينه ، بينما حين استطاع « فرديناند وايزابيلا » الاستيلاء على بلاد الأندلس من المسلمين سنة ٩٠٩ هـ ـ ١٠٥٢م أصدرا مرسوما يقضى بالغاء شعائر الدين الإسلامى فى جميع أرجاء البلاد .

ويعترف بذلك بعض كتاب الغرب ، فهذا توماس . و . أرنولد يقول فى : تسامح المسلمين مع المسيحيين فى إسبانيا : « أما عن حمل الناس على الدخول فى الإسلام أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد فى الايام الأولى التى أعقبت الفتح العربى فإننا لانسمع عن ذلك شيئا .. »[1]

على أنه فى الأحوال التى كان يعتدى فيها المسيحيون على الدين الإسلامى ، كانوا يحاكمون أمام قضاتهم وفقا للقوانين المعمول بها فى بلادهم ، ولم يتعرض لهم المسلمون فى إقامة شعائرهم الدينية ..[2]

وإذا نظرنا إلى ذلك الشعور الدينى الذى أحيا أكثرية الإسبان المسلمين ، وذلك التحدى والحقد الذى غلا فى صدور المسيحيين حتى دبروا المؤامرات بمؤازرة إخوانهم فى

---

١ ـ توماس . و . أرنولد : الدعوة إلى الإسلام : ١٥٧ ترجمة د. حسن إبراهيم وآخرين .
٢ ـ السابق : ١٥٨ .

الدين الذين كانوا يقيمون خارج حدود بلادهم لا يسعنا إلا الاعتراف بأن تاريخ إسبانيا فى ظل الحكم الإسلامى يمتاز ببعده بعدا تاما عن الاضطهاد الدينى ، إذا استثنينا ثلاثا أو أربعا من حالات الاستشهاد الحقيقى ..[1]

ولكن فى عهد دولة المرابطين التى تولت حكم بلاد الأندلس ، انفجر بركان التعصب الدينى فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ـ السادس الهجرى ـ من جانب المتحمسين من رجال الدين الإسلامى ، وقاسى من جراء ذلك المسيحيون واليهود وطائفة الأحرار المسلمين الذين نادوا بحرية الفكر كالفلاسفة والشعراء ورجال الأدب .

ولكن هذه الحوادث لم تكن إلا استثناء للتسامح الدينى الذى اتسم بذلك الطابع الذى عرف به أمراء المسلمين فى إسبانيا نحو رعاياهم من المسيحيين .[2]

أما من وجهة نظر التاريخ :

ففى مستهل القرن العاشر الميلادى ـ الخامس الهجرى تقريبا ـ أسلم « تيودور » أسقف بيت جرماى النسطورى ، ولم يذكر المؤرخ الكنسى الذى سجل هذه الواقعة شيئا عن استخدام أية قوة أو إرغام فى إسلام هذا الأسقف ، ولو أن شيئا حدث من ذلك لسجله من غير شك .[3]

ويقول : ثومبسون Thompson : « إن ما اعترى المسيحيين فى الشام وأسيا الصغرى من متاعب فى ذلك العصر ، إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين ، لأنه لايوجد أى دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم .[4]

أما ادعاؤهم أن الحجاج من النصارى كانوا يتعرضون للاضطهاد والعدوان وهم فى طريقهم إلى بيت المقدس ـ قبيل الحروب الصليبية ـ فادعاء باطل كذلك .

١ ـ السابق : ١٦٤ .

٢ ـ السابق : ١٦٧ .

٣ ـ ابن العبرى أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول ط الصالحانى بيروت ١٨٩٠م جـ ٣/٢٣٠ وابن العبرى نورخ سوريانى اسمه : جريجوريوس .

٤ ـ د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ٣١/١

يقول أحد كبار المؤرخين الأوربيين : إن حالات الاضطهاد الفردية التى تعرض لها المسيحيون فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى فى القرن العاشر الميلادى بالذات ، لايصح أن تتخذ بأى حال سببا حقيقيا للحركة الصليبية ، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية فى ظل الحكم الإسلامى ، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة ، وإنما سمح لهم أيضا بتشييد كنائس وأديرة جديدة جمعوا فى مكتباتها كتبا دينية متنوعة فى اللاهوت .(١)

ويقول مؤرخ أوربى آخر : من الواضح أن مثل هذه الروح السامية التى عومل بها المسيحيون فى البلدان الإسلامية ، لا ينتقص من قدرها إطلاقا ماقام به رجل عرف بالشذوذ ـ مثل الخليفة الحاكم بأمر الله ـ من تصرفات تجاه أهل الذمة . فلم يكد الحاكم يموت سنة ١٠٢١م ـ ٤١٢ هـ إلا وعاد المسيحيون فى مصر والشام يحظون بما ألفوه دائما من رحابة صدر الإسلام والمسلمين ، كما عقد صلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية ، وصار البيزنطيون يشرفون على كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، ثم وفد الحجاج كعادتهم يزورون الأماكن المقدسة فى أمن وسلام .(٢)

ومعنى ماذكرنا أن أكثر من مؤرخ أوربى مسيحى منصف قد قرروا فى صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئا من أوضاع المسيحيين فى الشرق ، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالا من إخوانهم الذين عاشوا فى قلب الامبراطورية البيزنطية .

وأعود فأقول : إن ادعاءهم تخريب الكنائس وهدم الأديرة أو مصادرتها لم يقم عليه من دليل ، وإنما هى شائعات ربما أدى إليه تصرف بعينه فى قرية بعينها ، لايمكن بحال من الأحوال أن يعتبر هو الأصل فى معاملة المسلمين للمسيحيين وكنائسهم فى البلاد الإسلامية .

---

١ ـ د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ١/٣٠ نقلا عن : Vasiliev: Byzantine Empire, I. p. 393

٢ ـ السابق : ١/٣٠ نقلا عن : Setton. Op. Cit. Vol. I p. 74

وإذا كان لى فى ختام الحديث عن هذا الدافع الدينى للغزو الصليبى للعالم الإسلامى أن أقول كلمة فهى :

لست أشك فى أن الدافع الدينى لهذه الحروب موجود عند الصليبيين بعامة ، وعند بابوات الكنيسة بخاصة ، ولكن الذى حرك هذا الدافع وأهاجه ، ليس تلك الأسباب التى تذرعوا بها من سوء معاملة المسلمين للمسيحيين فى البلاد الإسلامية أو غيرها من ادعاءاتهم - وإنما هى عندى أحقاد توارثتها أجيال الصليبيين على الإسلام والمسلمين من لدن كان للإسلام وجود ، ومنذ وقف المسلمون فى مواجهة الدولة الرومانية وإلى القرن العشرين الذى نعيش الآن ربعه الأخير ٠

بل إن المستشرق المشهور الأميرليون كايتانى (١٨٦٩ - ١٩٢٦م) الذى بذل معظم أمواله ليؤرخ لحركة الفتح الإسلامى فى كتابه المعروف : « حوليات الإسلام » ليوضح لنا سر الحقد على الإسلام والمسلمين فى مقدمة كتابه حيث يقول :

« إنه إنما يريد أن يفهم من عمله ذاك سر المصيبة الإسلامية (كاناستروفيكا إسلاميكا) التى انتزعت من الدين المسيحى ملايين من الأتباع فى شتى أنحاء الأرض مايزالون يدينون برسالة محمد ﷺ ويؤمنون به نبيا ورسولا ٠[1] »

وحسبنا هذا لنؤكد أن الأحقاد قديمة وحديثة هى التى أذكت نيران الغزو الصليبى فى أخريات القرن الخامس الهجرى ، وهى التى تعطى هذا الغزو القدرة على المضى فى التاريخ حتى يومنا هذا ٠٠ بل وبعد هذا القرن العشرين الذى نعيش ربعه الأخير ٠

---

١ - د٠ على عبد الحليم محمود : الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى المعاصر ط دار البحوث العلمية بالكويت ١٩٧٨م ٠

٣ ـ الدوافع السياسية

عند النظر فى الدوافع السياسية للحروب الصليبية نجد من الضرورى أن نعود إلى الوراء قرونا ثلاثة على وجه التقريب ، قبل أن تغزو قوات الصليبيين الشرق الإسلامى فى نهاية المائة الأولى من القرن الحادى عشر الميلادى ـ نهاية القرن الخامس الهجرى •

ذلك أن النظر إلى الغزو الصليبى على أنه بدأ فى أخريات القرن الخامس الهجرى نظر قاصر ، فالحق أنه بدأ فى الأندلس المسلمة قبل ذلك بأكثر من قرنين من الزمان ، كما بدأت مناوشات هذا الغزو منذ شعرت الدولة الرومانية الشرقية بيزنطة بضعف الخلافة العباسية واستيلاء بعض الأمراء على كثير من ولاياتها وأطرافها •

فنحن الآن أمام موضوعات ثلاثة ونحن نتحدث عن الدوافع السياسية للغزو الصليبى للعالم الإسلامى •

اولها :

الغزو الصليبى الذى قام به بعض أمراء الإسبان يؤيدهم عدد من أمراء أوربا ـ فرنسا بالذات ـ للأندلس المسلمة •

ثانيها :

الغزو الصليبى لأطراف الدولة العباسية وللولايات الفاطمية فى الشام ، الذى قامت به الدولة البيزنطية •

ثالثها :

الغزو الصليبى للشرق الإسلامى ـ الشام ومصر وآسيا الصغرى ـ الذى قامت به

أوربا أغلبها تدعمها الكنيسة وتؤيدها وتقودها وتهدد بالحرمان من يقعد عن المشاركة فى هذا الغزو ٠

ومن خلال هذه الموضوعات الثلاثة نستطيع أن نتعرف على الدوافع السياسية للغزو الصليبى للعالم الإسلامى ، من خلال عالم الصليبيين ٠

فإذا انتهينا من ذلك كان لابد أن نعترف بأن ظروف العالم الإسلامى فى الأندلس وفى آسيا الصغرى وفى مصر والشام ، كانت واحدا من الدوافع السياسية التى شجعت الصليبيين على القيام بهذا الغزو ، إذ كان العالم الإسلامى يعيش ظروفا سياسية سيئة ، وتسيطر على حكامه الخلافات السياسية وتنازع الأمراء ، كما تسيطر عليه الخلافات المذهبية ، بين أهل السنة ويقودهم العباسيون ومن تابعهم ، والشيعة تحت قيادة الفاطميين فى مصر والشام ٠ (١)



١ ـ سوف نتحدث بالتفصيل عن ذلك فى الباب الثانى من هذا البحث بإذن الله تعالى ٠

أولها : الغزو الصليبى للأندلس المسلمة :

فتح الله الأندلس على المسلمين يوم استطاع طارق بن زياد أن يعبر المضيق المسمى الآن باسمه ، وأدخل الفاتحون الإسلام إلى إسبانيا منذ سنة ٩٢ هـ ـ ٧١١م ٠ وظل بها الدين الإسلامى حتى سنة ٨٩٨ هـ ـ ١٤٩٢م ٠

وظلت الأندلس المسلمة تعطى عطاء الإسلام فى العلم والمعرفة والسياسة والحكم والعدالة ، والثقافة والحضارة ، مايقرب من ثمانية قرون ، نعم اضطربت أمور المسلمين فيها حينا من الزمان وبخاصة فى عهد ملوك الطوائف ولكنها استتبت نسبيا فى عصرى المرابطين والموحدين وإن كان عهد الموحدين كان عهد ضعف وتخاذل سياسى وضياع لكثير من القرى والمدن بوقوعها فى أيدى الإسبان ، وعهد بنى الأحمر أشد ضعفا وتخاذلا إذ هو العهد الذى انتهى فيه الوجود الإسلامى فى الأندلس ، يوم أصدر « فرديناند وإيزابيلا » مرسوما يقضى بإلغاء شعائر الدين الإسلامى فى جميع أرجاء البلاد وكان ذلك سنة ٩٠٨ هـ ـ ١٥٠٢م ـ الأمر الذى لم يفعله المسلمون يوم كانت الأندلس كلها فى سلطانهم ٠٠ إنها حقا سماحة الإسلام فى التعامل مع أهل الكتاب من يهود ونصارى ٠

يقول : توماس ٠ و ٠ أرنولد : « لقد كتبت إسبانيا الإسلامية فى القرون التى تقع بين هذين التاريخين [١] صفحة من أنقى صفحات وأسطعها فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، وقد امتد تأثيرها من ولاية بروفانس Provence إلى الممالك الأوربية الأخرى ، وأتت بنهضة جديدة فى الشعر والثقافة ٠

ومنها تلقى طلاب العلم المسيحيون من الفلسفة اليونانية والعلوم ما أثار فى نفوسهم النشاط العقلى حتى جاء عصر النهضة الحديثة ٠٠ [٢]

---

١ ـ يقصد بالتاريخ الأول : ٧١١م والثانى ١٥٠٢م فى كلام سابق له ٠

٢ـ توماس ٠ و ٠ أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ٠ ترجمة د٠ حسن إبراهيم وآخرين ـ ١٥٤ ٠

ثم يواصل هذا المؤلف قوله : « أما عن حمل الناس على الدخول فى الإسلام أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد فى الأيام الأولى التى أعقبت الفتح العربى ، فإننا لانسمع عن ذلك شيئا ٠

وفى الحق : إن سياسة التسامح الدينى التى أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر فى تسهيل استيلائهم على هذه البلاد ٠٠ [1]

هذه كلمات عابرة عن الإسلام فى الأندلس بقلم كاتب مسيحى منصف يقول الحق ولايحكم التعصب شأن عدد كبير من الكتاب الصليبيين ٠

فما الدافع السياسى على غزو الصليبيين للأندلس ؟

من المسلم به أن الكنيسة لم تكن راضية عن إقامة المسلمين لدولة إسلامية قوية فى الأندلس ، لذلك عمدت ـ على طول فترة بقاء المسلمين فى الأندلس ـ إلى إثارة الملوك والأمراء الأوربيين على المسلمين فى الأندلس ٠

ومن بواكير الغزو الصليبى للأندلس المسلمة ماقام به شارل الأول ـ امبراطور الغرب وملك الفرنجة من غزو إسبانيا المسلمة سنة ٧٧٨م ـ ١٦١ هـ ٠ غير أن المسلمين هزموه فى سرجوسة « سرقسطة » ففى ربيع ٧٧٨م جهز جيشا وسار فى طريقه إلى إسبانيا ، وعندما وصل نهر الجارون قسم جيشه إلى قسمين على أن يسير كل منهما بجهة ويلتقيا أمام سرقسطة ، وسقطت بيد الفرنجة هويسكا وبرشلونه وجيرونا ، والتقى الجيشان عند سرقسطة ولكن المسلمين أنزلوا بهم خسارة فادحة وقتلوا « ايجيهارد » قائد جيش شارل ، وكان لهذه الهزيمة أثر كبير فى الإنتاج الأدبى وشعر الملاحم ٠

والغزو الصليبى الثانى للأندلس المسلمة كان فى عهد البابا الإسكندر الثانى الذى بادر بأن وعد ببذل الغفران لكل من قاتل من أجل الصليب فى إسبانيا وشرع البابا فى تأليف جيش لمواصلة عمل راميرو الذى كان هاجم المسلمين فقُتل على يد أحدهم ، فأثار موته خيال أوربا ـ واندفع البابا يجهز هذا الجيش ويشجع عليه بمغفرة الذنوب ٠ وكان ذلك

فى سنة ٤٥٦ هـ ـ ١٠٦٣م .

وفى سنة ٤٦٦ هـ ـ ١٠٧٣م أعد « إبلس كونت روسى » حملة جديدة ، ودعا البابا جريجورى السابع كل أمراء المسيحية للانضمام إليها ، فأعلن عند تذكيره العالم : أن مملكة إسبانيا تنتمى إلى المقر المقدس ، وأن المسيحيين سوف ينعمون بما يفتحونه من أيدى الكفار من الأراضى .

وفى سنة ٤٧١ هـ ـ ١٠٧٨م شن ألفونس السادس ملك قشتالة حملة غزو صليبى ـ ساعده فيها « هيو الأول » دوق برجنديا ، واستطاعت هذه الحملة أن تستولى على مدريد وطليطلة سنة ٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥م ، فضاع على المسلمين معقل من أهم معاقلهم هو طليطلة .

وكان لسقوط طليطلة دوىّ هائل فى جميع أرجاء العالم المسيحى واستثار الشعور والحماسة لطرد المسلمين كلية من إسبانيا ..[1]

ومنذ سنة ١٠٨٧م ـ ٤٨٠ هـ اشتدت دعوة الفرسان المسيحيين للقدوم إلى إسبانيا لمقاومة المرابطين ، وبذل البابا إيربان الثانى كل ما يستطيع من مساعدة عن طيب خاطر ، بل إنه أخطر الحجاج المتوجهين إلى فلسطين : إنه لخير لهم أن ينفقوا أموالهم فى عمارة المدن الإسبانية التى نجت من تخريب المسلمين .

على أن الحملات الموجهة إلى إسبانيا ظلت حتى نهاية القرن الحادى عشر تجتذب من الشمال الفرسان المسيحيين المغامرين .

ولم تنته هذه الحملات المستمرة إلا بعد الاستيلاء على : وشقة سنة ٤٨٩ هـ ـ ١٠٩٦م ، وعلى باربسترو فى سنة ٤٩٤ هـ ـ ١١٠١م .

ثم كانت غزوات صليبية على المسلمين فى الأندلس بقيادة ألفونس الأول الذى ظل يغير على المسلمين حتى هلك أمام أسوار بلنسية سنة ١١٣٤م ـ ٥٣٠ هـ .

---

١ ـ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ـ باختصار وتصرف : ١٣٧/١ .

ثم حدث غزو صليبى لطرطوشة سنة ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٨م بقيادة « ريموند نرتجار الرابع » كونت برشلونة •

وفى سنة ١١٤٧م ـ ٥٤٣ هـ قام ألفونس الأول بحملة صليبية ضد المسلمين فى الأندلس استعان فيها بأسطول صليبى يحمل جماعة من الإنجليز والألمان والفلمنكيين ـ كانوا فى طريقهم إلى الشام للمشاركة فى الحملة الصليبية الثانية ـ فاستوقفهم ألفونس الأول وتمكن بهم من طرد المسلمين من لشبونة • (١)

ولعل هذا يوضح أن الغزو الصليبى للعالم الإسلامى ـ كان من وجهة نظرهم حربا واحدة فى ميدان واحد هو ـ حيث يوجد المسلمون ـ فى الغرب ـ الأندلس ـ أو فى الشرق ـ الشام ومصر وآسيا الصغرى •

ثم استمر الغزو الصليبى للمسلمين فى الأندلس يتخذ شكل حملات عسكرية حينا وشكل مؤامرات ودسائس يوقعها الصليبيون بين حكام المسلمين أحيانا أخرى ، وفى شكل منظمات عسكرية دينية كهيئة القديس جوليان والتى تسمت فيما بعد باسم منظمة القنطرة فى بعض الأحيان •

وكانت البابوية من وراء هذه المنظمات تشجعها وتدعمها حتى استطاع البابا إسكندر الثالث والبابا أنوسنت الثالث أن يسهما فى إقامة أشهر منظمة عسكرية دينية عرفتها إسبانيا هى منظمة « سينتاجو » اشتدت بها حماسة المسيحيين فى حرب المسلمين فى الأندلس •

وبهذا أصبح الصراع بين المسلمين والصليبيين فى الأندلس صراعا عاما شاملا تناول كل بقاع الأندلس التى يقيم فيها المسلمون •

وقد اجتهد البابا أنوسنت الثالث فى إثارة الحماسة الصليبية فى إسبانيا وتشجيع المتطوعين من أهالى البلاد الغربية على المشاركة فى الحرب الدينية ضد المسلمين ، واستطاع

---

١ ـ د• سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية : ٧٥/١ •

ان يجمع عددا كبيرا من فرسان أوربا تحت زعامة رئيس أساقفة « ناربون » واشترك فيها ملك أرغونة وملك نافارى ، وملك قشتالة وغيرهم •

واستطاعت هذه الجيوش أن تنزل هزيمة كبيرة بالموحدين فى موقعة العقاب سنة ١٢١٢م ـ ٦٠٩ هـ •

ومنذ هذه المعركة لم يستطع المسلمون أن يلموا شملهم أو يواجهوا أعداءهم فى الأندلس ، بل ظلت المعاقل والحصون والمدن تتهاوى أمام غزوات الصليبيين ، بحيث لم يبق للمسلمين فى الأندلس ـ عند منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ـ سوى مملكة غرناطة الصغيرة فى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة حيث عاشت هذه المملكة بعد ذلك نحوا من قرنين ونصف قرن من الزمان [١] ، ولكنها سقطت أخيرا فريسة سهلة فى يد فرديناند وايزابيلا ملكى قشتالة سنة ١٤٩٢م ـ ٨٩٨ هـ بعد حصار طويل •

ثم قام فرديناند وإيزابيلا فى الأندلس بأعمال وحشية متبربرة ضد المسلمين فى الأندلس • سوف نتحدث عنها فيما بعد •

وبعد : فهذا واحد من الدوافع السياسية للحروب الصليبية لمسنا أثره فى الأندلس المسلمة ، وهو وإن كان قد ظهرت فيه سمات الغزو السياسى إلا أننا لا نستطيع أن نجرده من الارتباط بالدوافع الدينية المحركة له والموجهة لأهدافه فى كثير من الأحيان •

ثانيها : الغزو الصليبى الذى قام به البيزنطيون :

تعتبر الدولة البيزنطية ـ بحكم موقعها ـ أقرب القوى المسيحية إلى بلاد المسلمين من جهة شمالى الشام الضارب إلى الغرب •

ومنذ سنة ١٢ هـ ـ ٦٣٣م وفى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصبحت الشام بلادا إسلامية ، وزال الوجود الرومانى البيزنطى أو كاد عن الشام كله ، وبمضى الوقت

---

١ ـ السابق : ٧٧/١ •

أصبحت حمص ومنبج وغيرهما بلادا خاضعة للمسلمين ٠

« أما ولايات الدولة البيزنطية التى سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم ، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية ، فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد ٠٠» [١]

وفى سنة ٤٥ هـ ـ ٦٦٥م استأنف الأمويون مدَّ الدعوة الإسلامية فى اتجاه أملاك الدولة البيزنطية فوصلت فتوحاتهم إلى بحر إيجة وعبروا تراقيا وهاجموا القسطنطينية سنة ٤٩ هـ ٠

وفى سنة ٩٩ هـ ـ ٧١٧م استطاعت حملة بقيادة مسلمة بن عبد الملك أن تعبر البوسفور وأن تحاصر القسطنطينية أكثر من عام [٢]

وقد بدأ الغزو الصليبى للمسلمين فى أخريات عهد بنى أمية ، فشن البيزنطيون هجوما على الشام سنة ١٢٨ هـ ـ ٧٤٥م ، وفى سنة ١٢٩ هـ استرد البيزنطيون جزيرة قبرص ٠

وفى سنة ١٦٢ هـ ـ ٧٧٨م هاجم الإمبراطور البيزنطى المسلمين فى شرقى الأناضول فرد عليه الخليفة المهدى العباسى ، ثم استطاع هارون الرشيد سنة ١٦٥٠ هـ أن يلزم « ايرين » إمبراطورة البيزنطيين بجزية سنوية ، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق فى الطريق ، وكانت الفدية سبعين ألف دينار كل سنة [٣]

ولما تولى أمر البيزنطيين نقفور امتنع عن دفع الجزية ، فسار إليه هارون الرشيد فطالب بالصلح فأجيب إليه ، ثم نقضه نقفور بعد ذلك ، فسار الرشيد إلى بلاد الروم ثانية وفتح

---

١ ـ توماس ٠ و ٠ أرنولد : الدعوة الى الاسلام : ٧٤ ٠

٢ ـ ابن الأثير : الكامل أحداث سنة ٩٩ هـ ٠

٣ ـ السابق : الكامل : أحداث سنة ١٦٥ هـ ٠

هرقلة سنة ١٩٠ هـ ـ ٨٠٤ م .[١]

وفى سنة ٢١٤ هـ ـ ٨٢٩ م هاجم الإمبراطور البيزنطى تيوفيل أطراف الدولة العباسية وظلت هذه الحروب قريبا من ثلاثين سنة ، ولكن امبراطور البيزنطيين طلب الصلح بعد أن توغلت جيوش المسلمين فى بلاد الروم .

ولكن تيوفيل عاد فهاجم أعالى الشام ومابين النهرين حتى بلغ زبطرة وقتل من فيها ـ وكان ذلك فى زمن المعتصم ـ « وأغار على ملطية وغيرها من المدن والحصون . وسبى المسلمات ومثل بمن صار فى يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم »[٢]

ومن أجل ذلك سار المعتصم إلى عمورية وفتحها ودمرها ـ ردًّا على تدمير تيوفيل لزبطرة ـ وزبطرة مسقط رأس المعتصم وعمورية مسقط رأس تيوفيل ـ

وفى القرن العاشر الميلادى ـ الرابع الهجرى ـ أخذت الدولة البيزنطية فى شن سلسلة من الغزوات على الدولة الإسلامية ـ فى الشرق ـ وبخاصة بعد أن ضعفت الدولة العباسية بالانقسامات التى وقعت فيها .

ففى سنة ٩١٣م ـ ٣٠١ هـ أغارت الدولة البيزنطية ـ فى عهد قسطنطين السابع ، واستطاعت الاستيلاء على أرض روم من المسلمين ، وأجبرت حكام ملطية وديار بكر وميافارقين على دفع إتاوة للبيزنطيين .

وفى سنة ٣٣٦ هـ ـ ٩٤٨م غزا البيزنطيون المسلمين واستولوا على مرعش وطرسوس وديار بكر وسميساط ، وما جاءت سنة ٣٤٧ هـ ـ ٩٥٩م حتى كانت جيوش البيزنطيين قد وصلت إلى ماوراء نهر دجلة .

على أن تلك الحروب لم تكن سوى مقدمة لحركة شاملة أزمعت الدولة البيزنطية القيام

---

١ ـ السابق : أحداث سنة ١٩٠ هـ .

٢ ـ السابق : أحداث سنة ٢٢٣ هـ .

بها للانتقام من المسلمين مما حل بها على أيديهم طوال القرون الثلاثة السابقة •

وكان أن نجح القائد نقفور فوقاس فى طرد المسلمين من جزيرة كريت سنة ٣٥١ هـ ـ ٩٦١م • وقام بغزو إقليم قيليقية الذى كان تابعا لسيف الدولة الحمدانى واستولى فى سنة ٩٦٢م على مركزين من أهم مراكز ذلك الإقليم هما : عين زربة ، وسيس ، ومن هناك اتجه إلى أطراف بلاد الشام لينتزع من سيف الدولة عين تاب ومنبج •

ثم اختار نقفور فوقاس ألا يعطى خصومه فرصة للاستعداد فزحف مباشرة ـ وبصحبته القائد حنا شمشقيق ـ على حلب ، واستولى عليها فى أواخر ديسمبر سنة ٩٦٢م ، وعندما عجز نقفور فوقاس عن الاستيلاء على قلعة حلب ، اكتفى بتدمير المدينة وأحرق المساجد ، ثم قفل راجعا إلى قيليقية ومعه عدد كبير من أسرى المسلمين •[١]

وفى سنة ٣٥٣ هـ ـ ٩٦٤م غزا نقفور فوقاس الحمدانيين فى الشام ، وأرسل إنذارا إلى الخليفة العباسى يهدده بأن الجيوش البيزنطية ستستولى على بلاد العراق والشام ومصر ، وأنه من الخير للخليفة أن ينسحب إلى بلاد الحجاز ويترك البلاد لأصحابها القدامى من البيزنطيين •

وهذا الإنذار كان يفيض بالروح الصليبية إذ ضمنه الأمبراطور عبارات دينية حماسية ، وفيه تهديد صريح بهدم الكعبة ونشر المسيحية فى الشرق والغرب جميعا •[٢]

واستطاع نقفور فوقاس استرداد جزيرة قبرص من المسلمين سنة ٩٦٤ ـ ٩٦٥م وعاد إلى غزو قيليقية ، فاستولى على المصيصة وطرسوس بعد حصار طويل لهما •

وفى سنة ٩٦٦م غزا نقفور فوقاس بلاد النهرين فهاجم آمد ـ وإن كان لم يفتحها ـ فانصرف إلى دارا ونصيبين •

---

١ ـ د• سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية : ٦٠/١ نقلا عن ابن الأثير •

٢ ـ السابق : ٦١/١ نقلا عن : **Schlumberger; Nicephore Phocas. P. p 427**

وفى سنة ٣٥٥ هـ ـ ٩٦٥ م اتجه نقفور فوقاس إلى أطراف الشام ، حيث « نازل البيزنطيون أنطاكية فأقاموا عليها مدة طويلة يقاتلون أهلها ، فلم يمكنهم فتحها ، فخربوا بلدها ونهبوه وعادوا إلى طرسوس ٠

ثم أغار على معرة النعمان وكفرطاب وشيزر التى أحرق مسجدها وحوله إلى رماد ، ثم استولى على حماة وحمص وأحرقهما ، ثم عبر الجبال إلى ساحل لبنان فاستولى على جبلة وعرقة وانطرطوس ٠ وأقام فى الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد »[١] ٠

ثم استطاعت جيوش نقفور أن تستولى على أنطاكية سنة ٣٥٩ هـ ـ ٩٦٩ م وأن تطرد منها سكانها المسلمين ، يقول فى ذلك ابن الأثير : « وأخرجوا المشايخ والعجايز والأطفال من البلد ، وقالوا لهم : اذهبوا حيث شئتم ، وأحلوا محلهم جموعا غفيرة من المسيحيين »[٢] ٠

كما استولت جيوش نقفور فى نفس السنة على « ملازكرد » من أعمال أرمينية ، فضيقوا على من بها من المسلمين وملكوها عنوة ٠

وما مات نقفور فوقاس إلا أن أدخل الجزء الشمالى من بلاد الشام بأكمله تحت سيطرة البيزنطيين ٠ الذين يصفهم ابن الأثير بقوله : عظمت شوكتهم وخافهم المسلمون فى أقطار البلاد[٣] ٠

كان ذلك الغزو الصليبى فى عهد نقفور فوقاس ٠ فلما خلفه الإمبراطور حنا شمشقيق ـ الذى كان قائدا لجيوشه ـ وكانت الدولة الفاطمية قد نجحت فى غزو مصر ٣٥٩ هـ ـ ٩٦٩ م بالقضاء على الإخشيديين فيها ، وجعلت من مصر وملحقاتها فى الشام إلى دمشق مركزا للخلافة الشيعية المنافسة للخلافة السنية فى بغداد ـ استطاع حنا شمشقيق فى هذه

---

١ ـ ابن الأثير : الكامل : أحداث سنة ٣٥٨ هـ ٠

٢ ـ السابق : أحداث سنة ٣٥٩ هـ ٠

٣ ـ ابن الأثير : الكامل : أحداث سنة ٣٥٩ هـ ٠

الظروف أن يقوم بحملة على آسيا الصغرى سنة ٣٦٤ هـ ـ ٩٧٤ م ساعده فيها ملك أرمينية ، حيث اتجه إلى أطراف بلاد النهرين فى خريف عام ٩٧٤ م ثم دخل نصيبين فى أكتوبر من نفس السنة : « فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد وفعلوا مثل ذلك فى ديار بكر ، ولم يكن من أبى تغلب بن حمدان فى ذلك حركة ولا سعى فى دفعه ، لكنه حمل إليه مالاً كفّه به عن نفسه »[١] .

وفى ربيع سنة ٩٧٥ م ـ ٣٦٥ هـ اتجه حنا شمشقيق نحو الشام فغادر أنطاكيه مخترقا وادى نهر العاصى .

فبادرت حمص بدفع الأتاوة له دون مقاومة .

وقاومت بعلبك ولكنها انهزمت فى النهاية ولقيت من القسوة ما لقيت .

واتجه الإمبراطو صوب دمشق فأعلن المستبد بها أفتكين ولاءه للإمبراطور البيزنطى ودفع له الجزية .

وأعلنت حلب تبعيتها للإمبراطورية البيزنطية[٢] .

« ومن دمشق اتجهت الجيوش البيزنطية صوب طبرية حيث اتخذ الزحف البيزنطى طابعا صليبيا واضحا ظهر بجلاء فى الرسالة التى أرسلها الإمبراطور حنا إلى ملك أرمينية آشور الثالث ، والتى ذكر له فى عبارات عاطفية ، كيف أن رجاله يزحفون نحو الأرض المقدسة التى شهدت مولد المسيح والتى دفن فيها مما يثبت صدق الروح الصليبية فى تلك الحملة .

وكان أن شق حنا طريقه إلى بيت المقدس دون أن يصادف مقاومة تذكر .

فتعهدت عكا بدفع الأموال للإمبراطور رمزاً للتبعية.
وسقطت قيسارية فى قبضة القوات الإمبراطورية .

---

١ ـ ابن الأثير : الكامل : أحداث سنة ٣٦١ هـ .

٢ ـ عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ص ١٤١ وما بعدها .

وإذا كانت الحامية الفاطمية فى بيروت قد قاومت إلا أنه نجح فى إخضاعها وأسرَ جزءًا كبيرا منها •

وبعد ذلك اتجه صوب صيدا التى بادرت بدفع الأموال وإعلان الخضوع •

ولم يستعص على الإمبراطور سوى طرابلس بسبب حصانة موقعها ، إذ أنزلت حامية المدينة بمعاونة الأسطول الفاطمى الهزيمة بالجيوش الإمبراطورية ، فعَبَّر حنا الشَّمشقيق عن غضبه بإتلاف الضياع المحيطة بها وتدمير بساتين الكروم والزيتون •

على ان الامبراطور لم يستطع الوصول إلى بيت المقدس ، فاكتفى بإخضاع بعض الفلاع والمراكز مثل بانياس ، ثم عاد إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية حيث مات فى أوائل سنة ٩٧٦ م[١] •

ومنذ عام ٣٦٨ هـ - ٩٧٨م دخلت الدولة الفاطمية طرفا مباشرا فى الحرب مع الدولة البيزنطية ، حيث استطاع الفاطميون أن يخلصوا دمشق من يد الخائن أفتكين وأن يستولوا عليها سنة ٣٦٨ هـ وأخضعوا جنوب الشام لسلطانهم ، ثم اتجهوا إلى حلب ، وهنا حما البيزنطيون أمير حلب سعد الدولة ثم خليفته سعيد الدولة أبا الفضائل •

وبهذا أصبح النزاع صريحا بين الفاطميين والبيزنطيين ، وأخذت الدولة البيزنطية تنظر بعين الحذر للدولة الفاطمية وتخطط للعدوان عليها •

فقد حاول باسل الثانى إمبراطور البيزنطيين أن يعقد هدنة مع الفاطميين ونجح فى ذلك سنة ٩٨٧ هـ فعقدها لمدة سبع سنوات وتعهد بإطلاق سراح أسرى المسلمين ، والدعاء للخليفة الفاطمى فى جامع القسطنطينية •

... ن هذه الهدنة لم تطل ، فسرعان ما عاد باسل الثانى إلى الشام وَكان فى يد الفاطميين فاستطاع الاستيلاء على شيزر منهم ، كما استولى على حمص ودمرها وكذلك

---

١ - د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ٦٦/١ - ٦٧ •

انطرطوس ، فى حين صمدت طرابلس تلك المرة واستطاعت حاميتها الفاطمية الدفاع عنها[1] .

ثم عاد الإمبراطور باسل الثانى إلى الشام سنة ٣٩٠ هـ ـ ٩٩٩ م فاستعاد شيزر ـ بعد أن كان الفاطميون قد استولوا عليها ـ وأحرق حمص واسترد بعلبك ، ولكنه فشل أمام طرابلس .

ولقد كانت الحروب البيزنطية ضد بلاد الشام ـ التى كانت فى حوزة الفاطميين ـ خاتمة الحروب البيزنطية أو الغزو البيزنطى لكثير من بلدان العالم الإسلامى ولولا جهود باسل الثانى لامتد نفوذ الفاطميين فى الشام إلى ما وراء أنطاكية .

أما فى القرن الحادى عشر الميلادى ـ الخامس الهجرى تقريبا ـ فقد توقف العدوان البيزنطى على العالم الإسلامى .

غير أن هذا التوقف لم يطل ، فما إن تخلت الدولة البيزنطية عن العدوان على العالم الإسلامى ، ومحاولة السيطرة عليه ، حتى أسلمت القيادة ـ مع مشاركة ضئيلة فى الحروب ـ للدول الأوربية ، تغزو العالم الإسلامى بضراوة بالغة القسوة فى أخريات القرنين الحادى عشر الميلادى ـ والخامس الهجرى .

وبعد : فهذا أحد الأسباب السياسية التى دفعت الدولة البيزنطية إلى شن غارات ضارية على العالم الإسلامى ، تستهدف استئصال هذا الدين والقضاء على أهله ، وبسط النفوذ السياسى الصليبى على معظم بلاده ، بل بلغ ببعضهم الطمع حد الرغبة فى الاستيلاء على الحجاز وهدم الكعبة ، ونشر المسيحية فى العالم الشرقى كله .

ولابد أن نشير إلى نتائج هذا الغزو البيزنطى للعالم الإسلامى فنقول :

« من الواضح أن الحرب التى شنها البيزنطيون على المسلمين سنة ٩٧٥ م ـ ٣٦٥ هـ لم تحقق هدفها الصليبى إلا فى نطاق جزئى .

نعم إنها أدت إلى سيطرة الإمبراطورية البيزنطية على أطراف حوض نهر العاصى فضلا

---

١ ـ يحيى بن سعيد الأنطاكى : كتاب التاريخ ١٦٦ .

عن دمشق وطبرية والجزء الشمالى من ساحة بلاد الشام ، ولكن الإمبراطور البيزنطى حنا شمشقيق ارتد مسرعا قبل أن يُومِن هذه المكاسب ويصل إلى بيت المقدس ، فضلا عن بقاء طرابلس ـ ذات الموقع الهام ـ فى أيدى الفاطميين ٠

لذلك ظلت الفكرة السائدة طوال عصر الحروب الصليبية هى أن الصليبيين الغربيين وحدهم هم أصحاب الفضل فى استرداد بيت المقدس من المسلمين ، وليس للبيزنطيين أى فضل سابق فى ذلك ٠

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الحملات المبتورة التى قام بها الأباطرة البيزنطيون ضد المسلمين فى القرن العاشر أدت إلى إشكالات ومناقشات قانونية طويلة فيما بعد (١٠٩٨ ـ ١٠٩٩ م) عندما اشتد النزاع بين البيزنطيين والصليبيين الغربيين حول ملكية المدن الكبرى ببلاد الشام ٠

وإذا كان البيزنطيون قد استطاعوا إثبات حقهم الشرعى فى ملكية أنطاكية بحكم فتحهم لها فى القرن العاشر ، فإنهم لم يستطيعوا بحال من الأحوال تطبيق هذا المبدأ على طرابلس وبيت المقدس »[١] ٠



١ ـ د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ١/٦٦ ـ ٦٧ ٠

ثالثها : الغزو الصليبى الغربى للشرق الإسلامى :

ا ـ الكنيسة وهذه الحروب

بعد أن تولى « ألكسيوس كومنين قيادة الدولة البيزنطية سنة ١٠٨١ م عكف على معالجة أمور الدولة السياسية : اليونانيون من الغرب والسلافيون من الشمال ، ولما انتهى من ذلك اتجه إلى الوقوف فى وجه السلاجقة . فأزمع النية على طلب النجدة من الغرب اللاتينى لإنقاذ الإمبراطورية وأهلها ـ والمسيحية وكنائسها ـ قبل فوات الأوان ، فإن بيت المقدس وأنطاكية والرها صارت فعلا للمسلمين ، ولا غرو أن تصير لهم القسطنطينية فى العاجل القريب •

بهذا كله أرسل ألكسيوس إلى البابا إيربان الثانى كتابا هو فى الواقع مفتاح العمل الذى أدى إلى الحملة الصليبية المعروفة بالأولى فى التاريخ العام •

ولعشرين سنة خلت فكر البابا جريجورى السابع فى مثل ذلك العمل وأضفى عليه من معهود همته وحدته ؛ استجابة لدعوة إمبراطور بيزنطى سابق •

ومنه يتضح أن فكرة الحروب الصليبية نبعت لا من القسطنطينية بل من روما • والواقع أن ألكسيوس كومنين أراد الحصول على جيوش من غرب أوربا لاستعادة ممتلكات الدولة البيزنطية فى آسيا فحسب ، على حين اهتم إيربان الثانى اهتمامه المعروف من أجل استعادة بيت المقدس والأراضى المقدسة ، وجعل من ذلك محور بيانه فى الخطبة التى ألقاها بمجمع كلير مونت الدينى بفرنسا الحالية سنة ١٠٩٥م وفى سائر الخطب التى استنهض بها الفرنسيين أبناء جنسه •

ولم يكن بين هذين الهدفين من تناقض أو خطر سوى أنه لما كان من المستطاع تحقيق كل منهما على حدة ، صار من المحتمل منذ البداية أن يتغلب حب إنقاذ الأراضى المقدسة على فكرة الدفاع عن إمبراطورية البيزنطيين ، لما فى إنقاذ الأراضى المقدسة من روعة فى أخيلة الفروسية الأوربية » •[١]

١ ـ هـ • ا• ل فشر : تاريخ اوربا فى العصور الوسطى ١٧٣ ـ ١٧٤ ترجمة مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ط دار المعارف بمصر ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠م

ولقد قربت الحروب الصليبية بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية بيزنطة وروما . يتحدث عن ذلك فشر في كتابه : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى : « على أن تلك السحب القاتمة لم تظهر فى الأفق حين بدأت الحروب الصليبية بدأها الصاخب المحموم ، لأن عاطفة الأخوة المسيحية تغلبت على المنافسات والكراهات التى صدع أشباهها وحدة الكنيسة بعض أحيانٍ التاريخ ، ولأن المسيحيين تركوا ذكريات انقساماتهم جانبا ، وضربوا مواضع الريبة بينهم عرض الحائط ، فى سبيل المشاركة فى حرب عامة من أجل قضية مقدسة .

والأدلة كثيرة على تلك الحال العاطفية التى غمرت فروسية غرب أوربا وهى تعد العدة للذهاب إلى الشرق استجابة لنداء البابا أيربان الثانى إذ آن الأوان لأوربا التى طالما تعرضت لإغارات المغيرين عليها من كل جانب ، أن تشن هى عليهم الحرب فى عقر دارهم ، ولاسيما بعد أن ذهب المسلمون عن صقلية وإقريطشن ، وسيطرت أساطيل البندقية وجنوة وبيزا على البحر الأبيض المتوسط ، وغدا الطريق البرى من غرب أوربا إلى القسطنطينية مفتوحا للأسفار منذ تحول المجريون إلى المسيحية واندمج البلغاريون فى الدولة البيزنطية .

يضاف إلى ذلك أن المسيحيين استولوا على طليطلة بإسبانيا من الأمويين ، وأن النورمانيين هاجموا إفريقية الإسلامية من صقلية ... » [٢]

«ومما يجدر ذكره كذلك أن الكنيسة فى فرنسا أضفت على طبقة الفرسان شيئا من طموحها الروحى ، ولذا امتازت نظم الفروسية الفرنسية أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ـ أى غداة الحروب الصليبية ـ بتقديرها لواجبات القوى نحو الضعيف ، واصطبغ الإعداد لرتبة فارس بكل مظاهر القداسة التى ابتكرتها التقوى المهيمنة على ذلك العصر ، فيغتسل المتأهل للفروسية بماء تباركه الكنيسة ، ثم يحيى ليلته بالصلاة ، حتى إذا أقبل الصبح قصد الكنيسة حيث يعترف بذنوبه وخطاياه ، ويتناول العشاء الربانى ،

١ ـ السابق : ١٧٧ ـ ١٧٨

ويتلو عليه القس واجبات طبقته وهى : الدفاع عن الدين ، وإيواء الأرمل واليتيم والبائس والمحروم والمظلوم ، أى أن الفارس يُضحى صليبيًّا بمعنى الكلمة ، وذلك قبل أن تبدأ الحروب الصليبية بدأها المعروف ·[1]

ولقد أججت الكنيسة الغربية نيران هذه الحروب الصليبية ـ على الرغم من الدعوة إلى السلام التى كانت تتزعمها الكنيسة الشرقية على ألسنة بعض رجالها مثل القديس باسيل الذى نادى بأن كل من يرتكب جريمة القتل فى الحرب لابد من منعه لمدة ثلاث سنوات من ممارسة التناول تكفيرا عن خطيئته ·[2]

أقول إن الكنيسة الغربية رأت غير ما رأت الكنيسة الشرقية فى الحرب بل رأت غير ماترى المسيحية نفسها من عدم الالتجاء إلى الحرب أو العنف فقد رأى القديس أغسطين ذاته أن الحرب يصح أن تنشب بأمر الله [3]

ولم تحفل الكنيسة ـ الغربية بدعوة السلام ـ وإنما حرصت على أن توجه غريزة المقاتلة إلى مسالك تخدم قضيتها ، فالحرب المقدسة مثلا التى هى حرب لصالح الكنيسة أضحت جائزة بل مرغوبا فيها ·

فقد أعلن البابا ليو الرابع ـ فى منتصف القرن التاسع ـ أن كل من يموت فى سبيل الدفاع عن الكنيسة سوف يلقى من الله الجزاء الأوفى ·

كما أن البابا يوحنا الثامن ـ بعد سنوات قليلة ـ جعل ضحايا الحرب المقدسة من الشهداء ، فإذا لقوا مصرعهم متقلدين سلاحهم انمحت ذنوبهم ·

وقرر البابا نقولا الأول : أن كل من وقع تحت طائلة حكم الكنيسة لما ارتكبه من الذنوب ، ينبغى ألا يحمل السلاح إلا من أجل قتال الكفار ·[4]

---

١ ـ السابق ١٧٨

٢ ـ رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ١٢٥/١

٣ ـ السابق : ١٢٦/١

٤ ـ السابق : ١٢٧/١

وما نشك فى أن الكنيسة كانت المحركة الأولى لهذه الحروب . فقد دعت إليها الكنيسة الغربية كما أسلفنا وتعهدها البابوات واحدا بعد آخر . وكان البابا إيربان الثانى أكبر المحرضين من البابوات على خوض هذه الحروب ، كما كان الدعاة إلى هذه الحروب من رجال الدين المسيحى أمثال بطرس الناسك ، وروبرت أربسيل ، ووالتر « الملقب بالمفلس » كان هؤلاء وغيرهم معالم بارزة على موقف الكنيسة من هذه الحروب .

ولا عجب أن تكون للكنيسة تلك اليد الطولى فى تحريك الحروب الصليبية لأن الكنيسة فى هذه الفترة من الزمان ـ فترة العصور الوسطى ـ بلغت من النفوذ فى العالم حدا جعل البابا فى نظر المسيحيين آنئذ ملك الملوك وأمير الأمراء ، مما حدا بالكنيسة أن تنظم أمورها على أساس اقطاعى أدى إلى إحكام الصلة بين الكنيسة والجهاز السياسى فى أوربا الغربية كلها .

ففى منتصف القرن الحادى عشر ـ ١٠٥٠ ومابعدها ـ وهى فترة انطلاق الحروب الصليبية من أوربا الغربية ضد الشرق الإسلامى لتخليص بيت المقدس ـ كان شأن الكنيسة آخذًا فى التسامى ، حتى جاء وقت البابا جريجورى السابع ١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م فوقف من الإمبراطورية موقفا عنيدا لإجبارها على الاعتراف بسمو البابوية وبأن هذه البابوية مصدر جميع السلطات السياسية والدينية .(١)

وعن طريق سلاح الحرمان والطرد من رحمة الكنيسة ـ بالنسبة للفرد أو للجماعة ـ استطاع جريجورى السابع أن يخضع الجميع .

فأخذ البابا منذ ذلك الوقت يعامل ملوك أوربا وأمراءها على أنهم أبناء الكنيسة وأنه هو أبوها ، فاعتبر البابا نفسه رأس العالم المسيحى بأجمعه ، فأخذ يمد أنفه إلى كل ركن من أركان البناء الاجتماعى والسياسى لغرب أوربا ، زيادة على الهيئات الدينية .(٢)

---

١ ـ د. سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى : ٣/٢ ط سجل العرب ١٩٧١م .

٢ ـ السابق : ٥/٢ . بتصرف واختصار .

وعن طريق سلاح الحرمان والطرد من رحمة الكنيسة ـ بالنسبة للفرد أو للجماعة ـ استطاع جريجورى السابع استطاع أن يخضع الجميع فأخذ البابا منذ ذلك الوقت يعامل ملوك أوروبا أمراءها على أنهم أبناء الكنيسة وأنه هو أبوها ، فاعتبر البابا نفسه رأس العالم المسيحى بأجمعه ، فأخذ يمد أنفه الى كل ركن من أركان البناء الاجتماعى والسياسى لغرب أوروبا ، زيادة على الهيئات الدينية[1] .

كل ذلك النفوذ مما سهل للكنيسة أن تقود الحروب الصليبية وأن تدعو إليها ، وأن تعتبرها حربا من أجل الكنيسة ، وأن تسميها ـ بناء على هذا الاعتبار ـ الحرب المقدسة .

ومن أجل إرضاء الكنيسة ـ وهذا نفوذها وتلك عقوباتها ـ اتجه بعض ملوك أوربا مثل : لويس السابع ملك فرنسا وريتشارد ملك انجلترا إلى فرض ضرائب على رعاياهم العلمانيين والكنسيين من أجل الحروب الصليبية .



(١) السابق : ٥/٢ بتصرف واختصار .

ب ـ الدول الأوربية التى شاركت فى هذه الحروب

نعنى بهذه النقطة من البحث أن نؤكد على أن الغزو الصليبى الأوربى للعالم الإسلامى لم يكن موجها من دولة أوربية بعينها ـ حتى ولو كان أثرها بارزا فى هذا الغزو كفرنسا على سبيل المثال ـ وإنما تحالفت فيه وشاركت فى الإعداد له والقتال فى سبيله دول عديدة من أوربا •

وربما كان لكل دولة من هذه الدول مصلحة خاصة فى المشاركة فى هذا الغزو ، ولكن المصلحة المشتركة لكل الدول الأوربية التى أسهمت فيه أمر مسلم به لدى من يدرس هذه الفترة من التاريخ •

وتكاد تكون الغاية الكبرى لاشتراك دول أوربا فى غزو العالم الإسلامى هى عداء الإسلام والحقد عليه وعلى المسلمين ، فضلا عما فيها من الاستيلاء على بلاد المسلمين فى المشرق العربى وهى بلاد ـ كما سبق أن قلنا ـ تذكرها التوراة فتصفها بأنها تفيض عسلا ولبنا • وقد أعلن لهم البابا وهو يجيشهم ويحمسهم أن الذين يحتلون من بلاد الشرق الإسلامى بلدا ، يكون حقا لهم •

وفى مجال الحديث عن الدول الأوربية التى شاركت فى هذا الغزو فإننا سنولى اهتماما بالدول التى شاركت مشاركة إيجابية فعالة دون أن نستوعب فى الحديث كل موقف لأى دولة شاركت مشاركة غير إيجابية •

وأول هذه الدول التى حملت عبء الغزو الصليبى وبالغت فى الحروب الدائرة ضد المسلمين فى تلك الفترة هى : فرنسا •

ولنلق نظرة على جهودها فى هذه الحروب :

ولقد شاركت فرنسا فى هذا الغزو الصليبى بقيادة : جود فرى دى بويون (١٠٥٨ ـ ١١٠٠م) وهو دوق « اللورين الدينا » •

توجه هذا القائد الفرنسى ومعه أخوه « بلدوين » إلى غزو الشرق الإسلامى فكان من أوائل الأمراء الذين شاركوا فى هذه الحرب واتجه هو وأخوه إلى القدس فى الحملة الصليبية الأولى (٤٩٠ هـ ـ ١٠٩٦ م) وإتخذت جيوشه إلى بيت المقدس طريق هنغاريا ثم القسطنطينية ثم اتجه إلى البلاد الإسلامية حتى وصل إلى بيت المقدس •

وكانت هنغاريا قد اكتوت بنيران النهب والعدوان من الحملات الصليبية التى سبقت جيش جودفرى والتى كانت تحت قيادة بطرس الناسك مرة وتحت قيادة فولكمار أحيانا •

لذلك عمد جود فرى إلى طمأنة ملك هنغاريا على بلاده ، فتعهد له بأن جيوشه لن تعتدى على شيء وقدم أخاه بلدوين رهينة عند الملك حتى تعبر الجيوش هنغاريا •

كما تعهد جود فرى للإمبراطور الرومانى البيزنطى بأن جيوشه لن تعتدى على شيء من ممتلكات الدولة البيزنطية وهى تعبر إلى بيت المقدس وكتب معه بذلك معاهدة ، وكان المقابل من الإمبراطور البيزنطى هو إمداد الصليبيين بالمؤن حتى يصلوا إلى جبهة الحرب • ـ وبغض النظر عن أن جود فرى لم يوف بالتزامه فى عدم العدوان على ممتلكات الدولة البيزنطية فإن الإمبراطور البيزنطى أراد أن يستغل هذا الجيش لصالحه وصالح دولته ـ التى كانت فى صراع مع المسلمين ـ كما أشرنا إلى ذلك آنفا ـ فأراد أن يكون ولاء جود فرى له ، فرفض القائد الفرنسى ذلك ، لتبعيته أولا للإمبراطور هنرى الرابع الغربى ، ولأنه بهذه الحرب إنما نفذ رغبة البابا إيربان الثانى ثانيا • الأمر الذى ترتب عليه نزاع بين الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس وبين جود فرى ـ ليس هنا محل ذكره بالتفصيل ، وإنما انتهى الأمر بينهما باتفاقية عقدت فى شهر إبريل ١٠٩٧م ، تضمنت اعتراف جود فرى بأن ما يستولى عليه من بلاد المسلمين يرده إلى الإمبراطورية البيزنطية ـ على اعتبار أنها كانت أملاكا لها قبل أن يفتحها المسلمون ـ وعلى ضوء ذلك فإن الإمبراطورية البيزنطية لم تكتف بالمطالبة بأنطاكية والرها عندما استعادها الصليبيون من المسلمين وإنما طمعت فطالبت ببيت المقدس وطرابلس •

وقد عمل الإمبراطور البيزنطى على تكريم جود فرى بعد هذه الاتفاقية وأمر بمساعدته

فى نقل جيوشه إلى الشاطىء الآسيوى انتظارا للحملة الصليبية التى يقودها بوهيموند ٠

واستطاع جود فرى أن يشهر نفسه فى حصار القدس سنة ٤٩٣ هـ ـ ١٠٩٩م فانتخب حاكما للمدينة بعد الاستيلاء عليها ، ورفض لقب « ملك » لأسباب دينيه ، ولقب بلقب « حامى القبر المقدس » ٠

وكان جود فرى عنيفا فى حربه استطاع أن يجبر عددا من المدن السورية المسلمة على أن تدفع له أتاوة ٠

وكان أول حاكم لاتينى للقدس ، ثم خلفه على القدس أخوه : بلدوين واتخذ لقب ملك ٠

وشارك من فرنسا أيضا ريموند الرابع (كونت تولوز فى جنوب فرنسا) وكان من قواد الحملة الصليبية الأولى كذلك ٠

وهو أول أمير صليبى حمل الصليب فى مجمع كلير مونت ، وقاد جيشا من البروفنساليين إلى القسطنطينية ، وقد أبلى فى حصار نيقيا وأنطاكية والقدس ، وتنازع مع بوهيمند حول أنطاكية وامتلاكها ٠

وحارب فى عسقلان ٠

وقرب نهاية حياته حاصر طرابلس التى جعلها سليلوه فى النهاية كونتية ٠

وفى الحملة الثانية شارك من فرنسا الملك لويس السابع ٠

وفى الحملة الثالثة شارك من فرنسا الملك فيليب الثانى (أغسطس) ٠

والحملة الرابعة جيشتها فرنسا وإن قادها « أنريكو داندالو البندقى » ٠ فضلا عن حملة الأطفال التى خرجت من فرنسا كذلك ٠

وفى الحملة الصليبية الخامسة ، اشترك من فرنسا : يوحنا برين ، وهو من شمبانى فى شرقى فرنسا ـ وهو زوج الملكة ماريا ٠

أما الحملة الصليبية السابعة فقد حملت فيها فرنسا العبء الأكبر حيث قادها مليكها لويس التاسع وهاجم مصر ووصل إلى المنصورة ولكنه انهزم هناك وأسر وسجن فى دار ابن

لقمان فى المنصورة وظل سجينا حتى افتدى نفسه ، غير أنه كان ممتلئا بالحقد على الإسلام والمسلمين فعاد إلى الهجوم على المسلمين بعد ذلك ، حيث قاد الحملة الصليبية الثامنة وأغار على تونس ، غير أنه توفى فى أثناء هذه الحملة •

ولقد استمرت فرنسا بعد هذا الغزو الصليبى العسكرى للعالم الإسلامى تحمل أعباء غزو للعالم الإسلامى من نوع آخر ، غزو استشراقى جاء بعده غزو تبشيرى جاء بعده احتلال لعديد من البلدان الإسلامية فى العصر الحاضر ـ القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ـ الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين الميلادية •

ومن أهم الدول الأوربية التى أسهمت فى الغزو الصليبى للعالم الإسلامى إيطاليا :

ولقد كان لإيطاليا فى خوض هذه الحروب مجهودات ضخمة نذكر منها : الحملة الصليبية الأولى على العالم الإسلامى حيث قاد فيها جيشا كثيفا الأمير الإيطالى « بوهيمند الأول (١٠٥٦ ـ ١١١١م) أمير أنطاكية ـ وكان قد أقسم يمين الولاء للإمبراطور البيزنطى ألكسيوس الأول ، ولكنه عندما احتلت أنطاكية أعلن نفسه أميرا عليها وخاس بعهده مع ألكسيوس مما جره إلى حرب معه •

وكان بوهيمند « النورمانى » عندما سمع بالغزو الصليبى للعالم الإسلامى وعرف طبيعة هذا الغزو وأعجبته أهدافه ، سارع إلى تكوين جيش نورمانى كبير ، واصطحب معه ابن أخته تنكرد وعددا من أمراء النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية •

واخترقت الحملة البلقان شرقا إلى القسطنطينية ، وبعد تفاهم مع إمبراطور البيزنطيين ألكسيوس استطاعت الحملة أن تعبر إلى الشاطىء الآسيوى فى أخريات شهر إبريل ١٠٩٧م ـ ٤٩١ هـ •

كذلك كان لابن أخت بوهيمند « تنكرد » مشاركة وعمل فى غزو بلاد المسلمين ، وقد عين تنكرد أميراً لأنطاكية ، عينه خاله بوهيمند •

ومن القواد الإيطاليين الذين شاركوا فى الغزو الصليبى للعالم الإسلامى « بويه » رئيس أساقفة ميلان •

وشاركه فى حملة على العالم الإسلامى سنة ١١٠٠ م ـ ٤٩٤ هـ عدد من القواد الإيطاليين مثل : البرت كونت بياندرات ، وجيبرت كونت بارما ، وهيو كونت مونتبيللو ٠

ومن الإيطاليين الذين شاركوا فى هذه الحروب « روجر الثانى » ملك صقلية ٠

وكذلك شاركت ألمانيا فى الغزو الصليبى للعالم الإسلامى ٠

فكان من قوادها الذين قادوا الجيوش الصليبية للغزو « كونراد الثالث » ملك ألمانيا (١٠٩٣ ـ ١١٥٢ م) ٠

ولقد اشتركت ألمانيا فى الحملة الصليبية الأولى ، وكانت من أكثر دول أوربا حماسا لهذه الحرب المقدسة ، حتى إن حماس الألمان لم يتوقف بعد رحيل بطرس الناسك عنهم ـ وهو يدعو لهذه الحرب ـ وإنما خلف وراءه ألمانيًّا متعصبا هو : « جوتشالك » الذى حشد جيشا ألمانيا كثيفا بقصد الذهاب إلى الشرق الإسلامى وقتال المسلمين هناك ٠

وفى نهاية إبريل سنة ١٠٩٦ م خرج من بلاد الراين « فولكمار » الذى لم نعرف شيئا عن أصله ، يقود ما يزيد على عشرة آلاف رجل للحاق ببطرس الناسك فى الشرق ٠

سلك فولكمار الطريق الذى يجتاز بوهيميا ويؤدى إلى المجر ، ولم تنقض أيام ٠٠ حتى ارتحل « جوتشالك » ـ وهو من قدامى أتباع بطرس ـ على رأس جيش كبير نسبيا ، واتخذ الطريق الرئيسى الذى سلكه بطرس على امتداد الراين وعبر بافاريا ٠

وفى تلك الأثناء احتشد جيش ثالث بقيادة سيد إقطاعى صغير من سادة بلاد الراين هو : « إميخ » كونت لايزنجن ـ الذى حاز شهرة فى الخروج على القانون واللصوصية ، وزعم « إميخ » أن فى بدنه صليبا من صنع المعجزات والكرامات ٠٠٠

غير أن جيش « إميخ » اشتمل أيضا عددا من النبلاء الفرنسيين والألمان أمثال : أميرىْ زفايبردكن وهما : سالم وفيرننبرجر ، وهارتمان أمير ديللنجن ، ودروجو أمير نسل ، وكلارامبالد صاحب فندى ، وتوماس أمير لافير ، ووليم فيكونت ميلون الملقب بالنجار ٠٠٠

ولعل بطرس وجود فرى هما النموذج الذى أوحى للسيد « إميخ » أنه من اليسير

الإفادة من الحماس الديني لتحقيق أرباح شخصية لنفسه ولأتباعه ، لذلك شن هجوما على اليهود فى ألمانيا فى قرية أشبير ولكن الأسقف تدخل فأنقذ اليهود منه ، وكذلك شن على اليهود هجوما فى فورمز والقرى المجاورة لها وفى هذه المرة لم تجد حماية الأسقف لهم فقضى إميخ على عدد منهم يقارب ٥٠٠ شخص[١] •

وكذلك فعل إميخ مع اليهود فى ماينز وكولونيا ، وهو فى عدوانه ذاك يظهر لجيوشه أنه ينتقم من أعداء المسيح نفسه وهم اليهود قبل أن يتوجه إلى أعداء المسيحيين وهم المسلمون ، وإن كانت الحقيقة هى الرغبة فى المنافع الشخصية والأطماع المادية سواء فى حربه ضد اليهود أو ضد المسلمين •

وحاول فولكمار أن يقلد إميخ فى العدوان على اليهود فى ألمانيا ولكنه لم ينجح فى ذلك إلا فى أضيق الحدود . وكذلك كان موقف جوتشالك من اليهود ، غير أن الجيش المجرى بقيادة كولومان لم يمكنه من ذلك •

وأحب هنا أن أوضح أن عداء الصليبيين فى تلك الفترة لليهود ، لا يعود إلى ما زعموه من أنهم أعداء المسيح شخصيا ، وإنما يعود إلى أن اليهود رأوا فى هذه الحروب الصليبية تهديدا لمصالحهم المادية فى الشرق الإسلامى ، بل وفى أوربا نفسها ، فأخذوا يتواصون فيما بينهم بعدم التعاون فى شن هذه الحروب ـ الأمر الذى أحقد عليهم كل متحمس متعصب من الأوربيين لهذه الحروب •

ولم يستطع جوتشاك وجيوشه ولا إميخ وجيوشه ولا فولكمار وجيوشه ، لم يستطع أى منهم أن ينفذ بجيوشه إلى بلاد الشرق الإسلامى ليقاتل المسلمين هناك ، إذ قضت عليهم أطماعهم وهم فى الطريق •

أما كونراد الثالث ملك ألمانيا فإنه اشترك فى الحملة الصليبية الثانية (الفاشلة) تحت تأثير القديس برنارد ، وسبق جيش كونراد الثالث الجيش الفرنسى الذى يقوده لويس السابع ، فقابله المسلمون على حدود الشام ، وهناك هزموه هزيمة منكرة وقضوا على جيشه ،

١ ـ ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية : ١/١٩٩ ـ ٢٠١ باختصار وتصرف •

وأضطر هو أن يفر إلى القسطنطينية ، عاجزا عن أن يحقق شيئا من الأماني التى كانت تجول بخواطر جيوشه من الاستيلاء على خيرات الشرق الإسلامى • كما اشترك فردريك إمبراطور ألمانيا وبصحبته ابنه فرديك أمير سوابيا ، وإن كان نصيب فردريك الأكبر هو الغرق فى نهر بقيليقية •

ومن البلاد الأوربية التى شاركت فى هذا الغزو الصليبى للعالم الإسلامى النمسا •

وكانت النمسا فى ذلك الوقت تتبع ألمانيا ويحكمها كما يحكم ألمانيا فريدريك الأول ـ الذى غرق فى نهر قيليقية ـ وقد اشترك فى الحملة الصليبية الثالثة على العالم الإسلامى واصطحب ابنه كما سبق أن ذكرنا ، ولكن حملته تلك وإن أخافت المسلمين ، وجعلت صلاح الدين الأيوبى يقيم لها أكبر وزن إلا أنها فشلت بموته غريقا •

كذلك شارك فريدريك الحفيد فى حملة صليبية على العالم الإسلامى جاءت متأخرة نسبيا سنة ١٢٢٨ م ـ ٦٢٦ هـ وكانت حملته تلك سببا فى أن ينزل المسلمون للنصارى عن القدس والناصرة وبيت لحم صلحا • وتوج هذا الحفيد ملكا على بيت المقدس •

وكان هذا الحفيد قد اشترك فى الحملة الصليبية الرابعة التى استجابت لها النمسا سنة ١١٩٣ م ـ ٥٨٩ هـ والتى شُنت عقب وفاة صلاح الدين الأيوبى • وقد استطاعت هذه الحملة أن تستولى على بيروت ، ثم غادروها حينما هاجم المسلمون صور •

وقد انتهت هذه الحرب بهدنة لمدة ثلاث سنوات طلبها الصليبيون فأجيبوا لها •

ومن الدول التى شاركت فى هذه الحروب « انجلترا » •

وذلك أن ملكها ريتشارد الأول ـ ريكاردوس قلب الأسد ـ شارك فيليب الثانى ملك فرنسا فى الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩ ـ ٥٨٥ هـ •

وقد استطاعت هذه الحملة أن تستولى على عكا من المسلمين بعد حصار دام حوالى عامين •

ولما عرف عن ريتشارد من فظاظة تركه شريكه ملك فرنسا وانسحب كما تركه كونراد ملك ألمانيا ـ وصاحب عكا ـ وانفرد ريتشارد بقيادة الجيوش ، فسار بإزاء البحر إلى

قيسارية فاستولى عليها ، ثم أخذ يافا ، ولكنهم عجزوا عن الوصول إلى بيت المقدس ، وتغيرت الأحوال فاستطاع صلاح الدين أن يسترد منهم يافا •

ثم اضطربت صحة ريتشارد وجاءته أنباء سيئة عن بلاده ، فقفل راجعا إلى بلاده بعد أن خلف وراءه عددا من الإشكالات والاضطرابات بين الصليبيين أنفسهم •

غير أنه فشل تماما فى الاستيلاء على بيت المقدس ، وإن كان قد تصالح مع صلاح الدين على أساس التمسك بحق الصليبيين فى حماية الأماكن المقدسة ـ وبخاصة كنيسة القيامة ـ مع ضمان حرية الحجيج والعبادة للصليبيين • وهو ما يعرف بصلح الرملة ١١٩٢ م وهو صلح أرضى الجانبين المسلمين والصليبيين فى تلك الظروف الحرجة بالنسبة لهما •

وهكذا وضعت الخطوط النهائية لهذه الحملة الصليبية التى سموها الحملة الثالثة •

ومن أمراء انجلترا الذين شاركوا فى هذه الحروب : هنرى دى شامبنى ابن أخت ريتشارد وملك الصليبيين فى الشام •

فعندما وفد الألمان إلى الشام سنة ١١٩٧ م ـ ٥٩٤ هـ وعاثوا فسادا فتصدى لهم الملك العادل وأحاط بهم قرب عكا عند رأس الماء بمرج عكا عندئذ أسرع هنرى دى شامبنى إلى حشد القوى الصليبية ، ودارت معركة بينه وبين المسلمين قرب غزة ، فكانت الهزيمة حليفة الصليبيين بقيادة هنرى دى شامبنى •

ومن الدول التى شاركت فى هذه الحروب هنغاريا •

فقد أعد ملكها أندراوس الثانى جيشا صليبيا كثيفا اتجه به نحو الشرق الإسلامى ، واستطاع أن يصل إلى سورية وأن ينتشر فى القرى الواقعة بين بيسان وبانياس وصيدا والشقيف ، غير أنه فى الحقيقة كان جيش لصوص وقطاع طريق إذ كان هدفه النهب والسلب ، ثم عاد الملك ولصوصه إلى بلادهم بعد أن نهبوا ما نهبوا •

كذلك كان لقبرص وملكها عمورى لوزنجنان ـ الذى اختير زوجا للملكة إيزابيلا ـ ملكة بيت المقدس ـ ليستطيع أن يدافع عن ملك الصليبيين المتهرئ فى الشام • ولقى

توحيد تاجى قبرص وبيت المقدس على يد عمورى رضا جميع أطراف الصليبيين البابا والإمبراطور الرومانى الغربى ، ومعظم أمراء الصليبيين فى الشام والداوية والاسبتارية ٠

واتجه عمورى من قبرص إلى الشرق الإسلامى واستطاع أن يستولى على بيروت سنة ١١٩٧ م وكان لهذا ما كان من سىء الوقع فى نفوس المسلمين ، لما لذلك من أهمية فى السيطرة الصليبية على شاطىء الشام وبخاصة فيما بين طرابلس وعكا ٠ وكان ذلك تشجيعا لأمير أنطاكية بوهيمند الثالث على الاستيلاء على اللاذقية وجبلة فحاول ولكنه فشل أمام احتياطات الملك الظاهر الأيوبى ٠

وبعـــد :

فلسنا نعنى بهذا الجزء من البحث استقصاء لكل من شارك من دول أوربا فى الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامى ، استقصاء تاريخيا ، وإنما هدفنا أن نوضح فى هذه الكلمات ضخامة هذا الغزو الناتجة عن ضخامة عدد الدول الأوربية الغربية المشتركة فيه ٠

أما الاستقصاء التاريخى لهذه الحروب فيلتمس فى كتب التاريخ ٠٠ تاريخ الحروب الصليبية بشكل مباشر وتاريخ أوربا فى العصور الوسطى بشكل غير مباشر ٠

فنحن مثلا لم نتحدث هنا عن اشتراك جنوا وصقلية وإسبانيا والدانمرك ، ولا عن عدد كبير من الأمراء والقواد ، لأن الاستقصاء التاريخى ليس من هدفنا ، وإنما الهدف هو توضيح حجم هذه الحروب ، والأبعاد السياسية لهذا الغزو ٠

جـ ـ الحملات الصليبية على الشرق الإسلامى

نود فى هذا الجزء من البحث أن نتعرف على هذه الحملات الصليبية الغازية للعالم الإسلامى كما وردت فى كتب التاريخ موضحين ما حققته مقاومة المسلمين لها من انتصارات . وما استطاعت هذه الحملات أن تستولى عليه من بلاد المسلمين ٠

وسوف لا نفيض فى التفصيلات على نحو ما تسطره كتب التاريخ ولكننا سوف نرقب النتائج على الجانبين ، النتائج الحربية . أما النتائج العامة لهذا الصراع فسوف نفرد له بابا من أبواب هذا الكتاب[1] ٠

ونود فى مستهل هذا الحديث أن نؤكد أن الوعاء الزمنى المتعارف عليه بين المؤرخين لهذه الحروب وهو قرنان من الزمان على وجه التقريب هو وعاء تقريبى فحسب ، لأنه يمثل الفترات الحاسمة فى هذه الحروب دون أن يمثل كل أطوارها ٠

فالحق أن هذه الحملات قد امتدت فيما بعد هذا الزمن المتعارف عليه ، كما أنها لها جذور قبل ذلك التاريخ ، ولو شئنا الدقة ـ بالنظر إلى الأسباب والنتائج ـ لقلنا إن بدايتها بدأت قبل تاريخها المعروف بزمن غير قصير ، كما أن نهايتها العسكرية فقط قد امتدت بعد تاريخ انتهائها المعروف بأكثر من قرن من الزمان ٠ أما نتائجها غير العسكرية فانها استمرت قرونا عديدة ربما وصلت إلى هذا القرن الذى نعيشه ـ القرن الرابع عشر الهجرى ١٣٩٩ هـ ٠

أما العداء نفسه بين دول العالم الأوربى المسيحى ودول العالم الإسلامى ، فإنه قائم كذلك حتى يومنا هذا ٠

وربما انتهت هذه الحروب من وجهة نظر المسلمين ، أما من وجهة نظر الدول الأوربية الصليبية فإن الكيد لايزال مستمرا والحرب لاتزال دائرة ، وكل الذى اختلف هو أسلوب الحرب فقط ٠

---

١ ـ هو الباب الثالث من أبواب هذا الكتاب وهو : « نتائج الحروب الصليبية » فى العالم الإسلامى وفى دول أوربا ٠

ولنتحدث عن المشهور من تلك الحملات :

الحملة الصليبية الأولى :

مؤرث هذه الحرب هو البابا إيربان الثانى الذى ارتقى عرش البابوية فى شهر مارس ١٠٨٨ م ٠

« قدم البابا إيربان الثانى إلى فرنسا فى أواخر صيف سنة ١٠٩٥ م فكان فى فالنس فى ٥ أغسطس ، وبلغ لى بويه فى ١١ أغسطس ٠

ومن لى بويه بعث برسائل إلى أساقفة فرنسا والبلاد المجاورة يطلب إليهم الاجتماع به فى « كليرمونت » فى نوفمبر ٠٠٠

وكان إيربان الثانى على اتصال بماركيز بروفانس الذى اشتهر وقتذاك بقيادته للحروب المقدسة فى إسبانيا ، ولابد أنه وقف على تجاربه فى هذه الحروب ٠٠٠ » ٠

وانعقد مجمع كليرمونت فى الفترة الواقعة بين ١٨ نوفمبر إلى ٢٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م وشهده نحو ثلاثمائة من رجال الدين ٠

وأعلن البابا أنه سيلقى بيانا هاما يوم الثلاثاء ٢٧ من نوفمبر واحتشد لهذا السبب عدد كبير من القسس والعلمانيين ، لم تتسع لهم الكاتدرائية فجلس البابا على منصة خارج الكاتدرائية وألقى فيهم خطبته الشهيرة ، التى لم يستطع أحد من المؤرخين أن يرويها بألفاظها ٠

« ٠٠٠ على أننا نعلم على وجه التقريب ما قاله إيربان فعلا :

إذ استهل خطابه فيما يبدو بإخطار سامعيه بضرورة بذل المساعدة لإخوانهم فى الشرق ، فالعالم المسيحى فى الشرق التمس منه المساعدة ، لأن التُّرك مضوا فى زحفهم فى جوف البلاد المسيحية ، وأخذوا يسيئون معاملة السكان ويدمرون مشاهدهم وأضرحتهم ٠

---

١ ـ استيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية : ١/١٥٩ ـ ١٦١ بتصرف واختصار ٠

غير أنه لم يتحدث فحسب عن رومانيا (أى بيزنطة) بل أكد ما لبيت المقدس من قداسة خاصة ، ووصف ما يعانيه الحجاج أثناء سفرهم من العذاب والمتاعب ، وبعد أن وصف الصورة القاتمة ، وجّه نداءه الشهير : فلينطلق المسيحيون بالغرب لنجدة الشرق ٠

ينبغى أن يسير الأغنياء والفقراء سواء ، ينبغى أن يكفوا عن قتل أحدهم الآخر ، وأن يباشروا عوضا من ذلك القتال الحق ، فيؤدون ما أمر الله به أن يعمل ، وسوف يكون مرشدا وهاديا لهم ، ومن يلق مصرعه فى المعركة تحلل من ذنوبه ، وغفر الله أخطاءه ٠ فالحياة هنا أضحت تعسة كثيرة الشرور ، بعد أن أضنى الناس أنفسهم فى تدمير أجسادهم وأرواحهم ٠

استبد بهم هنا الفقر والبؤس ، وسوف ينعمون هناك بالسعادة والرخاء ، ويكونون أصدقاء أوفياء لله ، فلا ينبغى التمهل والإرجاء ، فليستعدوا للمسير عند حلول الصيف وليكن الله هاديهم » ٠

تحدث إيربان فى حماس ، وبكل ما اتصف به الخطيب الشهير من براعة ، وكانت الاستجابة سريعة وقوية إذ تخلل الخطاب هتافات الحاضرين«هكذا أراد الله» **Deus Volt** ولم يكد البابا ينتهى من خطابه حتى نهض من مجلسه أسقف لى بويه فركع أمام عرش البابا والتمس منه الإذن بأن يلحق بالحملة المقدسة ، وتزاحم مئات من الحاضرين لينهجوا مثاله ، ثم ركع الكاردينال جريجورى على ركبتيه وأخذ يتلو بصوت جهورى قداس الاعتراف**Coufitear**فيردده وراءه جموع الحاضرين ، فلما انتهت الصلاة نهض إيربان مرة أخرى ، وتلا التحلل ، وأمر سامعيه بالانصراف إلى بلادهم »[١] ٠

أراد إيربان بذلك أن يوضح أنه لابد أن تخضع الحملة لإشراف الكنيسة ، فينبغى أن يتولى قيادتها أحد رجال الكنيسة وليكن مندوبه فاتخذ المجمع قرارا بالإجماع بأن يكون أسقف لى بويه قائدا للحملة ٠

ولا نحب أن نتوسع فى الحديث عن موقف إيربان الثانى فى تأريث هذه الحروب ، فقد

---

١ ـ السابق : ١٦١/١ ـ ١٦٢ باختصار ٠

أشرنا إلى طرف من ذلك ونحن نتحدث عن الدوافع الدينية لهذه الحروب •

ولكن لابد أن نشير إلى أن إيربان الثانى طلب إلى الأساقفه أن يبشروا للحروب الصليبية •••

ومن هنا ظهر بطرس الناسك ، ووالتر المفلس وغيرهما •

وقد انقسمت هذه الجيوش الصليبية فى الحملة المسماة بالحملة الأولى إلى قسمين :

قسم على مستوى الشعوب والفقراء والوضعاء ـ كما يقول مؤرخوهم ـ وقد سمى هذا القسم : حملة الشعوب •

وقسم على مستوى الأمراء والحكام والقواد والإمبراطور •

أ ـ حملة الشعوب

وكان جيش بطرس الناسك مؤلفا من جهات عديدة من أوربا ومن فئات مختلفة من الناس ، وكان بعض المشتركين فى الجيش قد اصطحبوا زوجاتهم وأطفالهم •

وكان منهم فلاحون وأهل مدن ، وصغار النبلاء وبعض قطاع الطرق والمجرمين ، وباختصار لم تكن تنتظمهم رابطة مًا إلا أن تكون رابطة الحماس لغزو الشرق الإسلامى والاستيلاء على الأرض التى تفيض عسلا ولبنا والاستيلاء على قبر المسيح •

وتحرك بطرس ومعه هذه الجموع حتى وصلوا كولونيا فى يوم سبت النور ١٢ من إبريل ١٠٩٦ م ، وأراد بطرس أن يتريث فى هذه المدينة ليحصل جيشه على المؤن من جانب وليضم إليه بعض نبلاء الألمان من جانب آخر •

وفعلا حقق بطرس هدفيه ، فحصل جيشه على المؤن واستجاب له من صغار الأمراء الألمان : هيو : كونت توبنجن ، وهنرى : كونت شنار تزنبرج ، ووالتر : كونت تيك ، وأبناء كونت تسمَّرن الثلاثة •

وغادر بطرس كلونيا فى ٢٠ من إبريل ١٠٩٦ م بعد أن لحق به من الألمان أعداد كبيرة بقيادة : جوتشالك ، وإميخ كونت لايزنجن ، واتجه بطرس راكبا حماره إلى المجر وسار الألمان على خيولهم وبقية الجيش كانوا مترجلين ـ وكان قد وصل إلى المجر قبل ذلك بقليل والتر المفلس وجموع ممن ألهبت كلمات الكنيسة حماسهم وصلوا فى ٨ من شهر مايو واجتازوا المجر بإذن من ملكها ... ثم عبروا نهر السّاف عند بلجراد إلى الأراضى البيزنطية ـ غير أن والتر المفلس وأتباعه قد نهبوا بعض القرى مما أدى إلى أن يستخدم أحد قادة المجر السلاح ضد هذه الجموع ، لكن والتر استطاع أن يواصل سيره حتى وصل إلى القسطنطينية فى منتصف شهر يوليو ١٠٩٦ م ـ

عندئذ كان ملك المجر على حذر من بطرس وجنوده بعدما رأى ما فعلته جنود والتر المفلس ، وعند سِمِلن أخذ بعض القادة المجريين بعض الاحتياطات وتخوف بطرس وجنوده من ذلك ، فهاجم أحد قادة جيوش بطرس مدينة سملن واستولوا على قلعتها وصرع هناك ما يقرب من أربعة آلاف مجرى .. ثم أسرعت جيوش بطرس فى اجتياز نهر السّاف خوفا من أن يتعرضوا لانتقام المجريين .

وعندما وصل بطرس بجنوده إلى نيش لم يسمح له بالذهاب إلى وجهتهم حتى يقدم الرهائن فقدم جفرى بول ووليم بريتيل رهائن . ثم واصلوا سيرهم إلى مدينة صوفية ـ على أنه حدثت اشتباكات بينهم لا نحب أن نتوسع فى ذكرها ـ المهم أن بطرس وجنوده وصلوا القسطنطينية فى أول أغسطس ثم جاءت جموع والتر المفلس ثم جاءت جموع أخرى من الحجاج الإيطاليين وانحازوا جميعا إلى حملة بطرس .. ثم عبروا البوسفور إلى آسيا وكانوا فى طريقهم ينهبون ويسلبون .

واقترح الإمبراطور ألكسيوس امبراطور بيزنطة على بطرس أن ينتظر حتى تصل القوات الصليبية الرئيسية المنظمة قبل أن يشن هجومه على الصليبيين .. ولكن قواد بطرس أغراهم السلب والنهب فى القرى والأراضى التى كانت بأيدى المسلمين الأتراك ... وظلوا يواصلون زحفهم حتى أصبحوا على أبواب نيقية عاصمة السلطان

السلجوقى قلج أرسلان وغنموا منها ما وقع تحت أيديهم وأتوا من الشنائع ما يذكره أحد المؤرخين حين يقول : إنهم كانوا يشوون الأطفال على السفافيد ، وكان الذى قام بهذا الهجوم جماعة من الجنود الفرنسيين ، فأغرى ذلك جيش من الألمان بقيادة رينالد ، فخرجوا ينهبون متجاوزين نيقية حتى وصلوا إلى قلعة اكسيريجور دون واحتلوها ، غير أن جنود المسلمين طوقتهم وأرغمتهم على الاستسلام ·

وشجع هذا النهب والسلب الجنود الصليبيين المعسكرين فى كيفتيوت على أن يهاجموا القرى والمدن الإسلامية انتقاما لما حدث لإخوانهم فى اكسيريجوردون وانشق القواد بعضهم على بعض ، وتغلب القائد الفرنسى جفرى بوريك يسانده الرأى العام الطامع من الجنود فتحركوا من كيفتيوت إلى نيقية وفى الطريق كمن لهم من الجنود المسلمين من أصلوهم نارا حامية وردوهم على أعقابهم إلى قلعتهم بل اقتحموا عليهم القلعة وهزموهم هزيمة منكرة وأسروا منهم أعدادا كبيرة فضلا عمن قتلوهم ، وطاردوهم إلى قلعة أخرى كان قد فر إليها عدد منهم ، وهناك قضوا عليهم وكان من قتلى الصليبيين فى تلك القلعة :

والتر المفلس · ورينالد برايس · وفولك أورليان ، وهيو توبينجن ، ووالتر تيك ، وكنراد ، وألبرت تسمرن ·· ولم ينج إلا جفرى بوريك الذى يقول عنه أحد المؤرخين : إن تهوره هو الذى أدى إلى هذه الكارثة ·

يقول ستيفن رنسيان تعليقا على حملة الشعوب هذه :

« هذه كانت خاتمة حملة الشعوب الصليبية ، لقد تكلفت إزهاق أرواح عديدة من الناس · وقد استنفذت ما عند الإمبراطور ورعاياه من الصبر ، وعلمت الناس أن الإيمان وحده لن يفتح الطريق إلى بيت المقدس · إذا تجرد من الحكمة والنظام »[١] ·

---

١ ـ ستيفن رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية : ١٩٤/١ م ·

ب ـ حملة الأمراء والإمبراطور

كانت هذه الحملة أكثر نظاما وأدق إحكاما فقد سبقتها استعدادات كبيرة كجمع المال وتجهيز الأدوات والآلات وإعداد الجيوش وترتيب الحكومة التى تتولى شئون البلاد أثناء غيابهم فى هذه الحروب ٠

وأول من ارتحل من هذه الجيوش المنظمة هو : هيو كونت فرماندوا وهو الابن الأصغر لهنرى الأول ملك فرنسا ، وقد شجعه على المضى فى هذه الحروب أطماعه فى أموال الشرق وتشجيع أخيه الملك فيليب ، وانضم إليه عدد من الأمراء مثل دروجى صاحب نِسْل وكلارمبالد صاحب فانداى ووليم النجار وسائر الفرسان الذين عادوا من حملة إميخ المنهزمة ٠

واجتازت جيوش « هيو » روما وفى إيطاليا صحبهم ـ متسرعا ـ وليم أحد أقارب بوهيمند فعبر البحر مع « هيو » ، غير أن أسطولهم ذاك قد ضربته عاصفة أغرقت عددا كبيرا من سفنه ، وكان نصيب « هيو » نفسه أن ألقت به الأمواج على الشاطئ شمالى دورازد ، ومن دورازد لقى معاملة طيبة إلى أن ذهب إلى القسطنطينية فاحتفل به الإمبراطور ألكسيوس ولكن بحذر حيث منعه من الاتصال بالحجاج الإيطاليين ٠

وأدرك ألكسيوس أن هذا الغزو الأوربى الصليبى ربما أضر بمصلحته هو فأخذ لنفسه العهود والمواثيق على أمراء الغرب الغازين من أمثال جودفرى عندما وصل إلى القسطنطينية ـ عبر طريق غير الطريق الذى عبرته الحملات الصليبية التى سبقته ٠ وأخذ عليه الامبراطور المواثيق والرهائن على أن يمنع جنوده من النهب وأن يكون وليا له ـ غير أنهم لاعهود لهم ـ فسرعان مادب الفساد بين الإمبراطور وجودفرى ٠ فمنع الإمبراطور عنهم المؤن وأخذوا هم فى العدوان على القرى والمدن ٠ ولما لم يجد جودفرى مناصا ولاملجأ أعطى يمين الولاء لألكسيوس هو وبلدوين وعدد من الأمراء الأوربيين الغازين وأقسموا على الاعتراف بألكسيوس سيدا على كل مايفتحونه من بلاد المسلمين ٠

وأما بوهيمند فإنه أعلن أنه سوف يشترك فى هذه الحروب وأمام الجيش المحتشد خلع بوهيمند رداءه الأحمر الثمين ومزقه قطعا صغيرة جعل منها صلبانا لقادته وبادر أتباعه بالانضواء تحت لوائه وحذا حذوه عدد كبير من أتباع أخيه ، وعمه روجر صاحب صقلية ٠

وبادر وليم ابن أخت بوهيمند بالمسير مع الصليبيين الفرنسيين ، وعلى الرغم من أن جيش بوهيمند كان أقل عددا من جيش جودفرى فإنه كان أكثر عدة وتدريبا ٠

وأبحرت الحملة من بارى فى شهر أكتوبر ، وشارك فيها مع بوهيمند تانكرد الأخ الأكبر لوليم ، وابن إيما أخت بوهيمند ، والماركيز أودو ، وابنا عمه رتشرد ورانيولف أمير سالرنو ، ورانيولف بن رتشرد ، وجفرى كونت روسيجنونلو وإخوته : روبرت صاحب أنسا ، وهرمان صاحب كان ، وهمفرى صاحب مونتى سكابيوسو ، والبريد أمير كانيانو ، وجيرار أسقف أريانو ، وكل هؤلاء من نرمان صقلية ٠

أما نرمان فرنسا الذين أنضموا إلى بوهيمند فمنهم روبرت صورديفال ، وبويل شارتر ٠٠ (١)

وفى أول إبريل بلغ الجيش النرمان روسه (كوشان الحالية) فى تراقيا وعندئذ قرر بوهيمند أن يسرع إلى القسطنطينية حتى يقف على مايجرى من المفاوضات بين الإمبراطور وقادة الغرب ٠

وكان بوهيمند وجيشه فى نظر ألكسيوس أخطر الجيوش الصليبية الغربية لأن النرمان أعداء ألداء للدولة البيزنطية من قبل ٠

وحاول ألكسيوس أن يتعرف على دخيلة بوهيمند فاجتمع به اجتماعا لم يضم أحدا وتبين أنه صديق وعندئذ دعا جودفرى وبلدوين ـ وكانا مقيمين فى قصره ـ ليشتركا فى المباحثات ٠

ولم يتردد بوهيمند فى أن يحلف يمين الولاء للإمبراطور ويطلب منه أن يعينه قائدا أعلى

---

١ ـ السابق : ٢٢٣/١

للقوات الإمبراطورية فى آسيا • غير أن الإمبراطور لم يستجب لهذا الطلب لعدم ثقته فى بوهيمند على الرغم من يمين الولاء •

وبعد ذلك ـ أغدق الملك على بوهيمند ووعده الوعود ـ وتقرر استدعاء جيش بوهيمند إلى القسطنطينية ، وفى ٢٦ من إبريل عبر بوهيمند البوسفور ليلحق بجيش جودفرى ، أما تانكرد الذى كره سياسة خاله بوهيمند فإنه اجتاز المدينة ليلا وبصحبته ابن عمه ريتشارد أمير سالرنو كيا يتجنب بذل يمين الولاء للإمبراطور ألكسيوس •

وفى نفس اليوم قدم إلى القسطنطينية ريموند كونت تولوز ووريث بروفانس ، وشريك الإسبان فى حرب المسلمين هناك ، ومستشار البابا إيربان فى الحروب الصليبية وغزو العالم الإسلامى ـ وقد اشتهر ريموند باسم : كونت سان جيل ـ وقد نذر ريموند أن يقضى ماتبقى من حياته فى الأراضى المقدسة •

ويقول رنسيمان عنه : « ماقام به ريموند من أعمال تدل على أنه عنيد مغامر ، يسعى للحصول على الكسب والربح شديد الغرور »[١]

وقد انحاز إلى جانب ريموند عدد كبير من نبلاء جنوب فرنسا كما دبر ريموند أن يكون فى صحبته أوهمير أسقف لى بويه •

وفى طريق هذه الحملة إلى القسطنطينية اعتدت ونهبت فى عدد من القرى ، وقد عرض الإمبراطور البيزنطى على ريموند يمين الولاء له ، كما فعل سائر الأمراء الصليبيين لكن ريموند ـ لصلته بالبابا وكراهته لبوهيمند الذى أشيع أنه سوف يكون القائد العام للصليبيين ـ قال إنه جاء إلى الشرق ليعمل فى سبيل الله ولامانع عنده إذا قام الإمبراطور نفسه بقيادة الجيوش الصليبية المتحدة أن يكون هو تحت قيادته وبعد مناقشات أقسم ريموند يمينا للإمبراطور أقل من يمين الولاء •

وهناك جيش صليبى رابع جاء من الغرب قاده روبرت النرمندى وصهره ستيفن كونت بلوا وابن عمه روبرت الثانى • وصحبه فى هذه الحملة عدد كبير من الأمراء والنبلاء من

---

١ ـ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية : ٢٣٠/١

نرماندیا وانجلترا واسکتلنده وبریتانی ، وأصبح هذا الجيش لكثرة من اشترك فيه من الأمراء يسمى نفسه الجيش المتحد وهو الجيش الوحيد الذى التقى بالبابا إيربان وحصل منه على البركة ٠

وقد أقام هذا الجيش فى القسطنطينية أسبوعين قبل أن يجتاز البوسفور إلى آسيا ٠

وبعد أن عبرت الجيوش الصليبية البوسفور تنفس ألكسيوس الصعداء فهو وإن كان قد استعان بدول أوربا الغربية على المسلمين إلا أنه لم يكن يتصور أن يمد بهذه الجموع الكثيفة من الجيوش الجرارة التى تعد فى الدرك الأسفل من الحضارة ـ على حد تعبير أحد مؤرخيهم[١] ٠

وقد تم التفاهم والتخطيط بين الحملات الصليبية الغربية وبين البيزنطيين حول الخطة الحربية لمواجهة المسلمين ، وكان يساند الصليبيين الغربيين جيش من الصليبيين البيزنطيين ٠

وكان هدف الجيوش كلها هو الاستيلاء على نيقية عاصمة السلاجقة ، واختارت هذه الجيوش أن تهاجم المدينة فى غيبة سلطانها قلج أرسلان الأول ، حتى يكون فى هجومهم عليها انتقاما لما لقيته جيوش بطرس الناسك من هزيمة فيها من قبل ٠

وحوصرت نيقية بالصليبيين جودفرى وجيش بوهيمند بقيادة تانكرد وبطرس الناسك ومن بقى معه بعد الهزيمة السابقة كل أولئك حاصروا المدينة من شماليها وريموند وعساكره أمام السور الجنوبى ، واحتشدت كل الجيوش الصليبية بعد قدوم روبرت النورمندى وستيفن بلوا ، وحتى الإمبراطور ألكسيوس قرر أن يكون بجيوشه على مقربة من نيقية ٠

وفى ٢١ من مايو ١٠٩٧م ـ ٤٩٠ هـ وصل السلطان قلج بجيوشه وحاول أن يشق طريقا إلى المدينة من جنوبها فاشتبك مع الصليبيين بقيادة ريموند وأوهمير أسقف لى بويه وخف لمساعدتها روبرت فلاندر وعساكره،ودارت المعركة يوما بأكمله ولكن السلطان لم يستطع النفاذ إلى المدينة فقرر الانسحاب وقد خسر الصليبيون خسائر فادحة فقتل منهم

١ ـ رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية : ٢٤٢/١

عدد كبير ومن سلم أصيب معظمهم بجراح ، ولكن انسحاب السلطان قلج أرسلان رفع من معنويات الصليبيين ، فضلا عن أن الصليبيين قد قطعوا رءوس من قتلوهم فى هذه المعركة وألقوا بها من فوق أسوار المدينة ٠

ولم يستطع الصليبيون أن يفتحوا نيقية مما جعلهم يطلبون معونة بحرية من الإمبراطور ، وعجز الصليبيون ومعهم الامبراطور أن يدخلوا المدينة عنوة ، وإنما استسلم سكان المدينة وكان معظمهم من المسيحيين ودخلها جيش الإمبراطور ليلا وهكذا سقطت نيقية بعد حصار وامتناع دام حوالى شهر من الزمان غير أنها عادت للإمبراطور البيزنطى لا للصليبيين الغربيين ٠

ثم أخذت هذه الجيوش الصليبية أهبتها للزحف على قونية مستعينين بفرق من الجيش البيزنطى فضلا عن الإمدادات والمؤن ومن الحق أن نقرر كما ورد ذلك فى أكثر من كتاب من كتب التاريخ الأجنبية أن الدولة البيزنطية والصليبيين الغربيين تقاسموا الجهود والحروب ضد الأتراك المسلمين ٠

ذلك أن الصليبيين انصرفوا إلى محاربة المسلمين فى فريجيا وضور ليوم وقونية بينما اتجهت جيوش الإمبراطور البيزنطى إلى حرب المسلمين فى الشواطىء الغربية لآسيا الصغرى فى مسيا وأيدنيا وليديا ٠

كما لايفوتنى أن أنبه إلى أن سقوط نيقية شجع الدول الأوربية وبخاصة من كانوا مترددين فى الاشتراك فى هذه الحرب ، فتوالت الإمدادات على الصليبيين من أوربا وهم فى طريقهم إلى الشام ٠

وفى ضور ليوم دارت معركة بين جيوش الصليبيين الكثيفة وبين المسلمين فكانت النتيجة لصالح الصليبيين واحتلوا ضورليوم ٠ وكان انتصار الصليبيين الغربيين ذاك إيذانا بأن قوة جديدة ظهرت فى الشرق الإسلامى تناوىء القوة الإسلامية وتحقق عليها بعض الانتصارات ٠

ودخل الصليبيون عقب ذلك قونية وقد أخلاها قلج أرسلان ، وأخذوا منها الزاد والماء

لاجتياز الصحراء إلى هرقلة ، واستطاعوا الاستيلاء على هرقلة ، ومن هرقلة انقسمت جيوشهم إلى قسمين :

قسم بقيادة تانكرد ومعه بلدوين اتجهوا صوب قيليقية فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى ، وقسم بقيادة المندوب البابوى وجوفرى وبوهيمند وريموند اتجهوا صوب قيصرية متخذين طريقا شماليا شرقيا ٠

واستولوا على قيصرية ومنها اتجهوا إلى بلاكنتيا ، ثم واصلوا سيرهم مخترقين سلسلة جبال طوروس إلى مرعش فاحتلوها وأقاموا بها أياما ٠

ومن مرعش اتجهوا صوب الشام فهبطوا سهل أنطاكية فى أكتوبر ١٠٩٧م ثم وصلوا إلى الجسر الحديدى على مسير مرحلة من المدينة ٠

وهنا أدت الدولة البيزنطية عملا لتثبت به هذه الانتصارات لصالحها هى فبعد أن أحكم الإمبراطور حصون نيقية ، وجه صهرهُ إلى أيونيا فى جيش كبير وكانت قد سبقت الجيش أنباء الانتصارات ، فسرعان ماستسلم أمير أزمير وأمير إفسوس حيث انقطعوا عن الدولة السلجوقية ٠ ثم أخذ الإمبراطور يستعد لاسترداد إقليم ليديا من المسلمين وكذلك غرب فريجيا وقد نجح فى ذلك ، فاتجه صوب الشمال حيث هزم الأتراك عند بلوادين ٠٠ وهكذا تم للبيزنطيين الاستيلاء على الجزء الغربى من الأناضول ٠٠ وأصبح مستعدا للحاق بالصليبيين الغربيين أمام أنطاكية ٠

ولعل أبرز نتائج الحملة الصليبية الأولى هو استيلاء البيزنطيين على الأناضول ، فهى لاتقل أهمية عن استيلاء الصليبيين الغربيين على فلسطين فى هذه الحملة ٠

وربما كان من نتائج الصراع الذى دب بين البيزنطيين والصليبيين الغربيين حول تسليم إقليم قيليقية ومدنها الثلاث طرسوس وأدنة والمصيصة ، أن استطاع الأرمن ـ مستغلين هذا الصراع من جانب وانهزام المسلمين وتخليهم عن تلك المدن من جانب آخر إلى تأسيس دولة أرمنية قومية خاصة بهم فى الطرف الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى هى مملكة أرمينية الصغرى ٠

غير أن بلدوين البولونى كان طامعا بأرمينيا ليؤسس فيها مملكة له تتبع الصليبيين الغربيين وتكون مرتكزا لهم • فأخذ يخطط لذلك واستطاع أن يحرز تقدما فى الاستيلاء على المواقع والمدن والقلاع فى شمالى الجزيرة ، وعاونه على ذلك بعض الأرمن الذين رأوا فى قدوم الصليبيين الغربيين خلاصا لهم من حكم المسلمين من الأتراك •

فاستولى بلدوين على تل باشر والرواندان ، وفى ذلك الوقت سمع حاكم الرها باستيلاء الصليبيين على تل باشر من السلاجقة فأرسل إلى بلدوين يدعوه إلى مساعدته خشية أن تضيع الرها من أيدى المسيحيين إلى أيدى المسلمين وصادف ذلك هوًى فى نفس بلدوين فأسرع إلى الرها فى قوة خفيفة من الفرسان استطاعت أن تفلت من حامية سميساط التركية ، واستقبل الأرمن من أهل الرها بلدوين وجنوده بفرح عظيم متناسين الفجوة بين الكنيسة الأرمنية والكنيسة الكاثوليكية •

وأوعز حاكم الرها إلى بلدوين بمهاجمة سميساط لأنها كانت عدوهم الألد فنفذ بلدوين وهاجم سميساط ، ولكنه تلقى هو والأرمن درسا بالغا من المسلمين حيث قتل المسلمون قرابة ألف من الأرمن بينما فر الباقون • وهنا فكر بلدوين أن يجعل من الرها إمارة لاتينية لا أرمنية ، ففاوض حاكم الرها ـ المسن الضعيف الذى لاعقب له ـ على أن يتبناه ويجعله وريثه فى الملك فى مقابل حمايته له من أعدائه ، وقبل حاكم الرها وأعلن بلدوين ابنا له بالتبنى ووريثا للحكم من بعده ، وسريعا ماقامت ثورة أهلية فى الرها قتلت حاكمها فانتقلت مقاليدها إلى بلدوين البولونى • ومايشك كثير من المؤرخين فى أن بلدوين كانت له يد فى الإطاحة بثوروس حاكم الرها •

فكان بلدوين بذلك أول أمير صليبى استطاع أن يحقق لنفسه هذه المكاسب الشخصية وأن يكون صاحب إمارة فى الشرق ، كما كان أول أمير صليبى يخرج على الاتفاق مع الإمبراطور البيزنطى •

وبعد أن استقر بلدوين فى الرها أخذ يستعد للاستيلاء على سميساط على الضفة المقابلة للفرات والتى تهدد الرها ، وقبل أن يذهب بلدوين إلى سميساط محاربا عرضها

عليه أميرها بيعا فاشتراها منه بمبلغ عشرة آلاف دينار ذهبا • وطمع بلدوين وأهل الرها فى حصن سروج على بداية الطريق الموصل إلى حلب واستطاع بلدوين أن يستولى عليها فأمن بذلك الإمارة الجديدة إمارة الرها •

وفى ذلك الوقت زحفت الجيوش الصليبية على شمال الشام قاصدة أنطاكية •• وكانت فى حكم ياغى سيان أحد رجال السلطان ملكشاه ، غير أن رضوان تتش لم يكن راضيا عن ياغى سيان وكان يشعر بأن أنطاكية له ميراثا عن أبيه وأخيه •

وقد يسرّ هذا الوضع على الصليبيين أن ينفذوا إلى أغراضهم وبخاصة أن خلافا حادا كان ناشبا فى ذلك الوقت بين ابنى تتش رضوان ملك حلب ودقاق ملك دمشق والذى انحاز فيه ياغى إلى جانب ملك دمشق فخسر وقوف ملك حلب إلى جانبه عندما هاجمه الصليبيون •

وعلى الرغم من أن أنطاكية كانت من أشد المدن حصونا وأقواها مقاومة للغزاة إلا أن تدفق الصليبيين عليها : بوهيمند ورجاله من الشمال ، وروبرت أمير فلاندرز وروبرت أمير منديا وهيو أمير فرمندا وستيفن أمير بلوا الذين اتخذوا مواقعهم بين باب بولس فى الشمال وبين باب الكلب ، وريموند والمندوب البابوى أوهمير فى الجهة الغربية ، وجودفرى وجنوده فى الجهة الشمالية ، كل ذلك جعل التحصين غير مجدٍ ، فإذا أضفنا أن أهل أنطاكية من المسيحيين السريان والأرمن كانوا أميل إلى الصليبيين عرفنا إلى أى مدى كانت محنة ياغى سيان •

وعلى الرغم من كل تلك الظروف فإن حصار الصليبيين لأنطاكية استمر سبعة أشهر من أكتوبر ١٠٩٧م حتى يونيو ١٠٩٨م وإن كان ابن الأثير حددها بتسعة أشهر فى حوادث سنة ٤٩١ هـ (١)

وقد حاول ياغى سيان أن يستنجد بملك دمشق فأرسل إليه ابنه شمس الدولة كما أرسل إلى جناح الدولة أمير حمص وإلى كربغا أتابك الموصل ، وإلى سائر البلاد والأطراف

---

١ ـ ابن الاثير : الكامل : حوادث سنة ٤٩١ هـ •

يستصرخ ويستنجد ، غير أن الإمدادات الصليبية الضخمة عن طريق البحر التى قامت بها الأساطيل الايطالية والفلمنكية والسكندنافية استطاعت أن تفت فى عضد المسلمين وبخاصة عندما استطاع بعض هذه الأساطيل أن يستولى على ميناء اللاذقية .

وأخذ الصليبيون يعتدون على القرى المجاورة لأنطاكية فى حوض نهر العاصى وعندئذ خرج ياغى سيان وقام بهجمة على الصليبيين أوشكت أن تشتت شملهم ولكن مهارة ريموند جعلت ياغى سيان يعود إلى داخل أنطاكية متحصنا بها .

كذلك دارت معركة بين المسلمين وبين الصليبيين عند البارة فى نهاية شهر ديسمبر ١٠٩٧م كان النصر فيها حليفا للمسلمين كما يذكر ابن العديم . [١]

وهكذا دارت المناوشات بين الطرفين مما أقنع الصليبيين بالتخلى عن فكرة الابتعاد عن أنطاكية ونهب بعض القرى المجاورة .

وساءت أحوال الصليبيين ونفدت مئونتهم وهددوا بالمجاعة فهرب بعضهم من المعركة ـ وكان من الهاربين بطرس الناسك ووليم النجار ، اللذين قبض عليهما رجال بوهيمند ولقيا من التوبيخ شيئا كثيرا ، وأخذ عليهما تعهدا بعدم ترك الجيش الصليبى حتى يتم الاستيلاء على بيت المقدس .

وأخذ بوهيمند يضع الخطة التى تجعل أنطاكية له هو لا للإمبراطور البيزنطى ـ حسب المواثيق والأيمان ـ فعمل على طرد قائد البيزنطيين المشارك فى الحصار وشوه سمعة الإمبراطور فى نفوس الصليبيين لعدم مساعدته الإيجابية وتقديم المؤن ، وفى الوقت الذى بدا فيه بوهيمند هو القائد الوحيد هدد بترك حصار أنطاكية مالم تكن له إن فتحت وعندئذ وافقه الأمراء الصليبيون خشية أن ينسحب .

ولكى يأمن بوهيمند نجدة المسلمين لأنطاكية أرسل يتودد إلى أمير دمشق دقاق وأرسل سفارة للتحالف مع الفاطميين ـ وكان الفاطميون آنئذ قد جهزوا جيشا استطاع أن

---

١ ـ ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب : ١٣٢/٢ط دمشق ١٩٤٥-١٩٥١م .

يستولى على بيت المقدس سنة ١٠٩٨م وتسلم مفتاحه من سكمان [1] • أى تسلمها من السلاجقة المسلمين •

وجرى التفاوض بين الصليبيين بقيادة بوهيمند وبين الفاطميين بقيادة الأفضل ابن بدر الجمالى ، على أن يكون شمال الشام للصليبيين بينما تكون فلسطين للفاطميين كل ذلك عزز وضع الصليبيين فى بلاد المسلمين وزاد من ثقتهم فى أنفسهم •

وقد وضع رضوان تتش ملك حلب خطة للقضاء على الصليبيين ولكن المسيحيين والأرمن علموا بهذه الخطة فأعلموا بها بوهيمند الذى أفسدها بشن هجوم سريع على حصن حارم ، فوقع فى يده وهو أهم حماية لأنطاكية من جهة حلب •

وفى هذه الأثناء خرج ياغى سيان لمهاجمة الصليبيين ولكنه عاد عندما خشى بوهيمند وفرسانه بعد انتصارهم فى موقعة العمق واستيلائهم على حصن حارم •

وفكر الصليبيون بأن الوقت قد حان لمهاجمة أنطاكية وبخاصة أنهم بنوا قلعة على تل قريب من أنطاكية فى مدة الحصار ؛ وأن المؤن عن طريق البحر وأدوات الحرب والحصار تتوالى عليهم من الأسطولين الإنجليزى والجنوى • ثم أدت الخيانة لهم أهم الأعمال وأكثرها حسما فى الاستيلاء على أنطاكية ، فقد كاتبهم سرا رجل اسمه نيروز مسيحى أرمنى الأصل ـ صادر ياغى سيان أمواله فأظهر دخوله فى الإسلام فوثق به ياغى سيان وعهد إليه حراسة أبراج المدينة فى الجهة الجنوبية ـ وقال فى كتابه لبوهيمند : أنا فى البرج الفلانى وأنا أسلم إليك أنطاكية إن أمنتنى وأعطيتنى كذا وكذا ، فوافقه بوهيمند وبذل له مالا وإقطاعا [2] وكتم بوهيمند سر هذه المؤامرة حتى على الصليبيين أنفسهم ، ولكى يبدو بطلا فى نظرهم •

على أن بوهيمند اتجه إلى برج نيروز الزراد الخائن ودخل أنطاكية وقتل من فيها من المسلمين وسط فرح وتهليل من المسيحيين والأرمن من سكان أنطاكية يقول ابن القلانسى : « فقتل وأسر وسبى من الرجال والنسوان والأطفال مالايدركه حصر » [3]

١ ـ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق : ١٣٥ ط بيروت ١٩٠٨م •
٢ ـ ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٤٩١ هـ •
٣ ـ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق : ص ١٣٥ •

وبسقوط أنطاكية فى أيدى الصليبيين أصبحوا أكثر ثباتا واطمئنانا فى الشرق الإسلامى ٠

وكان كربوغا أتابك الموصل قد اتجه بجيوشه لنجدة أنطاكية لكنه تَعَوّق بحصاره للرها التى كانت فى حوزة بلدوين ، فلما جاء إلى أنطاكية كانت قد سقطت فى أيدى الصليبيين وحولوا مساجدها إلى كنائس ٠

وتجمع جيش إسلامى فى مرج دابق من كربوغا ودقاق بن تتش وطغتكين أتابك وأرسلان صاحب سنجار وسَلمان بن أرتق والأمير جناح الدولة حسين صاحب حمص ٠ ومن مرج دابق أخذ هذا الجيش يزحف على أنطاكية عن طريق نهر العاصى وهاجموا حامية صليبية عن جسر الحديد فقتلوا رجالها عن آخرهم ٠ فى ٤ يونيو ١٠٩٨م ٠ ثم وصلت جيوش السلاجقة إلى أسوار أنطاكية وهموا باقتحامها ولكنهم رأوا حصارها فحاصروها ثلاثة أسابيع عانى فيها الصليبيون كثيرا من الجوع والعطش وفر كثير منهم قافلا إلى بلاده وفى وصف مجاعتهم تلك تحدث أكثر من مؤرخ كابن العديم وابن الأثير ، حيث أكلوا الميتة والدواب وورق الأشجار ، بينما يرى ابن القلانسى وابن العبرى أن الصليبيين داخل أنطاكية بلغوا درجة من اليأس جعلتهم يفكرون فى الاستسلام ، ولكن كربوغا رفض هذا وقال لهم : « لاتخرجون إلا بالسيف » (١)

وقد تسلل عدد من الجنود والقادة من المواقع الأمامية إلى منازل المدينة ودورها مما دعا بوهيمند إلى إحراق منازل المدينة ليجبر الصليبيين على العودة إلى المواقع الأمامية ٠

غير أن الجيوش التى حاصر بها كربوغا أنطاكية لم تلبث أن دب بينها الخلاف خلاف بين العرب والترك من جانب وخلاف بين كربوغا وبعض القادة والجند من جانب ثان ، وتدبير بتخذيل القوات ـ قام به رضوان صاحب حلب وأخو كربوغا ـ من جانب ثالث ٠

ومع كل ذلك قد أرسل بوهيمند إلى كربوغا سفارة يتفاوض معه ليترك الحصار فأبى ٠ ولما لم يجد الصليبيون مناصا من الحرب خرجوا لقتال المسلمين ، واقترح على كربوغا أن

---

١ ـ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ١٣٦ وابن العبرى تاريخ مختصر الدول : ١٩٦ ط بيروت ٠

يقتلهم وهم خارجون ثُلَلاً وجماعات قليلة فأبى وقال : نمهلهم حتى يتكامل عددهم وخروجهم فنقتلهم ·

وهكذا تجمع الصليبيون وواجهوا جيشا من المسلمين مفكك العُرى ، فهُزِم المسلمون وفر القادة وتعقبهم الصليبيون إلى جسر الحديد وحارم و « نهب من المسلمين من الآلات والخيام والكراع والغلات مالا يحصى ، ومن انقطع من المعسكر نهبه الأرمن » (١)

وبانتصار الصليبيين فى هذه المعركة اعتبروا أنفسهم منتصرين على سلاجقة الروم وسلاجقة الشام وفارس ، وتسلم الصليبيون من أحمد بن مروان قلعة أنطاكية وأصبحوا سادتها دون منافس ·

غير أن ماتفق عليه من أن أنطاكية تكون للإمبراطور البيزنطى لم يوف به أحد ، ومارضى به القواد الصليبيون من أن أنطاكية لبوهيمند غداة هددهم بالانسحاب لم يلق قبولا كذلك ، وأخذ النزاع يدب بينهم ، فاستولى بوهيمند على الأجزاء الشمالية والشرقية والوسطى من المدينة واحتل ريموند السنجيلى القطاع الجنوبى الغربى منها ·

وبالنظر إلى سوء حال الصليبيين فى أنطاكية فقد طلبوا من الإمبراطور ألكسيوس أن يحضر إلى أنطاكية ليتسلمها منهم بشرط أن يعاونهم فى غزو فلسطين والاستيلاء على بيت المقدس ، غير أن الإمبراطور ماطل وتباطأ ، فما كان منهم إلا أن شرعوا فى التحرك نحو بيت المقدس فى إبريل ١٠٩٩م ـ ٤٩٢ هـ · غير أنهم لم يتحركوا فعلا إلا فى نوفمبر ١٠٩٩م ـ ٤٩٣ هـ انتظارا لما يمكن أن يمدهم به الإمبراطور ·

ولقد شعر الصليبيون أن هدفهم الحقيقى ـ على الأقل بالنسبة لعدد كبير من قوادهم ـ هو أن يؤسس كل منهم لنفسه إمارة فى الشرق الإسلامى ·

وطال النزاع بين بوهيمند وريموند حول انطاكية ولم يحله إلا توجه الصليبيين إلى مهاجمة معرة النعمان والاستيلاء عليها ، ثم ! إيثار ريموند إلى أن يكون قائد الجيوش المتجهة إلى بيت المقدس بينما آثر بوهيمند أن يظل فى أنطاكية دعما لحقه فى امتلاكها ·

١ ـ ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب : ١٣٧/٢ ·

وآثر الصليبيون أن يهاجموا بيت المقدس متخذين الطريق الداخلى ، نظرا لطول الطريق الساحلى . واستأنفوا زحفهم فمروا بمصياف فخرج إليهم أميرها وعقد معهم اتفاقية ثم اتجهوا نحو بعرين ومنها إلى سهل البقاع وحاصروا حصن الأكراد حتى أسقطوه فى يناير ١٠٩٩م والتقوا برسل أمير حمص الذى اتفق معهم كذلك ٠

ومن حصن الأكراد اتجهوا إلى عرقة شمالى طرابلس وتابعة لها ـ وكانت طرابلس كلها تابعة لبنى عمار . وقد اتفق أبو على فخر الملك مع الصليبيين على أن يعطيهم أموالا ، فقبلوا منه ذلك ولكنهم طمعوا فيما هو أكثر فهاجموا عرقة وانطرسوس واستولوا عليها ، وبعد استيلائهم على انطرسوس وهى ميناء تابع لبنى عمار سهل عليهم الحصول على المؤن بوساطة الأساطيل الإيطالية والبيزنطية ٠

كذلك حاصروا جبلة وخضع أميرها لهم على مال وخيول يقدمها لهم ، غير أن حصارهم لعرقة طال أكثر من أربعة أشهر ، وعندئذ أصر جودفرى على الإسراع فى الزحف نحو بيت المقدس وأقنع سائر الأمراء بذلك ـ على الرغم من أن الإمبراطور ألكسيوس كان قد وعدهم بالانتظار حتى آخر يونيو ليحمل عنهم عبء المعركة ضد المسلمين ـ علما بأنه كان متفقا مع الفاطميين أصحاب فلسطين آنذاك ـ غير أنهم لم ينتظروا وعد الإمبراطور واتجهوا من طرابلس إلى بيروت فوصلوها مساء يوم ١٩ مايو ٠

ودهش الفاطميون من نكوص الصليبيين وإخلافهم لعهودهم ، إذ كان الفاطميون قد ارسلوا للصليبيين واتفقوا معهم على عدم معونة السلاجقة أو الوقوف بجانبهم فى مقابل أن يكون شمال الشام للصليبيين وفلسطين للفاطميين ٠

والحق أن الأفضل الجمالى خُدع فى الصليبيين يوم أجابوه إلى طلبه ذاك ، وكان قصير النظر عندما يتحالف مع الصليبيين ضد المسلمين من السلاجقة ، وهو الآن يدفع أبهظ الأثمان فالصليبيون على أبواب بيت المقدس ـ الذى هو فى أيديهم ـ فراسلهم وعرض عليهم العهود والمواثيق بأن يمكنهم من الحج وأغدق عليهم الهدايا أميراً أميراً ، ولكن هيهات ٠

فهاهم أهل بيروت يبذلون للصليبيين المال والنصح والمئونة بل الدخول فى طاعة الصليبيين ، ومر الصليبيون بصرفند وصور ، ثم عكا التى قام حاكمها بتموينهم وتعهد بالدخول فى طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس ، فتقدم الصليبيون إلى قيسارية ثم إلى أرسوف ، ثم احتلوا الرملة التى هجرها أهلها • وعقدوا فى الرملة مجلس حرب قرروا فيه الزحف على بيت المقدس مباشرة ـ متخلين عن الرأى القائل بضرورة مهاجمة الفاطميين فى مصر لاعتقادهم أن مفاتيح بيت المقدس فى القاهرة ـ وفى طريقهم إلى بيت المقدس رحب بهم المسيحيون ورأوا فيهم جيش الخلاص •

وفى اليوم السابع من شهر يونيو كان الصليبيون أمام أسوار بيت المقدس •

وفى ذلك الوقت كان افتخار الدولة ـ حاكم بيت المقدس من قبل الوزير الأفضل ـ قد اتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة الصليبيين ، فسمم الآبار وقطع موارد الماء وأخفى المواشى وقوى التحصينات ، وكان معتمدا فى الدفاع عن بيت المقدس على المصريين والسودانيين دون المسيحيين الذين طردهم •

وفى منتصف يونيو من نفس العام ١٠٩٩م وصلت ميناء يافا بعض السفن الجنوية واستولت عليه وأحضرت هذه السفن للصليبيين مؤنا ومعدات بينما كانت الحامية الفاطمية محصورة فى بيت المقدس دون مدد من مصر •

وهاجم الصليبيون بيت المقدس هجوما شاملا واستطاعوا اقتحام المدينة بعد حصار واستعداد دام واحدا وأربعين يوما ، ولم يكن أمام الجند إلا الاحتماء بالمسجد ، وقد تبعهم الصليبيون داخل المسجد وأحدثوا به مذبحة وحشية ونهبوا قبة الصخرة ـ وفى الحق إن ذلك لم يتم للصليبيين فى سهولة وإنما قاومتهم الحامية مااستطاعت ثم ألقت السلاح فى النهاية بعد أن أعطى لهم الصليبيون الأمان فخرجوا إلى عسقلان ومعهم افتخار الدولة •

وقد أفاض المؤرخون فى وصف بشائع الصليبيين وقتلهم العلماء بالمسجد وقتلهم النساء والأطفال وكل من رأوا فى الطريق من المسلمين ، ولم يكن ذلك وقفا على المؤرخين المسلمين ، وإنما شارك فيه مؤرخو الصليبيين أنفسهم ، فهذا وليم الصورى المؤرخ

الصليبي يقول في وصف هذه المجزرة البشرية « أصبح البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم » وآخر منهم يقول : إنه لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه ، ولعل هذا هو الذي دعا بعضهم أن يعتبر هذه الوحشية وصمة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى ·

والحق أن هذه الوحشية ليست مستغربة من الصليبيين في أي صراع لهم مع المسلمين في الأندلس وفي الشرق الإسلامي وفي أي مكان وحتى الان في أي وقت يتمكنون فيه من التغلب على المسلمين ·

أما العباسيون أو الفاطميون فقد وقفوا من هذه المجزرة وقفة المتفرج الذي لايبالي إلا مصلحته الشخصية ·

وقد واصل الصليبيون استيلاءهم على مدن فلسطين دون مقاومة حقيقية تردعهم وتردهم إلى الصواب ·

فاستولوا على نابلس وحاصروا عسقلان بعد حرب ضارية مع الفاطميين فيها ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، ولم يمض وقت طويل حتى كان في أيدي الصليبيين : بيت المقدس وبيت لحم والخليل والرملة واللد ويافا ونابلس وبيسان وطبرية والناصرة ·

ولم يكن ذلك في الحق استيلاء على فلسطين كلها ، إذ بقيت عسقلان في أيدي المسلمين وغيرها من القرى والمدن المحيطة بما في أيدي الصليبيين منها ·

ويقول أحد المؤرخين الأجانب : « ويمكن تشبيه المراكز الصليبية في الشام عندئذ بالجزر الصغيرة المتناثرة وسط محيط واسع من الأعداء الذين ظلوا يتحينون الفرصة المناسبة للانتقام واسترداد حقوقهم المسلوبة من الدخلاء الغاصبين » (١)

وقد أخذ الصليبيون بعد ذلك ينظمون أنفسهم في الأماكن التي احتلوها من المسلمين وينشئون ماأسموه مملكة بيت المقدس ، مما سوف نتحدث عنه ونحن نتحدث عن : « الممالك الصليبية في الشرق الإسلامي » بعد أن ننتهي من الحديث عن الحملات الصليبية بإذن الله تعالى ·

---

١ ـ د· سعيد عاشور : الحركة الصليبية ٢٦١/١ نقلا عن Grousset: Hist. des Croisades. I, p.181

الحملة الصليبية الثانية

لم يستطع الصليبيون أن يعيشوا فى هدوء أو أمان بعد أن احتلوا بيت المقدس ، لأنّ حروبًا مستمرة كان يشنها عليهم المسلمون الفاطميون من جانب والأتراك من جانب والسلاجقة من جانب ثالث والأراتقة من جانب رابع والأتابكة من جانب خامس ·

وإذا كان الصليبيون منذ فتحوا بيت المقدس فى ١٥ من شهر يوليو سنة ١٠٩٩م - شعبان سنة ٤٩٢ هـ إلى أن شنوا على الشرق الإسلامى حملتهم الثانية ١١٤٧م - ٥٤٢ هـ قد عاشوا فى الشرق الإسلامى مايقرب من نصف قرن من الزمان ، فإن المؤكد أنهم لم يستقروا فى إقامتهم ببلاد المسلمين ولم يشعروا بالأمن - وهم منتصرون محتلون لبعض البلاد - والأكثر تأكيدا أن عدم استقرار الصليبيين فى الشرق الإسلامى ، كان بسبب تحين المسلمين لأى فرصة يستعيدون فيها تلك البلاد من أيدى غاصبيها من الصليبيين ·

أقول هذا لأدفع عن الأذهان شبهة رددها بعض الكتاب وهى أن المسلمين بعد أخذ بيت المقدس منهم قد رضوا بالواقع وكانوا سلبيين فى رد العدوان إلى أن ساءت ظروف الصليبيين أنفسهم ·

نعم : نحن لا ننكر أن اضطراب أمر الصليبيين وسوء أحوالهم يساعد المسلمين على التغلب عليهم وطردهم من الشرق الإسلامى ، ولكن المنطق يقضى بأن هذا وحده لا يخرجهم من بلادنا ، بل لا يزهدهم فى الإقامة فيها ·

ولقد عاش الصليبيون فى الشرق الإسلامى نصف قرن بين حملتيهم الأولى والثانية يعانون حقا من الحروب التى يشنها عليهم المسلمون فى كل عام تقريبا ، بل لانبالغ حينما نقول : إن الحملة الثانية لم يكن لها من أسباب سوى الهزائم التى أوقعها المسلمون بالصليبيين والبلاد والقلاع والحصون التى استعادوها منهم ، وشعور الصليبيين بأنهم

يعيشون فى الشرق الإسلامى على كثيب من الرمال يوشك أن ينهار بهم . فصرخوا يطلبون من ملوك أوربا وأمرائها النجدة والغوث •

ولكى نتصور مدى القلق الذى عاش فيه الصليبيون هذا النصف القرن الذى نتحدث عنه ، نرى أن نستعرض فى إيجاز تلك الحروب التى شنها المسلمون على الصليبيين فنقول :

لم يستقر الصليبيون بعد استيلائهم على بيت المقدس إلا عاما وبعض عام حتى شن عليهم الفاطميون حربا سنة ١١٠١م ـ ٤٩٤ هـ استهدفت تخليص الشام من أيديهم ، فوجه إليهم الوزير الأفضل حملة كبيرة بقيادة سعد الدولة القواسى الذى كان حاكما لبيروت من قبل •

وتجمعت قوات هذه الحملة فى عسقلان ولما أكملت استعدادها توجهت إلى الرملة لتهديد يافا وبيت المقدس ، ودارت المعركة فى اليوم السابع من سبتمبر ١١٠١م واستشهد قائد المعركة فى ميدانها وقتل عدد من المسلمين ، ولم يحالفهم النصر •

وفى نفس هذا الوقت استطاع السلاجقة أن يقضوا على حملة صليبية خرجت من غرب أوربا قاصدة بيت المقدس لتعزيز الوجود الصليبى فماوصل من أفراد هذه الحملة المنهزمة إلا فلول •

ومامضى على ذلك شهور حتى كان الفاطميون يعدون العدة لحرب ثانية ضد الصليبيين فى الشام ، ففى منتصف شهر مايو من عام ١١٠٢م ـ ٤٩٥ هـ جهز الوزير الأفضل جيشا قوامه العرب والسودان بقيادة شرف المعالى ابن الوزير الأفضل •

واتجهت هذه الحملة إلى عسقلان وتمركزت فيها ، ومنها اتجهت إلى مهاجمة اللد والرملة ويازدر لتهديد يافا وبيت المقدس كذلك • وخرج إليهم بلدوين الأول ، واستطاعت جيوش الفاطميين أن تهزم بلدوين أول الأمر ، وتقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفر كثير منهم إلى يافا بينما فر الباقون ومعهم ملكهم بلدوين إلى الرملة فى ١٧ مايو ١١٠٢م • وذهبت

جيوش المسلمين إلى الرملة وفر بلدوين متنكرا بمساعدة أحد الخونة ، واستعاد المسلمون الرملة من الصليبيين وقتلوا من الصليبيين مئات وأسروا مئات •

ثم حاصرت جيوش الفاطميين يافا ، فهرب بلدوين إلى أرسوف ثم دخل يافا عن طريق البحر ، وفى نفس الوقت وصلت إلى ميناء يافا مائتا سفينة تحمل أعدادا كبيرة من الصليبيين جنودا وحجاجا ومعدات حرب ، فوجدها بلدوين فرصة فهاجم جيوش المسلمين وانتصر عليهم •

ولما علم الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالى أسرع بإرسال حملتين إحداهما برية بقيادة تاج العجم ، والأخرى بحرية بقيادة القاضى : ابن قادوس ، غير أن القائدين لم يتفاهما ولم ينسقا العمل فيما بينهما ، واستنجد بلدوين بأمير الرها وأمير أنطاكية من الصليبيين ، فانهزم جيش الفاطميين كذلك •

غير أن جيوش المسلمين لم تيأس على الرغم من هذه الانهزامات المتوالية وإنما كان الوزير الأفضل مصرا على طرد الصليبيين من الشام ، فجهز جيشا كبيرا فى صيف عام ١١٠٥م ـ ٤٩٨ هـ من المصريين والسودانيين وبعض فرسان العرب وجعل قيادته لابنه سناء الملك ، وأعد الأفضل أسطولا بحريا لمساندة الجيش من البحر ، وطلب مساعدة سلاجقة دمشق فأجابه طغتكين وأرسل إليه عددا غير قليل من الفرسان ـ وكانت تلك أول مرة يشترك فيها السلاجقة مع الفاطميين فى حرب الصليبيين •

نعم لم يستطع الجيش الفاطمى ومن يعاونه أن ينتصر على الصليبيين ولكنهم فى الوقت نفسه لم يشعروا بالاستقراء على الرغم من هذه الانتصارات التى حققوها ضد المسلمين ، لأن المسلمين لم يسكتوا عاما ولاشهرا على بقاء الصليبيين فى بلادهم •

ففى عام ١١٠٦م أغار الفاطميون على الصليبيين فى يافا وأرسون كما أغاروا فى سنة ١١٠٧م على الخليل ، بل إنهم وصلوا إلى أسوار بيت المقدس سنة ١١١٠م ـ ٥٠١ هـ

وأغار ظغنكين أمير دمشق على الجليل وأصابت جيوشه قائدها هيو بجرح خطير أودى بحياته سنة ٤٩٩ هـ ـ ١١٠٥م ولم تتوقف هجمات المسلمين على البلدان التى اغتصبها

الصليبيون أبدا ، بحيث عاشت مملكة بيت المقدس الصليبية من عام تأسيسها بين حروب يشنها مسلمو الشام وحروب يشنها مسلمو مصر ولو ذهبنا نستقصى كل معركة لاتسع بنا المجال إلى غير الحد الذى نريد من القول فى هذا المقام .

وإذا كانت هذه صورة مصغرة عن المعارك التى شنها على الصليبيين الفاطميون والسلاجقة فإن الأتراك من المسلمين لم يقفوا مكتوفى الأيدى ، أو مؤثرين للسلبية ، وإنما هاجموا الصليبيين وأزعجوهم وظلوا فى حروب معهم أقل ماتوصف به : أنها حروب مقلقة للصليبيين حملت عددا غير قليل منهم على أن يرحل إلى بلاده مؤثرا السلامة .

ففى سنة ١١١١م ـ ٥٠٥ هـ هاجمهم مودود أتابك الموصل ، وهو وإن كان لم ينتصر على الصليبيين إلا أنه فى منتصف مايو عام ١١١٣م ـ ٥٠٦ هـ شن عليهم هجوما فى طبرية قتلوا فيه وغنموا كثيرا ، ولابد أن ننوه إلى أن مودود كان يرى هذه الحرب جهادا فى سبيل الله ـ وقد حقق مودود عليهم بعض الانتصارات وأوقع بلدوين وبطرقه فى كمين .

وفى نفس الوقت قامت قلعة عسقلان الإسلامية بهجوم على بيت المقدس . ولولا أن يد الغيلة امتدت إلى مودود وهو يؤدى صلاة الجمعة فى الجامع الأموى بدمشق لرأينا منه جهادا مشرفا ضد أعداء الله .

وفى سنة ١١١٥م ـ ٥٠٩ هـ وجه السلطان محمد السلجوقى حملة لقتال الصليبيين فعبرت إليهم الفرات بقيادة برسق ، واستطاع برسق أن يهاجم قلعة أفامية التابعة لإمارة أنطاكية الصليبية ، وهنا دخل التآمر المعركة فأغرى الصليبيون بعض أمراء المسلمين بالوقوف معهم ضد برسق حتى هزموه .

وفى سنة ١١٠٠م ـ ٤٩٤ هـ استطاع المسلمون الأتراك أن ينصبوا كمينا لبوهيمند أمير أنطاكية وأن يوقعوه فى الأسر . ولم يستطع بلدوين بقواته أن يفكه من أسره الذى أوقعه فيه الملك غازى كمشتكين ، ولم تهدأ حروب الملك غازى ضد الصليبيين حتى استطاع أن يحتل ملطية وأن يأسر صاحبها الصليبى سنة ١١٠١ ـ ٤٩٥ هـ .

وفى سنة ١١٠٤م ـ ٤٩٧ هـ هاجم الأميران : جكرمش أتابك الموصل وسقمان بن

أرتق صاحب ماردين وحصن كيفا ، الصليبيين ، وفى موقعة حران استطاعـا أن يوقعـا بالصليبيين هزيمة أبادت جيش الرها ، وحاول بلدوين وجوسلين الفرار ولكنهما وقعا فى الأسر فى يد الترك من المسلمين ، ولقد أدى ذلك إلى زعزعة إمارتى الرها وأنطاكية •

وفى سنة ١١١٩م ـ ٥١٣ هـ حشد أيلغازى جيوشا من التركمان ومعهم بعض الأمراء العرب واتجهوا نحو الصليبيين لإنقاذ حلب من الأمير الصليبى روجر الأنطاكى ، ودارت بين القوتين معركة البلاط قرب أرتاح ، انتهت بتدمير الجيش الصليبى كله ، وخرّقائدهم روجر صريعا فى المعركة وفى نفس العام استطاع إيلغازى أن يحتل الأثارب من الصليبيين وبعدها استعاد زردنا ، ولكن الصليبيين استطاعوا أن يهزموا المسلمين فى دانيث •

وفى سنة ١١٢٣م ـ ٥١٨ هـ استطاع بلك الأرتقى أن يأسر بلدوين الثانى عند أورش قرب قنطرة سنجه ـ وقد كان بلدوين ذاهبا ليفك أسر جوسلين فذهب إليه أسيرا ، وأضحى بلك قابضا على ملكى الرها وبيت المقدس •

وفى نفس العام هاجم الفاطميون بيت المقدس من جديد ، فحاصروا يافا وأوشكت على الاستسلام ولكنهم هزموا أمام الصليبيين •

وفى سنة ١١٣٣م ـ ٥٢٧ هـ استطاع المسلمون أن يهاجموا طرابلس وأن يهزموا أميرها الصليبى بونز •

وفى سنة ١١٣٤م ـ ٥٢٨ هـ أغار الأمير سوار أمير حلب على الممتلكات الصليبية مثل الجزر وحصن زردنا ومعرة النعمان ومعرة مصرين •

وفى سنة ١١٣٥م ـ ٥٢٩ هـ بدأ زنكى يوجه هجماته ضد الصليبيين شرقى نهر العاصى فاستولى على الأثارب وزردنا وتل أغدى ومعرة النعمان وكفر طاب وأعاد المسلمين من أهالى تلك البلاد إلى ديارهم ورد إليهم أملاكهم ، وقام فى السنة نفسها بغارات على شيزر وحمص وقنسرين •

وفى سنة ١١٣٦م ـ ٥٣٠ هـ أغار نائب زنكى « سوار » على الصليبيين فوصل إلى اللاذقية ، وتقول المراجع إنه أغار على مائة قرية صليبية وعاد ومعه « مايزيد على سبعة

آلاف أسير مابين رجل وامرأة وصبي وصبيه ، ومائة ألف رأس من البقر والغنم والخيل والحمير »[1]

وفى سنة ١١٣٧م ـ ٥٣١ هـ أغار المسلمون على إمارة طرابلس فقتلوا أميرها بونز وأسروا عددا كبيرا من أتباعه فضلا عن الغنائم ..[2]

وكان لزنكى سنة ١١٣٨م ـ ٥٣٢ هـ أحسن المكانة فى نفوس المسلمين عندما ثبت لحنا كوين امبراطور البيزنطيين فشل خطته بالاستيلاء على حلب .

ويتميز زنكى من بين أمراء المسلمين بأنه الرجل الذى أدرك بدقة أن طرد الصليبيين من بلاد المسلمين يحتاج إلى أمرين جوهريين :

أولهما : أن هذه المعركة جهاد فى سبيل الله قبل كل شئ .

الثانى : أن توحيد جهود المسلمين وتوحيد صفوفهم خطوة ضرورية قبل خوض أى معركة ضد الصليبيين .

ومن هذا المنطلق بدأت أعمال زنكى ضد الصليبيين تؤتى أكلها وأطيب ثمارها ـ على الرغم من التحالف الذى تم بين الصليبيين الأوربيين وبين الإمبراطور البيزنطى .

ففى ٢٨ من نوفمبر سنة ١١٤٤م ـ جمادى الأولى ٥٣٩ هـ حاصر عماد الدين زنكى الرها واستطاع أن يستعيدها من الصليبيين فاستولى عليها فى ديسمبر ١١٤٤م ـ جمادى الثانية ٥٣٩ هـ وقد لقى المسيحيون من السريان والأرمن من سكان الرها المعاملة الإسلامية التى جعلتهم يشعرون بعدالة زنكى وإنصافه .

واستولى زنكى على سروج فى يناير ١١٤٥م ـ رجب ٥٣٩ هـ

وما إن قتل زنكى بيد أحد خدمه ـ فى مؤامرة صليبية فى أغلب الظن ـ حتى تولى ابنه نور الدين محمود حلب بينما تولى ابنه سيف الدين غازى الموصل .

وقد انتهز « جوسلين » فرصة موت عماد الدين زنكى ليستعيد الرها فأخذ يتصل سرا

١ ـ ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٥٣٠ هـ .

٢ ـ السابق : حوادث سنة ٥٣١ هـ .

بالأرمن من سكان الرها ـ الذين كان زنكى قد أحسن معاملتهم ـ ونجح فعلا فى الاستيلاء على الرها يساعده بلدوين فى أواخر أكتوبر سنة ١١٤٦م ـ ٥٤٢ هـ لكنه لم يستطع الاستيلاء على قلعة الرها فطلب النجدة من أمراء طرابلس وأنطاكية والوصية على عرش بيت المقدس •

غير أن نور الدين محمود خف إلى المدينة وحاصرها حصارا مُرًّا لم يسع جوسلين إزاءه إلا الهروب هو وقلة معه أما غالبيتهم فقد قتلوا بأيدى السلاجقة الذين كانوا فى قلعة الرها • وكان من بين القتلى بلدوين نفسه كما أصيب جوسلين إصابة بالغة •

وهكذا كانت محاولة جوسلين الاستيلاء على الرها وبالاً عليه وعلى الصليبيين وعلى الخونة من الأرمن سكان الرها •

ولم يتوقف نور الدين محمود عند استعادته الرها فواصل جهاده فى سبيل الله لاسترداد بلاد المسلمين من غاصبيها ، فاستطاع فى عام ١١٤٧م ـ ١١٤٨م ـ ٥٤٢ هـ أن يستولى على عدد من القلاع مثل : بسرفوت وأرتاح والأثارب وكفر لاتا وغيرها • [١]

وهكذا نستطيع من خلال هذا الاستعراض للمقاومة التى قام بها المسلمون للاحتلال الصليبى أن نؤكد أنه ما مر عام أو بعض عام إلا وشن المسلمون حربا على المعتدين ثم انتهت هذه الفترة التى بين الحملتين الأولى والثانية وهى نصف قرن تقريبا ، ولم يعرف المسلمون اليأس ولم يستسلم قادتهم لهذا العدو الغالب •

ولعل صحوة المسلمين وبخاصة بعد انتصارات عماد الدين زنكى وولده نور الدين محمود واستطاعتهم احتلال أهم مدينة يعتز بها الصليبيون بل وأول مدينة احتلوها ، لعل ذلك هو الذى حرك جموع أوربا من جديد لتوجه إلى العالم الإسلامى غزوا يرد على الصليبيين مافقدوا •

ولقد قاد هذه الحملة الثانية سنة ١١٤٧م ـ ٥٤٣ هـ أكبر دولتين فى أوربا فى ذلك الوقت فرنسا وألمانيا وكان على رأس الجيش ملكا الدولتين لويس السابع وكنراد الثالث •

---

١ ـ ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٥٤٢ هـ •

ونسق الملكان فيما بينهما فاتفقا على أن يسلكا الطريق البرى إلى الشرق وأن يسبق الجيش الألمانى إلى القسطنطينية ، حتى لاتكون هناك متاعب فى التموين والإمدادات ٠

ولقد كان لهذه الحملة هدف هو الوقوف فى وجه نور الدين واسترداد الرها من جانب ، وتأمين الإمارات الصليبية فى الشام كله من جانب ثان ٠

غير أن الحملة انصرفت عن هدفها ذاك إلى مهاجمة دمشق وإقامة إمارة صليبية جديدة ٠

ولقد استطاعت الجيوش الإسلامية أن تفوت على هذه الحملة هدفيها معا وأصبحت بحق فى نظر المؤرخين : حملة الفشل والخيبة ٠

فلقد كان لهذه الحملة أهداف أهمها تثبيت دعائم الاحتلال الصليبى لبلدان العالم الإسلامى التى وقعت فى أيديهم واسترداد الرها ٠ غير أن زنكى وولديه أفسدا عليهم تحقيق هذه الأهداف ، كذلك تلك الحروب التى شنها عليهم المسلمون فى أماكن عديدة وعلى فترات متقاربة ٠

ولقد أدى فشل هذه الحملة إلى زعزعة سمعة الصليبيين وضياع هيبتهم ، بينما ازداد نفوذ المسلمين وارتفعت روحهم المعنوية وأغراهم ذلك بالصليبيين يحاربونهم ويهددون بقاءهم فى بلاد المسلمين ٠

بل لقد استيقن عدد كبير من أمراء المسلمين ومقاتليهم أن الصليبيين لايستطيعون أن يواجهوا المسلمين إذا اتحدوا ، وعندئذ أصبحت الوحدة بين المسلمين أملا يراود كل مخلص من أمراء المسلمين وقوادهم ٠

ولقد أكد بعض المؤرخين أن فشل هذه الحملة هو نقطة التحول نحو انهزام الصليبيين وزوال وجودهم من العالم الإسلامى ٠

الحملة الصليبية الثالثة

سبق أن أشرنا إلى أن فشل الحملة الصليبية الثانية كان نقطة تحول فى تاريخ الحروب الصليبية ، تحول فى ضياع هيبة الصليبيين فى الشرق الإسلامى ، وتحول فى تجمع الجيوش الإسلامية لمواجهة أعدائهم ٠

وقد جرت الأمور بعد الحملة الثانية بين المسلمين والصليبيين على النحو الذى نشير إليه فى اختصار فى الاشتباكات التالية :

عقب فشل الحملة الثانية ، حاول ريموند أمير أنطاكية أن يهاجم مدينة حلب فجمع جيوشه واتجه بها نحو بحيرة العمق استعدادا للانقضاض على حلب ولكن يقظة نور الدين محمود جعلته يبادر ريموند ولا ينتظر أن يدافع عن حلب ، فخاض معركة ضارية ضد الصليبيين عند « يغرى » إلى الشمال الشرقى من بحيرة العمق ، وكَسرَ الصليبيين وهزمهم وقتل وأسر ، وساق إلى أخيه سيف الدين غازى وإلى الخليفة ببغداد وإلى السلطان مسعود وغيرهم ، من الغنائم والأسرى شيئا كثيرا ٠٠ وكان ذلك فى سنة ٥٤٣ هـ ـ ١١٤٩ م ٠

وفى نفس العام هاجم نور الدين قلعة « إنب » وحاصر ريموند ورجاله ، واستطاع أن يقضى عليهم جميعا ، وكان من بين القتلى ريموند نفسه ٠ وذلك بداية عام ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٩ م ٠ وكان لذلك رنة فرح عظيمة فى العالم الإسلامى ٠

واتجه نور الدين إلى الاستيلاء على معاقل إمارة أنطاكية فهاجم حصن حارم وصالحه الصليبيون على نصف أعمال حارم ، واستولى على فاميه ٠

وفى نفس العام ٥٤٤ هـ ـ ١١٤٩ م استطاع السلطان مسعود السلجوقى أن يستولى على مرعش وحاصر تل باشر مقر جوسلين الثانى ٠

وكذلك استطاع قرا أرسلان الأرتقى أن يستولى على « كركر » شمالى سميساط ، وعلى حصن منصور ٠

وفى سنة ٥٤٦ هـ الرابع من شهر مايو سنة ١١٥٠ م وقع جوسلين الثانى أسيرا فى قبضة المسلمين وسلموه لنور الدين ، وظل معتقلا تسع سنوات ، وفى صيف هذا العام استولى السلطان مسعود على بهسنى ورعبان وحاصر تل باشر نفسها ، واستولى نور الدين على قلعة عزاز التابعة لإمارة أنطاكية وباختصار فإن إمارتى الصليبيين : الرها وأنطاكية أصبحت معظمها فى أيدى المسلمين ٠

وفى سنة ٥٤٦ هـ وبداية ٥٤٧ هـ استطاع مسعود الاستيلاء على عينتاب ودلوك ٠٠ واستولى تمرتاش الأرتقى على سميساط والبيرة ، واستولى نور الدين محمود على الراوندان ثم على تل باشر التى استسلمت فى عام ٥٤٦ هـ ـ وكانت تلك الإمارات قد اشتراها إمبراطور البيزنطيين من الصليبيين بالمال ولكنه خسرها بهذه الصورة ـ وبهذا أصبحت إمارة الرها إمارة إسلامية ٠

وفى سنة ٥٤٨ هـ ـ ١١٥٣ م استطاع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس أن يستولى على عسقلان التى كانت فى أيدى الفاطميين مستغلا سوء أحوال الدولة الفاطمية بمصر ، وبذلك أصبح خالصا للصليبيين ساحل الشام وفلسطين جميعا وخسر المسلمون بعسقلان قاعدة بحرية طالما هاجموا منها الصليبيين ٠

ويعتبر عام ٥٥٠ هـ عام وحدة وتجمع القوى الإسلامية ، فقد استطاع نور الدين أن يضم إلى أملاكه دمشق ـ وكانت فى حماية الصليبيين تدفع ضريبة لبلدوين الثالث ـ فاتحدت الشام كلها تحت ملك نور الدين ٠ وامتد بصر نور الدين إلى تنسيق العمل مع مصر حتى يكون جبهة قوية ضد الصليبيين ، غير أن مرضا ألم بنور الدين أعاقه عن إكمال خطته ومكن الصليبيين من تحقيق بعض الانتصارات على المسلمين ٠ ولكن نور الدين تماثل للشفاء واستطاع أن يقف من الصليبيين وقفته التى تؤرق وجودهم حقا ٠

وقد هلك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس فى ١٠ فبراير ١١٦٢ م ـ ٥٥٩ هـ وتولى من بعده أخوه عمورى الأول الذى كانت نفسه ممتلئة بالأطماع السياسية فامتد بصره إلى مصر ـ بعد أن عجز سلفه عن أى توسع فى الشام الذى وحده نور الدين ـ وبخاصة أن

الحكم الفاطمي في مصر كان متهالكا مهزوزا ـ فقد كان الـوزير طلائـع بن رزيك ـ الأرمني الأصل ـ يلهو بالخلفاء الفاطميين الصغار ، حتى تخلصوا منه في مؤامرة أدت إلى قتله ، ثم انتقل الصراع إلى شاور حاكم صعيد مصر الـذى استـولى على الـوزارة ، وضرغام ، وقد كان صراعا دفعت مصر ثمنه قلقا واضطرابا وضعفا . مما أطمع عموري الأول فيها فاتجه لغزو مصر في شهر سبتمبر سنة ١١٦٣ م ـ ٥٥٨ هـ ولكن ضرغام أجبره على الانسحاب إلى فلسطين ٠

غير أن حنكة نور الدين السياسية جعلته يجبر عموري على الانصراف عن مصر ، وذلك بأن قام بعدد من الهجمات ، فهاجم حارم ، وهاجم إمارة طرابلس عام ٥٥٨ هـ ثم رأى نور الدين أن يستجيب للمعونة التي طلبها منه شاور الوزير المخلوع لتستقر الأمور في مصر ولتستطيع مواجهة الغزو الصليبي فأرسل حملة بقيادة أسد الدين شيركوه الـذى اصطحب ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، واستطاع شيركوه أن يفوت على الصليبيين أطماعهم في مصر ، واستقر الأمر لشاور فيها ، غير أن شاور لم يف بما وعد به نور الدين يوم طلب مساعدته ، وطلب من شيركوه الخـروج من مصر ، بل استُنجـد بالصـليبيين ليخرجوه ، وفعلا وصل عموري الأول إلى فاقوس وكان شيركوه قد احتل بلبيس ، وأخذ جيش الصليبيين في حصار شيركوه ـ غير أن براعة نور الدين السياسية جعلته يعزز موقف قائده بحملات يشنها على الصليبيين في الشام ، مما جعل عموري يقنـع من الغنيمـة بالإياب ويقبل أن يرحل عن مصر هو وشيركوه ٠

وكان نور الدين ـ في أثناء انشغال عموري بمهاجمة مصر ـ قد هاجم أنطاكية وحصن حارم ، ودارت بينه وبين الصليبيين معركة حامية في أرتاح هزم فيها الصليبيين هزيمة منكرة وأسر جميع أمرائهم الذين اشتركوا في المعركة : بوهيمند الثالث أمير أنطاكية ، وريمونـد الثالث أمير طرابلس ، وجوسلين الثالث ، وهيو الثامن لوزجنان وحاكم قيليقية ، ثم استولى على حارم سنة ٥٥٩ هـ ـ أغسطس ١١٦٤ م وعلى بانياس في أكتوبر ١١٦٤ م ٠

وساءت سيرة شاور في مصر ، فاستنجد الخليفة العاضد بنور الدين ، وصادف ذلك

الاستنجاد هوى فى نفس نور الدين ، خشية أن يستولى على مصر الصليبيون ، فوجه إليها جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، واستنجد شاور بالصليبيين ، فأجابه عمورى الأول على الفور ، وخفّ إليه شاور ليقابله ويقوده إلى الضفة الشرقية للنيل فى القاهرة بينما كانت جيوش شيركوه فى الضفة الغربية وتعهد شاور بإعطاء الصليبيين أجرا على قتال أسد الدين ورضخ الخليفة الفاطمى المغلوب على أمره ، وعبرت جيوش الصليبيين ومعها جيوش شاور إلى غربى النيل ولم يجد شيركوه بدا من التقهقر إلى الصعيد وقرب المنيا دارت معركة بين الجيشين كان النصر فيها حليف شيركوه ، واتجه شيركوه إلى الأسكندرية فرحب به أهلها ثم استطاع الاستيلاء على صعيد مصر ، غير أن الصليبيين هاجموا الاسكندرية وحاصروا فيها صلاح الدين ، وكان أن وقع اتفاق ـ للمرة الثانية ـ على أن يترك الطرفان مصر لشاور والفاطميين .

وأصبح الموقف فى إجماله تنافسا بين نور الدين وعمورى الأول على الاستيلاء على مصر وكان الصليبيون حلفاء شاور قد أساءوا معاملة المصريين وأرهقوا ميزانيتهم ، مما أضطر شاور معه أن يقلب لهم ظهر المجن وأن يستنجد من جديد بنور الدين على الصليبيين .

واتجه عمورى الأول إلى مصر وهاجم بلبيس واحتلها وقتل فيها مقتلة عظيمة ثم اتجه إلى القاهرة ووجه نور الدين جيشا إلى مصر بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وفى هذه المرة لم يجد عمورى الأول مبررا للاصطدام بجيوش شيركوه فقفل راجعا ، بينما رحب المصريون بشيركوه الذى أنقذهم من خطر الصليبيين ، فعينه الخليفة الفاطمى وزيرا له ، وقد بلغ استياء الناس من شاور أن عملوا على قتله ، وما هى إلا فترة حتى توفى أسد الدين شيركوه فخلفه فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى .

وقد واجه صلاح الدين فى مصر حملة صليبية تحالف فيها الصليبيون مع البيزنطيين وهاجموا دمياط وحاصروها ولكن قوة صلاح الدين وخبرته ومعونة نور الدين له ، وما قام به

نور الدين من هجوم على الصليبيين فى الشام ، كل هذا جعل هذه الحملة تعود بالخزى والفشل من حيث أتت ، وذلك عزز مكانة صلاح الدين فى مصر .

وامتد نظر نور الدين إلى توحيد جهود المسلمين وتكوين جبهة قوية ضد الصليبيين ، فضم الموصل إليه بعد وفاة أخيه قطب الدين ، واستولى على نصيبين وواد الخابـور ، فأصبحت هناك جبهة إسلامية لمواجهة الصليبيين تمتد من العراق إلى الشام فمصر ، وكان ذلك معناه هزائم متوالية للصليبيين .

وبدأ العمل المنسق ضد الصليبيين :

ففى سنة ٥٥٧ هـ ـ فى ديسمبر ١١٧٠ م اتجه صلاح الدين إلى مهاجمة الصليبيين فى فلسطين فحاصر قلعة الداروم جنوبى غزة وحاول الاستيلاء على غزة ولكنه لم يوفق .

فعاد إلى مصر ليستعد لغزو جديد وإن كان قد استطاع أن يستولى على مدينة أيلة وأسر حاميتها الصليبية ، وظل نجم صلاح الدين يصعد فى مصر ـ على الرغم من إسقاطه الخلافة الفاطمية فيها ، وخلافه مع سيده نور الدين محمود ، إلى أن استقر له أمر مصر تماما بوفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ ـ ١٥ من مايو سنة ١١٧٤ م .

وأخذ صلاح الدين على عاتقه أن يؤمن الوحدة الإسلامية من جانب وأن يقضى على الوجود الصليبى فى الشرق الإسلامى من جانب آخر .

ففى الجانب الأول ـ كان أمر الشام قد اضطرب بعد وفاة نور واختلاف أبنائه وأبناء إخوته ، مما شجع الصليبيين على مهاجمة الشام ودمشق ، فاستنجد المسلمون بصلاح الدين ووعدوه بتسليمه دمشق ، وصادف هذا العرض قبولا فى نفس صلاح الدين لأنه بذلك يوحد صفوف المسلمين ، فسار إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ ـ أواخر نوفمبر ١١٧٤ م واستقبل فيها أحسن استقبال ، وأعلن صلاح الدين أن هدفه هو حرب الصليبيين ، ولم يفتر صلاح الدين حتى استطاع أن يوحد بين مصر والشام من جديد ـ على الرغم من التضحيات التى قدمها والمؤامرات التى تعرض لها ، والخلافات التى خاض غمارها .

ووجد صلاح الدين نفسه أمام حرب ضرورية مع الصليبيين لطردهم من بلاد المسلمين ، فأخذ يؤهل نفسه وجيوشه والبلاد التى فى حوزته لخوض تلك المعركة الكبرى ، فزاد من تحصين مصر والاسكندرية ، وأعد أسطولا بحريا قويا ، وتحين صلاح الدين أنسب الفرص لمهاجمة مملكة بيت المقدس ، ففى الوقت الذى انشغل فيه جانب ضخم من جيوش الصليبيين بشن الحملة الفاشلة على حماة وحارم بقيادة فيليب الألزاسى ، اتجه الدين لمهاجمة شاطئ فلسطين الجنوبى فانقض على غزة والداروم ، وانقض على عسقلان وحاصر فيها بلدوين الرابع ، كما أحرق الرملة وهاجم اللد ، تاركا حصار بلدوين الرابع فى عسقلان ، غير أن فلول الصليبيين استطاعت أن تتجمع من جديد وأن توقع بجيوش صلاح الدين هزيمة عند « تل الصافية » وعاد صلاح الدين إلى القاهرة بعد أن حلف أن لا تضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج[١] ٠

وقد دارت مناوشات ومعارك جانبية بين جيوش صلاح الدين والصليبيين عند بانياس انتهت بانتصار جيوش المسلمين ، وأصبحت جيوش المسلمين تهدد الصليبيين فى وجودهم وفى أموالهم مما حدا ببلدوين أن يخرج لمنازلة صلاح الدين عند تل القاضى فى سهل مرج العيون ، فكان النصر حليف صلاح الدين فقتل منهم كثيرا وأسر كثيرا ولم ينجح منه سوى بلدوين نفسه وبصعوبة ، وكان ذلك فى سنة ٥٧٥ هـ ـ ١١٧٩ م ٠

ثم اتجه صلاح إلى الحصن الضخم الذى أقامه الصليبيون والمسمى بحصن الأحزان واستطاع أن يسويه بالأرض ، وهاجم الأسطول المصرى عكا حتى اضطر بلدوين الرابع إلى عقد اتفاق مع صلاح الدين ، وكذلك هاجم أنطرطوس فاضطر ريموند الثالث إلى عقد هدنة مع صلاح الدين ٠

وفى هذه الهدنة اتجه صلاح الدين إلى توحيد الجبهة الإسلامية ولاقى فى ذلك نجاحا جعله يجمع فى قبضته زمام القاهرة ودمشق وما فيهما من قوى مالية وبشرية ، غير أن

---

١ ـ أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين : ٥٧٣/١ ط القاهرة ١٢٨٧ هـ ٠

متهورا صليبيا هو أرناط ـ أسير المسلمين فى قلعة حلب سنين عديدة[1] خاس بعهد الصليبيين مع صلاح الدين وخرق الهدنة بينهما وكرّ بجيوشه من الأردن إلى تيماء آملا فى الاستيلاء على المدينة المنورة وذلك فى صيف سنة ١١٨١ م ـ ٥٧٨ هـ واستولى فى طريقه على قافلة للمسلمين وغنم منها كثيرا من المال وأسر عددا من الرجال ، مما أغضب صلاح الدين فكتب إلى ملك بيت المقدس يذكره بالهدنة ويطلب منه أن يأمر أرناط برد الأموال وفك الأسرى ، وقد حاول ملك بيت المقدس فرفض أرناط .

عندئذ لم يجد صلاح الدين بدا من حرب ضد الصليبيين طالما تمناها فأعد جيشا كثيفا وخرج به من مصر سنة ٥٧٨ هـ ـ مايو ١١٨٢ م واتجه إلى الأردن لتأديب أرناط ، فدمر مزارع القمح التابعة للصليبيين ، وفى ذات الوقت كان ابن أخيه فرخشاه نائب السلطان صلاح الدين فى دمشق ينسق العمل العسكرى بهجوم على الصليبيين من جانب آخر فأغار على طبرية وعكا واستولى على الشقيف أرنون وغنم من الصليبيين وأسر ، ثم انتقل إلى الضفة الشرقية للأردن فأغار على السواد .

وكان صلاح الدين بعد أن هاجم أرناط قد اتجه إلى دمشق ، ومنها تحرك فى ربيع الأول من سنة ٥٧٨ هـ ـ يوليو ١١٨٢ م إلى سهل الأقحوانة وعسكر فيه بينما أرسل ابن أخيه فرخشاه إلى مهاجمة إقليم الغور حول بيسان ، فقهر الصليبيين وغنم منهم كثيرا فى حين التف صلاح الدين فى خفة لتلتقى جيوشه بجيوش ابن أخيه ، وأخذ الجيشان فى مهاجمة حصن الكوكب الذى يشرف على إقليم الغور واستعد الصليبيون والتقوا بالمسلمين عند كفر بلا ولكن النصر كان حليف المسلمين[2] .

غير أن صلاح الدين كان قد علّ على أن معركة كبرى فاصلة لابد أن تدور ضد الصليبيين فعاد إلى دمشق وأخذ يدبر ويخطط لتلك المعركة. فرأى أن الخطوة الأولى هى فصل إمارتى طرابلس وأنطاكية عن بيت المقدس ، فكان لابد أن يوحد الجهود فاستطاع

---

١ ـ ظل أسيرا من سنة ١١٦٠ م إلى ١١٧٥ م .

٢ ـ ابن واصل : مفرج الكروب : ١١٥/٢

جمع حلب إلى قبضته مع دمشق والقاهرة واستطاع أن يكون موضع رضا الخليفة العباسى ، ولم تعد الموصل تهدده ولا سلاجقة الروم ، كما خطبت الدولة البيزنطية وده .

وهنا أخذ صلاح الدين يرسم الخطة لضربة قاصمة للصليبيين فكانت معركة حطين أهم المعارك وأخطرها بل هى المعركة التى حددت وجود الصليبيين فى الشرق الإسلامى .

ففى شهر جمادى الثانية من سنة ٥٧٩ هـ - سبتمبر ١١٨٣ م تحركت جيوش صلاح الدين من دمشق فعبرت نهر الأردن ثم زحفت على بيسان واستولت عليها فى سهولة ، ثم عسكر صلاح الدين عند عين جالوت ، بينما عسكر الصليبيون عند الغولة قرب عين جالوت وانتظر صلاح الدين أن يهجم عليه الصليبيون لتدور المعركة لكنهم لم يفعلوا تخوفا من قوة جيوش المسلمين - على الرغم من مناورات صلاح الدين وهجومه على كثير من أطراف الصليبيين .

وظلت الأمور بين صلاح الدين والصليبيين مناوشات ومناورات حتى كان عام ٥٨٣ هـ - مارس ١١٨٧ م حيث أخذ صلاح الدين من دمشق يجمع جيوشه من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر .

واتجه صلاح الدين نحو الجنوب فوصل إلى رأس الماء شمالى غربى حوران وترك فيها ابنه الأفضل ليكون مركز تجمع للإمدادات والنجدات ، واتجه صلاح الدين إلى بصرى لحماية قافلة الحجاج المسلمين من عدوان أرناط ولما اطمأن على سلامتها اتجه إلى مهاجمة أرناط فسار إلى الكرك والشوبك وحاصر أرناط فى الكرك حصارا مرًّا ، وحدث اشتباك بين المسلمين والصليبيين قرب صفورية هزم فيه المسلمون الاسبتارية والداوية فى شهر مايو ١١٨٧ م - ٥٨٣ هـ وكان نصرا حاسما ، فتجمع الصليبيون تحت قيادة لوزجنان فى صفورية ومعهم صليب الصلبوت ، وأسرع صلاح الدين فزحف على طبرية فى شهر يوليو ١١٨٧ م فاستولى عليها دون قلعتها ، وانتظر رد فعل هذا الهجوم لدى الصليبيين وكان يرغب فى أن يزحف الصليبيون إليه فى طبرية ليصلوا مجهدين ، وفعْلا توجه الصليبيون إلى طبرية ، فما كان من صلاح الدين إلا أن حرك جيوشه خمسة أميال فقط ، وعسكر عند قرية حطين الوفيرة الماء والمراعى .

ووصلت جيوش الصليبيين إلى قرب حطين فى هضبة تسمى قرون حطين وهم فى أشد حالات العطش والإرهاق « وأصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ فركبوا وتقدموا إلى الفرنج فركب الفرنج ودنا بعضهم من بعض ، إلا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا فاقتتلوا واشتد القتال ... وكان الفرنج فى حملاتهم يرجون الخلاص مما هم فيه فلم يجدوا إلى الخلاص طريقا فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك ـ الذى كان صلاح الدين قد نذر دمه ـ وأسروا صاحب جبيل وابن هنفرى ومقدم الداوية ، وكثر القتل والأسر فيهم فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا واحدا ، وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمثل هذه الوقعة ... »[1] .

وقتل صلاح الدين أرناط بيده جزاء تهجمه على قوافل حجاج المسلمين وعزمه على مهاجمة الحرمين الشريفين فى المدينة ومكة .

واستولى المسلمون على صليب الصلبوت ، وكان ذلك فى نظر الصليبيين خذلانا .

وكانت حطين من أعظم انتصارات صلاح الدين والمسلمين ، وكانت النهاية الحقيقية للوجود الصليبى فى بلاد المسلمين .

وأخذ صلاح الدين بعد هذا الانتصار يستولى على البلاد التى كانت فى أيدى الصليبيين واحدة واحدة ، وبخاصة ثغور البحر التى تمد الصليبيين بالأمداد ، فاتجه إلى عكا واستطاع أن يستولى عليها سلما وأمّن أهلها وغنم المسلمون غنائم هائلة ، وكان دخول صلاح الدين عكا فى سنة ٥٨٤ هـ ـ ١٠ يوليو ١١٨٧ م .

واستولت جيوش المسلمين على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والغولة والطور .. ثم حصن يابا ويافا وسبسطية وقلعة تبنين . واستسلمت صرفندا وصيدا

١ ـ ابن الأثير : الكل حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

وبيروت • ثم اتجه صلاح الدين إلى جبيل وسلمت له ، ثم استولى على عسقلان فى أوائل سبتمبر سنة ١١٨٧ م كما استولى على الرملة ويبنا والداروم وغزة وبيت جيرين • ولم يكن أمامه بعد ذلك إلا الاستيلاء على بيت المقدس •

فعرض صلاح الدين على الصليبيين تسليم بيت المقدس فرفضوا فأقسم أن يأخذها بحد السيف ، وهاجم المدينة من شماليها عند باب العمود أو كنيسة صهيون واشتد الهجوم وأدرك الصليبيون أن لا فائدة ، فأرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون تسليم المدينة والأمان لأهلها ، ولكنّ صلاح الدين رفض لأنه كان قد طلب ذلك نفسه منهم فأبوا •

غير أن صلاح الدين بعد مشاورات رأى أن يترك الصليبيين يغادرون المدينة مقابل فداء عشرة دنانير للرجل وخمسة للمرأة وواحد للطفل ، واشترط أن يؤدى الفداء فى مدى أربعين يوما ومن لم يؤد صار مملوكا • وهكذا خرج الصليبيون من بيت المقدس فدخلها صلاح الدين فى يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ ـ ١٢ أكتوبر ١١٨٧ م •

واتجه صلاح الدين بعد ذلك إلى الاستيلاء على ما بقى للصليبيين على شاطىء البحر مثل صور وطرابلس وأنطاكية ، فضلا عن الحصون الداخلية مثل حصن الأكراد والمرقب ، وصفد ، وحصن كوكب •

وقد وفق صلاح الدين فى الاستيلاء على كل مملكة بيت المقدس ما عدا صور التى ترك صلاح الدين احتلالها غداة احتل عكا ، فكانت مركز تجمع للصليبيين •

كل هذه الانتصارات التى حققها صلاح الدين على الصليبيين فى مدى سنوات ثلاث متوالية من ٥٨٣ هـ إلى ٥٨٦ هـ ـ ١١٨٧ م ـ ١١٩٠ م لم تبق للصليبيين من مملكة بيت المقدس سوى صور ، ولم تبق لهم من إمارة طرابلس سوى طرابلس العاصمة فقط وقلعة أنطرطوس وحصن الأكراد ، ولم تبق لهم من إمارة أنطاكية سوى عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب •

وكان معنى ذلك زوال الوجود الصليبى من الشرق الإسلامى ، وكان أثر ذلك فى

صليبيِّ أوربا ندما على عدم استجابتهم لنجدة إخوانهم فى الشرق ، لذلك أخذوا يتجمعون لمهاجمة المسلمين ، وكتب البابا جريجورى الثامن كتبا إلى ملوك انجلترا وفرنسا وألمانيا يحثهم على حرب المسلمين ٠

واستجاب لهذا النداء ملك انجلترا وملك فرنسا وامبراطور ألمانيا ، وتحركت الجيوش إلى الشرق الإسلامى ، غير أن ملكى انجلترت وفرنسا قضيا مع جيوشهما فصل الشتاء فى صقلية من شهر سبتمبر ١١٩٠ م إلى شهر مارس ١١٩١ م ٠ بينما اتجه امبراطور ألمانيا فى شهر مايو ١١٨٩ م ـ ٥٨٥ هـ وبصحبته ابنه على رأس جيش كثيف إلى الشرق مارا بالقسطنطينية ، وعلى الرغم من الخلافات بين امبراطور ألمانيا فردريك بربروسا والإمبراطور البيزنطى إسحق الثانى فإن إمبراطور ألمانيا عبر القسطنطينية إلى آسيا الصغرى فى شهر مارس ١١٩٠ م وما لبث هذا الجيش أن دخل أرض قلج أرسلان الثانى سلطان سلاجقة الروم واستطاع امبراطور ألمانيا على الرغم مما تعرض له من مناوشات أن يقنع قلج أرسلان أنه ما قصد بلاده ولكن قصد بيت المقدس ، فعبر إلى أرمينية ولقى من أميرها ليو الثانى ترحيبا كبيرا ، ومساعدات جمة واقترب الجيش من البلدان الإسلامية ، وأخذ صلاح الدين يستعد لملاقاته ، فأعلن الدعوة للجهاد وطلب المعونة من أمراء المسلمين جميعا حتى إنه طلب مساعدة أمراء المسلمين فى المغرب الإسلامى ٠ وأخذ يستعد من الناحية العسكرية فهدم بعض الأسوار حتى لا يتحصن الصليبيون بداخلها ، وأخذ العالم الإسلامى يغلى ترقبا لهذا الهجوم الألمانى العنيف ٠ ولكن الله سلم إذ غرق فردريك بربروسا وهو يعبر نهرا صغيرا فى قليقية ، وأفلت زمام الجيش بهلاك قائده وتفرق جنوده ومرض ابن فردريك فترة ولما برئ رأى أن يتجه بجنوده إلى عكا فحاصرها فى أوائل أكتوبر ١١٩٠ م ٠

وظلت عكا مستعصية على الصليبيين على الرغم من اشتراك أمراء كثيرين فى حصارها ومنهم طليق صلاح الدين جاى لوزجنان الذى شارك فى حصارها فضلا عن كونراد مونتفرات ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا الذى وصل إلى عكا فى صيف ١١٩٠ م كذلك وصل إلى عكا ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد بعد قليل ، وقاومت عكا واشتبك

صلاح الدين مع الصليبيين اشتباكات عدة ، ثم داهمه الوباء فاضطر أن يبتعد عن أرض المعركة التي غصت بجثث القتلى ، وكانت تلك فرصة للصليبيين فضيقوا الخناق على عكا ، فاستولوا عليها بمعاهدة فى شهر يوليو سنة ١١٩١ م بعد حصار دام عامين •

وكان استيلاء الصليبيين على عكا انتقاما مما حققه صلاح الدين فى حطين ، وعاد ملك فرنسا إلى بلاده فتولى زعامة الصليبيين ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد الذى كان باطشا متهورا لاقى إحسان صلاح الدين إليه فى مرضه بالغدر والخيانة والتهور ، فقد قتل أسرى عكا من المسلمين دون استثناء •

واستطاع ريتشارد أن يستولى على حيفا وأرسوف بعد معركة حامية مع المسلمين بقيادة صلاح الدين فى أرسوف •

وطمع ريتشارد بعد هذا النصر فزحف على بيت المقدس ـ فاتجه إلى الرملة واللد ، وعلم بأن صلاح الدين قد أحكم مداخل بيت المقدس ، فيئس من الاستيلاء عليها فعاد إلى الرملة يائسا خائبا باحثا عن الصلح مع صلاح الدين ، وتعثرت المفاوضات حينا. استولى خلالها صلاح الدين على يافا ، ولكن الصليبيين استطاعوا ردها •

وكانت ظروف انجلترا قد اضطربت وأمل ريتشارد فى الاستيلاء على بيت المقدس قد تبدد ، والمرض قد داهمه فاضطر إلى عقد صلح الرملة فى شهر سبتمبر ١١٩٢ م شوال ٥٨٨ هـ •

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثالثة •

الحملة الصليبية الرابعة

تعد هذه الحملة نتيجة مباشرة لوفاة صلاح الدين فى شهر صفر سنة ٥٨٩هـ ـ مارس ١١٩٣م • فمنذ وفاته دعا البابا أنوسنت الثالث إلى حرب صليبية ضمن خطة وضعها للكنيسة على رأسها مشروع محو آثار حروب صلاح الدين فى الشرق واغتصاب بيت المقدس من المسلمين •

فدعا فى منتصف سنة ١١٩٨م ـ ٥٩٤هـ إلى حملة صليبية رابعة ، واستجاب له فيها عدد من الأمراء وتولى قيادتها عدد من البارونات الفرنسيين والفلمنكيين وإن كانت الغلبه للعنصر الفرنسى •

وبعد مداولات بين أمراء الحملة وقوادها رأوا أن يتجهوا بها إلى مهاجمة مصر أولا ثم بيت المقدس بعد ذلك •

وبدأت الاستعدادات بالتعاون مع البندقية لتمدهم بالسفن واحتشد الصليبيون فى البندقية فى صيف ١٢٠٢م ـ ٥٩٨هـ ، غير أن البنادقة اشترطوا على الصليبيين ثمنا لهذا التعاون أن يهاجموا مدينة زارا ويستردوها من ملك هنغاريا واستجاب الصليبيون لذلك على الرغم من غضب البابا وإصداره قرار الحرمان ضد الحملة كلها ثم قصره على البنادقة أخيرا •

وبينما يستعد الصليبيون للاتجاه نحو مصر إذا بثورة تنشب فى القسطنطينية تطيح بالإمبراطور إسحق الثانى ، فيفر ابنه الكسيوس إلى الغرب طالبا المساعدة من البابا ومن الصليبيين عارضا فى مقابل ذلك إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية ومساعدة الصليبيين فى حملتهم ضد مصر •

وصادف ذلك هوًى فى نفس البابا ومصلحة لدى البنادقة ، وتشفيا من الصليبيين فى الدولة البيزنطية•• فاتجهت جموع الصليبيين إلى القسطنطينية واستولت عليها ١٢٠٤م وقاموا بتخريبها والعدوان على أهلها حتى تمنى بعض البيزنطيين أن لو كانت القسطنطينية

قد وقعت فى أيدى المسلمين ، وقد أحرق الصليبيون بعض الكنائس والجامع القديم الذى بنى فى عهد بنى أميه وقاموا بسلب المدينة ٠

واستولت الكنيسة الكاثوليكية على الكنيسة الأرثوذكسية ورأسها أول كاثوليكى منذ إنشائها ٠

ولقد كان من نتائج هذه الحملة أن فترت همة المحاربين فى الحروب الصليبية الآتية ، لاستيقان الناس بأنها غارات بربرية وليست حروبا دينية٠

كما عمقت هذه الحملة الخلاف بين مسيحيى الشرق ومسيحى الغرب ، وجعلت الطريق البرى إلى الشام أشد وعورة وأعظم خطرا ٠

كما أغرت كثيرين من فرسان الصليبيين فى الشام إلى أن يتركوا الشام ومتاعبة ويتجهوا إلى قبرص أو البلقان ليهنئوا بحياة مستقرة ٠

وبالجملة فقد أضعفت الحملة الصليبية الرابعة مركز الصليبيين فى الشرق الإسلامى وزعزعت مكانتهم ٠

لذلك قرر أحد مؤرخى الحروب الصليبية : « أن الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيرا بفشل الحركة الصليبية بأكملها » [١]

الحملة الصليبية الخامسة

لم تستقر الأمور بين المسلمين والصليبيين بعد فشل الحملة الصليبية الرابعة ـ على الرغم من الاتفاقات والمعاهدات ـ ذلك أن الصليبيين أسرع إلى نقض العهود والغدر والخيانة وتلك كانت طبيعتهم ٠

فقد أراد الاسبتارية فى حصن الأكراد أن يستولوا على مدينة حمص سنة ٦٠٤هـ ـ ١٢٠٧م فتكررت هجماتهم عليها حتى وصلوا إلى أسوارها فاستنجد صاحب حمص آنذاك

١ ـ سعيد عاشور : الحركة الصليبية: ٩٤٠،٢ نقلا عن : Grousset: op Cit, Tome III, p. 175.

أسد الدين شيركوه الثانى بالملك الظاهر صاحب حلب فسير إليه عسكراً منع عنه الصليبيين ٠

وفى شتاء سنة ١٢٠٧م ـ ٦٠٤هـ استولى قراصنة صليبيون من قبرص على سفن مصرية وأسروا من فيها، فخرج إليهم السلطان العادل على رأس جيش قاصدا عكا ، وانتهى الأمر برد أسرى المسلمين ٠

ثم اتجه العادل إلى حصن الأكراد لإبعاد خطر الاسبتارية عن حمص فعسكر عند بحيرة قدس قرب حمص ، وجمع هناك قوة من عدد من الأمراء ثم اعلن أنه يقصد طرابلس بينا قصد حصن الأكراد فهاجمه وأسر خمسمائة رجل وغنم وإن كان لم يستطع الاستيلاء على الحصن لمناعته ٠

ثم زحف العادل إلى طرابلس واستولى فى طريقه إليها على حصن القليعات ولكنه أطلق سراح حاكمه ٠

وقد أدت حروب العادل هذه إلى أن يسرع يوهيمند الرابع صاحب طرابلس إلى طلب الصلح فأجابه العادل إلى ذلك ٠

كما أن الملك حنا برين عقد معاهدة مع السلطان العادل مدتها ست سنوات من ١٢١١م ـ ١٢١٧م ـ ٦٠٨هـ ـ ٦١٤هـ ٠ وإن كان حنا هذا أُخذ يدبر مع الصليبيين حملة لغزو مصر عقب انتهاء الهدنة مباشرة فأخذ يراسل روما ويطلب إعداد هذه الحملة ، وما إن انتهت الهدنة حتى كانت دعوة حنا برين قد أثمرت ، وبدأت الجموع الصليبية تشق طريقا نحو الشرق ٠

كما دعا البابا أنوسنت الثالث لحملة صليبية جديدة سنة ١٢١٣م وأعلن أن هذه الحملة يجب أن تتجه نحو الشام مباشرة ٠

ووصلت الحملة الصليبية إلى الشام فى ٦١٥هـ ـ خريف ١٢١٧م تحت زعامة ليوبولد السادس دوق النمسا وأندريه الثانى ملك هنغاريا ثم لحق بهما بهايهو ملك قبرص ٠

واجتمعوا فى عكا فى شهر أكتوبر ١٢١٧م وقرروا البدء بمهاجمة القلعة الجديدة التى

شيدها العادل على جبل الطور للسيطرة على إقليم الجليل واتجه إليهم الملك العادل ، ولكنه آثر الانسحاب من وجههم فاستولوا على بيسان ، ثم عبروا الأردن واوغلوا حتى وصلوا إلى نوى •

ووجه العادل اهتمامه إلى الدفاع عن دمشق وبيت المقدس ، واتجه الصليبيون إلى قلعة الطور ولكنهم عجزوا عن الاستيلاء عليها •• ثم عاد ملك هنغاريا إلى بلاده ولم تحقق حملته مع ملك النمسا شيئا سوى هدم حصن الطور الذى هدمه العادل بنفسه لما رأى مايجره عليه من عداء الصليبيين •

أما دعوة حنا برين لمهاجمة مصر لأنها عند الصليبيين هى مفتاح بيت المقدس لذلك تدفقت جموع الصليبيين على الشام استجابة لدعوة البابا أنوسنت الثالث والملك حنا برين •

وخرج حنا برين لمهاجمة مصر ومعه تلك الجموع والاسبتارية والداوية والقبارصة قاصدا دمياط فى ٦١٦هـ ـ مايو ١٢١٨م وكان حنا زعيم الحملة ، ولم ينس الصليبيون أن يتصلوا بملك الحبشة المسيحى ليعاونهم فى ضرب الإسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة •

ووصلت سفنهم دمياط ، وعلم الملك الكامل بن الملك العادل بوصولهم ، فأسرع بالتحرك إلى جنوب دمياط ، بينما رسا الصليبيون على الضفة الغربية للنيل ، وأخذ الصليبيون يهاجمون برج السلسلة ثلاثة أشهر ثم استولوا عليه فى نهايتها ، وقد حاول المسلمون إقامة العوائق فى النيل حتى لا تدخله سفن الصليبيين ولكن الصليبيين أفسدوا كل هذه العوائق •

وانتظر حنا برين فى مواجهة الجيوش الإسلامية حتى جاءه مدد من أوربا على رأسه الكاردينال « بلاجيوس » مندوب البابا والقائد الأعلى للصليبيين فى حملتهم على مصر •

وحاول الملك المعظم أن يشغل الصليبيين عن مصر فهاجم قيسارية وهدمها واستولى عليها، لكنه لم يستطع المضى فى الاستيلاء على مايريد من القلاع والحصون • وتوفى الملك

العادل فى جمادى الثانية سنة ٦١٥هـ ـ ٩ أكتوبر ١٢١٨م وخلفه ابنه الملك الكامل فى حكم مصر وابنه الملك المعظم فى حكم دمشق •

وفى شهر رجب من نفس العام هاجم الملك الكامل الصليبيين فى دمياط ولكن الصليبيين تغلبوا عليه • ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى دبر الأكراد مؤامرة للإحاطة بالملك العادل فاضطر إلى الفرار ليلا فلما رأى الجند فرار السلطان تخاذلوا وانصرفوا فعبر الصليبيون النيل إلى الضفة الشرقية وأصبح سقوط دمياط وشيكا • غير أن وصول الملك المعظم لنجدة أخيه الملك الكامل جعل دمياط تثبت أمام هجمات الصليبيين •

واستنجد المسلمون بإخوانهم فى الشرق والغرب وأجابهم عدد لابأس به ، وفى نفس الوقت وصلت للصليبيين إمدادات ضخمة من جزيرة قبرص •

وصادف ذلك هجوم جيوش جنكيز خان للدولة الخوارزمية، فاضطرب الكامل وأحس أن حماية الجبهة الإسلامية الشرقية من المغول عمل ضرورى فعرض الصلح على الصليبيين فرفض الصليبيون وبخاصة بلاجيوس مندوب البابا هذا الصلح وإن قبله حنا برين •

فهاجم الصليبيون معسكر الملك الكامل ، وفشلوا فى ذلك ومنوا بهزيمة ولكنهم ظلوا محاصرين لدمياط،وجاءتهم نجدة من الإنجليز والفرنسيين فى حين ساءت الأحوال فى مصر وغلت الاسعار فسقطت دمياط فى أيدى الغزاة فى شهر شعبان ٦١٦هـ ـ نوفمبر ١٢١٩م وأعملوا القتل فى أهلها والإفساد لكل مافيها ، ثم اتخذوا منها مركزا وحصنا يهددون منه القاهرة ويتحكمون منه فى شرق البحر المتوسط •

وفى ذلك الوقت كانت جيوش التتار قد وصلت إلى قرب بغداد واستنجد الخليفة العباسى بالملك الأشرف أخى الملك الكامل ولكن الأشرف اعتذر بأنه ذاهب لنجدة اخيه ضد الفرنج •

وقد اغتر الصليبيون باستيلائهم على دمياط ورفضوا عروضا من الملك الكامل كانت مغرية حقا ليجلوا عن دمياط•• فاتجهوا إلى مهاجمة القاهرة وتحركوا نحوها فى أواخر يونيو

١٢٢١م ـ ٦١٩هـ وكان الملك الكامل قد نقل معسكره إلى فارسكور حيث خيم بالمنزلة الجديدة التى شيدها على الشاطئ الشرقى للنيل« المنصورة » وجمع الملك الكامل وأخواه المعظم والأشرف كل قوة يمكنهم جمعها واستعدوا لمواجهة الصليبيين ٠

وعرض الملك الكامل على الصليبيين عرضه من جديد ولكنهم أبوا وشرعوا فى التحرك نحو القاهرة وتقدموا وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات هى : بحيرة المنزلة من الشرق وفرع دمياط من الغرب والبحر الصغير من الجنوب ٠

ووقفت السفن الإسلامية فى النيل لتسد الطريق عليهم وتمنعهم من الاتصال بمركزهم فى دمياط وكان وقت الفيضان للنيل ، فقطع المسلمون السدود فغرقت أكثر الأرض المحيطة بالصليبيين ولم يبق لهم للعودة إلى دمياط سوى طريق ضيق ملأه الملك الكامل بالقوات العسكرية التى أخذتهم وهم يحاولون العودة إلى دمياط ٠

وساء موقف الصليبيين وتجمدوا عند البرامون فلايستطيعون المضى ولا العودة ولايستطيعون القتال فى الوحل فطلبوا هم الصلح هذه المرة خانعين طالبين النجاة بأنفسهم فقط فاجابهم الملك الكامل إلى ذلك بشرط أن يرسلوا له برهائن من الملوك حتى يسلموا دمياط للمسلمين، وجلوا عن دمياط فى رجب سنة ٦١٨هـ سبتمبر ١٢٢١م ودخلها الملك الكامل والمسلمون ٠

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة التى دعا إليها حنا برين والبابا أنوسنت الثالث وعادت من غزو مصر بالخزى والمذلة والانسحاب ٠

الحملة الصليبية السادسة

بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة ، اضطربت أحوال الصليبيين فى الشام ووقع بينهم من الخلاف مازعزع مكانتهم وما جعل بعضهم يتجه إلى أوربا والبابا من جديد طالبين حملة صليبية تعزز وجودهم فى الشام ٠

وقد كان نزاعٌ حاد قد نشأ بين البابوية والإمبراطورية فى غرب أوربا وقد استمر هذا

النزاع قرنين من الزمان على وجه التقريب ؛ وكان سببه التنافس بين السلطتين الدينية والعلمانية فى أوربا ٠

ومن أجل هذا الصراع بين الكنيسة والسلطة العلمانية لم تحدث استجابة لطلب الصليبيين فى الشام بعد فشل الحملة الخامسة على مصر ٠

فإذا أضفنا إلى تلك الأحداث، أحداثا أخرى جرت للمسلمين وبالتحديد لابناء العادل: الكامل والمعظم والأشرف أبناء أخي صلاح الدين ، وماوقع بينهم من خلاف حاد أوشك على التحارب والتقاتل ، بل دخلت فيه فعلا حرب مرئية وأخرى غير مرئية ٠

بالإضافة إلى خطر خارجى اخذ يهدد الدولة الأيوبية من الخوارزميين الذين شتتهم جنكيز خان ، فتجمعوا فى أصفهان وأخذوا يهددون الشام والعراق ، كل ذلك جعل الملك الكامل يستعين ـ مخطئا فى ذلك من غير شك ـ بالإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا ، للتغلب على متاعبه الداخلية مع أخويه والخارجية مع الخوارزميين فى مقابل أن يتنازل له عن بيت المقدس وكل ما حققه صلاح الدين من انتصار فى حطين ٠

وقبل فردريك الثانى هذا العرض وتجهز وأعد جيشا لمساندة الملك الكامل ضد الخطرين اللذين يهددانه ٠

وفى ذات الوقت أخذ البابا هنريوس الثالث يلح على الإمبراطور فردريك الثانى ليعد حملة صليبية للشرق تستعيد هيبة الصليبيين والكنيسة هناك. ولما مات البابا هنريوس الثالث خلفه جريجورى التاسع وأخذ يلح كذلك من أجل أن يقوم الإمبراطور بهذه الحملة ، فأبحر الإمبراطور من برنديزى قاصدا بلاد الشام، ولكنه عاد مدعيا المرض، فاعتبر البابا هذه العودة نكوصا فأصدر ضده قرار الحرمان فى آخر سبتمبر سنة **١٢٢٧**م٠ فخشى الإمبراطور غضبة البابا فخرج قاصدا عكا وكان جزء كبير من جيشة قد سبقة إلى بلاد الشام ٠

وكان فردريك لا يحب أن يدخل فى حرب مع المسلمين لأسباب كثيرة ربما كان منها

عناده للبابا وكراهيته للكنيسة وربما كان منها حبه للمسلمين والإسلام بحكم نشأته فى صقلية المسلمة ٠

وكانت حملة فردريك هى الحملة الصليبية الملعونة من الكنيسة، وأخيرا وصل رجال الإمبراطور إلى عكا فى ٦٢٥هـ ـ إبريل ١٢٢٨م بينما تخلف الإمبراطور نفسه فى قبرص ٠

فخابت آمال الكنيسة والصليبيين والملك الكامل جميعا فى حملة فردريك ، وعندما وصل فردريك إلى عكا فى أخريات عام ٦٢٥هـ ـ سبتمبر ١٢٢٨م بهدف الحصول على بيت المقدس من الملك الكامل مقابل حمايته من أخيه المعظم ، وجد المعظم قد مات والكامل قد أمن هذا الشر، وأصبح فردريك فى حرج من أمره وكذلك الملك الكامل ، فالكامل لايود أن يحارب الصليبيين فى هذه الظروف القلقة داخليا، وفردريك ماخرج ولا استعد لحرب المسلمين وإنما لحماية الكامل فى مقابل بيت المقدس ـ دون حرب ـ ولو فكر فى الحرب فلن يستجيب الصليبيون له وهو محروم من الكنيسة، فلم يجد أمامه إلا أن يفاوض ويستعطف ليأخذ بيت المقدس فيعزز بها مكانته فى أوربا كلها وبلغ من استعطافه أن كتب للسلطان الكامل : « أنا مملوكك وعتيقك ، وليس لى عما تأمره خروج، وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى، فإن رجعت خايبا انكسرت حرمتى بينهم، وهذا القدس فهى أهل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخربوها فليس لها دخل طائل ، فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه ، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر » ومن عجب أن وافق الكامل وأجاب فردريك إلى ماطلب وعقد معه اتفاق يافا سنة ٦٢٦هـ ـ فبراير ١٢٢٩م وفيها هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنين ويأخذ فردريك بيت المقدس ولكن لايجدد سور القدس وتكون قرى القدس للمسلمين لاحكم فيها للفرنج ، وأن يكون الحرم كله بأيدى المسلمين وليس للفرنج إلا الزيارة »

وبدموع فردريك واستعطافاته حقق ماعجزت عنه ملوك الفرنج وأمراء الصليبيين منذ انتزع صلاح الدين القدس منهم ٠

وقد كان لذلك أسوأ الأثر فى نفوس المسلمين حتى إنهم أقاموا المآتم وقالوا المراثى فى

القدس ، وذهب فردريك إلى بيت المقدس وتوج نفسه لأن الكنيسة رفضت أن تتوجه ، وعندما زار فردريك المسجد الأقصى ، علم أن السلطان الكامل أمر المؤذنين بعدم إقامة الأذان طيلة وجود الإمبراطور فى المدينة فاستاء فردريك لذلك وقال للقاضى شمس الدين : « أخطأت فيما فعلت والله إنه كان أكبر غرضى فى البيت المقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل » [١] ثم إن فردريك رأى قسيسا بيده الإنجيل يهم بدخول المسجد الأقصى فزجره الإمبراطور وطرده، وهدد كل من يدخل المسجد الأقصى من الفرنج بغير إذن وقال: « إنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه ، فلا يتعدى أحد منكم طوره » [٢] ٠

ثم ذهب فردريك إلى يافا ثم غادرها إلى عكا تاركا بيت المقدس، وكانت عكا تعيش صراعا بين الصليبيين الذين فيها ، وحاول فردريك أن يبرر أعماله أمام رجال الدين ولكنه عورض ٠

وكان البابا قد أمر جيوشه بالاعتداء على أراضى فردريك وممتلكاته فى إيطاليا وساعده فى ذلك حموه حنا برين، فوجد أن مصالحه تقتضى أن يغادر عكا ويتجه إلى مملكته، فوصل إلى إيطاليا فى ١٠ يونيو ١٢٢٩م ٠

وهكذا انتهت الحملة الصليبية السادسة وقد أخذت بيت المقدس هدية من الملك الكامل الذى ضيع جهد عمه صلاح الدين فى الاستيلاء عليه ٠

---

١ ـ د ٠ سعيد عاشور: الحركة الصليبية ١٠١٥/٢ نقلا عن : السلوك للمقريزى: ٢٣١/١ ٠

٢ ـ السابق : ١٠١٥/٢ ٠

الحملة الصليبية السابعة

منذ عقد الملك الكامل صلح يافا مع فردريك الثانى امبراطور ألمانيا ، وشئون البيت الأيوبى فى اضطراب •

وقد أحس الصليبيون بذلك ، وبخاصة الاسبتارية فأغاروا على منطقة بعرين فى خريف سنة ١٢٢٩م ـ ٦٢٧ هـ ، ونهبوا البلاد وقتلوا وأسروا وسبوا •

وكان الملك المظفر صاحب حماة غير مستعد للدخول معهم فى حرب فقبل أن يدفع لهم مبلغا من المال . ولما لم يستطع الوفاء بما وعد،تجمع الاسبتارية والداوية فى قوة كبيرة ، وهاجموا الملك المظفر ، فاشتبك معهم فى معركة عند أفيون بين بعرين وحماة وأنزل بهم هزيمة منكرة سنة ٦٢٨ هـ وساق أمامه الأسرى •

وفى سنة ١٢٣٣م ـ ٦٣٠ هـ رغب الاسبتارية فى الحصول على أموال فرضوها على المظفر ، فاستعانوا بجميع قوى الفرنجة مثل الداوية وإمارة أنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس وصليبى قبرص ، ثم زحفوا على حصن بعرين ليلا . فاحتلوا البلد واستعصت عليهم القلعة وعادوا بأسلاب وأموال كثيرة دون أن يصطدموا فى حرب مع المسلمين •

وقد كان الأيوبيون فى ذلك الوقت مشغولين بمناوأة علاء الدين كيقباد سلطان سلاجقة الروم الذى استولى على خلاط ، مما جعلهم يسكنون على هذا العدوان الصليبى على بعرين •

وفى هذه الفترة كان الداوية يحتلون حصن بغراس بينما كان الأيوبيون يسيطرون على حصن دربساك وبين الحصنين مسافة قصيرة ، مما كان يجدد الاشتباكات بين الطرفين ، ويولد الرغبة عند كل طرف فى الاستيلاء على حصن الطرف الآخر •

فأغار الداوية على حصن دربساك سنة ٦٣٤ هـ ـ صيف عام ١٢٣٧م ولكن المسلمين قاوموهم ، ووصلت للمسلمين قوة من حلب فاستطاعوا التغلب على الداوية وقتلوا معظمهم وأسروا عددا منهم •

والحق أن البيت الأيوبى فى هذه الآونة كان يعانى من أخطار أربعة :

أولا : انقساماتهم الداخلية فيا بينهم ·

ثانيا : جلال الدين والخوارزمية الذين استولوا على خلاط ·

ثالثا : علاء الدين كيقباد سلطان سلاجقة الروم ·

رابعا : الصليبيين فى الشام كله ·

ولقد دارت من أجل ذلك معارك عديدة فتغلبوا إلى حد ما على انقساماتهم الداخلية وحاربوا علاء الدين ثم حالفوه ، وحاربوا الخوارزمية ومعهم حليفهم علاء الدين حتى قضوا عليهم وأجلوهم عن خلاط · ثم حاربوا علاء الدين ثانيا ·

وكان خطر خامس يتربص بهم ويوشك أن يطبق عليهم هو خطر المغول الزاحفين صوب الشرق ·

ثم توفى الملك الكامل ٦٣٥ هـ ـ ١٢٣٨م بعد قضائه على مؤامرة من إخوته تستهدف القضاء عليه وخلفه فى حكم مصر ابنه الصالح أيوب ، وزاد الانقسام بين أبناء البيت الأيوبى وتضعضعت مكانته ، مما أطمع الصليبيين فى عمل مضاد جديد ·

فدعت البابوية إلى حرب صليبية جديدة فاستجاب لها عدد من أمراء فرنسا وأعدت حملة بقيادة ثيبوب الرابع وصلت إلى عكا ٦٣٧ هـ ـ سبتمبر ١٢٢٩م وكان الناصر داود صاحب الأردن قد استطاع أن يستولى على بيت المقدس من الصليبيين لأنهم نقضوا الهدنة وحصنوها ، وعندئذ فكر قواد الحملة الصليبية الفرنسية فى مهاجمة بيت المقدس أو دمشق أو مصر أو عسقلان واختلفوا ثم هاجموا عسقلان واستولوا فى طريقهم إليها على قافلة من المسلمين ، واتجهوا صوب غزة لملاقاة جيوش سيرها ضدهم العادل الثانى فلقوا هناك هزيمة منكرة وعادت فلولهم خائبة إلى عكا ·

ولكن النزاع بين الأمراء الأيوبيين جعل الصالح إسماعيل يتحالف مع الصليبيين ضد بقية أمراء بنى أيوب وفى مقابل ذلك سلمهم القدس وعسقلان وطبرية ـ وذلك فى إثر عزل العادل الثانى وتولية الصالح أيوب أمور مصر ٦٣٧ هـ ـ ١٢٤٠م · وقد أدى ذلك إلى

زعزعة مركز الصالح إسماعيل وثورة الناس عليه وبخاصة عالمان جليلان هما : العز بن عبد السلام وابن الحاجب ، حتى إن جنود الصالح إسماعيل انسحبت من جَيشه رافضة الدخول فى معركة ضد المصريين وتجمعوا مع المصريين لحرب الصليبيين فى غزة وهزموهم هزيمة نكراء ٠

ولم تجد هذه الحملة الفرنسية بدا من العودة إلى بلادها ، فعادت بعد أن عقدت معاهدة مع الصالح أيوب ٦٣٩ هـ ـ ١٢٤٠م ٠

وما إن عاد ثيبوت وحملته إلى غرب أوربا ، حتى وصلت حملة انجليزية إلى عكا بقيادة ريتشارد كورنوول أخو هنرى الثالث ملك انجلترا ٠٠ واتجه إلى تحصين عسقلان ليأمن أى هجوم من جانب مصر ، واعترف الصالح أيوب بحق الصليبيين فى ملكية الشقيف أرنون وإقليم الجليل ، وبيت المقدس وبيت لحم ومجدل وعسقلان ، وكان هدف ريتشارد تثبيت عمل ثيبوت وإتمامه ، ثم قفل راجعا إلى بلاده ٠

وفى سنة ٦٤٢ هـ ـ ١٢٤٤م استعان الصالح أيوب بالخوارزمية ضد أقربائه ـ أمراء دمشق والأردن وحمص الذين تحالفوا مع الصليبيين لغزو مصر ـ فاندفع الخوارزمية نحو بلاد الشام فاستولوا على كثير من القرى والمدن فى طريقهم إلى دمشق واستعصت عليهم دمشق فاتجهوا صوب الجليل فاستولوا على طبرية ونابلس ، ثم اقتحموا بيت المقدس فى شهر صفر سنة ٦٤٢ هـ ـ ١١ يوليو ١٢٤٤م واستولوا عليها ، وقضوا على كل معالم النصرانية فيها وطردوا منها الصليبيين إلى غير رجعة ، فعادت بيت المقدس نهائيا إلى المسلمين وظلت فى أيديهم سبعة قرون متوالية حتى دخلها الجنرال ألنبى القائد الإنجليزى سنة ١٣٣٥ هـ ـ ١٩١٧م وقال كلمته المعروفة ـ الآن انتهت الحروب الصليبية ٠

واستطاع الخوارزمية مشتركين مع المصريين بقيادة ركن الدين بيبرس أن يواجهوا الصليبيين ومن يحالفهم من منافقى المسلمين ـ على حد تعبير أبى شامة فى الروضتين ، فى غزة ٦٤٢ هـ ـ أكتوبر ١٢٤٤م ، وأن يوقعوا بهم هزيمة نكراء كانت أعظم كارثة حلت بالصليبيين بعد حطين ، حتى سماها بعض المؤرخين « حطين الثانية » وفى سنة ٦٤٥ هـ ـ

١٢٤٧م استطاعت جيوش الصالح أيوب أن تستولى على قلعة طبرية من الصليبيين وفى نفس العام استولت الجيوش الإسلامية على عسقلان ، وأصبح السلطان الصالح أيوب يسيطر على مصر والشام وبيت المقدس وفى بيت المقدس جاء إلى الصالح أيوب ملوك البيت الأيوبى لتقديم الولاء والطاعة ، فى حين أضحى أمر الصليبيين فى الشام فى تباب وضياع ·

وعندما سقطت بيت المقدس فى أيدى الخوارزمية سنة ٦٤٢ هـ ـ ١٢٤٤م استنجد بطرق بيت المقدس بالغرب الأوربى والبابا وطلب المعونة ، فانعقد مجمع ليون فى صيف عام ١٢٤٥م وقرر إنفاذ حملة صليبية إلى الشرق ، ولكن الخلافات بينهم جعلتهم لم يبادروا إلى إنفاذها ·

وكان لويس التاسع ملك فرنسا مريضا آنذاك فنذر إن شفى أن يشن حملة على المسلمين ، فلما شفى أخذ يستعد طيلة ثلاث سنوات ثم أبحر فى أواخر شهر أغسطس ١٢٤٨م قاصدا الشرق ومعه زوجه وأخواه : روبرت وشارل ، وكان هدف الحملة توسيع النفوذ الفرنسى أكثر من تثبيت المكانة الدينية للصليبيين فى الشرق ·

واتجهت الحملة إلى مصر قاعدة الإسلام القوية آنذاك وتوقفت فى قبرص لتجمع الجنود والإمدادات ، والسفارات الودية بينه وبين المغول والداوية والاسبتارية ·

وفى شهر مايو ١٢٤٩م تحركت جيوش لويس التاسع من ليماسول إلى دمياط فوصلتها فى أوائل شهر يونيو ، وعندئذ أرسل لويس التاسع خطابا إلى الملك الصالح أيوب يهدد ويتوعد ويدل ، جاء فيه أن مسلمى الأندلس : « يحملون إلينا الهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ·· فلو حلفت لى بكل الأيمان ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ماردنى ذلك عن الوصول إليك ·· » ووصلت الرسالة الى الملك الصالح وهو على فراش مرض الموت فكتب رادا عليه : « فلو رأت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم

الحصون والسواحل وإخرابنا منكم الديار الأواخر والأوائل لكان منك أن تعض على أناملك للندم »[1]

ولما وصل لويس إلى دمياط كان الصالح أيوب قد حصنها وملأها جندا وعتادا ووضع أمامها الجيش الذى يحول دون نزول الصليبيين ، وقرر الصليبيون النزول على الشاطئ الغربى من النيل وماكان نزولا سهلا وإنما دارت معركة رهيبة بينهم وبين المسلمين ، وكانت الغلبة للصليبيين لكثرة عددهم ، واتجه الجيش الأيوبى إلى أشموم طناح ، تاركا دمياط للصليبيين وخرج من دمياط أهلها وحاميتها بعد أن أشعلوا النار فى سوقها ، فتملكها الصليبيون بغير قتال .

ثم بقى الصليبيون فى دمياط خمسة أشهر فى انتظار مدد من أوربا ، وكان الصالح أيوب ينظم الدفاع من فراش الموت .

ووصل الفونس أخو لويس التاسع ومعه المدد فى أواخر أكتوبر ١٢٤٩م وقرر الصليبيون الزحف على القاهرة فتحركوا فى نوفمبر ١٢٤٩م وفى اليوم التالى من زحفهم توفى الصالح أيوب فى المنصورة ، فأخفت زوجه شجرة الدر نبأ موته من أجل المعركة وجمعت الأمراء القواد وأخذت منهم البيعة لتوران شاه ابن الصالح أيوب وأرسلت فى إحضاره من حصن كيفا ، واستمر الاستعداد للحرب وكانت المراسيم تصدر باسم السلطان الميت .

غير أن خبر الوفاة تسرب وعرفه الصليبيون فأسرع لويس فى الهجوم فتحركت جيوشه من دمياط إلى القاهرة عن طريق الدلتا فى طريق ملىء بالترع والقنوات واستمر الصليبيون فى سيرهم حتى حصروا بالمياة من شمالهم الشرقى ببحيرة المنزلة ومن غربهم بدمياط ومن جنوبهم ببحر أشموم « البحر الصغير » وكان بحر أشموم فى طريقهم إلى المنصورة واستغل الأمير فخر الدين الموقف الطبيعى ، فهاجم الصليبيين بين فارسكور وشرمساح هجمات محدودة عرقلت سيرهم وأوقعت عددا منهم فى الأسر .

وأدرك لويس التاسع صعوبة موقفه وهو عاجز عن العبور إلى المنصورة والمسلمون

---

١ ـ المقريزى : السلوك : ١/٣٣٤ ـ ٣٣٥

أمامه على الضفة الأخرى للنهر ، فعبر بحر أشموم عن طريق مخاضة دلَّه عليها أهل سلمون ـ وغالبيتهم نصارى ـ وماعلم الأمير فخر الدين بعبور الصليبيين من عند سلمون حتى جمع رجاله ووقف فى مواجهة الصليبيين ٠

وقد عبر روبرت أخى لويس بحر أشموم مع مقدمة الجيش الصليبى وبادر باقتحام المنصورة ومعه الملك لويس التاسع ، غير أن جيوش المسلمين بقيادة بيبرس البندقدارى انقضوا على الصليبيين فزعزعوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وقتل روبرت نفسه وقتل من الداوية أكثرهم ، وكان ذلك ابتداء النصر على الفرنج ، وهزت الصدمة الملك لويس ولكنه تجلد وأقام على النيل جسرا من الصنوبر ليعبر عليه النيل تداركا للموقف ، غير أن الجيوش الإسلامية استبسلت وهاجمت معسكر الصليبيين يوم الجمعة ١١ فبراير وقاوم لويس التاسع طوال اليوم وعادت جيوش المسلمين إلى المنصورة ٠

وساء موقف الصليبيين وأدركوا أنهم أمام قوة يحسب لها أكبر حساب ، ثم حضر تورانشاه إلى مصر ففرح به المسلمون واستبشروا وارتفعت روحهم المعنوية وأدرك لويس صعوبة الزحف إلى القاهرة ففكر فى العودة إلى دمياط غير أن المسلمين كانوا قد قطعوا على الصليبيين بسفن أعدها تورانشاه واستولت تلك السفن على سفن الإمدادات الصليبية وعلى من كان فيها وماكان فيها ، وانتصرت السفن الإسلامية على الصليبيين فى ثلاث معارك ٠

واستعد الصليبيون للعودة إلى دمياط ملاذا وحيدا لهم فأحرقوا أخشابهم وخربوا سفنهم ، وأدرك لويس أنه فى الموقف الضعيف الحرج فبدأ يتفاوض مع المسلمين لترك دمياط وأخذ بيت المقدس ، وكان فى الحقيقة يريد أن يخرج وباقى جيشه سالما من هذا المأزق ، غير أن طلبه رفض ، فلم يجد بدا من الانتقال إلى دمياط فكان انسحابا أشبه بالهروب من المعركة ٠

ولم تكد جيوش الصليبيين تصل إلى فارسكور حتى قرر المسلمون مهاجمتهم فيها ، ودارت معركة رهيبة وقع فيها الجيش الصليبى كله مابين قتيل وأسير حتى لويس التاسع

نفسه سيق مكبلا بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن فى دار إبن لقمان وعهد بحراسته إلى الطواشى صبيح المعظمى ٠

وقد وضع تورانشاه من الشروط لتسليم لويس وأسرى الصليبيين ماشاء ، واتفق على أن تسلم له دمياط وأن تعقد هدنة مدتها عشر سنوات ووافق لويس التاسع وقبل أن تتم المعاهدة دبر المماليك البحرية وشجرة الدر لقتل تورانشاه لسوء سيرته وظلمه فقتلوه فى مايو ١٢٥٠م واستولت شجرة الدر على الحكم ثم تزوجت عز الدين أيبك وصار هو السلطان على مصر ، وأخذ يحكم مصر والشام منذ ذلك الحين نظام حكم جديد يتولاه المماليك ٠

ونفذوا المعاهدة مع لويس التاسع بعد أن أضافوا مايرون ، وتسلموا دمياط فى ٦ مايو سنة ١٢٥٠م وغادرها لويس التاسع فى ٨ مايو ١٢٥٠م فوصل عكا فى الثالث عشر من نفس الشهر ٠

ودولة المماليك هى التى قضت على الوجود الصليبى فى العالم الإسلامى القضاء الأخير ٠

وقد حاول لويس التاسع أن يصنع شيئا للصليبيين فى الشام فلم يوفق ، إذ حاول أن يتفق مع الأيوبيين فى الشام ضد المماليك فى مصر ، وحاول التحالف مع المغول ضد المسلمين ، ولكنه فشل فى كل ذلك ، فعاد خزيان إلى بلاده فى ٢٥ من إبريل سنة ١٢٥٤م ٠

وهكذا انتهت الحملة الصليبية السابعة دون أن تحقق شيئا مما كانت تطمع فيه ، وظهر فى الأفق الإسلامى دولة قوية هى دولة المماليك ٠

وكان المغول قد استشرى شرهم واستولوا على بلاد الشام بعد أن استولوا على بغداد ولم يعد أمامهم إلا مصر واليمن ٠

وكتب هولاكو يهدد السلطان قطز سلطان مصر من المماليك ، واستعد قطز لمعركة مع المغول وجيّش جيشا بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى سيره إلى غزة ، بعد أن كان قتل رسل هولاكو إليه وعلق رءوسهم بباب زويلة ٠

واحتلت جيوش المماليك غزة من المغول ، ثم اتجهت جيوشهم إلى استرجاع دمشق من المغول ، وعند عين جالوت دارت معركة بين المماليك والمغول انتصر فيها المماليك وكان هذا الانتصار الساحق على المغول فى عين جالوت نقطة تحوّل فى تاريخ العالم الإسلامى كله ، فقد كان المغول حربا على الحضارة والإنسانية جمعاء ٠

وبهذا الانتصار استطاع المماليك بسهولة القضاء على الأيوبيين فى الشام وسريعا ماوحد المماليك بين مصر والشام تلك الوحدة التى كانت نكالا على الصليبيين أيام صلاح الدين ٠

وعند عودة قطز إلى مصر قتله قائده بيبرس وتولى الحكم مكانه ، وسريعا ما أثبت بيبرس أنه كان أقدر الحكام وأكفأهم ٠

وكان من أبرز أعمال الظاهر بيبرس القضاء على الصليبيين فى الشام فأعد لهم حملة ضخمة تحركت من غزة سنة ٦٦٣ هـ ـ ١٢٦٥م أخذت تستولى على حصون الصليبيين حصنا حصنا حتى وصل إلى أرسوف ، ثم جاء دور عكا فاستعصت عليه ولكنه فتح صفد وهونين وتبنين والرملة ٠

وفى سنة ٦٦٥ هـ ـ ١٢٦٦م اتجه بيبرس إلى أرمينية الصغرى وإمارة أنطاكية وطرابلس لعقابهم على تحالفهم مع المغول ضد المسلمين ، وكانت جيوشه تلك تحت قيادة الأمير قلاوون ٠

فاستطاعت جيوش بيبرس أن تستولى على القليعات وحلباء وعرقه ، وهى أهم مراكز تحمى طرابلس ٠

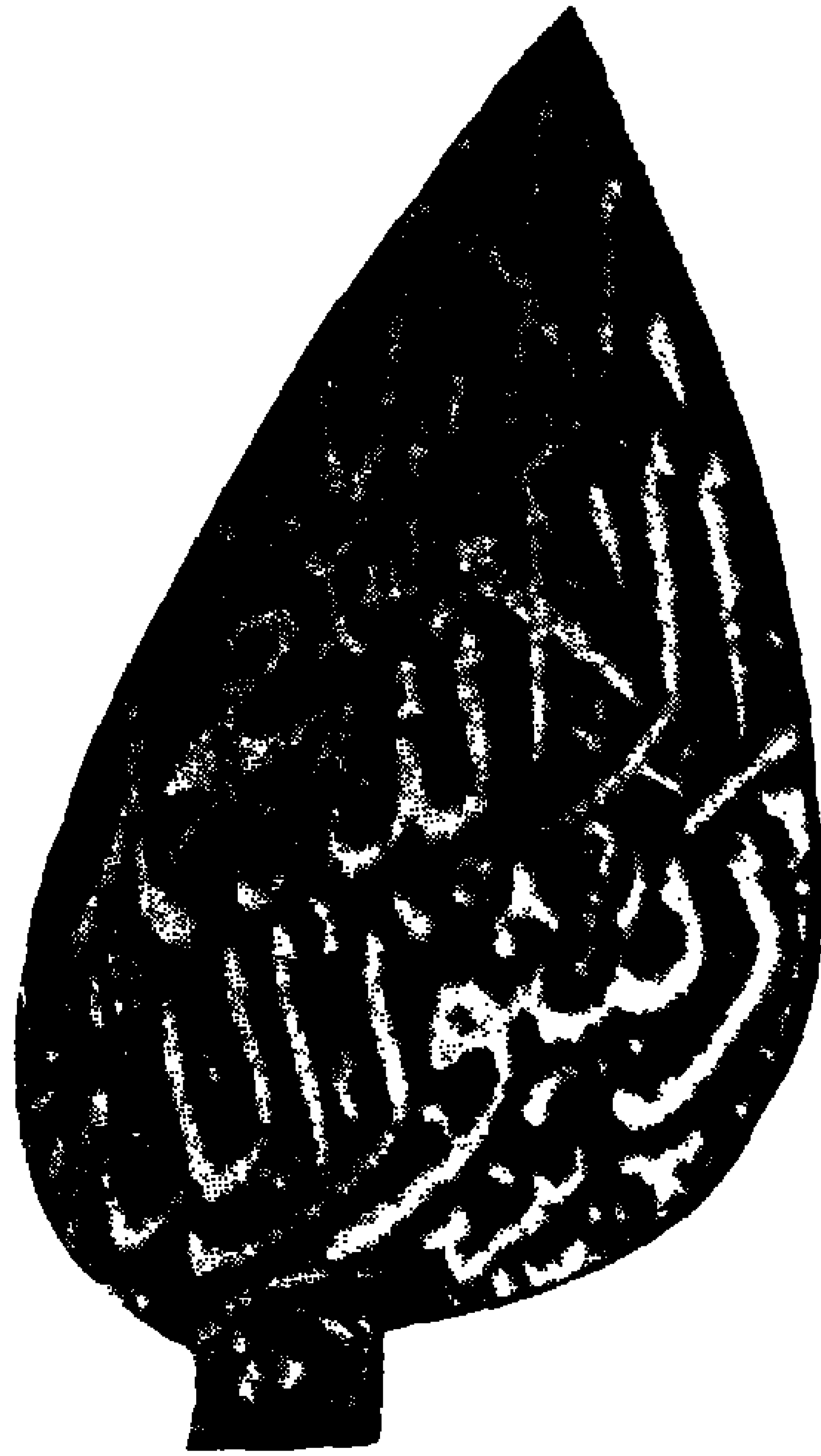
كذلك استولت هذه الجيوش على المصيصة وأذنة وطرسوس وميناء إياس وهى كذلك أهم مراكز تحمى أرمينية ، وقتلت أحد أبناء هيثوم ملك أرمينية وأسر ابنه الثانى ، أما الملك المنصور الأيوبى فقد اتجه إلى سيس عاصمة أرمينية واستولى عليها وأشعل فيها النار ، وعادت الجيوش إلى الشام وفى صحبتها أربعون ألف أسير وغنائم لاتحصى ٠

وحاول هيثوم أن يفتدى ابنه ولكن بيبرس أصر على أن يكون فداؤه قلعة دربساك

التى تتحكم فى طريق المواصلات بين أرمينية وأنطاكية ومرزبان ورعبان وشيح الحديد ، وكلها كانت فى إقليم مرعش وتتحكم فى الطريق بين الجزيرة حيث المغول حلفاء هيثوم وأرمينية الصغرى ٠

ثم اتجهت جيوش بيبرس إلى يافا فاستولت عليها وفى نفس العام ٦٦٦ هـ الذى استولت فيها على يافا ـ استطاعت أن تستولى على أنطاكية بعد حرب خطط لها بيبرس وأدارها بمهارة تلفت الأنظار وبذلك سقطت ثانى إمارة أسسها الصليبيون فى الشرق الإسلامى فى أيدى المسلمين ، وكان نصرا عظيما مؤزرا ، أبرز مافيه من مكاسب للمسلمين أنه قطع الصلة بين الصليبيين فى طرابلس وعكا بأرمينية من جانب ، وقضى على فكرة التحالف بين أرمينية وأنطاكية والمغول من جانب آخر ٠

وهكذا استطاع المماليك وقد جمعوا فى أيديهم من جديد بين مصر والشام أن يجعلوا الوجود الصليبى فى الشرق الإسلامى يعيش أيامه الأخيرة ٠



د ـ الممالك الصليبية فى الشرق الإسلامى

استطاع الصليبيون بعد أن انتصروا على المسلمين فى الحملة الصليبية الأولى أن ينظروا إلى وجودهم فى هذه البلاد التى تفيض لبنا وعسلا ، على أنه أمل تحقق ، يجب بذل كل مجهود ، وعمل كل احتياط من أجل المحافظة عليه ٠

وطوال بقاء الصليبيين فى الشرق الإسلامى ـ قرابة قرنين من الزمان ـ لم يتفقوا فيما بينهم إلا على أمرين :

الأول :

عداء شديد للإسلام والمسلمين ـ على الرغم من اضطرار بعضهم إلى مهادنة المسلمين أو الدخول معهم فى أحلاف ٠

الثانى :

الإصرار على المحافظة على وجودهم فى الشرق الإسلامى عموما وفى بيت المقدس والإمارات الحامية له المؤمنة لوجودهم فيه خصوصا ٠

أما ماوراء هذين الأمرين فلم يكن لهم فيه إجماع ولا كلمة سواء ، بل إن الخلافات الحادة بينهم لم تنقطع إلا لتتجدد ، ولم تضيقها جهود بعضهم إلا لتتسع من جديد ٠

ويكفى أن نذكر أن صليبى أوربا كانوا على خلاف مع صليبى الشرق ـ البيزنطيين ـ خلاف دينى وسياسى ، والكنيسة أو البابا على خلاف مع كثير من ملوك أوربا وأمرائها ممن يخضعون لسلطان الكنيسة الأوربية ـ الكاثوليكية ـ وملوك الصليبيين الأوربيين اختلف بعضهم مع بعض إلى حد القتال والحرب ٠

ولقد كان من مظاهر اتفاق الصليبيين فى الشرق الإسلامى أن عملوا على تأسيس ممالك فيه أو إمارات تحميهم وتؤمن وجودهم ، وتمدهم عند الحاجة بالرجال والعتاد والمئونة ٠

ولقد استطاع الصليبيون الغربيون أن يزرعوا فى بلاد المسلمين على الرغم منهم مملكة

قوية هى مملكة بيت المقدس ، وأن يقيموا عددا من الإمارات لدعم وجودهم الصليبى فى الشرق الإسلامى ، فأقاموا إمارة الرها ثم إمارة أنطاكية ، ثم إمارة طرابلس ٠

وقد استطاعوا أن يؤسسوا مملكة بيت المقدس وتلك الإمارات الثلاث فيما يقرب من عشر سنين ، بينما لم يستغرق إنشاء مملكة بيت المقدس وإمارتى الرها وأنطاكية سوى قريب من سنتين ٠

ونود فى هذه الصفحات أن نتعرف على مملكة بيت المقدس وعلى تلك الإمارات ، وعلى أشهر حكامها وأبعادها الجغرافية والسياسية ٠

أولا : مملكة بيت المقدس

سقطت بيت المقدس فى أيدى الصليبيين فى الثانى والعشرين من شهر شعبان سنة ٤٩٢ هـ ـ ٢٢ من يوليو ١٠٩٩ م ، والنزاع قائم بينهم حول من يحكمها ؟ أو حول نوع حكومتها منهم ؟ أتكون حكومة دينية تابعة للكنيسة ، أم تكون حكومة ملكية وراثية ؟

غير أن الملوك والأمراء تغلبوا على رغبة البابا وكنيسته وجعلوا بيت المقدس مملكة ، فما ان تولى جودفرى بوايون حكم بيت المقدس حتى أعطى بذلك لفرسانه حجة فى أن يصروا على أن يظل حكمها ملكيا ، كراهية فى البطرق الذى كان يتولى بيت المقدس ووقوفا فى وجه أطماعه ٠

ولما توفى جودفرى سعى عدد من الأمراء إلى تولية أخيه بلدوين أمير الرها الذى كان قدعين أميرا للرها سنة ١٠٩٨م ، فما إن جاءته الرسالة للحضور إلى بيت المقدس سبتمبر ١١٠٠م حتى حضر إليها فى نوفمبر ١١٠٠م ٠ وتوج ملكا على بيت المقدس فى ديسمبر ١١٠٠م ٠

وقد كان بلدوين من أقوى ملوك الصليبيين الذين حكموا بيت المقدس ، وقد استطاع أن يستولى على الشواطئ الفلسطينية التى تواجه مملكته ، فنجح فى الاستيلاء على

أرسوف وقيسارية سنة ١١٠١م ، ثم حيفا ويافا ، واتجه نظره إلى أهم الثغور والموانى على البحر المتوسط وهي : عسقلان وصور وعكا وصيدا وبيروت ٠٠

وقد استولى على عكا فى سنة ١١٠٤ م ـ ٤٩٧ هـ وسريعا ما استولى على سائر هذه الثغور بسهولة ما عدا عسقلان التى أضنته هى وصور ٠

وتعاقبت على مملكة بيت المقدس فى الفترة التى خضع فيها للصليبيين أكثر من عشرة ملوك ٠ غير أن أشهرهم وأكثرهم عملا وتثبيتا للصليبيين فى بيت المقدس كان بلاشك بلدوين الأول شقيق جودفرى ثم بلدوين الثانى ٠

وقد اتسعت مملكة بيت المقدس جغرافيا لتشمل إقليم ما وراء الأردن شرقا ، وبيروت وصيدا وصور وسكاندليون وعكا وحيفا وقيسارية وأرسوف ويافا وعسقلان ـ من الشمال إلى الجنوب ـ غربا ، وهونين وتبنين شمالا وحبرون وغزة والداروم جنوبا ٠

بل امتدت فى بعض الأحيان لتشمل دمشق وبصرى وعمان من جهة الشرق ٠ وشيدت قلاع على الطرف الجنوبى لهذه المملكة ٠

أما من الناحية السياسية فكان ملك بيت المقدس أبرز الملوك الصليبيين فى الشرق الإسلامى ، بل كان فى أغلب الأحيان ، هو السيد لكل الأمراء الصليبيين ٠

ثانيا : إمارة الرها

كانت الرها ـ وهى من مدن ما بين النهرين ـ فى أيدى المسلمين منذ فتحوها فى سنة ١٨ هجرية ـ ٦٣٩ م وظلت فى أيديهم حتى سنة ٤٩١ هـ أى ما يقرب من خمسة قرون ، ثم استطاع الصليبيون أن يحتلوها فى الحملة الصليبية الأولى ٠

بل كانت أول إمارة أسسها الصليبيون فى الشرق الإسلامى ، وكانت درعا وقى الصليبيين هجمات السلاجقة من فارس والعراق ، وأول أمير لها هو بلدوين الأول الذى اختير ملكا لبيت المقدس بعد وفاة أخيه جود فرى ، ثم خلفه عليها ابن عمه بلدوين دى بورج بعد أن توج بلدوين الأول ملكا لبيت المقدس ٠

وقد استطاع بلدوين دى برج أن يعزز وجوده وحكمه للرها بأن استعان بابن عمته جوسلين إذ منحه حكم جميع أراضى إمارة الرها غربى الفرات بما فيها تل باشر ـ مركز جوسلين ـ ودلوك عند مفرق الطرق بين حلب ومرعش والرها ، وعين تاب إلى الجنوب الشرقى من دلوك •

فأصبح جوسلين الرجل الثانى فى إمارة الرها •

ورأى بلدوين الثانى فى سبيل تعزيز إمارته أن يتوسع على حساب الأتراك فى الموصل وديار بكر ، فاستولى على سروج من حاكمها الأرتقى بلك بن بهرام وكانت سروج ثانى مدينة فى الرها •

وتولى إمارة الرها زمن أسر بلدوين الثانى تنكرد لمدة أربع سنوات ، ثم دار النزاع بينهما على إمارة الرها ، وكان سكان الرهـا خليطـا من الأرمـن والمسيحيين والفرنجـة والمسلمين ، فأخذ كل منهما يستعين بطائفة على بقية الطوائف ، وكان أن استعان بلدوين بالصليبيين وعادى الأرمن فكان هؤلاء تآمر عليه فطردهم من الرها • ١

وقد هاجم المسلمون الصليبيين فى الرها مرتين سنتى ٥٠٤ و ٥٠٥ هـ بقيادة مودود أتابك الموصل ولكنه لم يوفق فى إستعادتها •

ثم انتقلت إمارة الرها إلى جوسلين بعد أن أصبح بلدوين دى بورج ملكا على بيت المقدس باسم بلدوين الثانى ، ثم خلفه ابنه جوسلين الثانى ثم استولى عليها المسلمون سنة **٥٣٩** هـ بقيادة عماد الدين زنكى •

واشتملت إمارة الرها وهى فى حكم الصليبيين ـ جغرافيا ـ على جميع الأراضى الواقعة غربى الفرات ، وفى شرقى الفرات كانت أهم المدن التابعة للرها سروج ـ وأغلب سكانها من المسلمين ـ وسميساط على الضفة المقابلة للفرات ، وقلعة بيرة على نهر الفرات •

ومن الناحية السياسية كانت الرها وقاية للصليبيين من أى هجوم يقع عليهم من السلاجقة فى العراق أو فى بلاد فارس •

ثالثا : إمارة أنطاكية

تقع أنطاكية على نهر العاصى عند سفح جبل سيلبيوس ، وقد فتحها المسلمون سنة ١٦ هجرية ـ ٦٣٧ م ، وهى من أهم المراكز التجارية لوقوعها عند ملتقى الطرق الممتدة من الفرات إلى البحر المتوسط ، ومن البقاع إلى آسيا الصغرى •

وقد خضعت للإمبراطورية البيزنطية بعد أن ظلت فى أيدى المسلمين ثلاثمائة واثنين وثلاثين عاما ، إذ سقطت فى أيديهم سنة ٣٥٩ هـ ـ ٩٦٩ م •

ثم عادت للمسلمين سنة ٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥ م وظلت مع المسلمين حتى استولى عليها الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ ـ ١٠٩٨ م •

وظلت فى أيدى الصليبيين حتى سنة ٦٦٧ هـ ـ ١٢٦٨ م ، حيث استعادها المسلمون فى ذلك التاريخ وهم يقلمون أظفار الصليبيين ويستردون منهم البلاد التى استولوا عليها ، ولاتزال مدينة إسلامية حتى اليوم •

وبعد أن استولى الصليبيون على أنطاكية وأصبح بوهيمند أميرا لها ثم تنكرد ، ظلت أنطاكية حصنا يقف فى وجه السلاجقة حينا وفى وجه البيزنطيين حينا آخر •

وكانت اللاذقية فى حكم البيزنطيين بعد أن سقطت من حكم المسلمين سنة ٤٩١ هـ إلى أحد القراصنة المدعو ـ ويمار البولونى ـ ثم سقطت منه إلى الصليبيين البيزنطيين سنة ٤٩٢ هـ •

وكان لابد للصليبيين الأوربيين من الاستيلاء على اللاذقية لما لها من أهمية فى الإشراف على وادى نهر العاصى ، ومنه أنطاكية نفسها • لذلك حاصروا اللاذقية سنة ٤٩٣ هـ ـ ١٠٩٩ م ولكنهم تراجعوا عنها عائدين إلى أنطاكية بعد إنذار ريموند الصنجلى •

وكان للصليبيين الأوربيين عدة قلاع مثل زردنا وسرمين ، واستطاعوا أن يضيفوا إليها برج الحاضر قرب قنسرين ، وكفرطاب ، وشيزر ، ولما تولى تنكرد إمارة أنطاكية حرص على

أن يوسع حدودها على حساب البيزنطيين من جانب وعلى حساب المسلمين من جانب آخر •

فقد اهتم تنكرد بالاستيلاء على اللاذقية وقيليقية من البيزنطيين ، والجزء الأوسط من وادى نهر العاصى من المسلمين •

وقد استطاع تنكرد أن يستولى على المصيصة وأذنه وطرطوس وهى المدن الرئيسية الثلاث لهذا الإقليم •

ثم استولى على اللاذقية فى سنة ٤٩٧ هـ ـ ١١٠٣ م وبذلك أصبح لإمارة أنطاكية واجهة عريضة على البحر فضلا عن ميناء بحرى يربطها بالغرب •

ثم عاد بوهيمند إلى إمارة أنطاكية بعد أن أطلق المسلمون سراحه ، ثم أخذ يعمل على توسيع إمارته على حساب المسلمين الذين أطلقوا سراحه بالأمس فعاون بلدوين دى بورج على حصار حران ، وإن كان المسلمون قد تغلبوا على الصليبيين فى تلك المعركة فأسروا بلدوين وجوسلين ، بينما فر بوهيمند لكنه لم يسكت وإنما حارب المسلمين من جديد وإن لقى على أيديهم هزائم عديدة •

ولما تولى أنطاكية تنكرد بعد رحيل بوهيمند إثر نزاعه مع البيزنطيين استطاع أن يستولى من المسلمين على أرتاح ثم استولى على فامية من الباطنية وكفرطاب •

ثم استولى على بانياس ـ بين أنطرطوس واللاذقية ـ كما استولى على جبلة وعلى حصن بكسرائل ثم على حصن الأثارب •

ثم هلك تنكرد وتعاقب على حكم أنطاكية عدد من الأمراء منهم روجر الأنطاكى الذى توسع كثيرا على حساب المسلمين حتى إنه احتل مدينة حلب فترة من الزمن ، ثم استولوا على حصن المرقب فى الجنوب الشرقى من بانياس •

وهكذا أصبحت إمارة انطاكية فى ايدى الصليبيين خطرا حقيقيا يهدد المسلمين ، كما استطاعت أن تكون حصنا منيعا يرد عن الصليبيين كل عدو يهددهم من المسلمين أولا ومن البيزنطيين ثانيا •

أما من الناحية الجغرافية فإن إمارة أنطاكية شملت وادى نهر العاصى فكانت درعا للصليبيين من الشرق ، وامتدت فى هذا الشرق عندما دخلت فيها حلب وقنسرين ، وامتدت فى الشمال الغربى حتى قيليقية ، وانضم إليها فى زمن الصليبيين ثغر السويدية ، ثم أهم ثغرها وهو اللاذقية ، ومن الثغور التى تبعتها بانياس وطرطوس وهى بذلك كانت كلها حصنا للصليبيين ، استطاع أن يرد عنهم هجمات المسلمين من الشرق ، ومن الشمال الشرقى ، كما رد عنهم هجمات البيزنطيين من الشمال الشرقى ومن الشمال ٠

أما من الناحية السياسية ، فإن إمارة أنطاكية كانت مستقلة بنفسها عن بيت المقدس حينا من الزمان ، ثم ضمت إلى مملكة بيت المقدس حينا ، وتبعت طرابلس أو تبعتها طرابلس فى بعض الفترات ٠

وكانت على وجه الإجمال من أهم الإمارات الصليبية فى الشرق الإسلامى من ناحية ، ومن أقدمها من ناحية أخرى ٠

رابعا : إمارة طرابلس

طرابلس فى أصلها القديم ميناء على البحر المتوسط شمالىّ لبنان تبعد عن بيروت حوالى تسعين كيلو مترا ٠

وقد فتحها المسلمون سنة ١٧ هجرية ـ ٦٣٨ م ٠ وظلت ميناء إسلاميا ومدينة إسلامية حتى اغتصبها الصليبيون سنة ٥٠٣ هـ ـ يوليو ١١٠٩ م وبقيت فى أيدى الصليبيين حوالى مائة وثمانين عاما ، حيث استطاع الجيش الإسلامى أن يستعيدها سنة ٦٨٨ هـ ـ ١٢٨٩ م ٠

وكانت طرابلس قبيل الغزو الصليبى فى ملك بنى عمار ، وكان الصليبيون يطمعون فيها ويبذلون كل جهد من أجل استقرارهم فى هذا الثغر الهام من ثغور المسلمين ٠

وقد حاول وليم جوردان ـ فى سبيل الوصول إلى طرابلس ـ أن يستولى على عرقة ، فهاجمها ولم تستطع الحامية الإسلامية التى فيها أن تدافع عنها ٠

وعلى الرغم من استنجاد حامية طرابلس بطغتكين فى دمشق واستجابته لذلك ، فإن الصليبيين استطاعوا أن يستولوا على عرقة بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع فى سنة ٥٠١ هـ - إبريل ١١٠٨ م ٠

واستمرت جهود وليم جوردان فى الاستيلاء على طرابلس ، ونافسه فى ذلك برتراند الإبن الأكبر لريموند الصنجلى والذى كان يطالب تنكرد بنصيب أبيه فى أنطاكية ٠

وما هو إلا زمن يسير حتى تحالف تنكرد مع وليم جوردان ، بينما طلب برتراند حماية بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، وكان جميعهم فى ذلك الوقت على أبواب طرابلس منهم من جاء يحارب كبرتراند وملك بيت المقدس ووليم جوردان ، ومنهم من جاء يفاوض ويرجح جانبا على جانب كتنكرد ، وبلدوين دى بورج أمير الرها ٠

وتم الصلح بحكمة من ملك بيت المقدس بين تنكرد وبلدوين دى بورج من ناحية وبين برتراند ووليم جوردان من ناحية أخرى ٠

وكانت نتيجة هذا الصلح أن يستولى وليم جوردان على عرقة وانطرطوس وأن يستولى برتراند على قلعة صنجيل وجبيل وطرابلس عند فتحها ، وهكذا قسم من لا يملك على من لا يستحق ٠

وتوحدت جهود الصليبيين للاستيلاء على طرابلس ، ولم يكن فى إمكان المسلمين فى طرابلس أن يواجهوا تلك التجمعات الصليبية التى تهاجمهم ، فقد تجمعت ضدهم قوى بيت المقدس وبروفانس وأنطاكية والرها بالإضافة الى أسطول بحرى جنوى ، فلم يسع طرابلس إلا أن تستسلم لتلك الجموع وسقطت المدينة فى أيدى الصليبيين فى أواخر ذى الحجة من عام ٥٠٢ هـ - ١٢ يوليو ١١٠٩ م ٠

وأصبح برتراند « برترام » أمير طرابلس ، ولكنه - لكى يحمى نفسه من الصليبيين الطامعين فى طرابلس - أعلن تبعيته لملك بيت المقدس ٠

غير أن ماهو جدير بالذكر أن إمارة طرابلس فى حكم الصليبيين ولدت ضعيفه،فلم تكن فى مكانة أنطاكية ولا الرها،وذلك أن استيلاء برتراند عليها فى الوقت الذى استولى فيه

وليم جوردان على عرقة وأنطرطوس ، كان بمثابة تمزيق لإقليم واحد هو إقليم طرابلس ، ومما زاد هذا الإقليم تمزقا أن وليم جوردان أعلن ولاءه لإمارة أنطاكية بينما وليم جوردان كان تابعا لبيت المقدس ، ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلا ، فمجرد مقتل وليم جوردان ، استطاع برتراند ضم جميع الممتلكات البروفنسالية فى الشام لسيادته ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت إمارة طرابلس فى مكانة أنطاكية والرها من إمارات الصليبيين فى الشرق الإسلامى ·

وباستيلاء الصليبيين على طرابلس أمنوا لهم طريقا إلى دمشق لا تقوم فيه العوائق أو الجيوش الإسلامية ·

ولا يستطيع الناظر فى أحوال الصليبيين فى الشرق الإسلامى أن ينكر أن استيلاء الصليبيين على طرابلس ، جعلهم يملكون فى بلاد المسلمين أربع إمارات واسعة الرقعة موحدة الاتجاه إلى حد كبير ، هى مملكة بيت المقدس والرها وأنطاكية وطرابلس ·

وبعد برتراند تولى ابنه بونز ـ الذى تزوج سيسيل أرملة تنكرد مما زاد التقارب بين أنطاكية وطرابلس ·

وكانت خطة بونز التوسع شرقا على حساب المسلمين بمهاجمة ممتلكات حمص ودمشق ، واستطاع بونز أن يشيد حصنا صليبيا منيعا فى بعرين كما استطاع أن يستولى على رفنية ·

وأصبحت بعرين فيما بعد ذلك بقليل من القلاع المنيعة التابعة لإمارة طرابلس ·

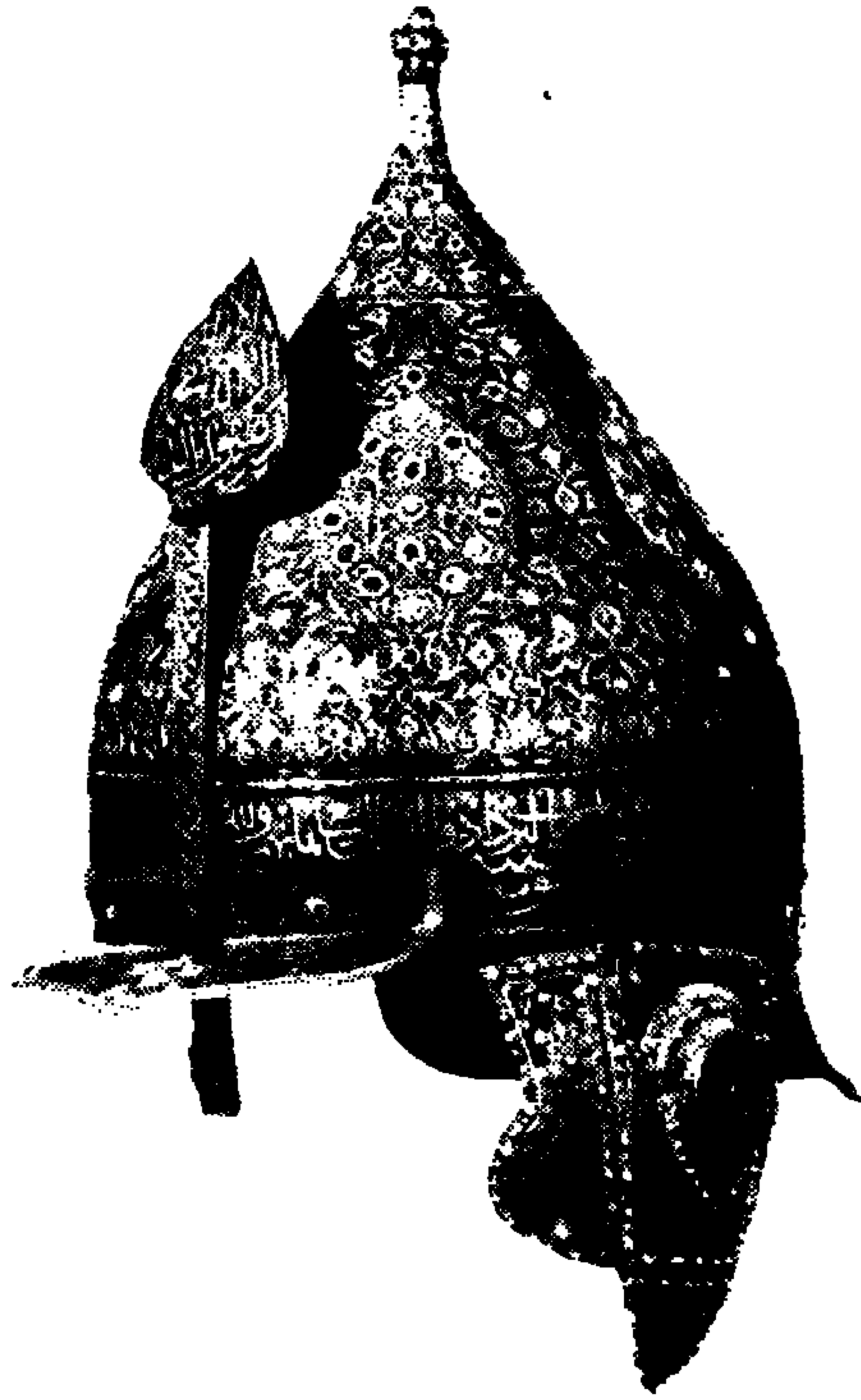
وظلت طرابلس إمارة صليبية حتى استطاعت الجيوش الإسلامية أن تستعيدها من غاصبيها سنة ٦٨٨ هـ ـ ١٢٨٩ م حيث عادت إلى أصحابها الشرعيين ، وزال عنها الاحتلال الصليبى إلى غير رجعة حتى الآن ·

وقد اتسعت إمارة طرابلس ـ جغرافيا ـ فاشتملت على مناطق عديدة فامتدت شمالا حتى حصن المرقب ، وامتدت من الجنوب إلى نهر الكلب ·

وامتدت على شاطئ البحر المتوسط غربا إلى بعرين ورفنية ، وامتدت شرقا إلى حصن الأكراد وعكا ·

أما من الناحية السياسية فإن هذه الإمارة بتبعيتها حينا لمملكة بيت المقدس ، وموالاتها لأنطاكية ، فإنها كانت بمثابة الرباط الجيد الذى ربط بين الصليبيين فى الشرق الإسلامى •

فضلا عن كونها من أهم الثغور التى أمدت الصليبيين بالأمداد والأعوان على البحر المتوسط •



هـ ـ إخراج الصليبيين من الشرق الإسلامى أو: بداية النهاية

باتحاد مصر والشام وقيادة المماليك الشجعان، وتمسكهم بدينهم، أصبح الوجود الصليبى فى الشرق الإسلامى مهددا بالضياع، وآن للمسلمين أن يستردوا كرامتهم قبل أن يستردوا أرضهم وديارهم.

ولقد علَّم الغزوُ الصليبى للعالم الإسلامى، المستنيرين من المسلمين حكاما ومحكومين أن لا قبل لهم بمواجهة أعدائهم إلا متحدين فى ظل دينهم، مجاهدين فى سبيل الله وهم يخوضون حروبهم، فما من معركة انتصر فيها المسلمون على الصليبيين إلا كان شعار المسلمين فيها الجهاد فى سبيل الله والاستعانة بالله على عدوه.

بدا هذا واضحا فى انتصارات عماد الدين زنكى، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبى، والملك الصالح نجم الدين، والمظفر قطز، والسلطان بيبرس.

وذاك درس للمسلمين من ذلك الماضى ينفعهم فى حاضرهم وفى مستقبلهم وهم يواجهون أى صراع مع أى عدو من أعدائهم.

وبعد: فكيف انتهى الوجود الصليبى من الشرق الإسلامى ؟

ذلك ما نحب أن نختم به حديثنا عن الحملات الصليبية، فنقول وبالله التوفيق :

بعد هذه الانتصارات التى حققها المسلمون على الصليبيين بقيادة بيبرس وقائديه : قلاوون الذى جاء معه من مصر والملك المنصور الأيوبى حليفه، أخذ الصليبيون يبحثون عن مخرج من هذه الأزمات، وحمل عبء هذا البحث، الملك هيو الثالث ملك قبرص ـ الأمل الأخير للصليبيين ـ فحاول أن يعقد هدنة مع بيبرس ـ كما فعل بوهمند السادس صاحب طرابلس ـ ثم اتجه هيو الثالث للحصول على حملة أوربية صليبية لحرب المسلمين، واتجه كذلك إلى التحالف مع المغول ضد المسلمين لغزو مصر والشام.

غير أن بيبرس كان حصيفا يدرك أن أى معاهدة من الصليبيين ماهى إلا فترة عجز عندهم ، ويوم يقدرون يكون نقضهم لهذه المعاهدات عملا جليلا ـ من وجهة نظرهم ـ فكان حذرا ، لا يهادنهم إلا إن كان فى هذه الهدنة مصلحة له ولجيوش المسلمين ، ولهذا كان بيبرس خيرا من بعض الحكام المسلمين الذين يثقون فى معاهدات الصليبيين ومواثيقهم •

وفعلا وصلت إلى عكا حملة صليبية من قبل ملك أرغونة بقيادة ولديه غير الشرعيين ، ثم جاءت من فرنسا الحملة الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع مرة ثانية متجهة أولا إلى تونس ثم تواصل سيرها إلى الشام أو مصر • غير أنها فشلت وتوفى لويس التاسع سجين المنصورة دون أن يحظى بسجن آخر فى مصر أو فى الشام •

غير أن حملة ملك أرغونه لم تستطع أن تعمل شيئا لهيو الثالث ولا للصليبيين ليقظة بيبرس وسرعة حركته ، فقد سارع بيبرس فى مهاجمة إمارة طرابلس فاستولى على صافينا من الداوية ، ثم على حصن الأكراد من الاسبتارية وكان ذلك فى سنة ٦٦٩ هـ ـ ١٢٧١م • وفى نفس العام استولى بيبرس على حصن عكا وحصن القرين •

واتجه بيبرس لغزو قبرص تأديبا لها على العدوان على بعض السفن الإسلامية وإن كانت العواصف على شاطئ قبرص حالت بين جيوش بيبرس وبين اقتحام الجزيرة •

وكان من بعد نظر بيبرس ـ وهو يقلم أظافر الصليبيين ـ أن حاول القضاء على الباطنية الذين كانوا حلفاء للصليبيين ، يدفعون لهم إتاوات كل عام ، ففى إحدى معاهدات بيبرس مع الاسبتارية أجبرهم على الامتناع من أخذ هذه الإتاوات من الباطنية « الحشيشية » وأصحاب حماة وشيزر وفاميه وآلت أموال الباطنية إلى بيت مال المسلمين فى مصر ، ثم عزل قائدهم نجم الدين الشعرانى ثم قضى على حصونهم ومعاقلهم وأقطعهم بديلا عنها فى مصر •

وفى مايو ١٢٧١م وصلت إلى عكا حملة صليبية إنجليزية بقيادة الأمير إدوارد وحاول إدوارد أن يحالف المغول ضد المسلمين ونجح فى مسعاه ، واتسعت آمال إدوارد إلى الاستيلاء على مصر ، والاستيلاء على القسطنطينية •

غير أنه أدرك ألا قبل له بيبيرس فعقد معه هدنة دخل فيها هيو الثالث ، ثم عثر إدوارد على نهايته بخنجر من أحد الباطنية أصابه بمرض أجبره على الرحيل فغادر عكا سنة ٦٧٢ هـ سبتمبر ١٢٧٢م عائدا إلى بلاده .

وكذلك أصيب هيو الثالث بالفشل فقرر العودة النهائية إلى قبرص سنة ٥٧٦ هـ ـ ١٢٧٦م .

ومع هذا الإحساس الصليبي بالفشل فى مواجهة المماليك ، ثم تحالف أوربى صليبى مغولى لمواجهة المسلمين ، ومن أجل ذلك عقد مجمع ليون سنة ٦٧٣ هـ ـ يوليو ١٢٧٤م . وحضره من قبل أبغا بن هولاكو مبعوثان تم تعميدهما على المذهب الكاثوليكى ، وكان هَدَفُ هذا المجمع تكوين حملة صليبية أوربية ، غير أن هذا الهدف لم يتحقق .

وأصر بيبرس على معاقبة المغول ، فأغار على بلاد السلاجقة فى الأناضول ـ وكانوا فى حماية المغول ـ واستطاع أن يبدد الجيش المغولى عند أبلسين سنة ٦٧٧ هـ ـ إبريل ١٢٧٨م واحتل قيصرية فى نفس الشهر وخطب له على منابرها وأصبح وريث سلاطين السلاجقة فى حكم الأناضول .

ولما توفى الظاهر بيبرس ١٢٧٧م وتولى بعده ابناه السعيد بركة ثم العادل سلامش على التوالى ، ولكن قلاوون استطاع أن يستولى على السلطنة لنفسه فى سنة ٦٧٨ هـ ـ ديسمبر ١٢٧٩م .

ولم يسكت المغول على المماليك فأعد أبغا جيشا كثيفا خرج به من الجزيرة فى سنة ٦٨٠ هـ ـ سبتمبر ١٢٨١م وشاركه أخوه منكوتيمور وانضم إليهما ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى .

وزحف هذا الجيش حتى وصل أمام حمص حيث يرابط جيش المسلمين بقيادة قلاوون ودارت معركة انتصر فيها المسلمون على هذا التجمع الصليبى المغولى انتصارا ساحقا .

وفى سنة ٦٨٤ هـ ـ ١٢٨٥م استولى قلاوون على حصن المرقب فقوض بذلك أركان

الصليبيين بالشام • وقد قال أبو الفداء عن الاستيلاء على هذا كان « يوما مشهودا أخذ فيه الثأر من بيت الاسبتار ، ومحيت آية الليل بآية النهار »[1]

ولم يضيع السلطان قلاوون الوقت فى مماطلة العدو أو تسويفه وإنما اتجه بكل قواه للإجهاز على الصليبيين فى الشرق الإسلامى ، فأرسل حملة بقيادة حسام الدين طرنطاى استولت على اللاذقية آخر ماتبقى فى أيدى الصليبيين من إمارة أنطاكية سنة ٦٨٦ هـ ـ إبريل ١٢٨٧م •

وفى سنة ٦٨٨ هـ ـ فبراير ١٢٨٩م جهز جيشا للاستيلاء على طرابلس فاستولى عليها فى إبريل سنة ١٢٨٩م •

وفى سنة ٦٨٩ هـ ـ أغسطس ١٢٩٠م اتجهت حملة إيطالية إلى عكا لتعزيز الصليبيين ، ولم تكد هذه الجموع تصل إلى عكا حتى عبرت عن حماسها الدينى بمهاجمة المسلمين ممن يعملون بالفلاحة فى عكا ثم ذبحوا التجار المسلمين ، وقد أغضب ذلك السلطان قلاوون فطلب تسليم المذنبين ، وفى الوقت نفسه استعد للقضاء على عكا ومن فيها من الصليبيين •

فعهد لقائده سنقر الأعسر بالاستعداد للحرب فى الشام ، وما إن انتهى قلاوون من الاستعداد لغزو عكا حتى وافاه أجله سنة ٦٨٩ هـ ـ نوفمبر ١٢٩٠م ففرح الصليبيون فى موته وظنوا أن الخطر قد زال عنهم ، ولكن ابنه خليل بن قلاوون استطاع أن يقضى على مؤامرة ضده قام بها حسام الدين طرنطاى ، وتفرغ للعمل ضد الصليبيين وأصر على الاستيلاء على عكا •

وكان من استعداده أن جمع قوى المسلمين وطلب منهم موافاته عند عكا ، وفرض السلطان الأشرف خليل بن قلاوون حصارا حادا على عكا فى سنة ٦٩٠ هـ ـ إبريل سنة ١٢٩١م •

وتجمع الصليبيون من مختلف انتماءاتهم للدفاع عن عكا ، وانضم إليهم هنرى الثانى

---

١ ـ د • سعيد عاشور : الحركة الصليبية : نقلا عن : المختصر لأبى الفداء : حوادث سنة ٦٨٤ هـ •

ملك قبرص الذى حاول التفاهم والتعاهد مع السلطان خليل ولكن جهوده باءت بالفشل ، وكذلك حاول معظم أمراء الصليبيين التفاوض مع السلطان خليل ولكنه كان يأبى لإدراكه طبيعة الصليبيين وحبهم للغدر •

وشدد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الحصار على عكا ، فاستسلمت عكا آخر معاقل الصليبيين فى الشرق الإسلامى فى سنة ٦٩١ هـ ـ مايو ١٢٩١م •

وواصل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون القضاء على مابقى لدى الصليبيين من حصون ، فاحتل صور فى نفس الشهر الذى استسلمت فيه عكا ثم استولى على صيدا وحيفا وانطرطوس وعثليث أخر مافى أيدى الصليبيين من بلاد المسلمين فى نفس العام الذى إستولى فيه على عكا •

وبجهود السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وتوحيده جهود المسلمين أصبح الشام كله من قيليقية شمالا حتى غزة جنوبا ، وأصبح جو العالم الإسلامى وأرضه لأبنائه فقط دون دخلاء أو غاصبين •

وبهذا انتهى الوجود الصليبى الذى استمر مايقرب من قرنين من الزمان ذاق فيها العالم الإسلامى مرارة الهزيمة مرات ومرات •



٤ ـ الدوافع الاجتماعية والاقتصادية لهذه الحروب

أشرنا فى مستهل حديثنا عن الدوافع التى حركت الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامى ، إلى الدافع الدينى وأوضحنا العمل الذى قامت به الكنيسة وبابواتها على مدى قرنين من الزمان ، تكيد للإسلام والمسلمين ، وتعلن غفرانها ذنوب المشاركين فى هذا الغزو لبلاد المسلمين ٠

كما أشرنا إلى الدافع السياسى ، وفصلنا القول فيه ووصلناه وربطنا هناك بين الغزو الصليبى للأندلس المسلمة والغزو البيزنطى للعالم الإسلامى ثم توسعنا فى الغزو الأوربى الغربى للعالم الإسلامى ، وعدنا ـ ونحن نتحدث عن هذا الدافع إلى الحديث عن الكنيسة وأثرها فى هذه الحروب ، ثم حددنا الدول الأوربية التى شاركت فى هذا الغزو ، وتحدثنا عن المشهور من هذه الحملات الصليبية على الشرق الإسلامى ، وكيف باءت هذه الغزوات بالفشل إزاء تنبه المسلمين إلى أمرين هامين كانا سبب الانتصار بعد إرادة الله عز وجل ، هذان الأمران بدأ بهما عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ، ثم أكدهما صلاح الدين الأيوبى وجرى على منواله فيهما خلفاؤه ، وزاد المماليك هذين الأمرين تأكيدا واهتماما ٠٠

هذان الأمران اللذان حركا المعركة إلى صالح المسلمين ومكناهم من طرد الوجود الصليبى من الشرق الإسلامى إلى غير رجعة ـ ولايزال هذان الأمران قادرين على أن يمكنا المسلمين من الانتصار على عدوهم ـ هما :

جعل المعركة جهادا فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ، لأن هذا الهدف حين يكون أمام أعين المجاهدين فى سبيل الله تهون أمامه الأنفس والأموال ، ويسرع بالمسلمين إلى إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة فى سبيل الله سبحانه ، والفرق واضح بين هذا الهدف الذى يخوض المسلمون من أجله معركة ، وبين أى هدف آخر من حرص على أرض أو مال أو ٠٠٠ كان هذا هو الأمر الأول ٠

أما الأمر الثانى فخوض المسلمين المعركة وهم وحدة وجماعة وأمة إسلامية واحدة ، فليس يسع العدو كائنا ماتكون قوته أن يواجه جيوشا موحدة القيادة موحدة الهدف موحدة الصفوف •

وهذا الذى حدث للمسلمين وهم يقاتلون الغزاة من الصليبيين يوم اتحدوا مجاهدين فى سبيل الله خرج مذموما مدحورا •

أشرنا إلى ذلك كله فى الدوافع السياسية لهذا الغزو الصليبى ، ونود أن نتحدث فى هذه الصفحات من الكتاب عن الدوافع الاجتماعية والاقتصادية لهذه الحروب ، فنقول :

إن الدوافع الاجتماعية والاقتصادية لهذه الحروب لاتقل أهمية عن الدوافع الدينية أو الدوافع السياسية . فالمجتمع الأوربى فى ذلك الوقت كان يعيش ظروفا اجتماعية شجعته بطريقة أو بأخرى على أن يستجيب للمشاركة فى هذه الحروب ، كما كانت الظروف الاقتصادية التى تمر بأوربا آنذاك تجعل المشاركة فى هذه الحروب مخرجا من ضوائق اقتصادية تخنق المجتمع الأوربى ، فاذا أضيف إلى الاضطراب الاجتماعى والمعاناة الاقتصادية تشجيع الكنيسة ودفع الظروف السياسية للناس ليخوضوا هذه الحروب عرفنا كيف تشابكت هذه الدوافع وتعاونت تسوق أمامها دول غرب أوربا لخوض هذا الغزو الوحشى للعالم الإسلامى •

فما هى الدوافع الاجتماعية التى شجعت أوربا على خوض هذه الحروب ؟

لعل الإجابة على هذا السؤال توجب علينا أن نتعرف على تركيب المجتمع الأوربى من الناحية الاجتماعية • حيث نجد المجتمع الأوربى ـ فيما أطلق عليه العصور الوسطى ـ يتكون من فئات اجتماعية ثلاثة :

أ ـ فئة رجال الدين : كنسيين وديريين ، وهم قلة من حيث العدد •

ب ـ فئة المحاربين : نبلاء وأمراء وفرسان وهم قلة كذلك •

ج ـ فئة الفلاحين : رقيق الأرض والأجراء ، وهم الأكثرية الساحقة فى المجتمع الأوربى آنذاك •

ولقد تباينت هذه الطبقات فى الحقوق والواجبات إلى حد يلفت النظر فبينا تحظى الطبقتان الأوليان بمالاحصر له من المزايا الاجتماعية والسياسية تحرم الطبقة الثالثة من أى حقوق ولاتعرف فى الحياة الاجتماعية سوى الواجبات •

بل إن التباين بلغ حد الاختلاف فى الشكل والملبس •

ولنلق ضوءا على هذه الطبقات :

أما رجال الدين من الكنسيين فهم القساوسة والأساقفة الذين عاشوا حياة أقرب فى نظامها الاجتماعى إلى حياة الناس فتزوجوا وأنجبوا وأُطلق عليهم : رجال الدين العلمانيون •

وأما رجال الدين من الديريين فهم الذين عاشوا عيشة مختلفة عن حياة الناس فتجاهلوا طبائعهم فلم يتزوجوا وآثروا العزوبة ، وأُطلق عليهم : رجال الدين النظاميون •

وفى القرن الثالث عشر الميلادى اشترط على الكنسيين أن يحيوا حياة الديريين •

ورجال الدين من الداخل طبقات كذلك : أعلاها رتبة البابا وله السيطرة على رجال الكنيسة جميعا •

وبعد البابا فى المنزلة طبقة الكرادلة وهم مجموعة تختار من كبار الأساقفة وهم مستشارو البابا ووزراؤه •

وتنقسم الكنيسة من الداخل إلى أسقفيات واسعة يشرف على كل منها أسقف يتولى شئون الكنيسة فيها •

وتنقسم كل أسقفية إلى أبرشيات ، يشرف على كل أبرشية منها قس ، وفى هذه الفترة التى نتحدث عنها ـ العصور الوسطى ـ كان القس يحيا حياة أحسن بكثير من حياة الفلاحين ولكنها بالضرورة دون حياة النبلاء الإقطاعيين •

وكان القس يرأس كنيسة ، بينما الأسقف يرأس كاتدرائية فى المركز الرئيس لأسقفيته •

وللأسقف من الحقوق والمميزات ماليس للقس ، كما يتميز البابا على الجميع •

وأما رجال الحرب من النبلاء والفرسان فهم طبقة خاصة متميزة لايمكن أن يرقى إليها أى فرد من طبقة الفلاحين مهما اتسع ثراؤه أو تعددت مواهبة أو كان حرا لاعبدا • فهى طبقة مغلقة على نفسها •

وهؤلاء النبلاء كان يفصلهم عن سائر المجتمع شرف المولد أولا وسعة الثراء وملكية الأرض ثانيا ، وجودة النشأة والتدريب على الفروسية ثالثا •

وكان للنبيل أو الفارس أتباع يأتمرون بأمره بل يموتون فى سبيله أحيانا كما كان أفراد طبقة رجال الحرب يتميزون بنبلهم هذا وسعة ثرائهم وملابسهم التى لايجوز لغيرهم أن يرتدى مثلها •

وكان لكل نبيل تابع « فصل » وعدد من الخدم ، هم فى الغالب من إقطاعه العاملين فى أرضه ومزارعه ومصانعه ، وهو بهذا يكون جيشا يتبعه ، صغيرا كان ذلك الجيش أو كبيرا ـ حسب إمكانات هذا النبيل الإقطاعى •

وكانت الحياة الحافلة هى حياة الحرب والمناوشة والاستيلاء على أموال من هو أضعف ناصرا وأقل جندا ، فإذا وضعت هذه الحروب أوزارها فالحياة كاسدة راكدة •

أما طبقة الفلاحين فكانت تتكون من نوعين من الناس : فلاحين أحرار يعملون لدى النبلاء أو أصحاب الإقطاع ويتبعونهم تبعية أدبية •

وفلاحين عبيد أرقاء مقيدين بالأرض علاقتهم بأصحاب الأرض علاقة العبد بسيده ، وكان هذا الصنف من الفلاحين هم الأكثرية الساحقة •

وأما معيشة هؤلاء الفلاحين فكانت فى أكواخ قذرة يبتنونها من جذوع الأشجار ويغطون سقوفها بالطين والقش ولا نوافذ لها ، ولاتضاء لأن الشموع كان استعمالها مقصورا على النبلاء والسادة •

على أن طبقة من الفلاحين المرتبطين بضيعة السيد أو إقطاعه أطلق عليهم أقنان لا هم بالأحرار ولا هم بالعبيد وإنما هم بين بين ، لايملكون مغادرة الضيعة ولكنهم لايباعون

كالعبيد ، ولا يستطيعون تملك شيء كالأحرار ولكنهم يتمتعون بقليل من الحقوق التى يسمح له بها سيده فيختلف فى ذلك عن العبيد .

ولقد كان الفلاحون أحرارا وعبيدا وأقناناً مسخرين لخدمة السيد الإقطاعى كيفما شاء على أنماط ثلاثة من التسخير :

الخدمات : فى فلاحة الأرض أو شق الطرق أو غيرها وكانت هذه سخرة الأقنان . والمقررات : وهى ضرائب ومكوس تفرض على الرءوس سنويا للسيد صاحب الضيعة ، وكانت رمزا للعبودية ، فضلا عن ضرائب على إنتاج الأرض والماشية ، والاحتكارات : وذلك أن السيد هو مالك المصنع أو الطاحونة أو المعصرة أو المخبز أو البئر والفلاح ملزم بأن يتعامل مع هذه المصانع لهذا السيد دون سواها ، ولايملك واحد من الفلاحين أن تكون له طاحونة ولو يدوية لأن ذلك جرم يعاقب عليه .

تلك هى الطبقات التى يتكون منها المجتمع الأوربى فى فترة الحروب الصليبية وتلك هى العلاقات التى تربط بين هذه الطبقات .

ولكى تتكامل صورة النظام الاجتماعى نود أن نشير إلى مكانة المرأة فى هذا المجتمع ، فقد كان وضعها يجعلها دائما تحت وصاية رجل ؛ أبيها أو زوجها أما الأرامل فتكون تحت وصاية سيدة أو أكبر أبنائها .

أما الكنيسة فكانت تنظر للمرأة على أنها شريكة آدم التى حرضته على المعصية والخطيئة فهى فى نظر الكنيسة مهينة محتقرة من هذه الزاوية ، بينما من زاوية أخرى تنظر الكنيسة إلى المرأة على أنها تمثل مريم العذراء أم المسيح فهى محترمة فى نظرها من هذه الزاوية ، وذلك التناقض الذى وقعت فيه الكنيسة فى النظر إلى المرأة أدى إلى اضطراب فى معاملة المرأة .

وبصورة مجملة فإن المجتمع الأوربى كانت غالبيته العظمى تعيش ذلا وهوانا وضياعا للقاعدة العريضة من الناس ، لذلك عندما دعت الكنيسة لهذه الحروب ، كانت تلك الجموع أسرع إلى الاستجابة لتلك الدعوة ، هروبا من تلك المعاناة والحياة الشاقة ، لأن

الحروب وماتجره من متاعب كانت فى نظرهم أقل خطرا مما يحتملون فى ظل هذا التفارق الطبقى البغيض ، بل لقد كانوا يحسون أن الموت فى هذه الحروب ربما كان أفضل من تلك الحياة التى يحيون •

وهكذا فإن الظروف الاجتماعية فى المجتمع الأوربى كانت من الدوافع الهامة للحروب الصليبية •

تلك هى الدوافع الاجتماعية ، فماهى الدوافع الاقتصادية التى دفعت المجتمع الأوربى إلى هذا الغزو الصليبى الذى شنته أوربا على العالم الإسلامى ؟

تتمثل الدوافع الاقتصادية للحروب الصليبية ، فى سوء الأحوال الاقتصادية فى أوربا فى ذلك الوقت ، سوءا بلغ الغاية من الاضطراب والاختلال •

فقد ذكر عدد من مؤرخى هذه الفترة ـ العصور الوسطى ـ أن الأحوال الاقتصادية فى غرب أوربا ـ وبخاصة فرنسا ـ قد ساءت إلى حد المجاعة قبيل الحروب الصليبية •

يؤكد ذلك المؤرخ المعاصر:جيوبرت نوجنت Guibert Nogent حيث يقول : إن فرنسا بالذات كانت تعانى مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، فندر وجود الغلال وارتفعت أثمانها ارتفاعا فاحشا ، مما ترتب عليه حدوث أزمة فى الخبز •

وفى ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نفسر لماذا كانت نسبة الصليبيين الفرنسيين المشتركين فى الحملة الصليبية الأولى أكبر من الوافدين من أى بلد آخر من بلدان غرب أوربا • (١)

ومما ساعد على ازدياد الحالة الاقتصادية سوءا كثرة الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين ، فلم تكن لحياتهم فائدة إلا بالحروب ، وقد بلغت هذه الحروب من الضراوة والاتساع حدا أعجز الكنيسة عن أن توقفها ، كما أعجز ملوك أوربا عن إيقافها •

وهذه الحروب أضرت بالتجارة مادتها وطرقها ، وبالزراعة عمالها وحقولها فأصبح الناس فى تلك المجاعة التى يصفها بعضهم فيقول : إن الناس فى تلك الآونة أكلوا الأعشاب والحشائش •

---

١ ـ د • سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ٣٤/١ •

ولم يكن أمام الناس والحالة هذه إلا التعلق بالهجرة إلى مكان آخر يتخلصون فيه من هذا العناء ، فلما انطلق النداء بالحروب الصليبية لبى الناس مسرعين ، وكان معظم الذين ضمتهم الحملة الأولى من الفقراء والفلاحين وقطاع الطرق وطريدى القوانين ، ولعل ماقامت به هذه الجموع وهى فى طريقها إلى الشرق الإسلامى من عدوان ونهب وسلب يوضح لنا إلى أى حد كانت هذه الجموع تعانى من الفقر والحاجة والضياع .

فإذا أضفنا إلى هذا العامل الاقتصادى الذى دفع الناس إلى الحروب الصليبية ؛ عاملا آخر هو ماكان من تنافس تجارى بين مدن ثلاثة اشتهرت فى أوربا بأنها تعيش على التجارة وهى : البندقية وجنوا وبيزا ، وأن أهل هذه المدن سارعوا للمشاركة فى هذه الحروب بحثا لهم عن أسواق جديدة بعد أن كسدت سوق أوربا إلى حد كبير ، وماقامت به فى هذا المجال من مساعدة للجيوش الصليبية فى نقلها بأساطيلها عن طريق البحر ، ومن إمداد لهذه الجيوش بعد أن تصل إلى الشرق الإسلامى بالسلاح والطعام ، بل إن بعض المؤرخين يقولون إن هذه المدن لم تقدم تلك الخدمات حبا فى الدين ولا استجابة لنداء الكنيسة ، وإنما قدمته طمعا فى تحقيق المكاسب على حساب الكنيسة والصليبيين جميعا . [١]

إذا أضفنا هذا العامل التجارى إلى ماسبق تبين لنا أن الدوافع الاقتصادية لهذه الحروب لم تكن أقل تأثيرا من غيرها من الدوافع الدينية والسياسية والاجتماعية .

بل كيف نبرىء كل المشتركين فى هذه الحروب وعلى رأسهم الكنيسة من المطامع الاقتصادية فى الشرق الإسلامى ، وتلك كلمة البابا أيربان الثانى فى خطبته المشهورة المحرضة على الحروب وهو يعد الناس ببلاد الشرق الإسلامى التى تفيض لبنا وعسلا كما تقول التوراة ؟

وبعد :

فهذه هى دوافع الحروب الصليبية كما بدت لى من خلال قراءتى لظروف هذه الحروب أرجو أن أكون قد وفقت فيها إلى الصواب .

---

١ - السابق : ٣٥/١

الباب الثانى

العالم الإسلامى فى مواجهة الصليبيين

الباب الثانى

العالم الإسلامى فى مواجهة الصليبيين

ويتناول :

١ ـ ظروف العالم الإسلامى جملة ٠

٢ ـ الدول الإسلامية التى واجهت الصليبيين وهى :

أ ـ مسلمو الأندلس ٠

ب ـ العباسيون ٠

جـ ـ الفاطميون ٠

د ـ السلاجقة ٠

هـ ـ الأيوبيون ٠

و ـ المماليك ٠

٣ ـ فلول الصليبيين وقضاء العثمانيين عليهم ٠

١ ـ ظروف العالم الإسلامى جملة

كان العالم الإسلامى فى تلك الآونة ـ فترة الحروب الصليبية التى شنتها أوربا على الشرق الإسلامى ـ يعيش ظروفا ، أبسط ماتوصف به أنها ظروف اضطراب أدى إليه الانقسام ، والفرقة التى كانت واضحة لكل ذى عين ٠

وإذا كان الأصل فى العالم الإسلامى أن يكون أمة واحدة ، وقيادة واحدة فإنه كان فى تلك الآونة بالذات أكثر مايكون انقساما فى القيادة وفرقة فى الاتجاه ٠

فالخلافة العباسية فى بغداد تقلص نفوذها ، وطمع فيها قوادها وأمراؤها ، بل استبدوا بها حتى أصبح الخليفة صورة لا حقيقة ، وأصبحت الخلافة شكلا لا جوهرا ٠

ولقد استمرت الخلافة العباسية مظهرا لوحدة المسلمين وقوتهم أكثر من قرنين من الزمان ، بلغ فيهما المسلمون فى السياسة شأوا بعيدا ، ثم بدأ الضعف يدب فى الخلافة فتقسمتْ دولتُها دولا صغيرة ٠

ولقد كان العالم الإسلامى آنئذ يعانى من مظاهر عديدة للفرقة والانقسام وتوزع البلاد بين المغامرين من القواد والأمراء ، فضلا عن الخلاف فى الرأى الذى أدى إلى كثير من السلبيات فى وحدة الفكر بين المسلمين ٠

ونستطيع أن نحدد ظواهر ثلاثة من تلك الظواهر نجعل الحديث فيها موضحا لأبعاد هذه الظواهر الزمانية والمكانية فى اختصار لايجرنا إلى ماشتملت عليه هذه الظواهر من محتويات سياسية او دينية أو ثقافية ٠

وأول هذه الظواهر :

ظاهرة الدول المسلمة التى لم تكن تابعة لدولة الخلافة العباسية ٠

ففى زمن باكر نسبيا من تاريخ الخلافة العباسية ، يوم لم يكن قد مضى على قيام الدولة إلا مائة وثلاثين عاما تقريبا ، وبالتحديد فى عام ٢٦١ هـ ـ ٨٧٤ م ٠ استطاع السامانيون أبناء نصر بن سامان أن يستقلوا عن الدولة العباسية ببلاد ماوراء النهر وخراسان ، وكان ذلك خروجا عن سلطة الخلافة العباسية أسهم دون شك فى إذهاب هيبتها ٠

وفى أخريات القرن الرابع الهجرى وبالتحديد فى سنة ٣٨٧ هـ ـ ٩٩٧ م استطاع الغزنويون أبناء سبكتكين ملوك غزنة أن يقيموا دولة فى أفغانستان وبنجاب ، واستطاع السلطان محمود بن سبكتكين أن يفتح الهند ، ثم استطاع الغزنويون أن يرثوا أملاك السامانيين ، وأن يمدوا سلطانهم على تركستان وطبرستان وسجستان ، وأقاموا دولة قوية ، ولكن لاتربطها بالدولة العباسية رابطة سياسية ، مما أسهم كذلك فى تقليل شأن الخلافة العباسية ٠

وفى آخر القرن الثالث الهجرى سنة ٢٩٧ هـ ـ ٩٠٩ م ٠ أخذت الدعوة للفاطميين تؤتى ثمارها فى اليمن والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب العربى ثم استطاع عبيد الله المهدى ـ بعد معاناة ـ أن يصل الى رقادة فى المغرب وأن يقضى على نفوذ الأغالبة هناك وأن يتخذها مقرا لإمارته وأن يبطل اسم الخليفة العباسى من الخطبة ٠

وظل نفوذ الفاطميين يتسع حتى جاء عليهم وقت كانت دولتهم تمتد من أقصى المغرب العربى إلى جزء كبير من المشرق العربى ، بحيث كان فى حوذتها المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر والحجاز كله واليمن وشمال الحجاز إلى فلسطين وحوران وحمص وحلب إلى جبال طوروس ٠

وتولى هذه الخلافة الفاطمية أربعة عشر خليفة كان أولهم المهدى أبو محمد عبيد الله وآخرهم العاضد أبو محمد عبد الله الذى أسقط حكمه الأيوبيون فى مصر ٠

وفى عام ٤٣٩ هـ استطاع الصليحيون فى اليمن بقيادة رائدهم على بن محمد الصليحى أن يستعيد النفوذ للفاطميين فى اليمن بعد أن كان أهل السنة قد قضوا على

النفوذ الفاطمى فى اليمن ، وكاتب الخليفة الفاطمى المستنصر فى ذلك . ولم تأت سنة ٤٥٥ هـ حتى كانت الدعوة الإسماعيلية قد عمت كل أرجاء اليمن ، واتخذ على بن محمد الصليحى صنعاء عاصمة له وشيد فى اليمن القصور والدور وظل هذا النفوذ حتى قضى عليه صلاح الدين الأيوبى .

وكان هذا إضعافا لشأن الدولة العباسية دولة الخلافة وإظهارا لها ولخلفائها بمظهر من غلب أمره .

وفى المغرب ظهرت الدعوة الموحدية على يد عبد المؤمن بن على سنة ٥٢٦ هـ وكان هدف هذه الدعوة أمرين :

القضاء على دولة المرابطين ، وإخضاع القبائل المغربية للدعوة الموحدية واستطاع عبد المؤمن أن يقضى على دولة المرابطين سنة ٥٤١ هـ فاستولى على المغرب كله ، ثم اتجه إلى بلاد الأندلس وأخضع جانبا كبيرا منها لسلطانه . وكان لأسرة عبد المؤمن هذه صراع مع الصليبيين فى الأندلس ، فغزوا طليطلة وغنموا منها وأسروا من النصارى عددا كبيرا ، كما استولت جيوش الموحدين على شنترين ولشبونة .

وفى عصر يوسف بن عبد المؤمن كان أبو بكر بن طفيل ، وابن رشد ، والوزير أبو بكر بن زهر .

ووقفت دولة الموحدين سدًّا منيعا ضد أطماع الصليبيين فى الأندلس حتى ضعف شأنهم واضطربت أحوالهم وكثرت فى بلاد الموحدين الفتن ، حتى انتهت هذه الدولة على أيدى أهل الفتنة فى سنة ٦٦٧ هـ

ولقد بلغ من قوة هذه الدولة أن استنجد بها صلاح فى حرب الصليبيين فى المشرق وإن كان خليفة الموحدين آنذاك يعقوب المنصور لم يستطع أن يلبى طلب صلاح الدين بسبب اضطراب أحوال بلاده وتربص الصليبيين به .

تلك أول الظواهر التى أردنا أن نتحدث عنها فى هذا المجال ، مما نؤكد به ضعف الخلافة العباسية وقيام دول عديدة لم تكن تابعة لها فى العالم الإسلامى .

أما الظاهرة الثانية فهى :

سيطرة بعض القواد والأمراء على الخلافة العباسية •

بدأ ضعف الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المتوكل ، أى بعد مائة عام فقط من قيام الدولة ، وكان لذلك أسباب كثيرة من أبرزها ابتعاد بعض خلفاء بنى العباس عن آداب الإسلام وخلقياته ، ومنهجه فى قيادة الناس ، الأمر الذى أدى بشكل مباشر إلى كثير من السلبيات التى أسرعت بالفساد إلى الأمة وجعلتها فى فرقة وانقسام ، فضلا عما أدت إليه من ظهور كثير من البدع والآراء المتطرفة البعيدة عن الإسلام ، حيث كثر الملاحدة والزنادقة كالراوندية والخرمية وأصحاب المقالات •

كما كثرت طوائف المتكلمين كالمعتزلة وغيرهم ، كل ذلك أضعف هيبة الخلافة وأطمع المغامرين من القواد ممن قربهم الخلفاء واعتمدوا عليهم فى السيطرة على الخلافة والخلفاء •

وقد اعتمدت الدولة العباسية فى عهد المتوكل وماقبله ـ وبخاصة عهد المعتصم ـ على الأتراك ، بعد إقصاء الفرس ، حتى إن المعتصم لما رأى شر الأتراك قد تفاقم والشكوى من أعمالهم قد عمت ، بنى لهم مدينة سُرَّ من رأى « سامراء » وجعل منها عاصمة بديلة لبغداد •

أما عندما تولى المتوكل فقد كان نفوذ الأتراك قد زاد وخطرهم قد استفحل فحاول المتوكل أن يقلل من هذا النفوذ ، حتى إنه فكر فى نقل مقر الخلافة إلى الشام والاعتماد على العرب بدلا من الترك •

غير أن الترك عاجلوه وقتلوه غيلة وولوا ابنه المنتصر الذى يقال إنه تآمر معهم على أبيه بسبب ولاية العهد ، ولم تهنأ الخلافة للمنتصر ، فقتل بمؤامرة تركية كذلك حيث سمه طبيبه ابن طيغور باتفاق مع الترك • ثم ولوا المستعين ثم قتلوه وولوا المعتز ، ثم قتلوا المعتز وولوا المهتدى أخيه ثم مالبثوا أن قرروا حبسه وتعذيبه حتى الموت ، ثم بايعوا المعتمد على الله ، ثم قهروه وحجروا عليه وأعطوا السلطة لأخيه الموفق •

وهكذا ظلت أمور الدولة فى أيدى قواد الترك يولون ويعزلون ويقتلون ويغدرون ، ولم يصبح للخلافة ولا للخليفة شئ من المهابة أو النفوذ ·

وقد أدى ضعف الخلافة إلى أن ينشق عنها عدد من الدول الصغيرة فى بلاد فارس كالدولة الطاهرية والصفارية والسامانية ، ودولة الديالمة ، ثم قامت دولة بنى بويه ·

وأخذ نفوذ بنى بويه يتسع ، وأخذت سيطرتهم على الخلفاء تزيد ، وبدءوا يمارسون خلع الخلفاء وتوليتهم ، فآلت إليهم المقاليد الحقيقية للدولة ودانت لهم فارس والعراق وبزغ منهم نجوم كعضد الدولة وصمصام وبهاء الدولة وسلطان الدولة وغيرهم · فلما كان جلال الدولة دان معظم العالم الإسلامى لبنى بويه على الرغم من اختلاف بعضهم مع بعض ، واختلافهم مع الجنود ، وأصبح الخليفة العباسى غير مرعى الجانب فى أى أمر من أمور الحكم والخلافة ·

وظل بنو بويه يسيطرون على الخلافة العباسية منذ عام ٣٣٤ هـ إلى أن استطاع أن يحل محلهم السلاجقة فى السيطرة على الخلافة العباسية فى سنة ٤٤٧ هـ

وعلى الرغم من محاولات عدد من الخلفاء العباسيين على وقف هذا النفوذ البويهى فى الدولة بأن يقوم بالإصلاحات التى من شأنها أن تعطى للدولة هيبتها فإن هذه المحاولات باءت فى كثير من الأحوال بالفشل ، وأدت فى أحيان أخرى إلى أن تذهب حياة الخليفة ثمنا لهذه المحاولات ·

ذاك شأن الأتراك ونفوذهم على دولة الخلافة العباسية ، وهذا شأن البويهيين فى قضائهم على شخصيات الخلفاء ·

أما السلاجقة ، فقد كان ظهورهم على مسرح الأحداث منذ سنة ٤٢٩ هـ عندما استولى طغرليك بن ميكائيل بن سلجون على مرو حاضرة خراسان ، وذكر اسمه فى خطبة الجمعة بلقب ضخم ـ يدل على غفلة وبعد عن التدين ، بل يدل على ملق ونفاق ـ إذ لقب : بملك الملوك ·

وقد استطاع طغرليك هذا أن يهزم الغزنوين فى سرخس ، ثم استولى على نيسابور ، ثم استولى فى سنة ٤٣٣ هـ على جرجان وطبرستان ثم على خوارزم ثم همذان ، ثم على بلاد الديلم وكرمان ، وبعد سنوات استولى على أصبهان •

وقد استعان الخليفة العباسى القائم بطغرلبك وقلده وخلع عليه وتوجه وخاطبه بملك المشرق والمغرب •

ومنذ ذلك الحين ظهر أمر السلاجقة وأصبحوا أصحاب السطوة والنفوذ فى الخلافة العباسية والمتصرفين فى كل مايتبع هذه الخلافة من بلاد وعباد •

ولقد حدث صراع بين البساسيرى أحد قواد بنى بويه والخليفة العباسى فحبس البساسيرىُّ الخليفة وقهرَ •

ثم دار الصراع بين البساسيرى ـ البويهى ـ وطغرليك ، كانت نهايته لصالح طغرليك واستطاع أن يخرج الخليفة من محبسه ، وأن يعيده إلى قصره ، وقتل البساسيرى وحمل رأسه إلى بغداد •

وظل طغرليك يحكم الخلافة العباسية أكثر من سبع سنين ، ثم تعاقب سلاطين السلاجقة فى حكم الدولة العباسية ، ولابد أن نشير هنا إلى أن السلاجقة كانوا يدينون بمذهب أهل السنة وهو مذهب الخلفاء العباسيين بينما كان البويهيون على مذهب الشيعة ، ولعل ذلك يفسر الرضا من الخلفاء العباسيين عن السلاجقة ، والثقة فيهم •

ولما تولى ملكشاه بعد وفاة أبيه ألب أرسلان اتسع ملكه إلى حدود الصين شرقا إلى بلاد الشام غربا ومن الشمال إلى أغلب البلاد الإسلامية ومن الجنوب إلى اليمن ، وأدى له أباطرة الروم الجزية ويسمى هذا العصر : العصر السلجوقى الأول •

وكان عصر ملكشاه العصر الذهبى للسلاجقة ، وتولى السلاجقة السلطنة بعد ذلك ، ولكن لم يكن لهم من المنعة والقوة ماكان لهم فى عصر ملكشاه ، إذ دب بينهم الخلاف وترصدتهم المشكلات ، فجاء من بعد ملكشاه ولده سنجر ثم أخوه محمود ثم أخوه بركياروق

ثم أخوه محمد ثم ابنه محمود ، ويسمى المؤرخون هذا العصر السلجوقى بعصر السلاجقة العظام ·

وبانتهاء هذا العصر انتهى عصر السلاجقة الحقيقى وبدأت تتقسم أملاكهم بيوت أخرى كالأتابكة الذين كانوا فى الأصل مربين لأبناء سلاطين السلاجقة ، فقد استغل هؤلاء الأتابكة الخلافات الناشبة بين سلاطين السلاجقة وتحكموا فى الولايات والإمارات وهؤلاء الأتابكة هم أصحاب أتابكية كينا وماردين ، وأتابكية دمشق ، وأتابكية دانشمند ، وأتابكية الجزيرة والموصل وسورية وأذربيجان ·

كما شارك فى قسمة أملاك السلاجقة الشاهاتُ الذين ولاهم السلاجقة بعض الولايات مثل شاهات خوارزم ، وشاهات أرمينية ·

وقد ظل هؤلاء الذين ورثوا سلطنة السلاجقة يسيطرون على الخلافة العباسية سيطرة شبه كاملة ، حتى إنهم استقلوا بأطراف عديدة من دولة الخلافة العباسية ·

أما الظاهرة الثالثة ، فهى ظاهرة الحركات الدينية والسياسية التى مزقت العالم الإسلامى فى تلك الفترة التى نتحدث عنها ·

وأول هذه الحركات الحركة الفاطمية التى قامت على أساس المذهب الشيعى المخالف لمذهب أهل السنة ـ مذهب الخلافة العباسية ـ وكانت الحركة الفاطمية أمًّا لكل الحركات السياسية والدينية المناهضة للدولة العباسية ونحب أن نشير هنا إلى بعض هذه الحركات ·

وأهم هذه الحركات حركة القرامطة :

وقد سبقت حركةَ القرامطة فى الوجود حركةُ الراوندية الذين عبدوا أبا جعفر المنصور ، ولكن أبا جعفر قضى عليهم ـ وهم أصلا من الفرس ـ فاعتبرهم أتباع عدوه أبى مسلم الخراسانى ، ولكن سرعان ماظهروا من جديد على يد المقنَّع الخراسانى الذى ادعى الألوهية ، وزعم أن الله خلق آدم فتحول فى صورته ثم فى صورة نوح ثم فى صورة إبراهيم ·· ثم فى صورة محمد صلى الله عليه وسلم ثم فى صورة أبى مسلم الخراسانى ثم فى صورته (المقنع)

وامتدت هذه الانحرافات لتظهر فى صورة الحركة الخُرَّمية التى اشتد أمرها فى عهدى المأمون والمعتصم •

كل ذلك سبق الحركة القرمطية ، ثم بدا فى الأفق ظهور حركات غلاة الشيعة فى الفترة التى نتحدث عنها وهى ثلاث حركات :

القرامطة والدروز والنصيرية •

أما القرامطة فقد ظهرت حركتهم عام ٢٨٩ هـ ـ ٩٠١ م بزعامة رأسهم الداعية الإسماعيلى حمدان الملقب « قرميطى » أى أحمر العينين • وانتشرت هذه الحركة فى اليمن سنة ٢٩٢ هـ ـ ٩٠٤م على يد على بن الفضل الحميرى ومنصور بن حسن الكوفى ، وقد نجح على بن الفضل فى الاستيلاء على ذمار وصنعاء سنة ٢٩٤ هـ ـ ٩٠٦م وتغلب على جيوش الخليفة الهادى العباسى ، ويقال إنه ادعى النبوة بعد هذا النجاح ، ثم مات مسموما ولكن دعوته بقيت فى اليمن وتنقلت إلى غيره من أجزاء العالم الإسلامى •

وكان لهم فى بلاد الشام وفى البحرين وفى شرقى الجزيرة العربية وفى الحجاز وجود ملحوظ ، وقد حاربهم الفاطميون فى أكثر من موقعة ، واستطاعوا هزيمتهم هزيمة منكرة فى نهر الطواحين بالقرب من الرملة وكان يقودهم الحسن الأعصم •

وبعد هذه الهزيمة انتقلوا إلى أوال حيث انتقم منهم أبناء أبى طاهر ، وبعد ذلك رجعوا إلى دعوة العلويين ومحاربة بنى العباس [1] ، وظلوا موالين للفاطميين إلى أن زالت دولتهم من جزيرة أُوال سنة ٤٥٨ هـ ثم من البحرين سنة ٤٧٠ هـ فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى • وكان الذى أجهز عليهم هم أهل السنة بقيادة السلاجقة حيث اتبعوهم إلى الأحساء وقضوا عليهم القضاء الأخير •

وهكذا ظلت حركة القرامطة قرابة قرنين من الزمان مصدر قلق واضطراب للعالم الإسلامى كله ـ عباسيين وفاطميين ، بما يشيعون من إلحاد وكفر •

---

١ ـ ابن خلدون : تاريخه : ٩١/٤ •

أما الدروز ـ وهم من غلاة الشيعة كالقرامطة ـ وقد كان بدء ظهورهم فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، وينسبون إلى درزى محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ٤١٠ هـ ـ ١٠١٩م • وإن كان المؤسس هو حمزة بن على الزوزنى الذى اتخذ من الدرزى تلميذا وداعية له •

وهى حركة تقوم على نظرية الحق الملكى المقدس ـ تأليه الحاكم ـ ولما رحل حمزة إلى مصر واتخذ التلاميذ والدعاة دعا إلى تأليه الحاكم بأمر الله الفاطمى سنة ٤٠٨ هـ بحجة أن روح الله قد انتقلت إلى الحاكم بأمر الله عبر الأنبياء عليهم السلام ثم على بن أبى طالب رضى الله عنه •

وكان لهم فى مصر نشاط وأتباع . ومن عجب أنهم لقوا عطفا من الحاكم بأمر الله !!! وقد سلك الدرزى فى تأييد ألوهية الحاكم مسالك عديدة وصلت إلى حد تأليف الكتب فى هذا الموضوع وشرع فى قراءتها على طلاب العلم فى الأزهر ولكنه ووجه بسخط الخاصة والعامة . الأمر الذى جعل الحاكم بأمر الله يتراجع عن تأييده له ولدعوته •

ولايزال للدرزية وجود حتى الآن فى لبنان وسورية • وقد كانوا مصدر قلق للعالم الإسلامى لما انطوت عليه حركتهم من زيغ وكفر وفساد •

أما النصيرية ـ وهم من غلاة الشيعة أيضا ـ ومواطنهم جبل النصيرية وهو جزء من جبل لبنان وتمتد شرقا إلى حمص وحماة وحلب وشمالا إلى ماوراء أنطاكية على حدود بلاد الأناضول . ولايزال لهم وجود حتى الآن وإن كانوا قد سموا « العلويين » حديثا •

ورأسهم هو الفقيه الشيعى محمد بن نصير المتوفى سنة ٢٦٠ هـ وهو من أتباع الحسن العسكرى الإمام الحادى عشر عند طائفة الإمامية الاثنى عشرية •

والنصيرية ملحدون خارجون على الإسلام فى اعتقادهم بالتجسد واعتقادهم بخلود ثلاثة من البشر هم : على رضى الله عنه . ومحمد صلى الله عليه وسلم . وسلمان الفارسى رضى الله عنه • ويرمزون لهم بالحروف ع . م .س •

وهم كفرة باعتقادهم أن عليا الإله ، وأنه الكائن الأسمى والنور المشع الذى ينبعث عن فيضه محمد صلى الله عليه وسلم •

وهم حركة ضالة أزعجت العالم الإسلامى فى تلك الفترة التى نتحدث عنها ولا تزال مصدر قلق واضطراب فى سوريا ولبنان حتى الآن •

وهناك حركة النزارية ـ وهم جماعة من الباطنية أو الإسماعيلية ـ كان رأسهم الحسن الصباح الذى سافر إلى الخليفة المستنصر الفاطمى فى مصر فأكرمه فأخذ يدعو إلى نزار الابن الأكبر للخليفة ، وخرج من مصر مارا بالشام والجزيرة وديار بكر ثم استقر فى خراسان ، واستطاع أن يستولى على قلعة « ألموت » ثم على عدد من القلاع الحصينة • ونادوا بإمامة نزار بن المستنصر فسموا النزارية نسبة إلى نزار أو الحشاشين أو الحشيشية نسبة إلى ماكانوا يتعاطونه من مخدر فى مرحلة من مراحل تطويعهم لهذه الدعوة •

وكان هدفهم محاربة أهل السنة ، والتعليم عندهم عن الإمام المعصوم أو نائبه ، وتأويل القرآن بما يتفق مع ميولهم السياسية ، وكان لهم مراتب ونظم وعهد وخطوات يمر بها المدعوّ حتى يصل إلى خطوة الخلع بخلعه من مذهب أهل السنة عنه وإسقاط الفرائض الشرعية عنه •

وظلت هذه الحركة مصدر خطر فى العالم الإسلامى مدة بزعامة الحسن الصباح لها ومدة زعامة خليفته « أَلْكِيابُزّر وابنه محمد ، والحسن الثانى ومحمد الثانى وجلال الدين حسن وعلاء الدين محمد أى من سنة ٤٨٨ هـ ـ إلى سنة ٦٥٣ هـ حيث قتل آخرهم ركن الدين خورشاه •

ويسمون الطور الأول من دعوتهم طور الستر الأول من ٤٨٨ هـ إلى ٥٥٩ هـ

ومابعده يسمونه طور الأئمة من ٥٥٩ هـ إلى ٦٥٣ هـ • ولم ينته أمرهم عند هذا وإنما يرون أن طور الستر الثانى بدأ سنة ٦٥٥ هـ الى سنة ١٢٣٣ هـ بظهور الإمام النزارى محمد بن حسين الملقب بأغان خان ، وقد ساعده الانجليز فى الاستيلاء على أفغانستان ،

وبعد وفاته سنة ١٣٠٣ هـ ـ ١٨٨٥م تولى بعده أغاخان محمد شاه ، جد صدر الدين بن على أغاخان المعروف فى عصرنا هذا •

ومن هذه الحركات المنحرفة التى أقلقت العالم الإسلامى آنذاك :

الدعوة الطّيبية فى اليمن : حيث نادى أنصار الدعوة الفاطمية فى اليمن بأبى القاسم بن الخليفة المستعلى ونقلوه إلى بلادهم ولقبوه الإمام الطيب ، وبذلك أسسوا الدعوة الطيبية فى اليمن • ثم امتد نفوذهم إلى مصر التى خرجت منها الفكرة ، ونقشت الدنانير باسمه فى الاسكندرية سنة ٥٢٥ هـ وكان نقشه :

« أبو القاسم المنتظر بأمر الله أمير المؤمنين الإمام محمد »

وقد دعوا إلى إمام مستور ، وظلت تعمل فى الخفاء فى بلاد اليمن ، وأيدهم الصليحيون حينا ، وأتباعها ظلوا يمارسون دعوتهم إلى نهاية القرن السادس الهجرى ، وقد سمى أتباعها فيما بعد بالبهرة الذين ينتظرون الإمام من أبناء الطيب ، وهم يشبهون الخوجات أتباع أغاخان فى الانتظار للإمام وإن كان البهرة ينتظرونه من أبناء الطيب بينما ينتظره الخوجات من أحفاد نزار بن المستنصر •

ومما ألم بالعالم الإسلامى من حركات منحرفة عن الجادة ، الدعوة المرابطية فهذه الدعوة وإن بدأت دعوة دينية تقوم على إحياء روح الجهاد فى المسلمين وإن كان أمراؤهم مجاهدين فى سبيل الله سبحانه ، وقد أقاموا عملهم على أساس المرابطة فى الثغور والأماكن التى يخشون فيها من أعداء المسلمين أقول على الرغم من نبل الغاية وسلامة الوسيلة أولا ، إن هذه الحركة قد أخذت تتجه اتجاها مغايرا ، إذا أصبح الرباط فى شمال إفريقية يمارس فيه فقهاء المالكية الدفاع عن مذهب الإمام مالك مع دعوة الناس إلى التعبد والزهد •

ثم اتجه بعض دعاة الحركة إلى اعتزال الحياة بحجة أنها فسدت وأصبحت فوضى ، واتجهوا نحو هذه الرباطات ينقطعون فيها للعبادة أى ينقطعون عن الحياة •

ثم تحولت هذه الرباطات إلى مراكز عسكرية همها كفاح المذاهب الأخرى •

نعم كان الفضل لهم فى نشر الإسلام فى كثير من بقاع أفريقية السنغال والسودان وغيرهما ، وبرز منهم يحيى بن إبراهيم الجدالى وعبد الله بن ياسين والأمير أبو بكر بن عمر اللمتونى وكانوا مخلصين فى العمل للإسلام .

ومن أهم ملوكهم يوسف بن تاشفين الذى استنجد به ملوك الطوائف بالأندلس بعد استيلاء ألفونس السادس على طليطلة ، فأنجدهم وأوقع بالصليبيين هزيمة منكرة فى معركة شهيرة هى معركة الزلاقة .

ولقد عاشت حركة المرابطين من سنة ٤٤٥ هـ إلى سنة ٥٤٢ هـ ، ولكنها كانت انشقاقا عن وحدة المسلمين وتفريقا لصفوفهم مافى ذلك شك .

وكذلك قامت حركة الموحدين بالمغرب ، قادها محمد بن تومرت وقد بدأها فى مكة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وكانت مكة آنئذ خاضعة للحكم الفاطمى ، فندد ابن تومرت بسوء حال المسلمين فى حكم الفاطميين ، ثم اتجه إلى الشام ثم إلى مصر مقر الفاطميين ، فطارده الفاطميون فركب البحر واتجه إلى المغرب .

وهناك أقام دعوته على أساسين : تأويل متشابه القرآن والحديث مع تشديد الفكر على علماء المغرب من المالكية لعدم أخذهم بالتأويل ، مما جعله يقوم بتدريس علم التوحيد لتوضيح مذهبه ، أما الأساس الثانى لدعوته فكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وهناك التقى ابن تومرت بعبد المؤمن ورضيه خليفة له فى زعامة الموحدين واعتقد ابن تومرت أنه وأتباعه الموحدون حقا ، وعرض بدولة المرابطين ورماهم بالكفر والتجسيم وأحل قتالهم .

وقد بدأ ابن تومرت ـ بعد أن استقر بهرغة ـ يجهر بآرائه فى التوحيد وتجمع حوله من الطلاب عدد كبير فطلب منهم مبايعته على التوحيد ، ثم مهد للخطوة التالية وهى المهدوية فأخذ يذكر لتلاميذه الأحاديث الشيعية عن المهدى المنتظر ، ثم أخذ البيعة لنفسه على أنه المهدى المعصوم المنتظر مدعيا أنه من نسل النبى صلى الله عليه وسلم .

وأخذ ابن تومرت يوسع نطاق دعوته بإخضاع القبائل المجاورة ، ثم خلفه عبد المؤمن الذى تغلب على المرابطين وملك قرطبة وغرناطة والأندلس ، وقد بلغت الدولة أوجها فى عهد أبى يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ هـ) الذى انتصر على الصليبيين فى معركة الأراك سنة ٥٩١ هـ .

وقد ظل نفوذ هذه الدولة من سنة ٥٢٥ هـ حيث أقاموا دولتهم إلى سنة ٦٦٨ هـ حيث استولى المرينيون على مراكش .

وهكذا كانت دولة الموحدين مظهرا من مظاهر انقسام المسلمين وتفتت وحدتهم الفكرية من جانب ، والسياسية من جانب آخر .

وبعد : فلعلنا قد أوضحنا ـ فى إيجاز ـ ظروف العالم الإسلامى فى الفترة التى شنت فيها أوربا غزوها الصليبى على العالم الإسلامى ، بما ذكرنا من تلك الظواهر الثلاث التى دلت على فرقة المسلمين فى الفكر وفى السياسة ، الأمر الذى ساعد الغزاة على أن يحققوا انتصارات على المسلمين مكنتهم من الاستيلاء على كثير من بلدان المسلمين فى الشرق الإسلامى .

غير أن هذه الانتصارات كانت تتحول إلى هزائم بمجرد أن يتحد المسلمون تحت قيادة مخلص لدينه من قوادهم ، كما رأينا فى تاريخ نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى وعدد من قواد المماليك .

وإلى حديثنا عن الدول الإسلامية التى واجهت الصليبيين .

٢ ـ الدول الإسلامية التى واجهت الصليبيين

على الرغم من الظروف السيئة التى أحاطت بالعالم الإسلامى ـ نتيجة مباشرة للبعد عن الأخذ الكامل بمنهج الإسلام فى الحياة ـ فإن الدول الإسلامية ـ بما بقى فيها من اعتزاز بمنهج دينها ـ لم تستسلم لهذا الغزو الصليبى طالما فيها بقية من القدرة على المقاومة ٠

ولعل الميدان الوحيد الذى كسب فيه الصليبيون الجولة الأخيرة فى صراعهم مع المسلمين هو ميدان الأندلس المسلمة ، وربما كان لذلك من الأسباب ماجعل المسلمين يخسرون هذه المعركة خسارة مطلقة ٠

وسنحاول فى هذه الصفحات أن نتعرف بإيجاز على مواجهة المسلمين فى الأندلس للغزو الصليبى ، ثم نتعرف بإيجاز كذلك على صراع الدولة العباسية مع الدولة البيزنطية ـ قبل الحروب الصليبية المعروفة ـ ثم يتسع بنا القول فى الحديث عن مواجهة المسلمين للغزو الصليبى الأوربى للعالم الإسلامى فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، جريا على ما رسمناه لأنفسنا من خطة فى علاج موضوع الغزو الصليبى للعالم الإسلامى ٠[١]

على أن الحديث عن مواجهة المسلمين للصليبيين ـ فى فترة الحروب الصليبية المعروفة، سيتناول دولا إسلامية متعددة ، مثل الفاطميين فى مصر والشام، والسلاجقة فى الشام والعراق وفارس ومن ورائهم خلفاء بنى العباس ، ثم الأيوبيين فى مصر والشام ، ثم المماليك فى مصر والشام كذلك ، حيث ينتهى الوجود الصليبى العسكرى فى العالم الإسلامى انتهاء مطلقا على أيدى المماليك فى نهاية القرن السابع الهجرى ٠

---

١ ـ انظر مقدمة هذا الكتاب : ص ٧ ٠

أ ـ مسلمو الأندلس

كان الوجود الإسلامى فى الأندلس امتدادا لفكرة نشر الإسلام فى العالم كله ، غداة استطاع المسلمون أن يؤدوا واجب الدعوة إلى الله ، بنقل البشرية كلها من ظلمات الشرك والكفر إلى نور التوحيد والإيمان ٠

وليس صحيحا ـ بحال ـ مايذيعه بعض المؤرخين من أن المسلمين انطلقوا بهذا الدين من الجزيرة العربية فارين أو مهاجرين من الفقر والقحط ، مغامرين طامحين إلى الترف والغنى[1] ، فلقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم الهدف من التوسع الإسلامى وهو دعوة الناس إلى هذا الدين ، فمن قبل منهم الدخول فيه فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن استبد به ضلاله ووقف فى وجه الحق والهدى يصد عن سبيل الله آذنه المسلمون بالحرب التى تستهدف إخضاع عباد الله لدين الله ومنهجه ٠

نلمس ذلك فى زمن باكر من حياة الإسلام فى كتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء داخل الجزيرة العربية وخارجها يدعوهم إلى الإسلام ، ونلمسه بعد ذلك فى سياسة خلفائه الراشدين الهادين المهديين من بعده ، منذ أن وجه أبو بكر الصديق رضى الله عنه جيشين إسلاميين للروم والفرس فى عام واحد هو عام ١٢ هجرى ـ ٦٣٣م ٠

ونلمسه كذلك فى سياسة عمر بن الخطاب رضى الله حينما وجه جيوش المسلمين إلى الشام والعراق ومصر ٠

ونلمسه كذلك فى سياسة عثمان بن عفان رضى الله عنه حيث اتجهت الجيوش الإسلامية لفتح برقة وطرابلس ـ المغرب ـ وافريقية ، حيث حققت جيوش المسلمين أكبر نصر بحرى عرفه تاريخ البحر المتوسط فى وقعة ذات السوارى على الروم بقيادة ملكهم قسطنطين ٠

---

١ ـ ردد هذا أكثر من مؤرخ أجنبى ، ونقل عنهم هذا الباطل أكثر من مؤرخ مسلم ٠

فكل تلك الفتوح كان يحركها فى نفوس المسلمين هدف واحد هو نشر هذا الدين بين الناس لنقلهم من الضلال إلى الهدى ، وسياسة المسلمين فى تلك البلاد التى فتحوها أقوى شاهد على ذلك •

ولما كانت خلافة بنى أمية أصبح شمال إفريقية كله بلادا إسلامية خرجت من حضارة اللاتين إلى حضارة الإسلام ومن دين النصارى إلى -ين الإسلام •

ثم اتجه الفتح الإسلامى صوب إسبانيا سنة ٩١ هجرية ـ ٧١٠م فما مضى عليهم إلا قليل حتى فتحوا إسبانيا ، ودانت شبه جزيرة الأندلس للحكم الإسلامى ـ على ما دب بين الحكام المسلمين فيها من خلاف ـ ثمانية قرون تقريبا • ومن سنة ٩١ هـ إلى سنة ٩٠٨ هـ ـ ٧١١م إلى سنة ١٥٠٢م •

وقد كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامى يسيطر عليها المذهب الكاثوليكى الكنسى ، وكان يسيطر القوط من الناحية السياسية •

وكان نفوذ الكنيسة كبيرا فى تلك البلاد فقد عقد فى طليطلة المجمع السادس وأصدر قرارا بأن يقسم كل الملوك على أن لا يسمحوا بانتشار أى مذهب آخر غير المذهب الكاثوليكى ، ثم صدر قانون يحرم على كل شخص أن يتطرق إلى ذهنه أى شك فى الكنيسة الكاثوليكية المقدسة وفى النظم الإنجيلية وتفاسير الآباء الروحانيين والمراسيم الكنسية والقرابين المقدسة ـ إذا ما صودرت أملاكه أو حكم عليه بالسجن المؤبد •

وأصبح للأساقفة الحق فى المصادقة على انتخاب الملك ، أو عزله إذا لم يرضخ لقرارات الكنيسة •

وعلى الرغم من كل هذا النفوذ الكنسى فى إسبانيا ، فإنه ما مضى زمن وجيز على دخول المسلمين فى إسبانيا حتى دخل الناس هناك فى دين الله أفواجا ، نظرا لما فى الدين الإسلامى من قدرة على جذب الناس إليه ، ولما فى عقيدته من وضوح وبساطة ، ولما فى منهجه من تسامح وإنسانية ، فمن كل طوائف الناس فى الأندلس دخل عدد كبير فى الإسلام ، من الفقراء والأغنياء من الأرقاء والسادة ، من النصارى واليهود •

دخلوا فى الإسلام دون إكراه ـ كما كان ملوك إسبانيا يكرهون الناس على الدخول فى المسيحية ـ بل انخرطوا فى سلك العقيدة الإسلامية راضين بما تلزمهم به من واجبات وما تحتمه عليهم من بعد عن حياة الترف التى كانوا يعيشونها من قبل •

وأصبح فى إسبانيا مسلمون من الإسبان أنفسهم حتى إنهم سموا أنفسهم بالحزب الوطنى للإسبان المسلمين • « وقد بلغ من تأثير الإسلام فى نفوس معظم الذين تحولوا إليه من مسيحيى إسبانيا مبلغا عظيما ، حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة ، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته ، وفنه الذى استولى على عقولهم وبهر خيالهم ، كما وجدوا فى الفروسية العربية الرفيعة مجالا فسيحا لإظهار بأسهم ، وما تكشف عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق قويم »(١)

هذا رأى أرنولد توماس ، وإن كان قد غفل عن الأسباب الجوهرية التى حببت الأسبان فى الإسلام ، كالعدل والمساواة وحسن المعاشرة وتنظيم الحقوق والواجبات بين الحاكم والمحكوم ، وبين الناس جميعاً

وما من شك فى أن دخول الإسلام فى إسبانيا قد أثار حفيظة الكنيسة إلى غير حد ، كما أثار بعض الأمراء والنبلاء الأوربيين ممن كانوا يرقبون فى إسبانيا الأحداث ويشهدون فيها هذا التحول العظيم •

كذلك أثار هذا التحول عددا من أمراء أوربا المغامرين الذين هالهم أن تصبح إسبانيا ـ بما فيها من أماكن مقدسة للمسيحيين ـ على هذا النحو من تغلغل الإسلام فيها وفى أهلها ، فظل هؤلاء يتحينون الفرص لاسترداد الأندلس من المسلمين بالمؤامرات حينا وبالحرب حينا •

فلقد قامت فى الأندلس أربع دويلات مسيحية هى : مملكة ليون ومملكة نافارى ، وكونتية برشلونة وكونتينة قشتالة ، ومن هذه الدويلات أخذ الخطر يحدق بالمسلمين فى الأندلس •

فمنذ القرن الأول الذى دخل فيه المسلمون الأندلس وبالتحديد سنة ١٦٢ هـ ـ ٧٧٨م جهز شارلمان امبراطور الغرب آنئذ جيشا لغزو المسلمين فى الأندلس وقاد هو شخصيا

١ ـ أرنولد توماس : الدعوة إلى الإسلام : ١٦٤ •

جانبا من هذا الجيش واستطاع أن يستولى على : هويسكا ، وبارشلونة ، وجيرون ، ثم قابله جيش المسلمين عند سرقسطة فأنزل به المسلمون فيها خسارة فادحة ، فتراجع إلى بامبلون ثم وجد أن لا سبيل إلى البقاء فى نافار فدمر حصون المدينة وعندما اخترق منعطف رونسوفو هاجمه جيش مسلم بقيادة مطروح وعيشون فمزقوا مؤخرة جيشه ، وقتل قائد جيشه كونت بالاتن ، كما قتل حاكم ثغر بروتانيا رولان ، صاحب الملحمة الشعرية المسماة أغنية رولان والتى جعلت منه بطلا أسطوريا ٠

وقد استمرت غزوات الفرنجة للأندلس المسلمة تتوالى مستغلة سوء الظروف السياسية لبعض الحكام المسلمين فى الأندلس ، غير أن الحرب استمرت سجالا بين المسلمين والفرنجة ـ الصليبيين ـ وإن كان عبد الرحمن الثالث استطاع أن يستولى على برشلونة وريبول ، ثم توصلت الجيوش الإسلامية إلى قلب كاتالونيا ، وأحرزت تقدما على البحر ففتحت سردينيا وأنتيب وبيزاوأربونة إلا أن الخلافة فى الأندلس أخذت تنقسم على نفسها ، فانتهز الصليبيون هذه الفرص ، وفى أخريات القرن الرابع الهجرى والقرن الخامس الهجرى ـ الحادى عشر الميلادى تحالف بعض أمراء أوربا على شن حملة صليبية على المسلمين فى الأندلس قادها ـ فى التحريض عليها والدعوة لها ـ البابا الكسندر الثانى ، فاجتمع جيش كبير من إيطاليا وآخر من فرنسا وانضمت إليهما جيوش من النورمانديين والاكتيانيين ، فتجمعت بذلك حملة كبيرة قادها دون الأكتيانيين غى جوفرما تحت إمرة البابا ٠

وقد حققت هذه الحملة نجاحا فى البداية سنة ٤٥٦ هـ ـ ربيع سنة ١٠٦٤م غير أن المسلمين استطاعوا أن يهزموها وأن تعود مخفقة ٠

ولم يسكت الصليبيون وإنما استطاعوا بقيادة ألفونس السادس أن يستولوا على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ ١٠٨٥م بمساعدة الفرنسيين ، غير أن المسلمين وقد استجاب لهم المرابطون استطاعوا أن ينزلوا بالصليبيين هزيمة منكرة فى موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ ـ ١٠٨٦م ٠

ثم استطاع البابا إربان الثانى ـ مؤرث الحروب الصليبية ضد الشرق الاسلامى ـ أن يثير حربا صليبية ضد المسلمين فى الأندلس ، وكان هدف هذه الحرب الاستيلاء على وشقة فى سرقسطة فاستولوا عليها وعلى غيرها ، وكان للفرنسيين فى هذه الحروب نصيب موفور •

ولقد واكب الغزو الصليبى لإسبانيا المسلمة ذاك الغزو الصليبى للشرق الإسلامى فى حملاته التى تحدثنا عنها فى الباب الأول من هذا الكتاب مما يؤكد أن هذه الحروب المضادة للإسلام والمسلمين كانت تخطط لها الكنيسة ويديرها الأوربيون أمراء وملوك ومغامرون •

وبعد انتصار المسلمين فى الزلاقة شنت فرنسا حملة صليبية على المسلمين فى إسبانيا فاستولوا على حدود نافار ولكنهم عجزوا عن الاستيلاء على تطيلة وهكذا استمر الغزو الصليبى على المسلمين فى الأندلس يوالى هجماته فى حين أخذ أمر المسلمين فى الأندلس يضطرب ، وكلمتهم تتفرق •

ونستطيع هنا أن نشير إلى الممالك النصرانية التى استطاع الإسبان أن يقيموها فى الأندلس ، والتى ظلت تتعاظم مع مرور الأيام وضعف أمر المسلمين ـ ببعدهم عن منهج دينهم ـ حتى أدت فى النهاية ـ على يد فرديناند وإيزابيلا ـ إلى إزالة الوجود الإسلامى من الأندلس ، على النحو التالى :

أولا :

إستطاع الفونسو المحارب ـ على مدى حكمه الذى بلغ ثلاثين عاما من ١١٠٥م أن يجعل من أراجون أعظم ممالك إسبانيا النصرانية وأقواها فقد انتزع من المسلمين قواعد مملكة سرقسطة من بنى هود ثم سرقسطة نفسها من المرابطين ثم استولى على طليطلة ، وبذلك هدد الوجود الاسلامى من الشمال الشرقى ومن الوسط •

ثانيا :

استطاع الفونسو السابع ديموندیس أن يستولى من المسلمين على قلعة قورية سنة ٥٣٦ هـ ـ ١١٤٢م ثم عاون الثوار من المسلمين الذين ثاروا على المرابطين ، ثم عاون المرابطين

أنفسهم عندما علم بقدوم الموحدين إلى الأندلس . ومن ذلك يتضح أنه يعاون على تمزيق صفوف المسلمين وإذهاب هيبتهم ووحدتهم . ثم اشترك الفونسو السابع هذا مع ممالك إسبانيا النصرانية قشتالة وناقارا وأراجون ومعها جنوه وبيزة . فى الاستيلاء على ألمرية وذلك سنة ٥٤٢ هـ ـ ١١٤٧م .

ثالثا :

استطاعت حملة صليبية من جنود قطلونية وأراجون وبيزة وجنوة بقيادة الكونت ريمون برنجير الرابع أمير برشلونة أن تستولى على ثغر طرطوشة سنة ٥٤٣ هـ ١١٤٨ وفى العام التالى استولت على إفراغة .

وفى سنة ٥٥٢ هـ ـ ١١٥٧م استطاع الموحدون أن يستردوا ألمرية من الصليبيين .

رابعا :

عند تدهور الدولة الموحدية بالخلاف بين أمرائها ، استعان المأمون أبو العلاء إدريس بفرناندو ملك قشتالة على ابن أخيه يحيى الناصر . وبهذا أعطى الصليبيون فرصة لم يكونوا يحلمون بها ، فقامت ثورات الثائرين على الأمراء المسلمين وأضحى أمر المسلمين فى الأندلس فى شتات ، حتى استطاع ابن هود أن يستولى على أشبيلة من الموحدين سنة ٦٢٦ هـ ـ ١٢٢٩م . كما استطاع الصليبيون أن يستولوا على ماردة وبطليوس سنة ٦٢٧ هـ ـ ١٢٣٠م من ابن هود كما تحين فرناندو ملك قشتالة الفرصة واستولى من ابن هود على أبده سنة ٦٣١ هـ ـ ١٢٣٤م ثم كانت الكارثة باستيلاء الصليبيين على قرطبة نفسها سنة ٦٣٣ هـ ـ ١٢٣٦م وأول مافعل الصليبيون أن حولوا مسجدها إلى كنيسة .

خامسا :

استطاع الأرجونيون أن يستولوا على بلنسية سنة ٦٣٦ هـ ـ ١٢٣٨م وعلى شاطبة ودانية ولقنت وأوريولة وقرطاجنة فى الأعوام من سنة ٦٤١ هـ ـ ٦٤٤ هـ

وفى سنة ٦٤٥ هـ ـ ١٢٤٧م حاصر الصليبيون إشبيلية وظل حصارها عاما ونصف عام ثم استسلمت لهم فى سنة ٦٤٦ هـ ـ ١٢٤٨م بعد أن حكمها المسلمون خمسة قرون وحول فرناندو مسجدها إلى كنيسة . وهكذا استطاع الصليبيون بسهولة بعد سقوط إشبيلية أن يستولوا على شريش وشذونه وقادمس وشلوقة وغليانة وروضة وأركش وثغر شنتمرية وسلم لهم ابن محفوظ حصن اللقوة ووادى أنه وشنتل والحصين وشلطيش . وهكذا استطاع القشتاليون أن يستولوا على سائر الاراضى الاسلامية الواقعة غربى ولاية الأندلس ٠ ولم يبق للمسلمين فى الأندلس سوى غرناطة سنة ٦٥٥ هـ التى لم يسكت عنها الصليبيون على الرغم من المعاهدات والمواثيق المكتوبة بينهم وبين مملكة غرناطة المسلمة ، واستطاع الصليبيون أن يتتبعوا الوجود الإسلامى فى الأندلس كلها ، وكلما استولوا على مدينة أوثغر نكلوا بأهله من المسلمين ومن نجا منهم فر إلى مملكة غرناطة ٠

وظل الصليبيون يتحينون الفرص للقضاء على مملكة غرناطة آخر مابقى فى أيدى المسلمين من الأندلس ، وما إن نشبت حرب داخلية بين المسلمين فى غرناطة حتى وجدها ملك قشتالة فرصة سانحة . فأعد جيشا استولى به أولا على الحامة فى شهر المحرم من سنة ٨٨٧ هـ ـ ١٤٨٢م ثم زحفت جيوش الصليبيين على اوشة ولكنهم عجزوا عن انتزاعها من المسلمين ٠

وفى عام ٨٨٨ هـ ـ ١٤٨٣م استطاع جيش الصليبيين أن يخوض معركة ضد المسلمين بقيادة أبى عبد الله محمد بن على آخر ملوك غرناطة وحققوا على المسلمين انتصارا فى ظاهر قلعة اللسانة ، وأسروا عددا من المسلمين منهم ملك غرناطة نفسه ، ولكن ملك قشتالة رأى أن يفرج عن أسيره وأن يعاهده ، وفى الوقت نفسه كانت جيوشه تجوب مملكة غرناطة وتستولى منها على كل ما تتمكن من الاستيلاء عليه من حصون وقلاع ، فاستولوا على حصن قرطبة وحصن ذكوين ، ثم استولوا على رندة فى جمادى الأولى سنة ٨٩٠ هـ ـ ابريل ١٤٨٥م ٠

وعندما قامت فتنة داخلية اخرى فى غرناطة انتهزها الصليبيون فرصة لمهاجمة لوشة وعجز المسلمون عن الدفاع عنها ووقع الأمير عبد الله فى أيديهم مرة ثانية ووقع معهم صلحا يساعده بمقتضاه فرناندو على أعدائه الثائرين عليه وفى غمار هذه الفتنة الداخلية استولى الصليبيون على بلش مالقة • فى حين عاد أبو عبد الله ملكا على غرناطة بعد أن كان الزغل قد ملكها •

وفى ربيع سنة ١٤٨٨م ـ ٨٩٣ هـ زحف فرناندو على أطراف مملكة غرناطة الشرقية فاستولى على بيرة والبلشين وأشكر وغيرها من القواعد الشمالية الشرقية ، وفى المحرم من سنة ٨٩٥ هـ ـ ١٤٨٩م استولى فرناندو صلحا على ثغر المنكب ولم يبق للمسلمين سوى ثغر المرية •

بعد ذلك وضع فرناندو خطته للقضاء النهائى على الوجود الاسلامى فى الأندلس ـ على الرغم من العهود والمواثيق التى قطعها على نفسه ـ بالاستيلاء على غرناطة فأعد وزوجه إيزابيلا العدة لذلك ، فاتجه إلى غرناطة جيش صليبى كثيف فى جمادى الثانية سنة ٨٩٦ هـ ـ ١٤٩١م وحاصرها شهورا عديدة وأبدى المسلمون بقيادة فارس عريق هو موسى بن أبى الغسان ضروبا من البسالة لا نظير لها ، بل هاجموا العدو المحاصر أكثر من مرة •

غير أن فرناندو قطع عن المدينة أى إمداد يأتيها من البر أو من البحر ، ولم يجد ملك غرناطة بدا من المفاوضة مع فرناندو ، واستمرت المفاوضات عدة أسابيع ، ثم عقدت معاهدة لتسليم المدينة فى ٢١ من المحرم سنة ٨٩٧ هـ ووضع المسلمون شروطا زادت على الخمسين شرطا وقبلها جميعها فرناندو وإيزابيلا ملكى قشتالة وأرجوان ـ الزوجين ـ وكانت كلها شروطا لصالح المسلمين •

غير أن الملكين الكاثوليكيين ما إن تسلما المدينة حتى خاسا ـ على عادة الصليبيين بهذه العهود والمواثيق ـ وتلا هذا مرحلة عنيفة من مراحل اضطهاد الصليبيين للمسلمين ـ أفرادا ـ فى الاندلس اجبروهم على الدخول فى النصرانية وفى سنة ١٥٠٢م أصدر فرناندو مرسوما يقضى بإلغاء كل الشعائر الاسلامية من الاندلس •

وليس المقام هنا ملائما للحديث عن الشنائع والبشائع التى ارتكبها الصليبيون ضد العزل من المسلمين ، فإن ذلك متوقع منهم ومنتظر •

غير ماينبغى أن نسجله هنا هو أن الغزو الصليبى للأندلس حركته الكنيسة وقاده الطامعون المغامرون من ملوك الصليبيين وأمرائهم ، وساعدهم على هزيمة المسلمين فى الأندلس هوان المسلمين أنفسهم بما دب بينهم من خلاف وما اتصفوا به من تضييع لدينهم وبعد عن الأخذ بمنهجه •

ولقد استمر المسلمون فى الأندلس يواجهون الصليبيين قرابة سبعة قرون وحققوا عليهم انتصارات مشهودة ، ويوم كان ينتصر المسلمون كان سر انتصارهم أمرين ـ هما سر انتصار المسلمين فى أى معركة ـ الاتحاد فى مواجهة العدو ورفع شعار الجهاد فى سبيل الله وما انهزموا فى أى معركة إلا بتفريطهم فى أحد الأمرين أو فيهما معا •



ب ـ العباسيون

واجهت الدولة العباسية الصليبيين الشرقيين ـ البيزنطيين ـ منذ زمن باكر ، وقد ورثت دولة بنى العباس صراعا مع البيزنطيين من دولة بنى أمية وورث بنو أمية هذا الصراع من أيام خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه •

ولقد كانت حركة الفتح الإسلامى بقصد دعوة النـاس إلى الإسـلام ونقلهـم من الضلال إلى الهدى تتجه نحو الروم وأملاكهم منذ خلافة أبى بكر الصديق والفاروق عمر رضى الله عنهما •

وفى خلافة عثمان وصلت جيوش الدعوة الإسلامية إلى القسطنطينية ، وكذلك وصلت إليها فى عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، وفى عهد سليمان بن عبد الملك بقيادة مسلمة •

وفى أخريات عهد بنى أمية ـ وكانت الأمور فى اضطراب ـ شن الصليبيون الغارات على البلدان الإسلامية المجاورة لبلادهم ورد المسلمون هذه الغارات ولم يحقق الصليبيون من ورائها شيئا يذكر •

فلما كانت دولة بنى العباس وفى عهد أبى جعفر المنصور أخذ البيزنطيون يشنون الغارات على الشام ، فهاجم قسطنطين ملطية وخربها واستولى عليها سنة ١٣٧ هـ ولكن المسلمين استردوها فى العام القابل •

وفى سنة ١٣٩ هـ أمر المنصور بغزو الروم ، واستفدى أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم وبنى قاليقلا وعمرها •

وفى سنة ١٥٥ هـ طلب قسطنطين الرابع الصلح والهدنة على ان يدفع جزية للمسلمين كل سنة ، وفى السنوات ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ هـ توالت غزوات المسلمين للروم وكانت غزوة الروم تسمى صائفة لأنها تتم فى الصيف •

واستمرت الصوائف فى عهد المهدى سنة ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ هـ حتى بلغت أنقرة ، ولكن قائد غزوة سنة ١٦١ هـ ثمامة بن الواليد استهان بعدوه فحقق عليه انتصارا أول الأمر ولكنه هزم أمامهم أخيرا •

وقد أطمع هذا الانتصار الصليبيين فأغاروا على الحدث سنة ١٦٢ هـ وقتلوا منها وأسروا ، وفى سنة ١٦٣ هـ استولى الصليبيون على مرعش وأحرقوها ، فلم يجد الخليفة المهدى بدا من أن يخرج للصليبيين بنفسه واتخذ حلب قاعدة له ثم سير إليهم ابنه هارون الرشيد ومعه جيش قوى ، فوصل إلى حصن سمالو وخربه واستولى عليه وتعهد الروم بدفع غرامة وفدوا أسراهم وعقدوا صلحا •

ولكن الصليبيين ـ على الرغم من العهود والصلح ـ كانوا لايكفون عن مهاجمة بلاد المسلمين ، فرأى المهدى أن يسير إليهم جيشا بقيادة ابنه هارون سنة ١٦٥ هـ فوصل إلى سواحل البوسفور وأرغم ملكتهم إيرينى على أن تدفع للمسلمين تسعين ألف دينار سنويا وأن تقيم لهم الأدلاء والأسواق فى طريق عودتهم ، وأن تسلم مافى يدها من أسرى المسلمين •

ولما تولى ملك الصليبيين نقفور نقض الهدنة وتخيل أنه يستطيع أن يغير على الدولة العباسية ـ المشغولة حينئذ ببعض الفتن الداخلية ـ فأرسل إلى هارون الرشيد كتابا يهدد ويتوعد يقول فيه : « من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب • أما بعد : فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ماكنت حقيقا بحمل أمثالها إليها : ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابى فاردد ماحصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك »

وقد رد عليه هارون الرشيد بقوله : « ••• قد قرأت كتابك والجواب ماتراه دون ماتسمعه والسلام »

وسار إليه بجيوش جرارة واستولى على هرقلة . وأجبر الامبراطور المغرور على دفع الجزية من جديد . [1]

وفى عهد المأمون لجأ الصليبيون إلى الحيلة لكسر شوكة المسلمين فشجعوا بابك الحزمى وجعلوا بلادهم موئلا لدعوته فاعتصم بابك بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية فى منطقة حران واستقل عن الدولة العباسية وشغب عليها على مدى اثنين وعشرين عاما من سنة ٢٠١ هـ - ٢٢٣ هـ والروم يشجعونه ويعينونه .

ففى سنة ٢١٨ هـ خرج المأمون لقتال الروم . ولكن أجله وافاه ودفن فى طرسوس .

وفى زمن المعتصم قضى على فتنة الحزمى أولا . ثم اتجه إلى الروم . وقد كان إمبراطور الروم قد أغار على زبطرة وأحرقها وأسر من فيها من المسلمين وسبى المسلمات ومثل بأسراه وسباياه فسمل الأعين وقطع الأنوف والآذان .

وسمع المعتصم بهذه الفظائع . فسار إلى أنقرة وهزم الامبراطور واستولى عليها . ثم هاجم عمورية مسقط رأس الامبراطور توفليس وأحرقها ودمرها وكان ذلك فى سنة ٢٢٣ هـ

ووقف الشعراء يشيدون بهذا الانتصار وكان لأبى تمام رائعة من روائعه هى التى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب .. فى حده الحد بين الجد واللعب

ثم انشغلت الدولة العباسية بخلافاتها الداخلية والانقسامات التى وقعت فيها فجعلت منها دولا بعد أن كانت دولة فاستقل بأجزاء منها : السامانيون (٣٦١ هـ - ٣٩٠ هـ) والزياريون (٣١٦ هـ - ٤٣٩ هـ) والغزنويون (٣٥١ هـ - ٥٨٢ هـ) والحمدانيون (٣١٧ هـ - ٣٩٤ هـ) والبويهيون (٣٢٠ هـ - ٤٤٧ هـ) هذا كله فى المشرق الاسلامى . أما فى الشام ومصر فقد كان الأمر كذلك فى الفرقة والانقسام .

---

١ - الطبرى - تاريخ الأمم والملوك : ١٠/٩٢ - ٩٣ .

فاستقل عن الدولة الإخشيديون ـ بمصر والجزء الأكبر من الشام (٣٢٤ هـ ـ ٣٥٩ هـ) والحمدانيون بشمال الشام والموصل ، وبنوطى بفلسطين ، وبنو كلب بوسط الشام وبنو كلاب وبنو عقيل وبنو نمير استقلوا بشمال الشام والجزيرة •

ونتيجة لهذا التفرق ضعفت الخلافة العباسية وضاعت هيبة الخلفاء ولم يعد بهم طاقة على مواجهة الغزو الصليبى البيزنطى ـ كما كانوا يفعلون من قبل •

وفى نفس الوقت كانت الدولة البيزنطية قد حدثت لها صحوة فى هذه الأثناء ـ القرن العاشر الميلادى ـ الرابع الهجرى تقريبا ـ فأخذ الصليبيون يتوسعون على حساب المسلمين فى أطراف آسيا الصغرى من جانب وفى الشام من جانب آخر •

وقد أشرنا إلى توسعاتهم تلك ونحن نتكلم عن الدوافع السياسية للحروب الصليبية بعامة فى الباب الأول من هذا الكتاب (١)

فاستولى الصليبيون على أرض روم وملطية وميافارقين ومرعش وطرسوس وديار بكر وسميساط ، كل ذلك فى مدًى أقل من عشرين سنة ، ثم استولوا على كريت وغزوا قليقية ، وعين زربة وسيس وعين تاب ومنبج ، ثم حاولوا الاستيلاء على حلب سنة (٣٥١ هـ ـ ٩٦٢م) فأحرقوا مساجدها بعد أن امتنعت عليهم • ثم استولوا على جزيرة قبرص سنة ٣٥٤ هـ • ثم على المصيصة وطرسوس سنة ٣٥٤ هـ

وأغاروا على معظم المدن والقرى الإسلامية فى الشام فلم يجدوا من يقف فى وجوههم •

هكذا وقفت الدولة العباسية بعد عهد المعتصم موقف العاجز عن صد هجمات الصليبيين على أطرافها ، وخسر المسلمون معظم هذه المعارك لأنهم لم يقاتلوا الصليبيين متحدين ، ولارفعوا راية الجهاد فى سبيل الله لينضوى تحتها المقاتلون •

---

١ ـ انظر ص ٣٥ وما بعدها من هذا الكتاب •

وقد ظل الأمر كذلك فى الفترة التى حكم فيها البيزنطيين أربعة أباطرة كان لهم شهرة فى الانقضاض على أطراف العالم الإسلامى ـ وهـم : باسـل الأول ونقفـور فوقـاس وحناشمشيق وباسل الثانى ـ حتى قيض الله لهذه الدولة ـ الصليبية المعتدية على بلاد المسلمين ـ السلاجقة الذين انتصروا عليها انتصارا لاقبله ولا بعده انتصار ، حيث حصد ألب أرسلان زهرة البيزنطيين فى وقعة مانزكرت شمالى بحيرة وان بأرمينية سنة ٤٦٣ هـ ـ ١٠٧١م وأسروا الإمبراطور رمانوس ديوجينس وباتت آسيا الصغـرى هامـدة خامـدة لاحراك بها تحت أقدام عدو لايرحم (١)



١ ـ هـ ٠ ا ٠ ل ٠ فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى : ٣٧٢/١ ـ ٣٧٣ ترجمة مصطفى زيادة والسيد لعرينى ط دار المعارف بمصر ١٩٩٠ م ٠

جـ - الفاطميون

واجه الفاطميون الصليبيين - البيزنطيين - أول الأمر ، وكانت لهم معهم معارك كثيرة •

فبعد أن استقر الفاطميون فى مصر ثم أخضعوا دمشق عقب فتحهم لمصر فى سنة ٣٥٨ هـ ، لم تهدأ لهم الأمور وإنما دخلوا فى صراع مع القرامطة يساندهم البويهيون من جهة ، ومع الأتراك بقيادة أفتكين من جهة أخرى •

وهنا انتهز البيزنطيون الفرصة - وكانوا من قبل قد استولوا على كثير من أطراف الدولة العباسية حتى وصلوا حدود سوريا ، واستولوا على قاليقلا ، وقد أصبحت هذه البلاد الإسلامية تابعة للبيزنطيين - انتهزوا فرصة الاضطراب الذى شغل الفاطميين فى داخل دولتهم المترامية الأطراف ، فأخذوا يشنون الغارات ، ويملكون بلاد المسلمين ، فأحرقوا حمص وطرابلس وعديدا من بلدان الساحل دون أن يردهم أحد •

وفى شهر المحرم من سنة ٣٥٩ هـ استولى الروم على أنطاكية [١] كما ملكوا ملازكرد من أعمال أرمينية وأخذوا يعيثون فسادا دون رادع •

وقد واجه الخليفة الفاطمى العزيز أطماع البيزنطيين فسير إليهم حملة بحرية سنة ٣٧٧ هـ لغزو بلادهم ، فلم تحقق هذه الحملة غرضها ، ومع ذلك فقد قدم رسل إمبراطور الروم إلى مصر يحملون الهدايا إلى العزيز ويعقدون معه صلحا ، فاشترط عليهم : إطلاق سراح أسرى المسلمين فى بلادهم ، والدعاء له فى جامع القسطنطينية وحمل مايطلبه الخليفة من امتعة الروم وأن يهادنهم سبع سنين •

---

١ - ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٣٥٩ هـ •

فلما كان عهد الحاكم بأمر الله عمل على منع البيزنطيين من التقدم إلى جنوب الشام وأعد لذلك حملة هزمت البيزنطيين قرب طبرية ، وحملة برية هزمتهم قرب فاميه ، مما اضطر معه إمبراطور الروم إلى أن يطلب عقد صلح مع المسلمين توقف فيه الحرب عشر سنين .

ولما كانت خلافة الظاهر عقدت هدنة بين الفاطميين والبيزنطيين ، كان من شروطها أن تقام الخطبة للخليفة الفاطمي فى مساجد بلاد الروم ، وأن يعاد بناء جامع القسطنطينية مقابل إعادة بناء كنيسة القيامة التى كان الحاكم بأمر الله قد هدمها . واستمرت العلاقة عهودا ومواثيق فى خلافة المستنصر الفاطمى طوال حكم الامبراطور ميخائيل الرابع وقسطنطين التاسع ، فلما كان حكم الامبراطورة تيودورا ساءت العلاقة فحاربها المستنصر وانتصر عليها برا ، بينما انتصرت عليه بحرا ، ثم عقد بينهما صلح ، [١] ولكن البيزنطيين بعد ذلك آثروا أن يكونوا إلى جانب السلاجقة ضد الفاطميين .

ولابد لنا أن نشير هنا إلى أن الفاطميين وهم شيعة وقفوا من الخلافة العباسية ـ وهم من مذهب أهل السنة ـ موقف عداء صريح لم يرعوا فيه جانبا هاما هو أنهم جميعا مسلمون ، ولابد أن نذكر أن هذا الخلاف قد أضر بالعالم الإسلامى ضررا بليغا ، وأنه كان أحد الأسباب التى أدت إلى أن يستطيع الصليبيون الغربيون الانتصار على المسلمين وانتزاع بيت المقدس منهم بل وتأسيس ممالك صليبية فى الشرق الإسلامى .

فعندما بدأت الحملات الصليبية الغربية على العالم الإسلامى بالتعاون مع الصليبيين الشرقيين ـ البيزنطيين ـ كان الخليفة الفاطمى فى مصر هو المستعلى ، وكان وزيره الأفضل ابن بدر الجمالى هو المتصرف فى شئون البلاد ، بل استمر الأفضل مسيطرا على الخلافة الفاطمية حتى نهاية حكم الخليفة الآمر أى من سنة ٤٨٧ هـ ـ ١٠٩٤م إلى سنة ٥١٥ هـ ١١٢١م .

ولقد أخطأ الأفضل فى أنه لم يعرف على وجه الدقة أبعاد هذه الحملات الصليبية ،

---

١ ـ أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر : ٦٢/٢ باختصار .

فقابلها باستهانة فى أول الأمر ، مما جعل الحركة الصليبية تتفاقم ويشتد خطرها . إذ لو واجهها الأفضل بإمكانات الدولة الفاطمية الكبيرة ـ حيث امتدت الخلافة الفاطمية فى ذلك الوقت لتشمل مصر والشام وفلسطين والحجاز وشمالى إفريقية وصقلية ، بل اليمن والموصل ـ لكان الأمر غير الأمر ، ولما بلغ خطر الصليبيين الحد الذى بلغه .

لكن الأفضل حاول أن يقيم تحالفا مع الصليبيين ضد أعدائه من العباسيين والسلاجقة ـ وتلك أفدح غلطاته وأسوأ سقطاته ـ حيث رأى أن تكون أنطاكية للصليبيين وبيت المقدس للفاطميين ، وانخدع فى هذا الأمر عن الحق فى ذاته وعن الصليبيين الغربيين ونواياهم .

وفعلا سارع بإرسال جيش استولى على بيت المقدس ـ وكان فى يد السلاجقة ـ وملكه وتسلم محراب داود من سكمان ، وكان ذلك سنة ٤٩٢ هـ ـ ١٠٩٨م . ثم أخذت السفارات بين الفاطميين والصليبيين الغربيين تؤدى عملها ـ كما ذكرت المراجع الصليبية [١] ، على أننا لانجد فى المراجع العربية شيئا عن تلك السفارات التى يحاول المؤرخون الصليبيون أن يظهروا فيها الأفضل متحالفا معهم نكاية فى أهل السنة ، وتلك خطة من الصليبيين يبغون من ورائها تعميق الخلاف بين المسلمين فى الماضى والحاضر .

ومانعرفه عن الأفضل أنه سيرّ إلى حرب الصليبيين حملة فى عشرين ألف جندى كان هو على رأسهم وحاربهم حربا خسر فيها جانبا كبيرا من رجاله فاتجه إلى عسقلان ، وكان ذلك سنة ٤٩٢ هـ

ثم سيرّ إليهم حربا ثانية فى سنة ٤٩٤ هـ تحت قيادة سعد الدولة النواسى الذى قاتل الصليبيين قتالا مريرا عند عسقلان ومات شهيدا فيه .

نقول ذلك ونضيف إليه أن الأفضل كانت ميوله نحو أهل السنة ، وكان هو المتصرف فى شئون الدولة الفاطمية فى تلك الآونة . فكيف يتحالف مع الصليبيين وتلك ظروفه .

---

١ ـ ستيفن رنسمان : تاريخ الحروب الصليبية ٣٢٦/١ .

على أن مقتل الأفضل كان بتدبير الخليفة الفاطمى وأنصاره لبواعث سياسية وحزبية . ذكر ذلك ابن القلانسى (١) وابن ميسر (٢) .

ولست هنا بصدد الدفاع عن ابن الأفضل إذ يكفيه خطأ وتقصيرا وقصورا أنه لم يهتم بالصليبيين الأوربيين . ولم يقاتلهم بالجدية التى كانت فى إمكانه وهو المتصرف فى شئون دولة مترامية الأطراف . ولكنه الرغبة فى إحقاق الحق . فقد كان بودنا لو عرفنا بأمر هذه السفارات فى مرجع عربى موثوق فيه ممن ارخوا لهذه الفترة فى حينها كابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ أو ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ أو ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ أو ابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ أو عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ . أو أبو الفرج بن العبرى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ أو ابن القلانسى المتوفى سنة ٥٥٥ هـ وهؤلاء جميعا كتبوا عن تاريخ هذه الفترة وكثير منهم كتب عن تاريخ مصر . ولم يرد فى كتاب من هذه الكتب شيئا عن سفارة الأفضل مع الصليبيين .

فضلا عن المؤرخين الذين أرخوا لهذه الفترة بعدها وهم كثير كالإدفوى وابن إياس وابن بسام وابن بطوطة ورشيد الدين الهمدانى والسخاوى وابن طباطبا وأبو الفداء إسماعيل عماد الدين . وابن كثير القرشى والمقريزى . وهؤلاء أعلام التاريخ فى الحديث عن تلك الظروف .

وعندما تولى بلدوين حكم بيت المقدس أمعن فى قتال المسلمين والاستيلاء على بلادهم ضمن خطته الرامية إلى الاستيلاء على شواطىء فلسطين المواجهة لمملكته وأعانه على ذلك أسطول جنوه . فاستولى على أرسوف وقيسارية ـ وكانتا تابعتين للدولة الفاطمية ـ وقد أتى الصليبيون بأعمال وحشية فى جامع قيسارية حيث حولوه إلى بركة دماء .

١ ـ ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق : ٢٠٣ .

٢ ـ ابن ميسر : تاريخ مصر : ٧٥ .

وهنا وجه الأفضل حملة ضد الصليبيين بقيادة سعد الدولة النواسى ـ كما ذكرنا ـ فى سنة ٣٩٤ هـ التقت مع الصليبيين قرب الرملة وقاتلوا الصليبيين قتال الأبطال ثم اضطروا إلى الإلتجاء إلى عسقلان بعد أن قدموا من الشهداء عددا كبيرا .

ولم يسكت الفاطميون على هذه الهزيمة وإنما جهزوا حربا ثالثة ضد الصليبيين بقيادة شرف المعالى بن الوزير الأفضل . والتقوا مع الصليبيين فى الرملة أيضا وهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة [١] وفر بلدوين نفسه متنكرا إلى يافا واستطاع الفاطميون أن يستولوا على الرملة . فقتلوا من كان فيها من فرسان الصليبيين الذين كانوا بصحبة بلدوين . واتجهت جيوش الفاطميين لمحاصرة يافا ففر منها بلدوين إلى أرسوف . ثم خرج إلى يافا عن طريق البحر . وواتته معونة صليبية من البحر قوامها مائتا سفينة . واستطاع أن ينظم صفوفه وأن يهاجم الفاطميين المحاصرين ليافا واضطرهم إلى فك حصار المدينة والاتجاه إلى عسقلان .

ولم يسكت الأفضل على ذلك وإنما أرسل حملة برية بقيادة تاج العجم . وأخرى بحرية بقيادة القاضى ابن قادوس . واستعان بلدوين بتنكرد أمير أنطاكية ولكن الفاطميين لم يخوضوا معركة فاصلة مع الصليبيين فى تلك الحملة . ويبدو أن الطرفين آثرا عدم الدخول فى معركة فاصلة .

واستعد الصليبيون للاستيلاء على عكا . ودافع عنها قائدها الفاطمى زهر الدولة الجيوشى دفاعا مجيدا ولكنه استسلم أمام التجمعات الصليبية . ففقد الفاطميون أهم ثغر بالشام . وعلى الرغم من التفوق العددى والآلى للصليبيين فإن بعض المؤرخين من المسلمين لم يغفروا للفاطميين هزيمتهم أمام الصليبيين . ويصب بعضهم غضبه على الخليفة الفاطمى نفسه .

هذا أبو المحاسن بن تغرى بردى يقول فى الخليفة الفاطمى الآمر : « يتناهى فى

١ ـ ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٤٩٦ هـ .

العظمة ويتقاعد عن الجهاد ٠٠ وكان فيه تهاون فى أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها فى أيامه ٠٠٠ ولم ينهض لقتال الفرنج البتة ، وإن كان أرسل مع الأسطول عسكرا فهو كلا شئ ٠٠» (١)

ثم سير الفاطميون حملة إلى الرملة للمرة الثالثة بقيادة سناء الملك بن الأفضل وكان قوام الجيش من المصريين والسودان والفرسان العرب ، وقد اعده الأفضل بنفسه وصمم به على طرد الصليبيين من الشام ، وطلب الأفضل المساعدة والمؤازرة من سلاجقة دمشق لقتال العدو المشترك فاستجاب له طغتكين ، وشهدت الحرب تحالفا إسلاميا ضد الصليبيين لأول مرة منذ حملتهم الأولى على الشرق الإسلامى ، واستجمع بلدوين قوته وحشد معاونيه من أمراء الصليبيين ودارت معركة رهيبة بين الجانبين كانت القتلى فيها من الجانبين مئات ومئات ولم تكن معركة فاصلة لأحد الجانبين على الآخر ٠

ولم يسكت الفاطميون عن الصليبيين ـ على الرغم من أنهم لم يحققوا عليهم نصرا حاسما فى معركة يشار إليها ـ وانما ظلوا يتعرضون لهم بالغارة حينا وبالحرب المحدودة حينا ، واستمرت هذه الغارات والحروب حتى استطاع الفاطميون أن يصلوا إلى أسوار بيت المقدس سنة ٥٠٤ هـ ـ ١١١٠م

وفى بداية سنة ٥٠١ هـ أغار الفاطميون على طريق يافا ـ بيت المقدس ، فاتجهوا إلى سهل العوجة ـ بين أرسوف ويافا ـ وقتلوا قرابة خمسمائة من الصليبيين كان مجتمعين هناك ، وبعد ذلك أوغل الفاطميون حتى وصلوا إلى الرملة وقتلوا قوة استطلاعية من الفرسان الذين أرسلهم حاكم يافا الصليبى (٢)

وفى سنة ٥٠٢ هـ أغسطس ١١٠٨م استطاعت عمارة بحرية فاطمية أن تنزل هزيمة منكرة بالسفن الإيطالية الوافدة من بيزا وجنوا والبندقية والتى ساعدت بلدوين فى حصار

---

١ ـ أبو المحاسن جمال الدين بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : ١٧٨/٥ ٠

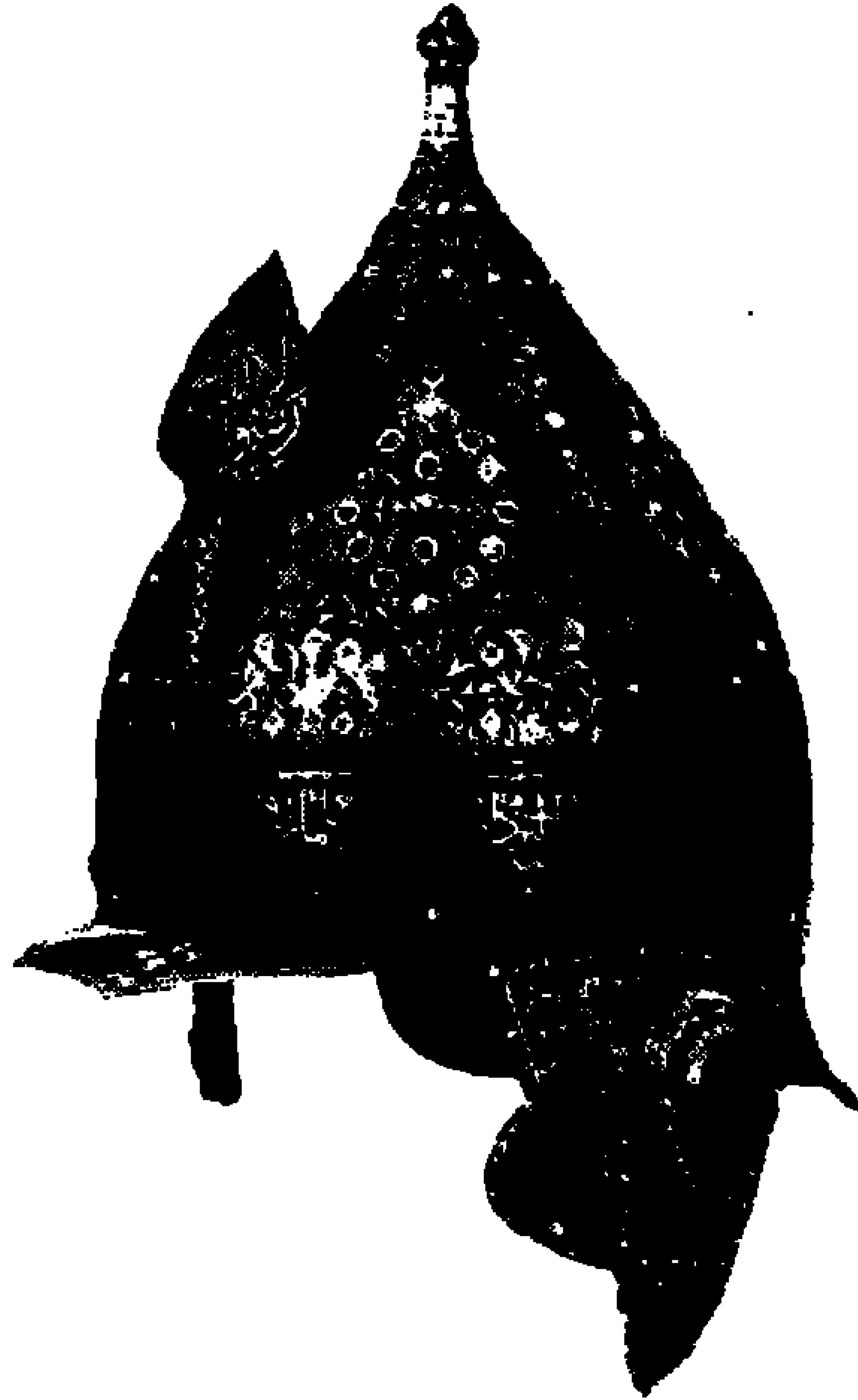
٢ ـ سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ٣٠٧/١ ، نقلا عن : Grousset: Hist, des Craisades I, P. p 247, 248.

صيدا برا وبحرا ، ولم يجد بلدوين مفرا إلا أن ينسحب إلى عكا راضيا من الغنيمة بالانسحاب دون السلامة ٠

وفى سنة ٥١٨ هـ مايو ١٢٢٣م حشد الفاطميون حملة كبيرة فى عسقلان اتجهت إلى حصار يافا ، وفى نفس الوقت استعد أسطول فاطمى لماجمتها من ناحية البحر ، وأوشك الفاطميون أن يستولوا على يافا لولا نجدة صليبية ضخمة جاءت لإنقاذها ، مما اضطر معه الفاطميون إلى الانسحاب ٠

كل ذلك كان فى حياة الوزير الأفضل وبتدبيره ، حيث قتل الأفضل فى شوارع القاهرة قبل ذلك بقليل ٠

والخلاصة أن الدولة الفاطمية واجهت الصليبيين وحققت عليهم بعض الانتصارات ، وإن كانت هى من الداخل لم تكن على الحال التى تسمح لها بأن تحقق على الصليبيين النصر الحاسم ، كما فعل السلاجقة حينا وكما فعل الأيوبيون ، فكان على أيديهم النزع الأخير للصليبيين فى الشرق الإسلامى كله وجاء المماليك ليقضوا على وجودهم القضاء الأخير ٠



د ـ السلاجقة

يعود نسب السلاجقة إلى سلجوق بن دقاق (تقاق) أحد رؤساء الترك ، وكانوا يسكنون بلاد ماوراء النهر ، وهم من الأتراك الغز ، هم يشتركون مع سلاطين آل عثمان فى الجد الأكبر ٠

وقد كانت الفترة التى برز فيها نفوذ السلاجقة من سنة ٤٢٩ هـ ـ ١٣٠٨م إلى سنة ٥٥٢ هـ ـ ١١٥٧م وهى الفترة المسماة بعصر السلاجقة العظام ٠

غير أننا نعد الأتابكة والأراتقة امتدادا للسلاجقة ، فإنهم كانوا أمراء لهم ـ أصلهم مماليك ـ وكان لهم عمل فى مقاومة الصليبيين ٠

لذلك سنتكلم عن السلاجقة ثم الأنابكة ثم الأراتقة ، ونعتبر أولئك جميعا ، ضمن حديثنا عن السلاجقة ٠

وقد كان للسلاجقة مع الصليبيين الشرقيين ـ البيزنطيين ـ مواجهة وحرب وكانت أرمينية هى مكان الصراع ، فقد كانت أرمينية خاضعة للحكم العربى الإسلامى منذ خلافة معاوية بن أبى سفيان إلى أن استطاع البيزنطيون أن يوقظوا القومية الأرمينية وأن يطيحوا بالحكم الإسلامى فيها سنة ٤٣٤ هـ ـ ١٠٤٢م ومنذ ذلك الوقت حدث الصراع بين السلاجقة والصليبيين البيزنطيين ، فبدأ ذلك فى عهد ألب أرسلان حيث وجه حملاته العسكرية إلى أرمينية من الرى فأخضع أران والكرج شرقى أرمينية ، وسار الامبراطور رومانوس الرابع على رأس جيش كثيف لمواجهة التقدم السلجوقى ، واستطاع البيزنطيون الاستيلاء على حصن « ملازكرد » ولكن السلاجقة ردوهم على أعقابهم وأوقعوا الامبراطور البيزنطى فى الأسر ، وبذلك انتهى حكم البيزنطيين الصليبيين فى أرمينية حتى قامت الحروب الصليبية التى شنتها أوربا على العالم الإسلامى متعاونة فى ذلك مع صليبيى الشرق ـ البيزنطيين ـ ٠

ففى شهر سبتمبر ١٠٩٦م أوغل جزء من الحملة الصليبية الأولى حتى بلغوا أبواب مدينة نيقية عاصمة السلطان السلجوقى قلج أرسلان ، فنهبوا القرى بالضواحى واستاقوا ماصادفوه من الماشية والأغنام ، وقتلوا السكان المسيحيين فى وحشية بشعة ... وخرجت من المدينة سرية من الجيش التركى لقتالهم .. ثم عاد الصليبيون إلى كيفتوت ..[١]

وفى أواخر سبتمبر خرج رينالد مع جيش من الألمان فعاثوا فى أرض المسلمين فسادا ثم احتلوا قلعة « اكسيريجوردون » واتخذوها مركزا لهم يغيرون منها على المسلمين ، وأرسل السلطان السلجوقى جيشا لاسترداد القلعة ، فأنزل هزيمة منكرة بكمين أعده رينالد ثم حاصر القلعة حتى اضطر الصليبيون إلى امتصاص الماء من رطوبة الأرض وشرب دماء خيولهم وحميرهم وأبوال بعضهم ـ حيث قطع عليهم الجيش الإسلامى الماء ، ثم استسلم الألمان بل أعلنوا دخولهم فى الإسلام حتى ينجوا من الموت ، وسيق رينالد وعدد من جيشه إلى حلب وأنطاكية .

وكان الصليبيون قد أقاموا معسكرا لتجميع القوات فى « كيفيتوت » فلما علموا أنباء ما حاق برينالد والجيش الألمانى عقدوا مجلسا للحرب جمع كبار القادة الألمان مثل : هيو توبنجن ووالتربتك ، وكبار القادة الفرنسيين مثل : والتر المفلس ورينالد برايس ووالتر بريتيل وفولك أورليان ، وتغلب رأى جفرى بوريل بضرورة الزحف للقاء الجيوش السلجوقية فتحركت جيوش الصليبيين من « كيفيتوت » فى فجر يوم ٢١ من أكتوبر ١٠٩٦م ـ ٤٨٩ هـ فى عدد يزيد على عشرين ألف رجل .

فوقع الصليبيون فى كمين أعده السلاجقة فى الطريق إلى نيقية فاضطرب أمر جيشهم وقتل منهم عدد وهرب معظم الجيش إلى كيفيتوت ، فتعقبهم الجيش السلجوقى وأوقع بهم شر هزيمة وقتل وأسر ولم ينتصف النهار حتى استسلم معسكر كيفيتوت ، وهلك فى هذه المعركة والتر المفلس ورينالد برايس وفولك أورلبان وهيو توبنجن ووالتر يتك وكتراد والبرت

١ ـ رنسهان : تاريخ الحروب الصليبية : ١/١٨٩ ـ ١٩٠ باختصار .

تسمرن ، ولم ينج من القادة الصليبيين إلا جفرى بوريل وعدد من القادة وإن كانوا قد أصيبوا إصابات خطيرة ، ولما علم الامبراطور البيزنطى بنبأ هذه الكارثة سير حملة بحرية الى كيفيتوت ، واستطاعت هذه الحملة أن تعود وسفنها محملة بمن نجا من الصليبيين إلى القسطنطينية[1]

وتسمى هذه الحملة الصليبية بحملة الشعوب وكان أول اصطدام لها بالسلاجقة وعلى أيديهم كان القضاء عليها •

أما حملة الملوك والأمراء يساندهم الامبراطور البيزنطى ، فقد كانت تضم جيشا فرنسيا بقيادة هيوالصغير بن هنرى الأول ملك فرنسا وجود ـ فرى دون اللورين الأسفل، وبولدون وبوستيس وروبرت دون نورمنديا ـ وابن وليم الفاتح ـ وروبرت كونت فلاندر وستيفن كونت شارتر وريمون كونت تولوز ، وبوهميند دون تورنتم وابن أخيه تانكرد •

وكانت هذه الحملة حريصة على الوصول الى بيت المقدس فكان لابد لها من استخلاص طرق آسيا الصغرى ، وكان هدف الصليبيين البيزنطيين هو طرد السلاجقة من آسيا الصغرى •

فوضعت الخطة على أساس الاستيلاء على نيقية ، فأقاموا معسكرا فى بليكا نوم ، وانتهزوا فرصة غياب السلطان قلج أرسلان عن نيقية ثم هاجموها فى إبريل ١٠٩٧م ـ ٤٩٠ هـ بجيوش كثيفة وعدد ومعدات ثم حاصروها من الشمال والشرق والجنوب •

ثم قدم السلطان السلجوقى وأخذ يهاجم المحاصرين من الجنوب وقاتل الصليبيين وأوقع بهم خسائر فادحة وإن كان لم يستطع أن ينفذ إلى المدينة من خلالهم فاتجه الى الجبال ، وعندئذ شدد الصليبيون الحصار على المدينة ، ولم تجد حامية المدينة بدا من الاستسلام فوقعت المدينة فى قبضة الصليبيين ، وتسلمها الامبراطور البيزنطى فى ٢٦ من شهر يونيو ١٠٩٧م ـ ٤٩٠ هـ

---

١ ـ السابق : ١٩٢/١ ـ ١٩٣ •

ثم استمرأ الصليبيون الاستيلاء على بلاد المسلمين فى سرعة فاتجهوا إلى قونية وكان لابد أن يستولوا على ضوليوم ، فاستولوا عليها فى أول شهر يوليو سنة ١٠٩٧م ، وبذلك وضعوا حدا لقوة السلاجقة التى أعجزت الامبراطورية البيزنطية ردحا طويلا من الزمان • ثم اتجهوا إلى قونية فاستولوا عليها بعد أن كان السلطان السلجوقى قلج أرسلان قد أخلاها •

واتجه الصليبيون إلى هرقلة وحاول السلاجقة جاهدين أن يردوهم عنها لكنهم لم يستطيعوا ، وأخذت جيوش الصليبيين تستولى على المدن والقلاع فى طريقها إلى بيت المقدس فاستولوا على قيليقية وقيصرية وبلاكنتيا ثم اتجهوا إلى مرعش فاستولوا عليها ومنها اتجهوا إلى الشام فوصلوا إلى جسر الحديد على نهر العاصى شرقى أنطاكية فى ٢٠ من اكتوبر ١٠٩٧م وان كان بعض الأمراء السلاجقة قد قاتلوا فى هذه المعارك حتى انهزموا •

والخلاصة أن الحملة الصليبية الأولى استطاعت أن تهزم سلاجقة الروم وأن تستولى على أملاكهم وأن تؤسس امارات وممالك مثل إمارتى أرمينية والرها • واستطاعت أن تستولى على أنطاكية من سلاجقة فارس وأن تؤسس فيها إمارة صليبية كما استولت على اللاذقية وإن كان ذلك لم يكن سهلا وإنما كان على أشلاء القتلى من الجانبين ، بل إن السلاجقة فى مرحلة من مراحل هذه الحروب استطاعوا حصار الصليبيين فى أنطاكية حتى أضنوهم فأكلوا أوراق الأشجار ولحوم الميتة ، ولكن الصليبيين فى النهاية استطاعوا أن يحققوا انتصارات على سلاجقة الروم وسلاجقة فارس وسلاجقة الشام •

وإن كان السلاجقة أو أتباعهم من الأنابكة والأراتقة لم يسكتوا على الصليبيين وإنما كانت لهم مع الصليبيين جولات هزموهم فى بعضها كما سنذكر الآن •

أما الأنابكة فهم فى الأصل قواد للجيش السلجوقى معروفون بقوة أبدانهم وجمال صورهم ، وكانوا مماليك يشترون بالمال ويعتنقون الاسلام وينشئون نشأة إسلامية فى بلاط السلطان السلجوقى وتستند إليهم كبريات المهام ومنهم من كان يقود الجيش ومنهم من كان يتولى حكم بعض الولايات •

وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكة إلى درجة الملك وأورثوها أبناءهم فأطلق على هذه الولايات أو الدول الصغيرة أتابكيات وعلى الحكام أتابكة ٠

ومن دول الأتابكة : أتابكة كيفا واتابكة ماردين ، وأتابكة دمشق ، وأتابكة دانشمند ، وأتابكة الموصل والجزيرة وسورية وأذربيجان وفارس ٠

ومن ولاة السلاجقة من كانوا يلقبون بلقب شاه ، مثل شاهات خوارزم وشاهات أرمينية ٠

ويعنينا هنا أن نتحدث عن بعض الأتابكة الذى واجهوا الصليبيين ومن أبرز هؤلاء عماد الدين زنكى ٠

عين أنابك الموصل سنة ٥٢١ هـ ـ ١١٢٧م وقد استطاع أن يضم إلى الموصل نصيبين ـ وكانت فى أيدى الأراتقة ـ ثم نظر إلى حران ـ وكانت تحت تهديد الصليبيين وهجماتهم المتكررة من الرها وسروج والبيرة فاستولى على حران وأمنها من الصليبيين ثم بدأ عملية الجهاد ضد الصليبيين ، فرأى أولا أن يضم إليه حلب ـ وكانت مطمعا لجوسلين أمير الرها ولبوهيمند أمير أنطاكية ـ فأستولى على حلب سنة ٥٢٢ هـ ـ ١١٢٨م ، يقول ابن الأثير : « ولولا أن من الله تعالى على المسلمين بولاية الشهيد « عماد الدين زنكى » لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه »(١)

وقد ولاه السلطان محمود السلجوقى الجزيرة والشام وما اتصل بها ، وقد رأى زنكى أن حرب الصليبيين تتطلب منه أمرين : الأول توحيد قوى المسلمين فى مواجهتهم والثانى إعلانها جهادا فى سبيل الله سبحانه ، وما توانى ولا قصر ولكنه سريعا ما استولى على حماة من بورى بن طفتكين وعمل على الاستيلاء على حمص من ميرخان بعد جهود ضخمة ولكنه لم يستطع ، وأصبح زنكى مهيمنا على الشام وأطراف آسيا الصغرى ٠

---

١ ـ إبن الأثير عز الدين الجزرى : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل : ٣٧ ط القاهرة ١٩٦٣ م ٠

وفى سنة ٥٢٩ هـ ربيع ١١٣٥م نجح عماد الدين زنكى فى زعزعة مراكز الصليبيين شرقى نهر العاصى فاستولى على الأثارب وزردنا وتل أغدى ومعرة النعمان وكفرطاب[٢] ثم أغار على شيزر وحمص وقنسرين ٠

واستطاع نائب زنكى على حلب ـ سيف الدين سوار ـ أن يغزو إمارة أنطاكية وأن يصل الى اللاذقية وأن يغنم ويأسر ماشاء الله له ٠

وفى سنة ٥٣١ هـ يوليو ١١٣٧م اتجه إلى حرب الصليبيين عند قلعة بعرين وكانت جيوش الصليبيين بقيادة فولك ملك بيت المقدس وريموند أمير طرابلس وقد أذاقهم زنكى شر هزيمة فقتل منهم كثيرا وأسر كثيرا ، ومن بين الأسرى ريموند الثانى نفسه ، بينما فر فولك ٠

وفى العام التالى أعد حنا كومنين امبراطور بيزنطة حربا ضد المسلمين فى حلب ـ وعلى الرغم من أن الصليبيين قبضوا على المسلمين فى أنطاكية ومايجاورها حتى لاتتسرب أنباء الاستعداد الصليبى ـ فإن زنكى أرسل قوة بقيادة نائبه سوار لحماية حلب وقد استطاعت قوات حنا كومنين أن تستولى على بعض البلدان التى كان زنكى قد استعادها من الصليبيين ، إلى أن وصلوا إلى شيزر التى تسيطر على أواسط حوض نهر العاصى ، فاستنجد صاحبها أبو العساكر بزنكى فأسرع إليه وعسكر على ضفة نهر العاصى بين شيزر وحماة وأخذ يهدد الأعداء ـ وفى الوقت نفسه يرسل فى طلب العون من بغداد ، حتى إن جماهير بغداد لما علمت باستنجاد زنكى صاحوا فى المساجد « وا إسلاماه ٠٠ وا محمداه » إلى أن وصلت إليه النجدة كان يعمل على تفريق صفوف الصليبيين ـ وقد نجح ـ إذ وقف أمير الرها وأمير أنطاكية موقف المتفرج من حصار الامبراطور لشيزر ، مما جعل الإمبراطور يهاجم أنطاكية ويهدد أميرها ، ووقع الصليبيون بعضهم فى بعض ، وعندئذ أحس زنكى بأنه لم يعد بحاجة إلى المدد الذى كان يطلب ، فأرسل يلغى طلبه ، فى الوقت الذى كان

١ ـ ابن العديم : زبدة الحلب : ٦٧١ ٠

الصليبيون ينسحبون فيه من شيزر ، ثم وجه جيوشه للاستيلاء على كفر طاب وحصن بزاعة مما كان قد استولى عليه الصليبيون •

وفى سنة ٥٣٨ هـ ـ نوفمبر ١١٤٤م أعد زنكى جيشا حاصر به الرها وانقض عليها فى سرعة أذهلت أميرها جوسلين الذى كان فى تل باشر آنئذ ليقطع الاتصال بين زنكى وحلب ، واستغاثت الرها بأنطاكية ، وبيت المقدس ولكن سرعة زنكى أسقطت الرها فى يديه قبل وصول أى نجدة بعد شهر من تحركه إليها وعامل أهلها باللطف واللين ، وهكذا عادت الرها لنفوذ المسلمين بعد أن ظلت فى أيدى الصليبيين قرابة نصف قرن من الزمان • ثم واصل زنكى استيلاءه على المعاقل والحصون فاستولى على سروج وهاجم ألبيرة ، وحصر جوسلين فى أضيق نطاق ، بحيث لم يبق له من إمارة الرها إلا تل باشر وسميساط ومرعش ودلوك وعين تاب وعزاز والراوندان •

ولما غدر أحد الخدم بعماد الدين زنكى ، وتولى بعده ابنه نور الدين محمود حاول جوسلين أن يستعيد الرها فاتصل بالأرمن فى الرها وتعاون مع بلدوين حاكم مرعش واستولى على الرها دون قلعتها ، وبدأ يطلب مددا من أمراء انطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، ولكن نور الدين كان أسرع فى حركته إذ خف على رأس جيش كبير وحاصر الرها من الخارج ، وعانى جوسلين فى موقفه ذاك من القوى الاسلامية داخل القلعة والقوى الإسلامية خارج الرها فكان اكبر أمله أن يفر ، ففر إلى سميساط بعد أن جرح فى رقبته •

وحلت الهزيمة بالصليبيين والأرمن ، ووالى نور الدين محمود استيلاءه على القلاع والحصون فاستولى على : بسرفوت وأرتاح والأثارب وكفر لاثا •[1]

وقد أدت انتصارات نور الدين محمود على الصليبيين إلى إثارة أوربا وتخوفها على مكانة الصليبيين فى الشرق الاسلامى ، فأعدوا العدة للحملة الصليبية الثانية •

---

١ ـ ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٤٢ هـ •

نور الدين محمود :

على أثر استيلاء المسلمين على الرها ثارت ثائرة أوربا واتجهت إلى إعداد حملة ضد المسلمين تولى قيادتها لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا ، ووصل الجيشان إلى القسطنطينية ، وعبر كونراد البوسفور واخترق طريقه بين البلاد الإسلامية تاركا طريق الساحل الآمن نسبيا ، وعند قونية قابلهم المسلمون وهزموهم شر هزيمة ففر كونراد وغنم السلاجقة مالا حصر له ، وفى نيقية التقى بلويس السابع وهو فى غاية الذلة والخزيان •

وتعلم لويس السابع مما أصاب كونراد فعبر الطريق الساحلى ، ومعه كونراد الفارّ ولكن كونراد أحس بهوان مكانته فعاد إلى القسطنطينية ومنها ركب البحر إلى بيت المقدس •

وعلى الرغم من أن لويس السابع قد اختار الطريق الآمن فإنه لم ينج من غزو السلاجقة وإغارتهم عليه ، مما اضطره إلى أخذ طريق البحر من أنطاكيا الى السويدية ثم أنطاكية فبيت المقدس متناسيا الهدف من الحملة وهو استعادة الرها وتأديب الزنكيين •

وفى بيت المقدس عرف لويس السابع أن أمراء أنطاكية والرها وطرابلس وبيت المقدس يطمعون جميعا فى أن يسخروا حملة لويس السابع لتأمين إماراتهم ، فآثر مساعدة إمارة بيت المقدس ، فكان عليه أن يهاجم دمشق ، ولكن النجدات الإسلامية تدفقت على دمشق ، فلم يسع الصليبيون إلا الانسحاب مما رفع الروح المعنوية للمسلمين فى الشرق الإسلامى كله •

ففى سنة ٥٤٤ هـ ، اتجه نور الدين محمود إلى أنطاكية فأغار على حارم وحاصر إنب وخرج إليه ريموند دى بواتيه أمير أنطاكية فأحاط به نور الدين وقتله وأباد جيشه عن آخره • وأوغل فى إمارة أنطاكية حتى وصل إلى مينائها السويدية ثم اتجه إلى فامية ، واستطاع نور الدين أن يستولى على كل أملاك أنطاكية شرقى نهر العاصى •

وبفضل قوة الزنكيين ووقوفهم للصليبيين فى الشام وشمالى العراق جعل الصليبيين

يصابون باليأس من التصدى للزنكيين فاتجهوا فى حربهم للمسلمين إلى الجنوب الغربى للتوسع على حساب الفاطميين ـ وقد أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن الفاطميين ـ

ولابد أن نشير هنا إلى أن نور الدين محمود كان له الفضل فى تكوين جبهة إسلامية تواجه الصليبيين ، وأن هذه الجبهة هى التى قضت على نفوذ الصليبيين فى الشام ٠ فقد اشتبك نور الدين مع الصليبيين خائنى العهود والمواثيق حول بانياس حيث اعتدوا على بعض الرعاة من المسلمين ونهبوا أموالهم فخرج اليهم نور الدين سنة ٥٥٢ هـ ـ ١١٥٧م وأعمل فيهم السيف وفر بلدوين الثالث قائد الصليبيين ٠٠

وأصيب نور الدين بمرض فصال الصليبيون وجالوا فلما شفاه الله أغار على صيدا فى سنة ٥٥٣ هـ ـ مايو ١١٥٨م ثم هاجم إقليم الجليل جنوبى بانياس ٠

وفى سبتمبر ١١٦٣م ـ ٥٥٨ هـ اتجه عمورى الأول ملك بيت المقدس لمهاجمة مصر ـ بعد أن يئس الصليبيون من تحقيق النصر فى ميدان الشام بسبب نور الدين

وعندئذ أراد نور الدين أن يوجه ضربة للصليبيين فى أنطاكية تبددهم من ناحية وتشغلهم عن مصر من ناحية اخرى فهاجم أنطاكية فى أغسطس سنة ١١٦٤م ـ ٥٥٩ هـ ودارت بينه وبين الصليبيين معركة حامية فى أرتاح كانت انكسارا للصليبيين فقتل منهم عددا ذكر بعض المؤرخين أنه بضعة آلاف وأسر منهم مالا يحصى ، ومن الأسرى كل الأمراء الصليبيين الذين اشتركوا فى المعركة وعلى رأسهم بوهيمند أمير أنطاكية وريموند الثالث أمير طرابلس وجوسلين الثالث ثم استولى نور الدين على حارم فى نفس الشهر وعلى بانياس فى شهر أكتوبر من نفس العام ٠

وكانت جولة لنور الدين مع الصليبيين فى مصر عندما هاجمها ـ ثانية عمورى الأول ـ واحتل بلبيس وعسكر فى بركة الجيش جنوبى الفسطاط ، عندئذ خاف نور الدين على مصر فجهز جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين لمواجهة الصليبيين هناك ٠

ولما علم عمورى بذلك وضع خطة لمنع وصول الجيش إلى مصر ولكن خطته باءت بالفشل ووصل الجيش إلى القاهرة ورحب به أهلهـا ، عندئـذ لم يسـع عمـورى إلا الانسحاب .

كذلك كان للأراتقة صدام مع الصليبيين استطاع فيه بعض أمراء الأراتقة أن يحققوا على الصليبيين انتصارات وأن يستعيدوا منهم حصونا ومواقع كما فعل قرا أرسلان عندما استعاد منهم حصن كركر وحصن منصور . كما وقع جوسلين الثانى أسيرا فى مايو ١١٥٠م وحبسه نور الدين فى حلب تسع سنين .

وبعد . فهذه جهود السلاجقة ضد الصليبيين وجهود أتباعهم من الاتابكة والأراتقة ، تنطق كلها بمعنى واحد هو ضرورة طرد الصليبيين من الشرق الإسلامـى وقـد وضـع السلاجقة أغلب المسامير فى نعش الصليبيين ، وأما توديع النعش الى مقره الأخير فقد كان على يد صلاح الدين الأيوبى ، ومن بعده المماليك .



هـ ـ الأيوبيون

رأس الدولة الأيوبية صلاح الدين ، بل يعد رأسا للحكام المسلمين جميعا فى عصره ، فقد استطاع هذا الرجل أن يوحد صفوف المسلمين وأقطارهم ، وأن يتجه بهم إلى الاتجاه الصحيح فى الوقوف أمام عدوهم التقليدى « الصليبيين » .

ولقد حقق صلاح الدين فى الانتصار على الصليبيين مالم يحققه حاكم مسلم قبل صلاح الدين ، حتى أولئك الأعلام من آل زنكى عماد الدين ونور الدين ، ولعل سر ذلك أن صلاح الدين اهتدى إلى عوامل النصر على الصليبيين التى أهمها أمران : توحيد صفوف المسلمين ، ورفع راية الجهاد فى سبيل الله .

ومن نافلة القول أن نؤكد أن طرد الصليبيين من الشرق الإسلامى كان عمل صلاح الدين أولا وأخيرا ، حتى ذلك الانتصار الذى حققه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون فأخرج فلول الصليبيين من عكا ، كان الفضل فيه لصلاح الدين ولأعماله الجليلة التى قضت على الوجود الصليبى فى العالم الإسلامى .

فما إن تولى صلاح الدين الوزارة فى مصر ، حتى أخذ يعمل لمواجهة العدو الغاصب « الصليبيين » فأمّن مصر من الداخل ، ووحد العالم العربى فدانت له مصر والشام والجزيرة والموصل والسودان واليمن ، ثم أخذ يستعد لمواجهة الصليبيين وكان قد بلاهم فى حرب سابقة يوم تعرض لهم وهم يغيرون على مصر إذ كان حينئذ مع عمه أسد الدين شيركوه .

فكان قرار صلاح الدين هو : طرد الصليبيين من العالم الإسلامى .

ففى سنة ٥٦٥ هـ أوائل ديسمبر ١١٧٠م خرج صلاح الدين ـ وقد استقرت له الأمور فى مصر ـ لمهاجمة قلاع الصليبيين على شواطىء فلسطين ، فحاصر قلعة الداروم

جنوبى غزة محاولا الاستيلاء على غزة نفسها ، غير أنه لم يتمكن من ذلك فعاد إلى مصر يستجمع استعداده لتوجيه ضربة أعنف للصليبيين ، غير أنه استطاع أن يستولى على أيلة ـ على خليج العقبة ـ وأن يقتاد أفراد حاميتها أسرى إلى القاهرة » [1]

ولايفوتنا هنا أن نشير إلى عدو لدود لصلاح الدين هو عمورى الأول ملك بيت المقدس ، فقد كان هزم أمام صلاح الدين فى دمياط أيام أسد الدين شيركوه وكان قد رأى ماقام به صلاح الدين من توحيد صفوف المسلمين وأقطارهم ، فكان هم عمورى الأول هو ضرب الوحدة الإسلامية بين مصر والشام ، وقد هلك عمورى الأول دون أن يحقق هدفه الهام .

ولندع جانبا كيف استقل صلاح الدين بمصر وكيف وحد بين أطراف العالم الإسلامى فدانت له القلوب قبل السيوف ـ فإن ذلك يحتاج إلى بحث مستقل ـ ولنتحدث عن جهوده فى طرد الصليبيين من بلاد المسلمين ولندع جانبا كذلك قصة بلدوين الرابع ابن عمورى الأول والوصيين عليه ميلون دى بلانس ثم أسير نور الدين ريموند الثالث أمير طرابلس وماقام به من إيقاع بين ورثة نور الدين فى الحكم وصلاح الدين لندع ذلك ثم نركز على معارك صلاح الدين مع الصليبيين .

صلاح الدين يغزو مملكة بيت المقدس الصليبية :

انقض صلاح الدين على المراكز الصليبية على شواطىء فلسطين الجنوبية مثل الداروم وغزة ، ثم اتجه إلى عسقلان ، فخرج إليه بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ومعه رجال الدين يحملون صليب الصلبوت ، ودخل الصليبيون عسقلان وحصرهم صلاح الدين داخل أسوار المدينة ، فعزل مملكة بيت المقدس عن أى جنود ، ثم أخذ يهاجمها ، فأحرق الرملة وهاجم اللد ووصل بجيوشه بين ارسوف ونابلس ، غير أن المسلمين انشغلوا بالغنائم واطمأنوا إلى انكسار العدو ، فى حين استطاع بلدوين أن يشق طريقه خارج عسقلان ،

---

١ ـ ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب : ١٩٩/١ ط غير كاملة ـ القاهرة .

وتجمع حوله الصليبيون وباغتوا قوات المسلمين فهزموهم عند تل الصافية ، وعاد صلاح الدين إلى مصر فى حال نفسية سيئة . « وحلف لاتضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج »[1] وعاد الصليبيون منتشين بالنصر ، وشرع بلدوين يحصن بيت المقدس ضد أى هجوم يأتى عن طريق دمشق ، فأقام أكبر حصن فى ذلك العهد وهو حصن جسر بنات يعقوب على الطريق بين طبرية وصفد من ناحية ، ودمشق من ناحية أخرى ، وعهد بلدوين الرابع إلى فرسان الداوية بالدفاع عن الحصن ، كما جعلوا منه مركزا لقطع الطريق على قوافل المسلمين ، وقد سمى هذا الحصن كذلك : « حصن بيت الأحزان »

وكان خوف الصليبيين من صلاح الدين قد حملهم على بناء حصن اخر فى الشمال الغربى من بحيرة الحولة على جبل هونين يتحكم فى منابع الأردن وسهوله العليا . وبذلك أحكم الصليبيون تحصين بيت المقدس ضد أى هجوم يأتى من جهة دمشق .

ثم حدث أن اعتدى الصليبيون على بعض الرعاة المسلمين من أهل دمشق ، قرب بانياس ، فتصدى لهم عز الدين فرخ شاه ابن أخى صلاح الدين وخرج صلاح الدين لمعاونة ابن أخيه ، وكان الجيش الصليبى بقيادة بلدوين الرابع وهمفرى دى تورن صاحب حصن بانياس ، وقد انتصر عليهم صلاح الدين انتصارا مبينا حتى إن الملك الصليبى بولدوين وهمفرى أصيبا إصابات بالغة أدت إلى وفاة همفرى فى حصن هونين .

وبعد هذا النصر حاصر صلاح الدين حصن بيت الأحزان فى أواخر سنة ٥٧٤ هـ أواخر مايو ١١٧٩م ، واتخذ صلاح الدين معسكرا فى تل القاضى غربى بانياس ، ونبه ابن أخيه عمر بمراقبة الصليبيين عند حماة توجسا لما قد يقوم به بوهيمند أمير أنطاكية كما عهد إلى ابن عمه ناصر الدين بالدفاع عن حمص تحسبا لما قد يقوم به ريموند الثالث أمير طرابلس ، وأرسل إلى أخيه العادل فى مصر ليزوده بالمدد ، واتخذ من الغارة على أملاك الصليبيين عملا يمارسه كل يوم تقريبا .

---

١ ـ أبوسامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين : ٥٧٣/١ ط القاهرة ١٢٨٧ هـ .

وانزعج الصليبيون من هذه الغارات فخرج بلدوين الرابع لملاقاة صلاح الدين فى ١٠ من شهر يونيو ١١٧٩م ـ فى الثالث من شهر المحرم سنة ٥٧٥ هـ ٠ ودارت بين الجيشين معركة عند تل القاضى حيث عسكر صلاح الدين ، فانتصر صلاح الدين انتصارا حاسما وأسر من الصليبيين ماأسر ولم ينج بلدوين إلا بصعوبة ، ونجح صلاح الدين فى مهاجمة حصن الأحزان وفتحه فى ربيع الأول سنة ٥٧٥ هـ ـ أواخر أغسطس ١١٧٩ م وسوّى الحصن بالأرض وغنم وأسر ، وواصل صلاح الدين الإغارة على صور وصيدا وبيروت ، ثم جاء مدد بحرى من مصر فهاجم عكا ووجه إليها أعتى الضربات مما اضطر معه بلدوين الرابع أن يعقد هدنة مع صلاح الدين ، فوافق صلاح الدين ، وأمن بذلك جانب مملكة بيت المقدس وذهب إلى مهاجمة شمالى الشام وبخاصة طرابلس ، مما اضطر معه ريموند الثالث أن يعقد معاهدة مع صلاح الدين تضمنت هدنة بين الطرفين ٠

وفى هذه الهدنة أخذ صلاح الدين فى توحيد القوى الإسلامية فى شمالى الشام وفى العراق ، مع الاستعداد للمعركة الفاصلة ضد الصليبيين ، ثم واتته الفرصة بحماقة ارتكبها ريجنالد « ارناط » زوج إتينت دى ميلى وريثة صاحب الأردن ـ حيث تناسى أرناط الهدنة وخرج على رأس جيش وأوغل فى صحراء العرب حتى وصل إلى تيماء ـ بين الاردن والمدينة المنورة ـ عازما على مهاجمة المدينة المنورة نفسها ، فعاجله فرخ شاه بالهجوم على الأردن فاضطر للعودة للدفاع عنها ، ولكنه نهب قافلة من المسلمين كانت متجهة من دمشق إلى مكة ٠

وكانت حماقة أرناط هذه سببا فى ثورة الرأى العام الإسلامى وأغضبت صلاح الدين فكتب إلى ملك بيت المقدس يطلب منه أن يرد أرناط ماسلب ومانهب ، فما استطاعَ بلدوين الرابع أن يحصل من أرناط على شئ حتى الاحترام ٠٠

فغادر صلاح الدين مصر إلى الشام فى أول سنة ٥٧٨ هـ مايو ١١٨٢م ، واتجه صلاح الدين من أيلة إلى إقليم الشوبك فدمر مزارع الصليبيين ، فى حين استولى ابن أخيه فرخ شاه على الشقيف أرنون ، ثم انتقل إلى شرقى الأردن فأغار على السواد واستولى على

حصن حبيس جلدك ، واتجه صلاح الدين صوب دمشق ومنها تحرك حيث نصب معسكره فى سهل الأقحوانة ـ عند خروج نهر الأردن من بحيرة طبرية ـ وطلب من ابن أخيه أن يغير على إقليم الغور ، فدخل بيسان ، بينما أغارت قبائل الأعراب على جنين واللجون وسهول يافا قريبا من مرج عكا ٠

وفى سرعة خاطفة انضم صلاح الدين إلى جيش ابن أخيه ، وشرعا معا فى مهاجمة حصن الكوكب ، واشتبك الصليبيون مع صلاح الدين وكان النصر للمسلمين ، ولكن صلاح الدين أدرك أن تلك المعارك المحدودة لاتحقق له هدفه ، فآثر الذهاب إلى دمشق انتظارا للمعركة الفاصلة ٠

وفى هذه الأثناء استولى صلاح الدين على حلب وحارم مما « جعل الجبهة الإسلامية المتحدة تمتد تحت زعامته من جبال طورس شمالا إلى النوبة جنوبا » [١] ومن ذلك التاريخ أصبح صلاح الدين فى الموقع الذى يمكنه من توجيه ضربة طاحنة للصليبيين ٠

فتوجه إلى مهاجمة الجليل والغور فى سنة ٥٧٩ هـ ـ خريف ١١٨٣م بعد أن كان استولى على بيسان ، ثم اتجه إلى عين جالوت حيث عسكر هناك ، ومن هناك كان يرسل الدوريات لمهاجمة المناطق الصليبية والاستيلاء على ماتستطيع الاستيلاء عليه ، ولما ضاق الصليبيون بذلك تحركوا بقيادة لوزجنان الوصى على مملكة بيت المقدس وعسكروا عند صفورية شمالى الناصرة ثم تحركوا لمنازلة المسلمين فعسكروا عند الغولة قرب عين جالوت ، لكنهم لم يجسروا على مهاجمة قوات المسلمين ، وكان صلاح الدين يشن عليهم الغارات ويستفزهم حتى يشتبكوا معه ولكنهم لم يفعلوا ، وعاد كل جيش إلى مكانه صلاح الدين إلى دمشق والصليبيون إلى صفورية ٠

وفى هذه الأثناء عاد أرناط إلى حماقته فوضع مشروعا للسيطرة على البحر الأحمر وغزو الحرمين فى الحجاز ، فاستولى على أيلة ، ولكن العادل أخا صلاح الدين أسرع إليه

---

١ ـ د ٠ سعيد عاشور : الحركة الصليبية : ٧٨٠/٢ نقلا عن : Stevenson, Op. Cit. p. 230.

واستطاع جيش إسلامى بقيادة حسام الدين أن يستعيد أيلة وأن يأسر جميع الصليبيين التابعين لأرناط الذين يهددون طريق الحجاج ، وقد غضب صلاح الدين من أرناط حتى نذر دمه ، وهنا تنبه صلاح الدين إلى أن الكرك يهدده ويهدد المسلمين وبخاصة الذين يقصدون الحج ، فهاجمه مرتين ولكنه كان يصرف عنه ويعقد هدنة مع أرناط • غير أن أرناط فى موقعه ذاك من الكرك الذى يهدد الطريق بين مصر والشام وبين الشام والحجاز خرق هذه الهدنة فانقض على قافلة متجهة من القاهرة إلى دمشق فى أوائل سنة ١١٨٧م وسلب القافلة وأسر رجالها فى حصن الكرك ، وكتب صلاح الدين إلى أرناط يطالبه بفك الأسرى ورد السلب ، ولكن أرناط رد عليه قائلا فى قحة وسوء أدب : « قولوا لمحمد يخلصكم »[1] وكظم صلاح الدين غيظه وكاتب ملك بيت المقدس آنئذ لوزجنان ليأمر أرناط برد السلب وفك الأسرى ولكن أرناط تعالى واستكبر ولم يسمع لرجاء ملك بيت المقدس •

وكانت العناية الإلهية تمد لأرناط فى الحبل وتمهله ليكون فى عمله وقحته حَيْنه ، فاستعد صلاح الدين للمعركة النهائية مع الصليبيين ، فخرج من دمشق حيث أمن قافلة من حجاج المسلمين ثم اتجه إلى أرناط فى حصن الكرك وحاصر الحصن وأرناط فى شهر مايو من سنة ١١٨٧م ٥٨٤ هـ • وأرسل صلاح الدين قوة استطلاعية لتخترق إقليم الجليل فتصدى لها الصليبيون عند صفورية فكان النصر الحاسم حليف المسلمين فقتلوا الداوية وقائدهم ، وقد سمى أبو شامة هذا النصر : مقدمة البركات وميامين الحركات •

وتوافد الصليبيون يتآزرون حتى الذين بينهم وبين صلاح الدين معاهدات كأمير طرابلس واتخذوا صفورية معسكرا لهم ، عندئذ زحف صلاح الدين على طبرية وأحرق المدينة ولم يتقدم نحو الصليبيين وإنما انتظر حتى يحضروا هم إليه مجهدين متعبين ، ونجح صلاح الدين فى تدبيره وتقديره ، فزحف الصليبيون فى أوائل يوليو نحو طبرية متحملين

---

١ - ابن واصل : مفرج الكروب : ١٩٤/٢ •

حرارة الجو وقلة الماء بينما صلاح الدين على الماء وفى الراحة والعافية هو وجنده ، وكل الذى صنع أن تحرك نحو خمسة أميال غربى طبرية عند قرية حطين ، ولما وصل الصليبيون كانوا فى غاية الانهاك ، وباتوا ليلتهم فوق هضبة طبرية ، واشعل المسلمون النـار فى الأعشاب والأشواك التى تكسو الهضبة.وكانت الريح على الفرنج فحملت إليهم حر النار والدخان ، فاجتمع عليهم العطش وحر النار والدخان وحر القتال ، على حد تعبير ابن الأثير فى الكامل .

وفى الصباح كان صلاح الدين قد أحاط بهم من كل جانب ، وبدأ الهجوم عليهم فأخذتهم سهام المسلمين وكثر فيهم القتلى والجرحى ، وقد أوى الصليبيون إلى جبل حطين بعد أن فر ريموند أمير طرابلس ، وأخذ المسلمون يطاردونهم إلى أعلى الجبل ، وقد سقط أسقف عكا قتيلا ووقع من يده صليب الصلبوت فاستولى عليه المسلمون ، وظل المسلمون يقتلون فيهم ويأسرون حتى لم يبق سوى ملك بيت المقدس وقلة من جنده فأسروهم ، كما أسر أرناط ومقدم الداوية ، وقد قتل صلاحُ الدين أرناط بسيفه تحلة لقسمه ونذره وجزاء له على جرمه وخيانته وغدره وقتله المسلمين العزل فى قوافلهم .

وقد كثر الأسرى من الصليبين حتى إن الأسرة المؤلفة من الصليبى وزوجه وابنائه الثلاثة وبنته بيعت بثمانين دينارا [١]

وبسقوط الصليبيين فى حطين وضعت خطوط النهاية فى حياتهم فى الشرق الإسلامى فأخذ صلاح يفتح البلاد والقلاع دون مقاومة وكان يعامل الناس بالحسنى والتسامح ، فقد استولى على عكا بعد أن استسلم الصليبيون فيها بقيادة جوسلين ، وعاملهم صلاح الدين معاملة حسنة ، كما استولى على تبنين وبيروت وجبيل ومعظم القلاع والمراكز الساحلية فى جنوبى بلاد الشام . كما استولى على الرملة ويبنا والداروم وغزة والنطرون وبيت جبرين ثم استولى على عسقلان فى أوائل سبتمبر ١١٨٧م .

---

١ ـ أبوشامة : كتاب الروضتين : ٨٢/٢ .

وبعد ذلك لم يبق أمام صلاح الدين سوى بيت المقدس نفسها ، فعرض على أهلها التسليم مع الأمان مرتين ولكنهم رفضوا ، فهاجمها صلاح الدين فى اليوم العشرين من سبتمبر ١١٨٧م - فى شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ واشتد فى هجومه ، فلما رأى الصليبيون استحالة المقاومة عرضوا التسليم والأمان بالشروط التى وضعها صلاح الدين سابقا ، ولكن صلاح الدين رفض وقبل التسليم دون شرط وقال لهم : لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهل بيت المقدس حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى وأجزى السيئة بمثلها » [١]

وقد تسلم صلاح الدين المدينة فى يوم الجمعة ٢٧ من شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ وهى ذكرى ليلة الإسراء والمعراج على حد قول أبى شامة .

وعامل صلاح الدين المسيحيين معاملة حسنة وعادت بيت المقدس إلى أصحابها .

ثم أخذ صلاح الدين يتتبع سائر المراكز الصليبية فى شمالى الشام ، فاستولى على صفد وحصن الكوكب ، وأخذت معاقل الصليبيين تتهاوى أمامه ، ولم يبق للصليبيين غير صور التى أخطأ صلاح الدين بعدم الاستيلاء عليها عقب استيلائه على عكا ، غير أن الصورة المجملة للوجود الصليبى فى الشرق الإسلامى بعد أن قيض الله للمسلمين صلاح الدين تلخصت فى المراكز الصغيرة التالية :

من مملكة بيت المقدس بقيت لهم « صور » وحدها .

ومن إمارة طرابلس بقيت لهم عاصمتها طرابلس وقلعة أنطرسوس وحصن الأكراد .

ومن إمارة أنطاكية بقيت لهم عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب .

ومهما تحدثنا عن أثر انتصارات صلاح الدين على الصليبيين فى نفوس المسلمين أو فى نفوس الأوربيين فلن تتسع لنا صفحات هذا الكتاب لتسجل هذه الآثار فى الجانبين الإسلامى والصليبى .

---

١ - ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٩٨٣ هـ

وبحسبى أن أؤكد أن العالم الإسلامى كله عاش أفراحه الحقيقية بهذا الانتصار وأن صلاح الدين ملأ قلوب المؤمنين ثقة وأملا ، وأن العالم الصليبى روعته المفاجأة وخسر جهد مائة عام أنفقها فى تأسيس ممالكه وإماراته بغصب أرض المسلمين والعدوان على ديارهم •

وهنا حاولت الكنيسة أن تتخذ موقفا لمواجهة صلاح الدين فأرسل البابا جريجورى الثامن كتبا إلى ملكى انجلترا وفرنسا وإمبراطور ألمانيا يستحثهم على العمل ضد صلاح الدين وما إن مات جريجورى حتى خلفه كليمنت الثالث فأسرع بالاتصال بملوك أوربا وأمرائها وبخاصة امبراطور ألمانيا •

وكان امبراطور ألمانيا أسرع استجابة فتحرك فى شهر مايو سنة ١١٨٩م ـ ٥٨٥ هـ على رأس جيش كبير قوامه مائة ألف محارب ـ كما قدره بعض المؤرخين ـ وقد اجتاز الجيش القسطنطينية وعبر إلى ديار سلاجقة الروم ووصلوا قوينة فهاجموها وأحرقوا أسوارها ثم واصلوا سيرهم إلى أرمينيا الصغرى ـ وكانت صليبية ـ واستعد صلاح لمقابلة هذا الجيش الكثيف ، فهدم بعض الأسوار كسور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية حتى لايستغلها الصليبيون إذا وقعت فى أيديهم ، وتأهب المسلمون واستعدوا ولكن الله سلم إذ غرق فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا وهو يعبر نهرا صغيرا فى قيليقية فوقى الله المسلمين شر هذا القتال بموت هذا القائد وتشتيت جنده من بعده فأمن المسلمون الهجوم الموجه اليهم من جهة الشمال •

وبقى الهجوم الفرنسى الانجليزى الآتى من جهة عكا ، وعلى الفور احتشد من الصليبيين أمام عكا أكثر من عشرين ألفا ثم انضم إليهم عدد آخر بقيادة كونرامونتفرات وخيل إلى تلك الجموع أنهم سينتقمون من صلاح الدين ويثأرون لما حدث لهم فى حطين •

ولكن صلاح الدين بدأ هجومه عليهم أمام عكا منتصف سنة ٥٨٥ هـ ـ سبتمبر ١١٨٩م وأنزل بهم خسائر فادحة وساء موقفهم وأوشكوا على الاندحار ، ولكن وباء انتشر

بسبب جيف القتلى فمرض صلاح الـدين وأشـير عليه بالابتعـاد وكان ذلك لصالـح الصليبيين فزادوا من تحصيناتهم ووقف الجيشان دون نصر لأى منهما شهورا عديدة ، وظلت محاولات صلاح الدين مستمرة للقضاء على الصليبيين فى عكا ولكنها لم تنجح ، واستطاعت الكثرة الصليبية أن تخدع الحامية الإسلامية فى عكا ، وأن توقع مع قائدها معاهدة وأن تستولى على عكا من جديد ٠

ثم كانت حروب مع صلاح الدين وملك انجلترا ريتشارد ، استطاع فيها الصليبيون أن يستولوا على أرسوف ، واطمعهم ذلك فى مهاجمة بيت المقدس ولكنهم لم يستطيعوا أن يصلوا من وراء ذلك إلى شىء ، وبعد مناوشات وقع صلح الرملة ـ على نحو ماذكرنـا آنفا ـ (١)

ومالبث صلاح الدين أن لبى نداء ربه فى شهر ربيع الآول سنة ٥٨٩ هـ أوائل مارس ١١٩٣م وانقسم بعده البيت الأيوبى بين أبنائه وإخوته ، ولم يلق الصليبيون من الأيوبيين هزائم كالتى أوقعها بهم صلاح الدين ـ على الرغم من الانتصارات التى حققها عليهم كل من الملك الكامل والصالح أيوب وتوران شاه ٠

ثم تسلم المماليك ـ قواد بنى أيوب ـ الراية ليجاهدوا فى سبيل الله ويعملوا على طرد الصليبيين نهائيا من الشرق الإسلامى ٠

---

١ ـ فى الباب الأول من الكتاب ص ١٠٣ ٠

و ـ المماليك

المماليك فى الأصل أرقاء يشترون ويدربون على خدمة السلطان ومنهم من يبرع ويظهر إخلاصا فيتولى مناصب رفيعة . فلقد وصل بعضهم إلى مناصب قيادية ، وكثير منهم كان ينال الحرية من السلطان أو من مخدومه ..

وكان أول من استعان بالمماليك الخليفة المأمون العباسى ثم توسع فى الاستعانة بهم المعتصم العباسى ، ثم أخذ بهذا المبدأ عدد كبير من السلاطين كالطولونيين والإخشيديين والفاطميين .

فلما كانت الدولة الأيوبية أكثر سلاطينها من شراء المماليك الترك وبنوا لهم ثكنات ـ للمعيشة والتدريب على أساليب الحرب ـ بجزيرة الروضة بالقاهرة وأطلق عليهم المماليك البحرية .

وقد استطاع المماليك أن يرثوا الدولة الأيوبية بمصر والشام ، واستطاع أن يبزغ منهم فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد الصليبيين أكثر من واحد كعز الدين أيبك التركمانى والمظفر قطز والظاهر بيبرس وأسرة قلاوون معظمها .

ولقد أدى المماليك خدمة جلى للعالم الإسلامى بالقضاء النهائى على الصليبيين فى الشرق الإسلامى ، كما أدوا للعالم كله خدمة جليلة بتصديهم للزحف المغولى المدمر الذى اجتاح الشرق واتجه نحو الغرب ـ إبان حكم المماليك وقبله بقليل أكد ذلك عدد من المؤرخين المسلمين وعدد من مؤرخى الأجانب .

والحق أن فشل الحملة الصليبية السابعة على مصر ووقوع لويس التاسع فى الأسر كان بفضل الشريعة الاسلامية السمحة التى يحملها المجاهدون المسلمون ، ثم بفضل شجاعة المماليك إذ كانوا عندئذ من اكفأ المحاربين فى جيوش الأيوبيين .

ولم يفتر حماس المماليك فى حرب الصليبيين والإصرار على طردهم من العالم الإسلامى بعد أن انتهت الدولة الأيوبية وآل الأمر إليهم ، ولم يقلل هذا الحماس التجاء لويس التاسع بعد فك أسره إلى الشام وتحصين مواقع الصليبيين هناك ولافت عضدهم تحالف لويس التاسع مع المغول ضد المماليك ٠

ومامن شك فى أن المعارك التى خاضها المماليك ضد المغول قد عوقت قضاءهم على الصليبيين فى العالم الإسلامى زمنا غير قصير ٠

وستظل انتصارات المماليك على المغول فى عين جالوت مفخرة لهم أمام الإنسانية كلها ، فضلا عن العالم الإسلامى كله ٠

وأولى المعارك الحاسمة بين الصليبيين والمماليك كانت فى عهد بيبرس ، فقد استعد بيبرس للقضاء على الصليبيين فى أنطاكية وطرابلس ومابقى من مملكة بيت المقدس ، لذلك سارع كثير من الصليبيين إلى توقيع صلح معه ، ولكن بيبرس حاصر قيسارية سنة ٦٦١ هـ ـ ١٢٦٢م واستولى عليها ٠ ثم سار إلى قلعة أرسوف واستاق أهلها أسارى إلى القاهرة ٠

ثم حاصر صفد سنة ٦٦٥ هـ واستولى عليها وأسر أهلها ، وهدم قلعتها وأعاد بناءها ونقش على جدرانها أن الذى جددها هو : « عماد الدين ـ يعنى نفسه ـ الذى حول الكنائس إلى مساجد ورنين النواقيس إلى أصوات المؤذنين وقراءة الإنجيل إلى ترتيل القرآن »

ثم استولى على شقيف وعلى يافا ، وضرب طرابلس وكل ما يحيط بها من البلاد وقتل كل من وقع فى يده من الأسرى ٠

ثم اتجه إلى أنطاكية ـ حيث كانت المعركة الحاسمة ـ فقد كانت أنطاكية تأتيها الإمدادات من البحر من النورمانديين وكانت متحالفة مع التتار أعداء المماليك ، وكل ذلك كان من شأنه أن يصرف بيبرس عنها ولكنه لم يفعل فهاجمها وأسر حاكمها ثم استولى

عليها وأشعل فيها النار وقتل وأسر من أهلها قرابة مائة ألف كما تذكر بعض كتب التاريخ ٠

ولقد كان هذا الانتصار الحاسم سببا فى أن طلب ملك أرمينية الصلح مع بيبرس وحذا حذوه أمير طرابلس وملك بيت المقدس ، وقد صالحهم بيبرس ولكنه لم يسكت عن طردهم من العالم الإسلامى فى أول فرصة تتاح له ٠

والحق أنه قبل بهذا الصلح حتى يتفرغ لعدوين خطرين المغول من ناحية والإسماعيلية من ناحية أخرى ٠

ولم يعش بيبرس ليطرد الصليبيين بنفسه إذ وافاه أجله سنة ٦٧٦ هـ - ١٢٧٧م ٠

وثانى هذه المعارك الهامة بين الصليبيين والمماليك فى عهد السلطان قلاوون ، حيث أمن ظروف الدولة أولا ، ثم اتجه إلى حصار اللاذقية فحاصرها واستولى عليها ، ثم هاجم طرابلس سنة ٦٨٨ هـ فحاصرها شهرا ثم استولى عليها ، ودمر المدينة وأسر معظم سكانها ٠

ولم يبق للصليبيين بعد ذلك سوى صور وعكا وبيروت ٠ وكانت عكا أمنع حصون الصليبيين ، فقرر الاستيلاء عليها وأعد لذلك العدة ولكن منيتة عاجلته قبل أن ينفذ قراره ٠

وتولى من بعده السلطان الأشرف خليل ، فحقق لأبيه رغبته فهاجم عكا من جديد سنة ٦٩١ هـ - ١٢٩١م ، وعلى الرغم من أن عكا كانت تحصل على إمدادات كثيرة من جزيرة قبرص إلا أن الأشرف خليل حاصرها شهرا ونصف شهر ثم استولى عليها وقتل من أهلها وأسر خلقا كثيرا ، وعادت عكا للمسلمين بعد أن ظلت فى أيدى الصليبيين قريبا من مائة عام ٠

ثم اتجه الأشرف خليل إلى صور وحيفا فأصلاها من النار والدمار أهوالا شديدة ، وأما صيدا فقد فر أهلها ، ولم يبق للصليبيين سوى موضعين هما : انطرسوس وعتليت وكانا تابعين للداوية ، فاستسلمت الأولى فى الثالث من أغسطس سنة ١٢٩١م والثانية فى الرابع عشر من نفس الشهر وبذلك : تكاملت الفتوحات الإسلامية لجميع البلاد الساحلية وعادت إلى أصحابها المسلمين ٠

وبأعمال المماليك دالت دولة الصليبيين نهائيا ، وخرج الغزاة إلى غير رجعة ، وأصبحت بلاد الشام من أقصى شماليها عند قيليقية إلى أقصى جنوبيها عند غزة لايعيش فيها دخيل غاصب ولا صليبى حاقد يضمر الشر للإسلام والمسلمين ٠

وإتماما للصورة ومحاولة لجمع كافة أبعادها نتحدث عن فلول الصليبيين فنقول : إن الصليبيين بعد هذه الهزائم وبعد زوال وجودهم من الشرق الإسلامى ، استطاعوا أن يؤسسوا مملكتين صليبيتين فى الشرق الأدنى هما : مملكة أرمينية ومملكة قبرص ٠

أما مملكة أرمينية فقد أسسوها بين جبال طورس والبحر وامتدت إلى حدود إمارة أنطاكية ، وكان سكانها مسيحيين ، وقد ولدت هذه المملكة بتتويج هنرى الرابع ملكا عليها سنة ١١٩٨م ٠

وكان المماليك يستطيعون اعتبارها خارجة عن حدود الشرق الإسلامى ، ولكنهم لم يفعلوا وانما حرصوا على القضاء عليها ، فقد هاجمها السلطان بيبرس سنة ١٢٦٦م ثم فى سنة ١٢٧٣م ٠

ثم هاجمها الأشرف خليل سنة ١٢٩٣م ، وهاجمها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣٠١م وفى سنة ١٣٠٤م وظل المماليك يهددونها حتى عام ١٣٢٣م حيث اضطرت إلى طلب الصلح وأن تحمل للسلطان محمد بن قلاوون مائة ألف درهم كل سنة ٠[١]

---

١ ـ المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك : ٢٤٦/٢ ٠

وفى عهد السلطان شعبان استولى المماليك بقيادة اشقتمر الماردينى على أرمينية سنة ١٣٧٤م وسيق حاكمها ليو السادس أسيرا إلى القاهرة وظل فى الأسر حتى افتداه البابا كلمنت السادس ٠

وهكذا أنهى المماليك هذه المملكة الصليبية وقضوا عليها ٠

أما قبرص فمن يوم أن سقطت عكا ١٢٩١م أصبحت معقلا هاما للصليبيين فى الشرق وفتحت أبوابها لكل منهزم من الصليبيين ، ولما تولى عرش قبرص الملك بطرس الأول لورجنان جعل من نفسه البطل المناوىء للإسلام والمسلمين ، فكان يعتدى على السفن الإسلامية ويستولى عليها ، ثم لم يكفه هذا فقرر أن يهاجم الإسكندرية فى يوم جمعة والمسلمون فى المساجد فوصل إلى شواطىء الإسكندرية فى التاسع عشر من أكتوبر ١٣٦٥م ـ ٧٦٧ هـ وكانت ظروف دولة المماليك فى مصر سيئة ، فاستطاع لوزجنان أن يعيث فى الاسكندرية فسادا ولكنه فر عندما تحرك المماليك إليه ولكنه أخذ معه قرابة خمسة آلاف أسير ، وقد فرحت أوربا بذلك ، وهنأ ملوكها بعضهم بعضا ، كما هنأهم البابا ، ولعل ذلك شجع بطرس لوزجنان فأغار على طرابلس سنة ١٣٦٧م وأصبحت قبرص وكرا للمعتدين والمغيرين ، فقرر المماليك التخلص من قبرص كلها ٠

وفى عهد السلطان برسباى سنة ١٤٢٢م صمم على القضاء على قبرص فأخذ يرسل إليها الحملة تلو الحملة ليتعرف على مايجب عليه عمله ، فكانت الحملة الأولى للاستكشاف وقد أغرقت عددا من سفنهم وعادت بعدد من الأسرى ٠ أما الحملة الثانية فقد استطاعت أن تستولى على فاماجوستا وأن ترفع عليها علم السلطان وأن نغير وتقتل ثم دارت معركة بين المسلمين والقبارصة خسر فيها الصليبيون كثيرا من القتلى ، ورفع المسلمون راية السلطان على ليماسول ثم عادت الحملة إلى القاهرة محملة بالأسرى والغنائم ٠

أما الحملة الثالثة فكانت سنة ١٤٢٦م القاضية إذ استطاعت الجيوش الإسلامية أن

نهزم الصليبيين فى ليماسول وفى خير وكيتا حيث المعركة الفاصلة ثم اتجهوا إلى نيقوسيا فصلوا الجمعة فى كنيستها وتقدم كبار القبارصة طالبين الأمان والتسليم فأمنهم المماليك ثم نادوا بأن قبرص : « صارت من جملة بلاد السلطان الملك الأشرف برسباى »[1]

وأصبحت قبرص من ذلك التاريخ تابعة لسلطان المماليك وأصبح جانوس نائبا للسلطان فى حكمها ٠

هكذا واجه المماليك الصليبيين وقضوا عليهم وعلى وجودهم فى العالم الإسلامى، غير أن دولة المماليك انتهت وللصليبيين فلول وبقايا تكفلت بها الدولة العثمانية ، مما سنتكلم عنه بإيجاز فى الكلمات التالية ٠



١ ـ العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية ٠

٣ ـ فلول الصليبيين ، وقضاء العثمانيين عليهم

فى كلمات سريعة ـ وحتى لانخرج عن سمت الكتاب ووعائه الزمنى وهو قرنا الحروب الصليبية التى شنت فيهما أوربا الحرب على الشرق الإسلامى ـ نتحدث فى إيجاز عن الوجود الصليبى فى رودس •

فكما استطاع الصليبيون أن يقيموا مملكة فى أرمينية وأخرى فى قبرص وكان للمماليك فضل القضاء على هاتين المملكتين ، فإن دولة الفرسان الاستبارية فى رودس كانت مثل مملكة أرمينية ومملكة قبرص •

وكانت دولة الاستبارية فى رودس نتيجة كذلك لسقوط عكا فى يد السلطان الأشرف خليل ، فقد اختار الاستبارية عقب طردهم من الشام أن يقيموا فى قبرص ، منتظرين الفرصة للبحث عن مكان يناوشون منه المسلمين •

وحدث أن اتصل بهم قرصان جنوى فيجتولو الذى استولى من البيزنطيين على جزيرتى كوس وليروس وعرض على مقدم الاستبارية التعاون فى غزو جميع جزر الدود بكانيز على أن يكون للاستبارية الثلثان وله الثلث •

وقبل الاستباريون وذهب مقدمهم إلى أوربا ليحصل على موافقة البابا بينما اتجه الجنود بالسفن الجنوية التابعة للقرصان وهاجموا جزيرة رودس وسريعا مااستولوا على مدينة رودس نفسها سنة ١٣٨٠م ففقدها البيزنطيون وأصبحت قاعدة للاستبارية واعتبر الغرب الصليبى ذلك نصرا مبينا •

وظلت رودس معقلا ومركزا ومنطلقا للإغارة على الأراضى الإسلامية بل وعلى مصر والشام •

وبعد سقوط أرمينية وقبرص ـ على النحو الذى بينا ـ اصبحت رودس ملجأ لكل صليبى هارب أو خائف أو طامع ، وحدث من رودس عدوان على رشيد سنة ١٤٣٩م وخربت ودمرت وهربت ٠

ورد السلطان المملوكى جقمق على ذلك بحملات ثلاث اتجهت لحرب رودس فى السنوات ١٤٤٠ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ م٠

ولم يكن من نصيب الحملتين الأوليين إلا النجاح المحدود ، أما الحملة الثالثة فقد حققت انتصارا هاما على الاستبارية فى رودس مما اضطرهم إلى الاستعانة بأحد التجار الفرنسيين ليتوسط بينهم وبين المماليك ٠

وظلت العلاقات بين المماليك والاستبارية فى رودس يشوبها الحذر والتوجس حيث كان الاستباريون ينتهزون الفرص للإغارة على السفن الإسلامية مرة بعد مرة ٠

ولم يكن فى إمكان دولة المماليك ـ وهى تعيش خريف عمرها ـ أن توجه لهم ضربة قاضية ، وكل ما استطاعه السلطان الغورى آخر سلاطين المماليك أن ألقى القبض على جميع رجال الدين المسيحى فى القدس ، وعلى الفرنجة فى الإسكندرية ودمياط ، وأغلق كنيسة القيامة سنة ١٥١١م ٠

ثم شاء الله ان يجعل نهاية الاستبارية فى رودس على يد الدولة العثمانية التى حكمت العالم الإسلامى كله بعد دولة المماليك ٠

وبعد : فتلك هى نهاية الوجود الصليبى فى العالم الإسلامى ، وهذه هى أم الدول التى واجهت الصليبيين ٠

ونعود فنؤكد أن ذلك لم يكن نهاية للحروب الصليبية وإنما كان نهاية لمرحلة من مراحلها ، حيث انتقلت بعد ذلك إلى شمالى أفريقية ، ثم عادت من جديد فى شكل دول أوربا المتحالفة ضد الدولة العثمانية وهى فى خريفها ، ولاتزال مستمرة حتى يومنا وإن غيرت فى شكلها وأساليبها ٠



الباب الثالث



نتائج الحروب الصليبية

الباب الثالث

نتائج الحروب الصليبية

ويتناول :

أولا : نتائجها فى العالم الاسلامى

ويشمل :

أ ـ فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة

ب ـ فى إذكاء العواطف الدينية

ج ـ فى التأثر ببعض العادات

ثانيا : نتائجها فى دول أوربا

ويشمل :

أ ـ فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة

ب ـ فى النهضة العلمية والأدبية والحضارية

ج ـ فى إثارة المطامع فى العالم الإسلامى

نتائج الحروب الصليبية

كان لابد أن تترك الحروب الصليبية ـ وقد استمرت قرابة قرنين من الزمان ـ أثرا واضحا فى العالم الإسلامى ، أثرا يتجاوز النواحى السياسية إلى ما هو أعمق من ذلك ، إلى الاجتماع والاقتصاد ، بل إلى الفكر نفسه ، وبغض النظر عن سلبيات هذا الأثر أو إيجابياته ، فإن كل تلك السلبيات أو الإيجابيات بدت واضحة فى العالم الإسلامى فى أثناء هذه الحروب ، وبعد انتهائها ٠

وسنحاول هنا أن نرصد ذلك الأثر فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد بينما نفرد بابا من أبواب هذا الكتاب لترصد فيه الأثر الفكرى أو الأدبى لهذه الحروب ، حيث لم يقف فكر العالم الإسلامى بمعزل عن هذه الحروب ولم يتخل أدبها عن أن يرصد ويسجل ، ويثور على سلبيات هذه الحروب فى المجتمع ، ويدعو إلى الثورة على هذا العدو الغاصب ٠

وكما كان للحروب الصليبية هذا الأثر فى العالم الإسلامى ، فقد تركت كذلك أثرا فى العالم الأوروبى شرقيه وغربيه ، بل ربما كان أثر هذه الحروب فى أوربا أعمق من أثرها فى العالم الإسلامى ؛ ذلك أن أوروبا الغربية حين شنت بقيادة الكنيسة هذه الحروب على العالم الإسلامى ، كانت تعيش أسوأ ظروفها الاجتماعية وأحط مستويات فكرها وأدبها ، فضلا عما كانت تعانيه من قلق سياسى واضطراب اقتصادى ٠

وما من شك فى أن العالم الإسلامى ـ فى ذلك الوقت ـ على الرغم مما كان يعيشه من انقسام سياسى وفرقة إقليمية ، ومطامع شخصية من بعض الأمراء والقواد ، أذهبت ريح الأمة ومزقت جسم الدولة ، ومكنت العدو المهاجم من أن يقيم على الأرض ممالك استمر بعضها أكثر من قرن وعاش بعضها قرنين كاملين ، على الرغم من ذلك كله ، فإن العالم الإسلامى قد كان على جانب من التحضر فى الفكر والعلم والعمران ، لم تكن أوربا فى ظروفها تلك تتمتع بقليل منه ٠

ومن هنا فإن أثر الحروب الصليبية فى أوربا ، لابد أن يكون أعمق وأشمل •

وهذا ما سوف نتحدث عنه بشيء من التفصيل ، بعد أن نرصد أثر هذه الحروب فى العالم الإسلامى ••

ولا بد أن نشير هنا إلى أن هذه الحروب الصليبية قد جعلت كلا من العالم الإسلامى والعالم الأوروبى يتعرف على الجانب الآخر عن قرب ، تعرفا كشف عن السلبيات التى يعيشها العالَـمَان ، وأبرز لدى كل منهما ما عليه الطرف الآخر من إيجابيات ، وذلك معناه أن يحدث نوع من الروابط والصلات بين الشرق الاسلامى والغرب الأوربى •

ولا نود أن يفهم من كلامنا هذا أن هذه الصلات أو تلك الروابط لم تكن موجودة قبل الحروب الصليبية ، وإنما الذى نؤكده أن حجمها قد زاد ، وأن مداها قد اتسع ، وأن نوعها قد اختلف •

فقد كانت هناك صلات بين العالم الإسلامى والعالم الأوربى الغربى قبل الحروب الصليبية ، لكنها كانت فى نطاق تبادل الرسائل أو الهدايا ، وفى نطاق تنقل الأفراد أوالحجاج الأوربيين ، وعلى أقل مستوى من العلاقات التجارية بين أوربا الغربية وبعض بلدان العالم الإسلامى كمصر والشام •

كذلك لانتجاهل الوجود الإسلامى فى الأندلس ، فإنه كان نوعا من الصلات والروابط التى عرفت العالم الأوربى على الحضارة الإسلامية وأعطته فرصة ليأخذ من هذه الحضارة شيئا ليس بالقليل ، غير أن الحروب الصليبية قد عمقت هذه الصلات والروابط بشكل أوسع وأعمق مما فعل الوجود الإسلامى فى الأندلس •

وسنحاول فى الصفحات التالية من البحث أن نرصد هذه الآثار فى العالم الإسلامى أولا ، ثم فى أوربا الغربية ثانيا ، ونشير إلى أثر هذه الحروب فى أوربا الشرقية ـ بيزنطة ـ فى إجمال •

أولا : نتائج الحروب الصليبية
فى العالم الإسلامى

اتسعت الرقعة الإسلامية أمام الهجوم الصليبى ، فشملت آسيا الصغرى والشام والعراق ومصر ، بل وصلت بعض هجماتها إلى الحجاز عبر الأردن لتهديد الحرمين الشريفين ، واندفعت نحو الغرب الإسلامى لتهاجم تونس والمغرب والأندلس الإسلامية آنذاك •

كما استولت الهجمات الصليبية على عدد من جزر البحر الأبيض ، مما جعل اتصال الصليبيين ـ بعد استقرارهم فى الشرق الإسلامى ـ ببلادهم عبر البحر أمرا كثير الحدوث •

وقد أدى ذلك إلى أن تترك هذه الحروب فى العالم الإسلامى آثارا ملحوظة فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، فضلا عن الفكر والأدب ، مما سنوضحه فيما يلى : ـ

أ ـ فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة :

أما تأثر الشرق الإسلامى بالحروب الصليبية فى النواحى الاجتماعية ، فإنه كان تأثرا سلبيا ، بمعنى أن المسلمين تأثروا بالصليبيين على الصورة التى يأخذها عليهم دينهم ، بل إن أكثر ما تأثر به المسلمون بالصليبيين لم يكن نافعا للمسلمين فى مجتمعهم ، وإن نفعهم فى ظروفهم السياسية حينا وفى ظروفهم الاقتصادية فى بعض الأحيان •

وأبرز هذه الآثار فيما نتصور ، جاءت نتيجة الانتصارات الأولى التى حققها الصليبيون على المسلمين فاغتصبوا أراضيهم وأقاموا عليها ممالك غازية ، ذكّرت المسلمين

دائما بأنهم قد انهزموا أمام هذا العدو الظالم ، وألقت فى نفوس بعضهم إحساسا بالعجز والفشل ، وفى نفوس بعضهم اقتناعا بأن الانتصار على الصليبيين غير ممكن •

وقد أدى هذا الإحساس عند بعضهم إلى اعتبار جهاد الصليبيين بالقلم واللسان ، قد يغنى عن جهادهم ، بالقوة والسيف والسنان ، بل غالى بعضهم فادعى أن جهادهم بالقلم واللسان لا يقل عن جهادهم بالسيف والسنان •

وقد كان هذا الاعتقاد أول سلبية من سلبيات الحروب الصليبية وأثرها فى المجتمع المسلم ، ذلك أن المسلم به بين الفاهمين للدين الإسلامى ، أن جهاد العدو الذى اغتصب شبر أرض من بلاد المسلمين فرض عين على القادر من المسلمين ، لايغنى عنه جهاد بالقلم ولا جهاد بالخطب ولا جهاد بالمؤلفات •

أما أن يكون هذا الجهاد مع ذاك ، فيواكب الجهاد بالقلم الجهاد بالسيف ، فذلك أجدى وأنفع دون شك أو تردد •

والذى نود أن نوضحه هنا أن بعض المسلمين قد اتخذوا من أقلامهم ومؤلفاتهم ميدانا ينازلون فيه الصليبيين تاركين الجهاد بالسيف مع استطاعتهم ، على أننا لا نقصد من إيراد أسماء بعضهم تشهيرا بهم أو انتقاصا من أقدارهم ، وإنما نقصد أن نرصد هذا الأثر الذى تركته الحروب الصليبية فيهم •

فمن هؤلاء الذين قعدوا عن الجهاد بالسيف ـ وهم عليه قادرون ـ وآثروا الجهاد بالقلم والمؤلفات : الإمام ناصر الدين أحمد بن منير الإسكندرى قاضى الإسكندرية المتوفى سنة ٦٨٣ هـ ـ أى بعد بدء الحروب الصليبية بقرابة مائة عام •

فقد صرف الرجل جهده إلى تنبيه المسلمين على ما تضمنه تفسير الزمخشرى للقرآن الكريم ، واعتبر ذلك سببا يصرفه عن جهاد الأعداء بالسيف ، ونحن معه فى أن العمل الذى قام به عمل ضرورى ولكنه يمكن أن يؤجل ، أما العمل الضرورى الذى لا يقبل التأجيل فهو طرد العدو الغاصب لأرض المسلمين المعتدى على حرماتهم •

فمسح على وجهى بيده المباركة وألقى علىّ بردة فانتبهت ووجدتنى فى نهضة فقمت وخرجت من بيتى ، ولم أكن أعلمت بذلك أحدا ، فلقينى بعض الفقراء[1] فقال لى : أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أيها ؟ فقال : التى أنشأتها فى مرضك وذكر أولها ، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمايل ! وأعجبته وألقى على من أنشدها بردة ، فأعطيته إياها ، وذكر الفقير ذلك وشاع المنام[2] ٠

ولقد حظيت بردة البوصيرى تلك بما لم تحظ به قصيدة فى الأدب العربى إذ شطّرت وخمست وشرحت وعورضت ، بما لا نظير له فى عصر من العصور ولا لقصيدة من القصائد ٠

ومن الظواهر الاجتماعية التى تسببت فيها الحروب الصليبية استحداث مدن فى العالم الإسلامى لم يكن لها وجود ملحوظ من قبل ٠ مثل مدينة قوص وثغر عيذاب على البحر الأحمر ٠

ذلك أن الصليبيين وقد استولوا على فلسطين معظمها وعلى ثغورها أغلبها زاد خطرهم وعظم شرهم ، فأصبح الطريق المألوف لحجاج بيت الله الحرام من أهل الأندلس وأهل شمال إفريقية غير مأمون ٠

فاتجه هؤلاء الحجاج إلى أن ينزلوا مصر ثم يأخذوا طريق النيل إلى جنوبى القاهرة حيث مدينة قوص ٠ ومنها إلى ثغر عيذاب على البحر الأحمر حيث يركبون البحر الأحمر إلى البلاد المقدسة ٠

وترتب على ذلك أن عظم شأن قوص وكثرت بها المدارس والمعاهد والمساجد وقصدها العلماء ، ونزلوا فيها ، وبزغ منها علماء فى الحديث وفى الفقه وفى النحو ، وكثر فيها الأدباء

---

١ ـ كانت كلمة فقير فى ذلك الوقت تعنى فى الغالب : « صوفيا » ٠

٢ ـ مقدمة قصيدة البردة ط ـ القاهرة دون تاريخ ٠ وذكرها ابن شاكر الكتبى فى تاريخه باختصار ٠

والشعراء ، لأنها أصبحت محط رحال الحجيج ، فاستفادت من هذه الحروب ما أذاع ذكرها وأشاع اسمها بين المدن الإسلامية ، وكذلك شاع أمر عيذاب وذاع صيتها •

وبعد فتلك هى أبرز الظواهر الاجتماعية التى تسببت الحروب الصليبية فى إيجادها أو تطوير وجودها •

أما تأثير الحروب الصليبية فى الحالة الاقتصادية للعالم الإسلامى • فيمكن أن نلمسه فى جانبيه الإيجابى والسلبى على النحو التالى :

فى الجانب الإيجابى الذى أدى إلى ترويج التجارة ، ونقل حاصلات الشرق ومنتجاته إلى أوربا ، وذلك أن المدن الأوربية التجارية الكبيرة فى ذلك الوقت : جنوا والبندقية وبيزا ، قدمت للغزاة الصليبيين ـ على مدى قرنين من الزمان ـ أكبر المساعدة البحرية مما مكن للصليبيين من ثغور الشام معظمها ، فى مقابل أن تحصل على امتيازات تجارية فى ممالك الصليبيين بالشام وفى الثغور التى كانت تحت أيديهم •

وسريعا ما قام التجار الأوربيون من إيطاليا ومرسيليا وإسبانيا بنشاط تجارى ضخم بين الشرق والغرب ، حيث أسسوا فى بلدان الشرق الإسلامى مراكز تجارية هامة تمثلت فى أحياء تجارية فى عكا وصور وصيدا والسويدية واللاذقية وغيرها •

ومن هذه المراكز التجارية حملت حاصلات الشرق ومنتجاته إلى الغرب الأوربى ، ولقد كانت حاصلات الشرق كالمنسوجات القطنية والحريرية والأوانى الزجاجية المصنوعة فى صور ـ واللآلىء والأحجار الكريمة ـ التى كان يرد بعضها إلى الشرق الإسلامى من سيلان والهند ، والعاج والأخشاب والعقاقير والتوابل التى كانت ترد إلى الشرق الإسلامى من الشرق الأقصى •

كل هذه المنتجات والمصنوعات المتوافرة فى الشرق تدفقت على أوربا من الشرق الأسلامى ، متخذة طريق القوافل من الشرق الأقصى وغيره إلى الشرق الإسلامى

العربى عابرة العراق حينا والشام أحيانا لتستقر فى الثغور التى احتلها الصليبيون فى الشام ، ومنها تعبر البحر إلى أوربا ٠

كما استفادت التجارة رواجا نسبيا عن طريق بعض الثغور المصرية كالإسكندرية ودمياط التى تنقل منها المصنوعات والمنتجات الى الغرب الأوربى ٠

وإذا كانت موانىء الشام ومدنه التجارية قد حققت كثيرا من النشاط التجارى على مدى فترة الغزو الصليبى ، فإن السنين الأخيرة وبخاصة بعد ظهور المغول وسيطرتهم على أجزاء كبيرة من الشرق الإسلامى ، حوّلت هذا النشاط عن الثغور والمدن الشامية الى طريق آخر شجعه المغول فانتقلت عبره منتجات الشرق إلى أوربا وهو الطريق من الصين إلى تركستان إلى موانىء البحر الأسود حينا أو إلى ميناء إياس على البحر المتوسط فى أحيان قليلة ٠

ولما وقعت العراق فى أيدى المغول أقفلوا الطريق التجارى الذى كان يمر بالخليج الفارسى فالعراق فدمشق ومنها إلى ثغور الشام ٠

كل ذلك لم يقلل النشاط التجارى بصورة ضارة وإنما غير طرقه وقلل من شأن هذه الثغور الشامية ٠

غير أن مصر ـ وقد بقيت بمعزل عن الخطر المغولى ـ نشطت ثغورها فى العمل التجارى وزادت عن ذى قبل ، فأصبح طريق البحر الأحمر ثم ثغور مصر فى الإسكندرية ودمياط هو الطريق الأنشط فى التجارة ، وأصبحت الإسكندرية ودمياط مركزين لنشاط تجارى كبير ، فقصدتها السفن الأوربية تحمل منها حاصلات الشرق ـ العابرة إليها ـ وكان لسفن البندقية وجنوا وبيزا ، عمل دائب فى هذه الثغور ٠

كما كان لتجار مرسيليا وإسبانيا حركة ونشاط ـ وبخاصة ـ فى ابتياع التوابل والبخور والمنسوجات من حاصلات الشرق،وعلى الرغم من العداء بين المسلمين والصليبيين فى صورته القتالية الضارية ، فان بعض سلاطين المماليك رحبوا بعدد من الجاليات التجارية

ـ الصليبية ـ وسمحوا لهم بان يقيموا فى الإسكندرية ودمياط ، بل يكون لهم قنصل يشرف على شئونهم ومصالحهم ، وإذا حدث من أحدهم ما يشين الإسلام طلب من القنصل مؤاخذته وربما أبعد عن البلاد •

وقد كان هذا النشاط التجارى الواسع الذى عاد ـ دون شك ـ بفوائد اقتصادية على بلدان الشرق الإسلامى ، كان نتيجة للحروب الصليبية ، وهذا ما أردنا أن نرصده فى هذه الصفحات من البحث فى الجانب الإيجابى من أثر الحروب الصليبية فى الحياة الاقتصادية للشرق الإسلامى •

ونود أن نوضح أن هذا النشاط التجارى لم يؤد فائدته لبلاد المسلمين إلا بعد أن استقر الصليبيون نسبيا وأنشئوا ممالكهم فى الثغور الشامية ، لكنها كانت فائدة محوطة فى الغالب بالقلق والمخاطر ، ولم تكن موضع رضا المخلصين من الحكام المسلمين ، الذين عملوا على ضرب الوجود الصليبى فى الشرق الإسلامى وطرد هذا النفوذ إلى خارج البلاد ، ولتكن التجارة بعد ذلك بين بلاد لا تحتل واحدة منها أرض الأخرى •

ولنتحدث الآن عن الجانب السلبى للحروب الصليبية فى حياتنا الاقتصادية أثناء هذه الحروب الصليبية •

من الواضح أن الحروب أدت إلى خسائر فى الأرواح وفى الأموال والممتلكات بل ربما أدت إلى دمار كامل لبعض المدن وبعض الثغور ، وهذا بالضرورة يحدث كسادا تجاريا من جانب وخللا اقتصاديا من جانب آخر •

وإن نظرة إلى ما تركته الحروب الصليبية فى الشرق الإسلامى من أهوال لتدلنا على مدى ما عانته البلاد من تخريب لبعض المدن ، وتعطيل لكثير من الصناعات وتضييع لكثير من الحاصلات الزراعية ، واختلال للأمن ، وإشاعة للسلب والنهب ـ إذ الدولة وسلطاتها

---

١ ـ خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك : ٤١ باختصار وتصرف •

مشغولة بالحرب أكثر من انشغالها بتأمين الناس على حياتهم ـ فضلا عن أن بعض الحكام كان يصادر ممتلكات الناس من أجل هذه الحروب •

كل هذا أدى ـ فى مصر والشام ـ إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعا أعجز كثيرا من الناس عن الحصول على ضروورياتهم •

ففى عهد السلطان الناصر صلاح الدين طلب الصليبيون عقد هدنة معه ، ولكنه آثر الاستمرار فى الحرب ضدهم ، ولكن مستشاريه عارضوا رأيه ونصحوا بقبول الهدنة لسوء الأحوال الاقتصادية فى البلاد •

وقد وصف العماد الأصفهانى هذا الحوار بين صلاح الدين ومستشاريه فى هذا الموقف فقال : « ... فانظر إلى أحوال البلاد فإنها خربت وتشعثت ، والرعايا فإنها تعكست وتعلثت[١] ، والأجناد فإنها نصبت ووصبت ، والجياد فإنها عطلت وعطبت ، وقد أعوزت العلوفات وعزت الأقوات وبعدت عنا العمارات ، وغلت الغلات ، ولا جَلَب إلا من الديار المصرية مع ركوب الأخطار المهلكة فى البرية ، وهذا الاجتماع مظنة التفريق ، ولا يدوم هذا الاتساع مع هذا الضيق ، فإن المواد منقطعة ، والجوادّ[٢] ممتنعة ، والمترب قد ترب ، والمعدم قد عطب ، والتبن أعز من التبر ، والشعير ليته وجد وإن كان غالى السعر ... »[٣] •

هذا وصفه لأحوال الشام ، وما كانت مصر بأحسن حالا من الشام ، وكلتاهما كانت فى حكم صلاح الدين ولم تكن سائر أجزاء الشرق الإسلامى بأحسن من ذلك وقد وصف عبداللطيف البغدادى وعدد من المؤرخين سوء الأحوال الاقتصادية فى العالم الإسلامى فأفاضوا ، مما لا نحب أن نورده اكتفاء بما نقلناه عن الأصفهانى •

---

١ ـ اختلطت واضطربت •

٢ ـ جمع جادّة وهى الطريق أو مُعْظَمُه •

٣ ـ العماد الأصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى •

أما تأثير الحروب الصليبية فى الحالة السياسية :

فلعل ما قدمناه من حديث عن تأثير الحروب الصليبية فى العالم الإسلامى من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية كان واضحا إلى درجة محدودة ، لم تتجاوز القشرة الاجتماعية للمسلمين ، ولم تتعد أولئك البسطاء من الناس الذين لا يحسنون التمسك بدينهم ولا المحافظة الجادة على سننه وآدابه ، ذلك أن المسلمين ـ وقد كرهوا الصليبيين وعرفوا عيوبهم عن قرب ـ لم يحاولوا تقليدهم فى عاداتهم الاجتماعية ولم يحاكوهم فى نظمهم الإدارية ، وإنما ظل للمسلمين مجتمعهم المطبوع بطابع دينهم ، كما ظلت لهم نظمهم الإدارية التى توارثوها جيلا عن جيل ٠

كان هذا فى الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، أما فى الناحية السياسية فإن الأمر قد اختلف إلى حد كبير ، حيث أسهمت الحروب الصليبية فى إحداث تغيرات سياسية كبيرة فى العالم الإسلامى ٠

وسنحاول أن نرصد الآثار السياسية للحروب الصليبية فى العالم الإسلامى فى مجالين :

الأول : اتحاد المسلمين وجمع كلمتهم تحت قيادات مخلصة ٠

والثانى : إضعاف الدولة الرومانية الشرقية ـ بيزنطة ـ مما أدى إلى الاستيلاء عليها نهائيا ، بعد انتهاء الحروب الصليبية بزمن غير بعيد ٠

أما وحدة المسلمين فى مواجهة الصليبيين ، فكانت نتيجة ضرورية لتلك الهجمات العنيفة التى وجهها الصليبيون للعالم الإسلامى ٠

فقد كان العالم الإسلامى ـ أثناء الحروب الصليبية ـ مفكك الأوصال يعيش فترة ، تعد من أسوأ فترات حياته من الناحية السياسية ٠

فقد كانت بلاد الشام مفككة مضطربة يتنازعها عدد من الأمراء لا تربط بينهم رابطة سياسية ٠

وكذلك كانت بلاد فارس ، وكانت الخلافة العباسية فى بغداد تفقد فى كل يوم جزءا من أرضها وقدرا من هيبتها ، ولم يكن أمر مصر ـ والخلافة الفاطمية فيها ـ تلفظ أنفاسها الأخيرة بأحسن حالا من الشام والعراق وما وراء النهر ، كذلك الحال فى سائر الشرق الإسلامى ٠

هاجم الصليبيون العالم الإسلامى واستطاعوا فى حملتهم الأولى أن يستولوا على بيت المقدس لا بسبب قوتهم وحسن إدارتهم أو بسالة مقاتليهم ، وإنما أكبر الأسباب فى ذلك هو ضعف العالم الاسلامى وتفرق كلمته وذهاب ريحه ٠

وإذا كانت الخلافة العباسية التى كانت رمز اتحاد المسلمين وعنوان جمع كلمتهم قد ضاع منها بلاد فارس التى استبد بها السلاجقة ، وضاعت منها الشام التى استبد بها الأتابكة البوريون ومن بعدهم الزنكيون ، وضاعت منها الموصل حيث استبد بها الزنكيون ، كما ضاعت حلب وضاعت سنجار وضاعت الجزيرة وإربل وديار بكر ، كل ذلك حكمه الأتابكة مستقلين به عن الدولة ٠

كما انتقص الأراتقة أطراف الدولة الكبرى ، فانفصلوا بكيفا وماردين ، ثم استبد الشاهات بأرمينية ، بل تقسم الحكام أرمينية فيما بينهم فقامت فيها دولة أخلاط التى أسسها سقمان القطبى سنة ٤٩٣ هـ والحروب الصليبية على وشك القدوم إلى العالم الاسلامى ٠

كما استبد بعض الاتابكة بأذربيجان ، ومن قبلها انفصلت كرمان ، حتى العراق نفسها مهد الخلافة العباسية استبد بالأمر فيها سلاجقة العراق وكرد ستان ، كما استبد بآسيا الصغرى سلاجقة الروم ٠

هكذا بدت الدولة العباسية فى شكل ولايات متعادية يطمع رئيس كل ولاية فى أن يوسع ولايته على حساب ولاية جيرانه ، كان ذلك كله فى الوقت الذى تستعد فيه أوربا لشن أعنف حرب وحشية على العالم الإسلامى •

أما الدولة الفاطمية ـ الدولة الثانية من حيث القوة حينا والأولى حينا آخر ـ والتى كانت رمزا لقوة المسلمين على مدى طويل من الزمان ، أما هذه الدولة فقد جاءتها الحروب الصليبية وهى فى أضعف أوقاتها وظروفها ، فقد كانت تعيش اضطرابات داخلية عنيفة أدت إلى سقوط هيبة الخلفاء واستبداد بعض الوزراء بالحكم والسياسة ، فمنذ أن توفى الخليفة المستعلى فى شهر صفر من سنة ٤٩٥ هـ وتولى من بعده ابنـه الآمـر ، ووزيره الأفضل ، منذ ذلك الوقت الذى استبد فيه الأفضل بالحكم وحال الخلافة الفـاطمية تسرع نحو النهاية السيئة ، بل نحو الفناء ، فالاضطرابات الداخلية والقلق السياسى وتنازع الوزراء كل ذلك عاصر فترة العدوان الصليبى على الشرق الإسلامى ، وكل ذلك أدى إلى عجز المسلمين فى بداية الأمر عن مواجهة الصليبيين •

هكذا كان العالم الإسلامى فى فترة الحروب الصليبية يعانى فرقة وانقساما وقلقـا واضطرابا ، وهو أمر وإن سهّل على الصليبيين الاستيلاء على أجزاء من الشرق الإسلامى حتى أسسوا فيه ممالك ، إلا أنه من جانب آخر ، قد دعا المخلصين من قواد المسلمين إلى العمل السريع على توحيد الشرق الإسلامى والقضاء على منازعاته وخلافاته لمواجهـة الصليبيين صفا كالبنيان المرصوص •

ومن الحق المسلم به أن الحروب الصليبية أدت اتحاد المسلمين وتناسى ما بين عدد من الحكام والأمراء من حزازات شخصية لخوض المعركة الفاصلة مع الصليبيين •

ومن الشخصيات التى لمعت فى جمع شمل المسلمين وتوحيد صفوفهم ضد الصليبيين :- عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى عليهم رحمة الله ورضوانه فقد كان هؤلاء الثلاثة أبطالا فى مواجهة الصليبيين وفى تحقيق الانتصارات عليهم ، فما إن

قضى عماد الدين زنكى نحبه حتى تلقف راية الجهاد من بعده نور الدين محمود ، فهزم الصليبيين واستعاد منهم كثيرا من بلاد المسلمين ، وما أن وافاه أجله ، حتى برز صلاح الدين للوجود ، وحقق على الصليبيين انتصارا ساحقا تاريخيا فى حطين ، ثم استعاد منهم بيت المقدس ، ووضع لمن جاء بعده من أسرة بنى أيوب أو للمماليك الذين ورثوا حكم بنى أيوب وضع لهم الأسلوب الصحيح الذى يحققون به الانتصارات على الصليبيين وهو أسلوب رفع راية الجهاد فى سبيل الله من جانب وتوحيد صفوف المسلمين من جانب آخر •

فقد استطاع صلاح الدين أن يوحد العالم الإسلامى فى جبهة قوية واجهت الصليبيين وقضت على آمالهم فى الشرق الإسلامى •

فلقد كان صلاح الدين بطلا من أبطال المسلمين استطاع منذ تولى شئون مصر ٥٦٤ هـ بعد إسقاط الخلافة الفاطمية إلى أن توفاه الله سنة ٥٨٩ هـ أن يجعل من مصر والشام وحدة قوية واجه بها الصليبيين وانتصر عليهم ورسم معالم الطريق لكل من يريد أن يحقق النصر على عدوه ، وهى : الجهاد فى سبيل الله وتوحيد كلمة المسلمين •

وإن أعمال صلاح الدين الجليلة فى توحيد كلمة المسلمين وجمع شملهم لتعد أثرا هاما من آثار الحروب الصليبية فى العالم الإسلامى •

فلقد استقر الأمر لصلاح الدين فى مصر وكان يستطيع أن يكتفى بهذا وفيه من الخير له مالا يطمع حاكم فى أكثر منه ، ولكنه مدّ بصره إلى الشام إلى الشرق الإسلامى الذى يجثم على أرضه عدو غاصب ، فوضع نصب عينيه أن يقضى على هذا العدو وأيقن أن النصر حليف الاتحاد فأخذ فى العمل من أجل وحدة المسلمين وجمع كلمتهم فدانت له الشام كلها وحلب ومصر واليمن وغيرها ، وكان يمكن أن يكتفى بهذا وفيه مقنع لأى طموح،ولكنه استعد للمعركة الفاصلة مع الصليبيين فهزمهم أسوأ الهزائم فى حطين ثم استولى على حصن طبرية ثم على عكا ونابلس والرملة وقيسارية وأرسوف ويافا وبيروت وصور وطرابلس وعسقلان ثم على بيت المقدس ، الذى كان لاستيلائه عليه رنة فرح فى

العالم الإسلامى كله ، تحدث بها الأدباء والشعراء ، بل أُلّفت فيها الكتب وألقيت الخطب ونمقت المقالات ٠

ولقد نهض بعبء توحيد كلمة المسلمين من بعد حكم بنى أيوب سلاطينُ المماليك فاستطاع غير واحد منهم أن ينتصر على الصليبيين انتصارا ساحقا ، فكانت انتصارات الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون على الصليبيين موضع إعجاب العالم الإسلامى كله من جانب ، وكانت المعالم البارزة التى مكنت السلطان الأشرف خليل بن قلاوون أن يجهز على الوجود الصليبى فى الشرق الإسلامى كله ، يوم استعاد منهم أمنع الحصون وأعتاها « عكا » وطردهم إلى غير رجعة ٠

هذا عن المجال الأول الذى تركت فيه الحروب الصليبية أثرا فى حياة المسلمين السياسية ، فأدت إلى توحيد صفوفهم وجمع كلمتهم ، وانتصارهم على عدوهم ٠

أما المجال الثانى الذى أثرت فيه الحروب الصليبية فى حياة المسلمين السياسية ، فهو إضعاف الدولة الرومانية الشرقية ـ بيزنطة ـ وإعدادها لتلقى مصيرها المحتوم على أيدى المسلمين من آل عثمان فيما بعد ذلك بزمن غير بعيد ٠

فقد كانت الدولة البيزنطية قبل الحروب الصليبية سدا منيعا فى وجه الفتوح الإسلامية حالت بين المسلمين ـ قرونا من الزمان ـ وبين الامتداد إلى أوربا فترة طويلة من الزمان ٠

ولقد استغاثت الدولة البيزنطية بأوربا من سلاجقة الروم ، وقد قامت الحملات الصليبية الأوربية بتقوية الدولة البيزنطية وتأمينها من خطر السلاجقة أول الأمر ، ولكن ما مضى على الوجود الصليبى الأوربى فى الشرق الإسلامى سوى زمن قليل ، حتى تحركت أطماع الأوربيين « الكاثوليك » فى أملاك الدولة البيزنطية « الأرثوذكية » ، وسريعا ما أحسّت الدولة البيزنطية أن الصليبيين الأوروبيين أشد خطرا عليهم من السلاجقة ، ذلك أن الصليبيين الأوربيين حرصوا على الاستيلاء على البلدان والمدن التى تقع فى أيديهم

من المسلمين ـ وإن كانت فى الأصل للدولة البيزنطية ، بل حرصوا على إقامة ممالك مناوئة للدولة البيزنطية مثل مملكة أنطاكية . واستمر الصراع بين قادة الصليبيين فى الشرق الإسلامى ، وأباطرة الدولة البيزنطية ، فضلا عما قامت به الجموع الصليبية المتبربرة من عدوان على كثير من أملاك الدولة البيزنطية فى البلقان وآسيا الصغرى ، ثم تناسى صليبيو أوربا أن الدولة البيزنطية صليبية مثلهم فظلت الأمور تسوء بينهم إلى أن وصلت إلى حد الحرب السافرة التى قضى فيها الصليبيون الأوربيون على الدولة البيزنطية قضاء كاملا ، وأقاموا مكانها دولة ـ أو امبراطورية ـ لاتينية إقطاعية ، استمرت تحكم الدولة الرومانية الشرقية أكثر من نصف قرن من سنة ١٢٠٤ م الى سنة ١٢٦١ م ، حيث استولت الحملة الصليبية الأوربية الرابعة على القسطنطينية ـ بيزنطة ـ عاصمة الدولة وقضت عليها ، وكان ذلك من أهم ما أضعف أمر الصليبيين فى الشرق الإسلامى .

نعم استطاعت الدولة الرومانية الشرقية أن تسترد نفوذها بطرد الوجود الأوربى من أرضها ، ولكنها ضعفت وتضعضعت ، وكان ذلك من فضل الله على المسلمين ، حيث استطاع العثمانيون فيما بعد القضاء النهائى على الدولة الرومانية الشرقية والاستيلاء على القسطنطينية وجعلها من أكبر عواصم العالم الإسلامى فى القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر الميلادية ، من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر عشر الهجريين وبعض القرن الرابع عشر الهجرى .

بهذا ظهر أثر الحروب الصليبية فى الحياة السياسية للعالم الإسلامى فى المجالين اللذين أشرنا إليهما ، ثم بسطنا فيهما القول على النحو الذى يكشف أبعاد هذا التأثير ، وإن كان لا يتتبع كل أثر .

ولعلى بذلك أكون قد أوضحت أثر الحروب الصليبية ونتائجها فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، لأتحدث بعد ذلك عن نتائجها فى تأريث العداء بين المسلمين والصليبيين ، مما كان له آثارٌ متعددة نرجو أن نوضحها فيما يلى من البحث بإذن الله تعالى .

ب - فى إذكاء العواطف الدينية :

لا يشك منصف فى أن الحروب الصليبية وما صحبها من ضراوة الصليبيين التى واجهوا بها المسلمين ووحشيتهم وقسوتهم فى قتل النساء والأطفال والشيوخ فى كل بلد إسلامى وقع فى أيديهم ، لا يشك منصف فى أن ذلك أذكى عند كثير من المسلمين عواطف التدين وأعاد من كان ند منهم عن هدى دينه إلى التمسك بأهداب الدين •

وإن تلك المذابح المتبربرة التى قام بها الصليبيون فى بيت المقدس غداة استيلائهم عليه ، وفى كثير من بلدان المسلمين التى وقعت فى حوزتهم ، لكفيلة بأن تجعل كثيرا من المسلمين الذين غفلوا عن أمر دينهم وما يضمنه لأهله من عزة ، يثوبون إلى رشدهم ويعودون الى مصدر عزتهم وانتصارهم ، فيقبلون على القرآن الكريم وعلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى سيرته ، وسيرة السلف الصالحين •

استيقظت فى نفوس المسلمين - آنئذ - حمية الإسلام وبرزت أمام عقولهم وعيونهم أمجاد الأسلاف فى الجهاد والانتصار على أعداء الله ، ووجدوا آيات الكتاب الكريم أحاديث المعصوم صلى الله عليه وسلم تناديهم بالجهاد فى سبيل الله والتضحية بالمال والنفس من أجل دين الله ، فاستجابوا - وكأنهم لم يقرءوا تلك الآيات من قبل •

وعاشت فى قلوبهم آيات الجهاد وأحاديثه ، فرفعوا ألوية الجهاد فى سبيل الله دفاعا عن دين الله ، وأفاقوا على أن الصليبيين يقاتلونهم جميعا ، بينما المسلمون يقاتلون الصليبيين مفرقين ، فقيض الله لهم المخلصين من القادة الذين رفعوا راية الجهاد فى سبيل الله بدلا من راية الدفاع عن الأرض ، ووحدوا صفوف المسلمين فقاتلوا أعداءهم صفا كأنهم بنيان مرصوص •

وبرزت مع هذا الوعى شخصيات من قادة المسلمين الواعين ، فملأ اسم عماد الدين

زنكى سمع العالم الإسلامى . وَقَفَّاهُ من بعده ولده نور الدين محمود الذى حقق على الصليبيين بعض الانتصارات وهم فى أوج منعتهم .

وكان صلاح الدين الأيوبى معلمة هادية فى مجال توحيد العالم الإسلامى وجمع شمله ورفع راية الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ، حتى إنه بعد أن هزم الصليبيين هزيمتهم التاريخية فى حطين واستعاد بيت المقدس بعد إذلال الصليبيين ، وخيل لمن يرقبون الأحداث من الناس أن صلاح الدين قد أدى ما عليه وليس أمامه بعد ذلك إلا الدعة والراحة وجنى ثمار النصر الشهية إذا به يقول لأصحابه : « فى نفسى أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمتُ البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره ، وابتعثتهم فيها حتى لا ألقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت » [(١)] .

ووقف الناس خلف هؤلاء الزعماء يجاهدون فى سبيل الله ويقاتلون عدو الله وآيات الجهاد فى القرآن الكريم تملأ قلوبهم وأعمالهم ، وكلهم يحدث نفسه بقول المولى عز وجل : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »[(٢)] . واستطاع المسلمون فى أكثر من موقعة أن يذيقوا الصليبيين وبال عدوانهم على يد هؤلاء الأعلام من قادتهم .

وما هى إلا فترة وجيزة فى عمر الأمم حتى استطاعت الجيوش الإسلامية بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون أن تزيل الوجود الصليبى من الشرق الإسلامى إزالة كاملة باجلائهم عن آخر الثغور الإسلامية التى كانت فى أيديهم « عكا » .

ولقد تركت هذه العواطف الدينية ـ التى أذكتها الحروب الصليبية ـ فى نفوس المسلمين وفى المجتمع كله آثارا لا يمكن إنكارها ولا التقليل من شأنها ، لأنها أدت إلى نتائج عديدة فى المجتمع وفى العلم والأدب .

---

١ ـ ابن شداد : النوادر والسلطانية . ص ١٧ .

٢ ـ سورة لآل عمران : ١٤٢ .

ومن الآثار التى يسهل رصدها نتيجة لهذه الحروب الصليبية أن المسلمين كرهوا النصارى الذين يقيمون معهم فى البلدان الإسلامية ، كما كرهوا اليهود الذين وقفوا إلى جوار الصليبيين فى أكثر من موقف ضد الإسلام والمسلمين ، فعاملوا هؤلاء وأولئك معاملة - وإن لم تماثل فى شيء وحشية معاملة الصليبيين للمسلمين غداة استولوا على بلادهم - إلا أنها قد اشتملت على بعض التضييق عليهم ، وشجبت موالاتهم لأعداء المسلمين ، وأنتجت عدم الثقة فيهم ، فنحى بعضهم عن أعمال كتابية أو حسابية كانوا يقومون بها فى كثير من البلدان الإسلامية وفى دواوين الحكومة ، وأخذت الشكوى منهم تتردد أصداؤها من هنا وهناك ، فقد اشتكى البوصيرى صاحب البردة من كتاب النصارى فى مصر ، فقال :

يغالطنى بعض النصارى جهالة	إذا أوجب الملغى وألغى الموجبا
وما كان من عدَّ الثلاثة واحدا	بأعلم منى بالحساب وأكتبا
وما الحق ؟ فى أفواه قوم كأنها	أوانِ حوت ماءً خبيثا مطحلبا
مقلحة أسنانها فكأنها	أصاب بها السنجار أحجار كهربا
كأن ثناياهم من الخبث الذى	تحصرم فى نياتهم وتزببا

ولم يقتصر الأمر على الشكوى منهم وإظهار كراهيتهم ، وإنما تجاوز هذا إلى ذكر مثالبهم ونقائصهم ، ولعنهم على كل لسان ، فما كان يذكر اسم الإفرنج حتى يقرن باللعن والخذلان وكان فى الصليبيين نقائص كثيرة وعيوب متعددة فتتبعها بعض الكتاب وسجلوها ، كما فعل أسامة بن منقذ والعماد الأصفهانى وشيخ الإسلام أبى المظفر صدر الدين الدمشقى الذى ألف فى ذلك كتابا هو : تقويم النديم[١] .

يقول أسامة بن منقذ فى الصليبيين : « وليس عندهم - أى الإفرنج - شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها

١ - لا يزال الكتاب مخطوطا ينقل عنه الكتاب وإن كنت لم أطلع عليه .

ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومشى » ٠

ومن مثالبهم التى تحدث عنها العماد الأصفهانى قسوتهم وغلظ أكبادهم وبطشهم وكيدهم وإمعانهم فى الإضرار بالمسلمين والفتك بهم وتخريب بلادهم وتدميرها ٠

قال العماد : « ... والكفار قد خشنت عرائكهم واتسعت ممالكهم واستبصروا فى الضلال ، واستبضعوا للقتال ، وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت ، ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البرناشية الصوت ، وقاتلوا جندا ورعية واستباحوا الأنفس متورعين ، فلا ترى أعجب من أن ترى استباحة ورعية ، وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، وأمدهم فى طغيانهم يعمهون ، ورفعوا التكليفات فلا ننزع الحديد لوضوء ولا ح ، واستشعروا لبوس البوس فلم يلبسوا وجها إلى مزرور الشفاه على القطوب بلا بشر ولا مرح ... قد نزع الله الرقة من قلوبهم ونقلها إلى غروبهم ، وعذب بهم لما يريد من تعذيبهم ، واشتعلت نار جهلهم فى فحم ذنوبهم ، تستعيذ المروة من مروتهم ، ويدعى للنار بالعون على الاطلاع على أفئدتهم ، فظاظ غلاظ جهنميون ٠ كلامهم شرر ، وأنفاسهم شواظ ، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ٠ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ، خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكنى عنهم بوقود جهنم حين قال : وقودها الناس والحجارة ، وإلا فالحجارة لا تستحق الوقود إلا أن يراد بها القلوب التى هى كالجلمود فى الجمود ... » ٠

وكتب شيخ الاسلام أبو المظفر صدر الدين الدمشقى فى مثالبهم : « ... ولا قبطيا يلبس فى النهار زى الرهبان وفى الليل مصبغات الألوان من البرتيقى والعنابى الغالية الأثمان ، ويبكى على الوسادة بحضور الندمان ٠

مغالـط ليس له حيلة   إلا انتظـار الوقـت والحين

... ويوهمون النصح للمسلمين وهم عبيد عبدة الأوثان ، يخرجون التذاكير بالمحال والبهتان ، ويهملون الحق الواضح بالبرهان ، ويجبلبون النار إلى قرصهم ويحرقون قرص السلطان ، لا يخرجون إلا لمن أحضر الصرة أو حل الهميان ... يجعلون العتيق مستجدا والمستجد عتيقا ، والعبد الرقيق حرا ، والحر عبدا رقيقا ، والغائب حاضرا والحاضر غائبا والمحارب جبانا والجبان محاربا .

أعيذك بالرحمــن من شر كاتب　　له قلــم زان وآخــر سارق

يقول : انهب ما قدرت عليه ولا تجزع ، وخذ ما شئت ولا تفزع ، ومُدَّ يدك ودع تقطع ، مادام فى القوس منزع ، واغتنم لذة المصانعات .

لا أقــال المسيح عثــرة قبطى　　إذا لم يمــت قتيل النعــال ...[1]

كان هذا فى مجال المجتمع وما طرأ عليه من نظرة إلى الصليبيين لم تكن كذلك من قبل .

أما أثر هذه الحروب فى مجال العلم والأدب ، فقد وضح فى أن هذه العواطف الدينية ـ التى أذكتها الحروب الصليبية ـ قد جعلت بعض العلماء والكتاب يأخذون فى الرد على اليهود والنصارى وإظهار ما فى دينهم من باطل ونكر ، بما أدخلوه عليه من تحريف وإفساد .

فهذا ابن القيم الجوزى يؤلف كتابا قائما بذاته فى الرد على اليهود والنصارى ، سماه : « هداية الحيارى من اليهود والنصارى »[2] .

وهدف الكتاب توضيح ما فى اليهودية والنصرانية من باطل وزيف وتحريف ، ومن تصفح الكتاب وجد أن ابن القيم قد عرف بدقة وتفصيل تاريخ الديانة المسيحية وتاريخ

---

١ ـ أبو المظفر صدر الدين الدمشقى : تقويم النديم . مخطوط .
٢ ـ طبع الكتاب فى مصر .

المجامع الكنسية التى كانوا يعقدونها لفض الخلافات الدينية ، وأدرك أن ابن القيم قد أحاط بما فى التوراة والإنجيل ، وأنه واسع المعرفة قوى الحجة صاطع البرهان •

وصلب الكتاب يقوم على إبطال دعواهم أن المسيح هو الله ، فينفى عنه الألوهية ويثبت له العبودية •

وفى مقدمة الكتاب يقارن ابن القيم بين دين التوحيد ودين الإسلام وأديان الشرك ، فيقول : « ... وكيف لا يميز من له أدنى عقل يرجع إليه بين دين قام أساسه وارتفع بناؤه على عبادة الرحمن والعمل بما يحبه ويرضاه من الإخلاص فى السر والإعلان ، ومعاملة خلقه بما أمر به من العدل والإحسان مع إيثار طاعته على طاعة الشيطان • وبين دين أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار بصاحبه فى النار ، أسس على عبادة النيران ، وعقد الشركة بين الرحمن والشيطان ، أو دين أسس بنيانه على عبادة الصلبان ، والصور المدهونة والسقوف والحيطان ، وأن رب العالمين نزل عن كرسى عظمته فالتحم ببطن أنثى وأقام هناك مدة من الزمان ... »[١] •

ثم يناقش دعواهم ألوهية المسيح ويبطلها بقوله : « يا معاشر المثلثة عباد الصليب ما الذى دلكم على ألوهية المسيح ؟

فإن كنت استدللتم عليها بالقبض من أعدائه عليه وسوقه إلى خشبة الصليب وعلى رأسه تاج من الشوك ، وهم يبصقون فى وجهه ويصفعونه ثم أركبوه ذلك المركب الشنيع وشدوا يديه ورجليه بالحبال ، وضربوا فيها المسامير وهو يستغيث ويقلق ثم فاضت نفسه وأودع ضريحه ، فما أقبحه من استدلال عند أمثالكم ممن هم أضل من الأنعام وهم عار على جميع الأنام •

وإن قلتم إنما استدللنا على كونه إلهاً بأنه لم يولد من البشر ، ولو كان مخلوقا لكان مولودا من البشر • فإن كان الاستدلال صحيحا فآدم إله المسيح وهو أحق أن يكون إلهاً

١ ـ مقدمة الكتاب ص ٢ •

له ، لأنه لا أم له ولا أب ، والمسيح له أم • وحواء أيضا ، اجعلوها إلهاً خامسا لأنها لا أم لها ، وهى أعجب من خلق المسيح •

والله سبحانه قد نوّع خلق آدم وبنيه إظهارا لقدرته وأنه يفعل ما يشاء ، فخلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر لا من أنثى ، وخلق عبدهُ المسيح من أنثى لا من ذكر ، وخلق سائر الأنواع من ذكر وأنثى •

وإن قلتم : استدللنا على كونه إلها بأنه أحيا الموتى ولا يحييهم إلا الله ، فاجعلوا موسى إلها آخر فإنه أتى من ذلك بشىء لم يأت المسيح بنظيره ولا ما يقاربه ، وهو جعل الخشبة حيوانا عظيما ثعبانا ، فهذا أبلغ وأعجب من إعادة الحياة الى جسم كانت فيه أولا •

فإن قلتم : هذا غير إحياء الموتى .. فهذا اليسع النبى أتى بإحياء الموتى ، وكذلك هم يقرون بذلك ، وإيليا النبى أيضا أحيا صبيا بإذن الله • وهذا موسى قد أحيا بإذن الله السبعين الذين ماتوا من قومه ، وفى كتبكم من ذلك كثير عن الأنبياء والحواريين ؛ فهل صار أحد منهم إلها بذلك ؟ »[1] •

وهذا شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم ـ ابن تيمية ـ يؤلف كتابا ضخما يزيد فى عدد صفحاته على ألف صفحة يسميه : « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » يرد به على كتاب جاء من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتج به علماء دينهم ، فيقول فى مقدمة الكتاب : « فاقتضى أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب وبيان الخطأ من الصواب ، لينتفع بذلك أولو الألباب .... وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلا فصلا وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعا وأصلا وعقدا وحلا ... »[2] •

وقد أوضح ابن تيمية ما فى التوراة والإنجيل من اضطراب فقال : « ... والتوراة هى

---

١ ـ السابق : ص ١٤٠ •

٢ ـ مقدمة كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » ط النيل • القاهرة •

أصح الكتب وأشهرها عند اليهود والنصارى ، ومع هذا فنسخة السامرة مخالفة لنسخة اليهود والنصارى حتى فى نفس الكلمات العشر »[1] ٠

ذكر فى نسخة السامرة منها من أمر استقبال الطور ما ليس فى نسخة اليهود والنصارى ، وهذا مما يبين أن التبديل وقع فى كثير من نسخ هذه الكتب ، فإن عند السامرة نسخا متعددة ، وكذلك رأينا فى الزبور نسخا متعددة يخالف بعضها بعضا مخالفة كثيرة فى كثير من الألفاظ والمعانى ، يقطع من رآها أن كثيرا منها كذب على زبور داود وليست من زبور داود عليه السلام ٠

وأما الأناجيل فالاضطراب فيها أعظم منه فى التوراة ٠

فإن قيل : فإذا كانت الكتب المقدسة منسوخة ، فلماذا ذُم أهل الكتاب على ترك الحكم بما أنزل الله منها ؟ قيل : النسخ لم يقع إلا فى القليل من الشرائع ، وإلا فالإخبار عن الله وعن اليوم الآخر وغير ذلك لا نسخ فيه »[2] ٠

ومن أبرز القضايا التى ناقشها المؤلفون المسلمون قضية صلب المسيح ، فقد ردّ عليها شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه : الجواب الصحيح ، ورد عليها الإمام ابن القيم فى كتابه : هداية الحيارى ، ورد عليها البوصيرى صاحب البردة فى ديوانه ٠

وفى رد البوصيرى على ادعائهم صلب المسيح يقول : « ... ليس عند النصارى ولا اليهود خبر يأتون به ولا رواية صحيحة أن المسيح صلب ، فإن أحدا ما حضره من أصحابه عندما أخذ شبيهه ، ولا كانت اليهود يعرفونه ، وإنما دلهم عليه رجل يقال له يهوذا الإسخريوطى ، وكان فيمن آمن بالمسيح وارتد عنه ، وأعطوه على تعريفهم به ثلاثين درهما ، ثم بدا له ، ورد الدراهم وندم ، وأن اليهود جاءوا إلى المكان الذي فيه المسيح فخرج إليهم رجل فقالوا له أنت يسوع ؟ فقال : نعم ، فأخذوه ومضوا ، وكانوا يستخبرونه ويقولون : أنت هو المسيح ؟ فيقول : أنتم تقولون ، ومضوا به يوم الجمعة ٠

١ ـ يقصد ٠ الوصايا العشر ٠

وقالت النصارى : إنه صلب فى يوم الجمعة فى الساعة التاسعة ، وقالت اليهود إنه أقام عندهم محبوسا أربعين يوما ، وهم يستخبرونه ويسألونه إن كان هو، وأن يظهر لهم آية ، فلم يجبهم إلى ما سألوه لا فى حال أخذه ولا فى حال صلبه »[1] .

وبعد :

فلم تكن العاطفة الدينية التى أذكتها الحروب الصليبية داعية إلى كراهية الصليبيين أو ذكر مثالبهم أو الرد عليهم فى باطلهم فقط ، وإنما دفعت هذه العاطفة بعض العلماء والكتاب إلى أن يشيدوا بالحكام المسلمين الذين حققوا انتصارات على الصليبيين كنور الدين وصلاح الدين والمظفر قطز والسلطان قلاوون وغيرهم ، حتى أولئك العلماء الذين كان لهم من الحروب الصليبية مواقف شجاعة ألّف عنهم المؤلفون وصنف فى شجاعتهم المصنفون .

وبحسبى هنا أن أشير إلى بعض تلك الكتب التى كان تأليفها استجابة للعاطفة الدينية التى أيقظتها الحروب الصليبية .

من ذلك : ما ذكره أبو شامة صاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، عن الذين سبقوه فى التأليف عن نور الدين وصلاح الدين ، حيث أحصى منهم :

١ ـ أبا القاسم على بن الحسن الدمشقى وتاريخه .

٢ ـ أبا يعلى حمزة بن أسد التميمى ـ ابن القلانسى ـ وذيل تاريخ دمشق .

٣ ـ عز الدين ابن الأثير ومجلدته فى الأيام الأتابكية .

٤ ـ بها الدين بن شداد والنوادر السلطانية .

٥ ـ عماد الدين الأصفهانى والفتح القُسِّى فى الفتح القدسى .

٦ ـ عماد الدين الأصفهانى والبرق الشامى .

٧ ـ عماد الدين الأصفهانى وخطفة البارق وعصُفة الشارق .

---

١ ـ البوصيرى : ديوانه .

٨ ـ عماد الدين الأصفهانى ورسالته العتبى والعقبى ٠

٩ ـ عماد الدين الأصفهانى ونصرة الفطرة وعصرة القطرة ٠

ومن هذا القبيل كتاب : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب « لابن واصل الحموى » ٠ وكتاب : الدر الثمين فى سيرة نور الدين « لابن قاضى شهبة الاسدى الدمشقى » ٠

هذا فضلا عن الكتب الأدبية التى عنيت بعقد الفصول والأبواب عن الجهاد والحرب وقتال أعداء الدين ، ومن أهمها كتاب : « لباب الآداب » لأسامة بن منقذ حيث عقد فيه فصلا رائعا مستوعبا سماه : باب الشجاعة أورد فيه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تدعو الى الجهاد ٠

وأما كتب التاريخ التى ألفت فى هذه الفترة وكان تأليف كثير منها من وحى الحروب الصليبية فهى كثيرة منها من أمهات الكتب ٠

١ ـ الكامل لابن الأثير عز الدين ٠

٢ ـ تاريخ دول الإسلام للحافظ الذهبى ٠

٣ ـ تاريخ دمشق لابن عساكر ٠

٤ ـ البداية والنهاية لابن كثير المفسر ٠

٥ ـ المختصر فى تاريخ البشر لابن الوردى ٠

٦ ـ عيون التواريخ لابن شاكر الحلبى ٠

٧ ـ التبر المسبوك فى تواريخ الملوك لعماد الدين الأيوبى صاحب حماة وملكها ٠

وهذه الكتب تعد من عيون كتب التاريخ ، بل من أنضج المؤلفات التاريخية التى لا تزال تمدنا بمعين لا ينضب عن تلك الفترة من تاريخ الإمة الاسلامية ٠

وإلى حديثنا عن تأثر المسلمين ببعض العادات التى عرفوها عن الصليبيين ٠

جـ ـ فى التأثير ببعض العادات :

لا أدَّعى أن المسلمين تأثروا بالصليبيين فى عاداتهم وتقاليدهم ، بقدر ما أثرت فيهم الحروب الصليبية فى الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ذلك أن المسلمين لم يكونوا راضين عن الصليبيين ولا عن وجودهم فى العالم الإسلامى ، ولم تكن العلاقة بين الجانبين بالتى تسمح للمسلمين بأن يأثروا بعادات قوم يختلفون عنهم فى الدين ، قوم يغتصبون أرضهم ويعيثون فيما يستولون عليه من بلادهم فسادا .

فإذا وضعنا فى الاعتبار أن الاسلام حدد للمسلمين عاداتهم وتقاليدهم وميَّز بين المجتمع المسلم وأى مجتمع آخر فى آداب الحياة كلها ، وفى أنماط السلوك البشرى فى مختلف ظروفها ، أدركنا أن تأثر المسلمين بالصليبيين لن يجد مجالا إلا فى قلة قليلة من الناس ـ هم بالضرورة لا يتمسكون بآداب دينهم ـ يهون عليهم أن يقلدوا سواهم فى العادات والتقاليد .

وسواء أكانت هذه القلة القليلة من عامة الناس ، أم من بعض الحكام أم من بعض الكبراء ، فإن صفة واحدة تجمع هؤلاء جميعا ، هى أنهم لا يعتزون بأدب دينهم فى الحياة ؛ وبغض النظر عن السبب فى أنهم لم يعتزوا بأدب دينهم فى الحياة ، سواء أكان فسقا أو عصيانا ، أم كان سوء فهم وفقه لهذا الدين أخلاقه وآدابه ، أم كان ممالأة لعدو غاصب محتل للأرض مستبيح للعرض ، فإن هذا السبب قد أدى ـ مهما تنوع ـ إلى نتيجة واحدة هى أن بعض المسلمين قد تأثروا إلى حد مّا ببعض العادات التى كانت سائدة فى الصليبيين .

ومن نافلة القول أن أنبه هنا إلى أن الأصل كان هو أن يتأثر الصليبيون ببعض العادات الشائعة عند المسلمين ، ذلك أن المجتمع الإسلامى هو المجتمع المتحضر الراقى آنذاك ـ إذا قورن بمجتمعات الصليبيين المتبربرة الهابطة ، والشأن أن يتأثر الأقل بالأكثر

والأدنى بالأعلى ، ويكفينا أن أوربا كلها آنذاك كانت تعيش سلبيات العصور الوسطى عصور الظلام والتأخر ، ما ينكر ذلك عارف بتاريخ تلك الحقبة من الزمان ·

ولقد تأثرت أوربا بالحضارة الإسلامية تأثرا عميقا بسبب هذه الحروب وغيرها من وسائل اتصال أوربا بالمسلمين ـ مما سوف نتحدث عنه ونحن نذكر الكلام فى تأثر أوربا بهذه الحروب الصليبية فى هذا الباب من البحث بإذن الله تعالى ·

وليس بدعا أن تتأثر الحضارات بعضها ببعض ، ولكن العجب أن يتأثر الأحسن بالأسوأ ، والمتقدم بالمتأخر ! كما كان الشأن فى تأثر بعض المسلمين بالصليبيين تأثراً لمسناه فى بعض الانحرافات الخلقية وفى عادات جديدة على المجتمع المسلم فى الملبس والتحية لا يقرها الإسلام ولا يرضاها ·

كما نلمس هذا التأثر فى تطبيق بعض المسلمين لمبدأ توريث الإقطاع ، وهو نظام أوربى بغيض ظالم ، ونحس به فى رباطات الصوفيين وتكاياهم التى أشبهت إلى حد كبير نظام الأديرة عن الصليبيين ، وكما نحس به فى انتشار الرقيق واتساع أبوابه وتعدد روافده ، وبخاصة فى الجوارى اللاتى أكثر بعض المسلمين من التسرى بهن بشكل لم يكن شائعا على هذا النحو من قبل ·

وسنحاول فى هذا الجزء من البحث أن نوضح هذا التأثر وأن نرصد أبعاده وأن نرده إلى أسبابه ، مؤكدين أن هذا التأثر محدود الكم ، لم يشمل سوى أعداد قليلة من المسلمين علت مكانتهم أو سفلت ، ومحدود العمق كذلك لم يستطع أن يمتد إلى الجذور العريقة فى أخلاق المسلمين فيعيش معها على نفس المستوى ، فضلا عن أن يحل محلها بعد أن يقتلعها ·

ومن تمام الصورة ودقة دلالتها فى هذا المجال ، أن أشير إلى أن المجتمع المسلم آنذاك متمثلا فى مفكريه وكتابه وأدبائه ، كان ساخطا على تأثر هذه القلة بعادات وافدة على المجتمع الإسلامى ، بدا ذلك فى كتابات عدد من الكتاب على النحو الذى سنوضح فى الصفحات التالية من الكتاب ·

مبدأ توريث الإقطاع

كان نظام الإقطاع معروفا بصورة مَّا فى الشرق الإسلامى ، ولكن يغلب على الظن أن نظام الإقطاع بصورته التى عرفها العالم الإسلامى ، أيام السلاجقة وبالتحديد زمن السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك ـ كان متسربا إلى المسلمين من أوربا ، ذلك أن القرنين السادس والسابع الهجريين كانت تسودها نظم دخيلة على العالم الإسلامى ، يقوم معظمها على النظام الإقطاعى •

ولكى نوضح صورة الإقطاع فى ذلك الوقت نقول : إن السلطان كان يقطع كل أمير وقائد جند فى جيشه إقطاعا ـ قطعة كبيرة من الأرض ـ بحيث يتكفل الأمير بإدارة هذا الإقطاع والإشراف عليه ماليا وإداريا بل وعسكريا ، ويؤدى من دخل هذا الإقطاع ماعليه من مال للسلطان •

على أن يكون الإقطاع وما عليه من مال ورجال تحت أمر السلطان حين تدعو إلى ذلك ضرورة ، أو حين تتطلب إرادة السلطان ذلك •

وعلى كل أمير وقائد جند أن يختار من الأعوان والأجناد من يحمون هذا الإقطاع من جانب ، ويؤدون واجب الحرب ضد أعداء الدولة من جانب آخر ، وقد أدى ذلك إلى أن تتكون فى الإقطاعات تنظيمات عسكرية يتربى فيها الأفراد على أعلى مستويات فنون القتال ويتدربون فيها كل التدريبات اللازمة للأبطال المغاوير ، وربما كانت هذه حسنة النظم الإقطاعية الوحيدة ، إذ خرجت للأمة الإسلامية جيوشا منظمة وقادة محنكين استطاعوا أن يثبتوا أمام هجمات الصليبيين على العالم الإسلامى حينا من الزمان ، ثم استطاعوا أن يقتلعوا الصليبيين اقتلاعا من العالم الإسلامى بعد ذلك •

وإن الناظر إلى أولئك القواد المسلمين الكبار الذين استطاعوا أن يحققوا انتصارات على الصليبيين كعماد الدين زنكى ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والسلطان الأشرف خليل بن قلاوون ليجد أن أولئك القادة الكبار كانوا يعتمدون فى حروبهم ضد الصليبيين على جنود شجعان ممن تربوا فى هذه الإقطاعات ونُشّئوا فيها تنشئة عسكرية ذات مستوى رفيع ٠

أما سيئات الإقطاع وسلبياته فكثيرة نعد منها ولا نعددها :

فمن أبرز مساوئ الإقطاع أنه أدى إلى تقسيم الناس فى المجتمع المسلم إلى طبقتين : طبقة الأمراء وأصحاب الإقطاع ، وربما التحق بها كبار التجار وكبار الأثرياء من المقربين إلى الأمراء ، وطبقة عامة الناس طبقة الشعب وهم فى الغالب فقراء أجراء كادحون يعيشون فى خدمة الطبقة الأولى وهم عالة عليهم وخدم لهم ٠

وكما كان الشأن فى نظام الإقطاع فى أوربا وهو امتلاك صاحب الإقطاع للأرض ومن عليها وما عليها ، كان الأمر فى نظام الإقطاع فى الشرق الإسلامى ، كل ما هنالك من فرق أن صاحب الإقطاع فى أوربا كثيرا ما كان يملك الناس ملك رقٍّ ، أو على أنهم أقنان أرض ، بينما كان صاحب الإقطاع فى العالم الإسلامى لا يسترق العاملين على أرضه ، وإنما يسترق جهودهم وأعمالهم ، وفى هذا مافيه من المساوئ والعيوب ٠

وكان صاحب الإقطاع فى العالم الإسلامى يتصرف فى إقطاعه وما عليه من نبات وحيوان وآلات تصرف الملاك لا يراجعه فيما يفعل أحد ، إلا السلطان وطبقة العلماء والقضاة ، وكثيرا ما كان العلماء والقضاة يخضعون للسلطان عادلا كان أو جائرا ، وربما حوّر بعضهم أحكام الشريعة الإسلامية وأولها بحيث تتفق مع رغبات السلطان ٠

نعم كان من العلماء أفذاذ متمسكون بالحق وبه يعدلون لا يهابون سلطانا غاشما ولا حاكما جائرا ، كالإمام أحمد بن تيمية والعِزّ بن عبد السلام وغيرهما ، ولكن أمثال هؤلاء العلماء كانوا مضطهدين لا يغادرون السجون إلا ليعودوا إليها ٠

ومن مساوئ نظام الإقطاع أنه نقل إلى المسلمين مشاعر سيئة من طبقة الفقراء إلى طبقة الأغنياء ، أدى فى النهاية إلى اضطراب فى المجتمع واضطراب فى الأخلاق وبحث عن وسيلة مشروعة أو غير مشروعة للكسب ولمواجهة أعباء الحياة ·

وأدى كذلك إلى أن تحترف طائفة من الفقراء نفاق السلطان والأمراء والأغنياء ليعيشوا من أموالهم ، ولو كانت هذه الأموال مريقة لماء الوجه مذلة لكرامة الإنسان ·

كما أدى ذلك إلى أن يحاول بعض الكبراء والأغنياء اصطناع الناس بما يعطونهم من مال وما يبذلون لهم من طعام وكساء تكرما وتفضلا عليهم ، لا اعترافا بحقوقهم بحكم الأخوة الإسلامية التى تربط بينهم ؛ وإذن فقد كان من مساوئ وعيوب الإقطاع أنه أفسد الناس فقراءهم وأغنياءهم ، وباعد بينهم وبين نظم الإسلام فى تعامل الأغنياء والفقراء من المسلمين ·

رباطات الصوفيين وتكاياهم

ربما كان الإغراق فى التصوف فى هذه الفترة من الزمن نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية السيئة التى خلفتها الحروب الصليبية ، فقد عرفنا فى هذه الفترة جماعة من الناس احترفوا الانقطاع للعبادة وسيلة من وسائل الرزق ، وقد بالغ هؤلاء فى العبادة حتى خرجوا عن الجادة ، لكنهم كانوا ـ على الرغم من ذلك ـ موضع تقدير العامة وإعجابهم ·

ونتيجة لإعجاب العامة بهؤلاء المتصوفة ، لجأ بعض السلاطين الراغبين فى تملق العامة ، وحشدهم ناعقين لهم بما يريدون ، بدءوا يهتمون بهؤلاء المتصوفة الذين أسروا قلوب العامة بصلاحهم وتقواهم ، فأخذوا يجرون على المتصوفة الأرزاق ويبنون لهم التكايا ويقيمون الرباطات ·

وقد زاد عدد المتصوفة المنقطعين عن حياة الجهاد وحرب الأعداء وآثروا أن يعيشوا فى الدعة والخفض بعيدا عن الحرب والجهاد ، ذاهلين عن جوهر الإسلام فى موضوع الانقطاع للعبادة وترك طلب الرزق ·

وأصبحت التكايا فى العصر الأيوبى وما بعده بدعة جديدة باعدت بين الناس وبين واجبهم نحو دينهم ونحو أوطانهم بل نحو أنفسهم ، وشيئا وراء شيء أخذ هؤلاء المنقطعون للعبادة يدعون ما ليس لهم ويزيدون فى الدين ما ليس منه ، ومن هذه التكايا انطلقت أصواتهم بقراءة القرآن طلبا لهزيمة الأعداء ، وقراءة البخارى رغبة فى الانتصار على الصليبيين ، كأن النصر يأتى مع القعود ! وكأن الأعداء ينهزمون بمجرد الدعاء عليهم ! وما كان ذلك هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حرب أعدائه ، وإنما كان يجاهد فى سبيل الله معدا لعدو الله ما استطاع من قوة ، مواجها لعدوه بعدة وعديد ، وبرجال مؤمنين مجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ·

ولقد اجتمع فى أربطة المتصوفة وتكاياهم عدد عديد من مختلف أقطار العالم الإسلامى وما جمعهم إلا سوء فهم الدين وإيثار العافية والدعة على حرب الصليبيين ، وانتشرت هذه الأربطة وتلك التكايا فى مختلف بقاع العالم الإسلامى آنذاك ، وأصبح مألوفا أن ترى بجوار المسجد الجامع رباطا للصوفيين فى كل مدينة ·

ولقد أشاع الصوفيون فى الناس روح التواكل وملئوا عقولهم بالترهات والأباطيل ، وأصبح لدينا طائفة متبطلة قاعدة عن جهاد العدو الذى أصبح فرض عين ، فأشبهوا بذلك الديريين فى أوربا ، أولئك المنقطعون عن الحياة فى الأديرة لايمارسون الحياة إلا من أخس أبوابها وأبعدها عن فطرة الإنسان التى فطره الله عليها ·

ولم يجد بعض الحكام بدا من اجتلاب المقاتلين من بلدان إسلامية مختلفة ، نتيجة لهروب هذه الأعداد الكبيرة من المتصوفة من الجهاد بالتعبد والانقطاع ، ومجاورة المساجد الكبرى فى العالم الإسلامى ، فلقد امتلأ الحرمان فى تلك الفترة بمئات المنقطعين للعبادة القاعدين عن الجهاد ·

وإذا كانت ظاهرة التكايا والأربطة الصوفية كانت من أبرز السلبيات التى جلبتها الحروب الصليبية للعالم الإسلامى ، فإن ظاهرة أخرى عايشت تلك الظاهرة إن لم أقل لازمتها ، وتلك هى ظاهرة الزهد فى الحياة ، وفقد الرغبة فى الكريم النابه من العيش .

وعاش جماعة ـ ممن أخطئوا فى فهم الزهد فى الإسلام ـ على هامش الحياة يلبسون المرقعات ولا يخلع أحدهم عمامته حتى تبلى ، ويهملون نظافة أجسامهم ، ويحاولون أن يظهروا هذا الشذوذ بمظهر الصلاح والتقوى ، وأن يعطوا لهذا القذر صبغة من أخلاق الإسلام وعاداته وزهده فى الحياة ، ولقد كذبوا وغرتهم هممهم الضعيفة وعزائمهم الخائرة .

ولقد ترتب على ذلك أن أصبح عدد الزاهدين فى ازدياد ، لأن مع الزهد أمنا ودعة وبالتالى زاد عدد العاجزين السلبيين الذين يهربون من واجب الجهاد فى سبيل الله ، ومن يدرى لعل هؤلاء المنحرفين بالزهد قد جرهم إلى ذلك ما كانوا يسمعونه عن بعض متزهدة النصارى ممن شاعت عنهم الأخبار فى أثناء الحروب الصليبية .

ولقد كانت هذه الربط الصوفية وهذه الأعداد الغفيرة من المتصوفين والزهاد موضع اهتمام كثير من المفكرين والمصلحين فى هذا العصر ، وموضع انتقادهم وتعجبهم ، تحدث عنهم الرحالة ابن جبير فى رحلته فقال : « وأما الرباطات التى يسمونها الخوانق ، فكثيرة ، وهى برسم الصوفية ، وهى قصور مزخرفة يطرد فيها الماء على أحسن منظر يبصر .

وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الحياة الدنيا وفضولها ، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة فى أسباب المعايش ، وأسكنهم فى قصور تذكرهم بقصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة .

وهم على طريقة شريفة وسنة فى المعاشرة عجيبة ، وصلاتهم فى التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم فى الاجتماع للسماع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا فى تلك

الحالات المتبتل المثابر رقة وتشوقا . وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشا طيبا هينا [١] .

ولسنا مع ابن جبير فى ثنائه عليهم وهم قعود عن فريضة فرضها الله عليهم وهى الجهاد فى سبيله وقتال أعدائه . وربما كان ابن جبير يصف طائفة صالحة من المتصوفة دون أن يقصد الحديث عنهم جميعا . لأن كثيرين منهم كانت تنتشر بينهم المفاسد .

ويعود ابن جبير ليذكر لنا طرفا من سيرة إمام من أئمتهم وهو عبد القادر الجيلانى الذى لازم الخلوة وسكن الصحراء وعاش فى الخربات . ينقل عنه ابن جبير قوله عن نفسه : « طالبتنى نفسى بالشهوة فكنت أصابرها . وأدخل فى درب وأخرج إلى درب أطلب الصحراء . فبينما أنا أمشى إذ رأيت ورقة ملقاة فإذا فيها : ماللأقوياء والشهوات ؟ إنما خلقت الشهوات للضعفاء يتقوون بها على طاعتى . فلما قرأتها خرجت تلك الشهوة من قلبى » [٢] .

ولقد كانت مجالس الصوفيين حافلة بالغناء والرقص والذكر . وكانت لهم طقوس مايعرفها المسلمون من قبل يمارسون عندما يدعون إلى حفلات الموالد والحفلات ذات المناسبات الخاصة . وما فعلوا فى حفلات مولد النبى سوى شئ مما كان يفعل الصليبيون فى عيد ميلاد المسيح .

يروى ابن كثير فيقول : كان صاحب « إربل » يحضر عددا منهم ليلة المولد النبوى . ويدعو أعيان العلماء وسادة القوم ويعمل للصوفية سماعا من الظهر إلى الفجر ويرقص بنفسه معهم » [٣] .

---

١ ـ محمد بن أحمد بن جبير : ارحلته ط ليدن ١٩٠٧ م ص : ١٣٨

٢ ـ السابق : ٢٨٤ .

٣ ـ ابن كثير : البداية والنهاية : ١٣٧/١٣ ط السلفية . مصر .

ونستطيع أن نتعرف على قيم المتصوفة فى هذا العصر من خلال قول شاعرهم :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ويرزق فى غشاوته الجنين

ولنا فى سبيل الحكم على مفاهيمهم أن تذكر قول الله تعالى فى مجال طلب الرزق والسعى عليه : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » [1] وقوله سبحانه : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » [2] .

إنتشار الرقيق والاتجار فيه

لم يكن المسلمون قبل هذه الحروب الصليبية يعرفون مجالا للرقيق سوى المجال الطبيعى نتيجة للحروب ، وما تسرب إلى بعضهم من الاتجار فى الرقيق كان فى أضيق نطاق ، وسواء كان العبد المسترق نتيجة للحرب أو اشترى بالمال فإن الإسلام قد طالب المسلمين بإحسان معاملة الرقيق وحبب فى إعتاقهم ، ووعد من يعتقون عبيدهم بالجنة ، وجعل كثيرا من الكفارات عتق رقبة . ذلك أن الإسلام حرص على أن يستكمل هؤلاء العبيد إنسانيتهم بالحرية .

فلما كانت الحروب الصليبية ، وعرف المسلمون فى مجتمعاتهم تجارا كثيرين للرقيق من جنوة والبندقية وكثر عدد الرقيق ، توسع أثرياء المسلمين فى اقتناء العبيد والجوارى والغلمان ، وكان كثير منهم لا حاجة به إلى كل هؤلاء ، حاجة خدمة وعمل ، وإنما كان الغلمان والجوارى من تمام الزينة وكمال الرونق .

١ ـ سورة الملك : الآية : ١٥ .

٢ ـ سورة الحجر : الآية : ١٩ ـ ٢٠ .

ولقد ساعد على زيادة عدد الرقيق كثرة السبى من الحروب الصليبية فلقد كانت الأسرة الصليبية المكونة من رجل وزوجه وبنتيه وولديه تباع بثمانين دينارا ، وكانت الجارية أحيانا تباع بخمسة دنانير على حد رواية ابن الأثير •

ولقد فتن بعض المسلمين بنساء الصليبيين فاقتنوا منهن عددا كبيرا . ولقد حرص على ذلك كثير من المسلمين واتخذ عدد منهن من هؤلاء النساء سرارى لهم ، كما اقتنى بعضهم الغلمان البيض •

وليس بخاف على من يرصد الأحوال والأحاديث ما يجره هذا من فساد للأخلاق وانحراف فى السلوك ، تقليدا للأوربيين فى مباذلهم وانحلال أخلاقهم •

وقد تسربت بعض عادات الصليبيين إلى المسلمين ، وهى عادات لايقرها الإسلام ولا يرضاها لأحد من أفراده ، فقلدوا الأوربيين فى الملابس والتحية والسلام •

وقد وصف ابن جبير ذلك فى رحلته وهو يتحدث عن أهل بغداد ودمشق فقال : « ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير بجميع هذه الجهات كلها ، أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركنون للسلام على تلك الحال المشبهة بأحوال الفتاة ، مهانةً واستكانة ، كأنهم قد سيموا تعنيفا وأوثقوا تكتيفا ، وهم يعتقدون تلك الهيئة تمييزا لهم فى ذوى الخصوصية وتشريفا » (١)

وكل تلك عادات صليبية لا تمت إلى الإسلام بصلة ، ولقد سخر منها ابن جبير فقال : « فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحال فى ذلك ، فواحد ينحط وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوى بينهم هُويًا ، وهذه الحال من الانعطاف الركوعى فى السلام كنا عهدناها فى قينات النساء ، وعند استعراض رقيق الإماء ••• فيا عجبا لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال » (٢) •

١ ـ ابن جبير : رحلته : ص ٢٩٦ •

٢ ـ السابق : ص ٢٩٧ •

وقد ترتب على هذا شيوع الفساد وفشو الانحراف ، فنحن نقرأ فى تاريخ تلك الحقبة عن أماكن أعدت خصيصا للهو والغناء وشرب الخمر ، مثل ما عرفت بالقاهرة بركة الفيل وبدمشق خان العقيقة ، وفى خان العقيقة بظاهر دمشق يقول ابن خلكان : « قد جمع أسباب الملاذ ، ويجرى فيه الفسق والفجور بما لا يحُد ولا يوصف » (١) .

وأسهمت الأديرة التى كانت للنصارى فى بعض بلاد المسلمين فى إشاعة الفساد وإذاعة الخنا ، فقد كانت هذه الأديرة من الأماكن التى يقصدها طلاب المتع والباحثون على أسباب الفسق من خمر ونساء وجوارى وغلمان .

وكل ذلك كان تأثرا من المسلمين بالصليبيين ، أو تأثرا من ضعاف المسلمين ونسائهم بالصليبيين .

ولا ندعى أن مجتمعات المسلمين قبل هذه الفترة التى نتحدث عنها لم تكن تعرف أسباب اللهو ولا أماكن المتع والملاذ ، فقد كان ذلك موجودا ولكن فى ندرة ومعروفا ولكن عند قلة قليلة من الناس .

أما فى زمن الحروب الصليبية فقد عم البلاء واشتد الفساد ، وشاعت أسباب الفسق والفجور بأكثر مما كانت عليه من قبل .

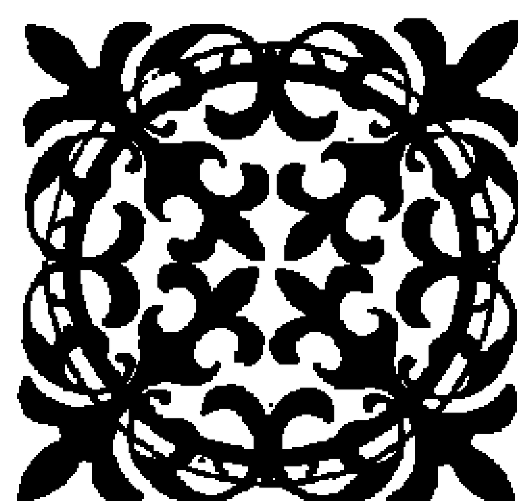
ولقد وقف بعض الحكام المسلمين من هذه الظواهر موقفا كله جدية وحزم ، فهذا صلاح الدين الأيوبى وجه جهوده إلى محاربة الفجور والفجار ، وحارب الإلحاد والملحدين ، وقرب العلماء والفقهاء والأتقياء ، ولكن لم يكن صلاح بقادر على أن يتتبع كل فاسق فيعاقبه ، ولا يستطيع أن يأخذ على يد كل عابث ، فكان فى المجتمع شذاذ ومقلدون للصليبيين فى عادات ليست من الإسلام ، على الرغم من محاولات بعض الصالحين من الحكام .

---

١ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٤/٤١٧ .

وبعد : فتلك صورة مجملة لنتائج الحروب الصليبية فى العالم الإسلامى فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، وفى إذكاء العواطف الدينية ، وفى التأثر ببعض عادات الصليبيين الوافدة على المجتمع الإسلامى .

وإلى الحديث عن نتائج هذه الحروب فى دول أوربا نفسها .



ثانيا : نتائج الحروب الصليبية فى دول أوربا

كما أوضحنا فى الصفحات السابقة أثر هذه الحروب فى العالم الإسلامى ، نوضح هنا أثرها فى أوربا ، منبهين مرة ثانية إلى أننا لانقصد أن هذه الحروب الصليبية كانت الطريق الوحيدة التى عبرت عليها الحضارة الإسلامية إلى أوربا ، وإلى أن هذا الأثر الذى تركته تلك الحروب فى أوربا لم يكن الأثر المباشر كما لم يكن الأثر الوحيد كذلك •

وللمرة الثانية كذلك ننبه إلى أن أوربا فى تلك العصور كانت تعيش حياة مضطربة قلقة ، بل كانت تعيش عصر ظلام وتأخر وقلق سياسى واجتماعى واقتصادى ، وضحالة ثقافية وحضارية •

كما نحب أن ننبه إلى أن الحضارات عموما تتبادل التأثير والتأثر ، ولا يمكن تصور حضارة بمعزل عن سائر الحضارات ، كان ذلك شأن الحضارة الإسلامية وهو شأن كل حضارة ماضية أو آتية •

ويكاد يكون من المسلّمات أن أوربا ظلت تعيش ظروف العصور الوسطى حتى القرن الحادى عشر الميلادى غارقة فى التأخر والتخلف ، فى حين كانت الحضارة الإسلامية فى الشرق أو فى الغرب قد بلغت حدا فائقا هيأ لها أن تكون أرقى الحضارات آنذاك •

وما من شك لدى الباحثين وجمهور المؤرخين فى أن فترة الحروب الصليبية قد عاصرت رغبة من أوربا فى الانتقال من هذا التأخر إلى التقدم ، كما لايشك باحث منصف فى أن أوربا وهى تنطلق إلى ما يسمى بعصر النهضة كانت تتخذ من الحضارة الإسلامية مرتكزا ومنطلقا •

كما لا يشك الباحثون عن أسباب النهضة الأوربية فى أن أهم أسبابها هى الاتصال

بالمسلمين زمن الحروب الصليبية ، وانتقال كثير من مظاهر الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوربى .

غير أننا لانحب أن نبالغ مع من بالغوا فنقول إن الحضارة الإسلامية هى الأساس الوحيد للنهضة الأوروبية ، وذلك لظروف عديدة ، من أهمها أن الصليبيين لم يكونوا يقصدون الشرق طلبا للمعرفة ولا رغبة فى التحضر ، وإنما كانوا غازين طامعين فى خيرات الشرق الإسلامى الذى يدر سمنا ولبنا كما تتحدث بذلك التوراة ، وكما أغراهم بذلك البابا إيربان الثانى ، ومن شأن الغازى الذى تحركه الأطماع أن يكون همه تلك المكاسب المادية .

ومنها أن الصليبيين - وإن بقيت بعض ممالكهم فى الشرق الإسلامى قرابة قرنين من الزمان - إلا أنهم لم يستقروا ولم يشعروا بالأمان والاطمئنان لأنهم غزاة غاصبون ، فقد كانت موجات المد الإسلامى تغرق منهم فى كل حين طائفة وتلتهم مملكة وتستعيد حصنا ، وتقلقل وجودهم إلى أكبر حد مستطاع ، فصرفهم ذلك القلق عن التملى والتأمل فى الحضارة الإسلامية فلم يتشربوها ولم تتغلغل فى حياتهم بالقدر الذى يدعيه بعض الباحثين .

ومنها أن الصليبيين لم يكونوا قد تعرفوا على الحضارة الإسلامية لأول مرة فى تلك الحروب ، وإنما كانت لهم معرفة بها من ذى قبل عن طريق المسلمين فى إسبانيا من جانب وعن طريق صقلية من جانب آخر ، فلقد كان كثير من معطيات الحضارة الإسلامية قد ترجم إلى اللغة اللاتينية فانتقلت إلى الغرب الأوروبى بعض علوم الإسلام ومعارفه قبل الحروب الصليبية .

وعلى وجه الإجمال فإن الحضارة الإسلامية أثرت فى دول أوربا الصليبية فى هذه الفترة التى نتحدث عنها تأثيراً يمكن التماسه فى كثير من الكلمات العربية والمصطلحات الفنية والعلمية التى دخلت عددا من اللغات الأوربية ، ويمكن التعرف عليه فى فن الحرب وبناء

الحصون القلاع التى قلد فيها الأوربيون المسلمين بعدما شاهدوا قلاعهم وحصونهم ، كما نقلوا عنهم نظام المشربيات الذى عرفته العمارة الحربية ـ وهذه المشربيات دعائم يتقارب بعضها من بعض وتحمل فوقها حواجز بارزة ، وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن أن تصوب منه السهام إلى رءوس المحاصرين الذين يحاولون أن يحفروا تحت جدران الحصن أو يشعلوا النيران فيه ، كما يمكن من هذه المشربيات أن يصب الزيت والماء المغليان على رءوس المحاصرين [1] .

كما عرف الأوربيون من المسلمين المداخل المتعرجة للحصون ، فلم يعرف الأوربيون هذا النوع من المداخل الملتوية إلا عن طريق العرب فى عصر الحروب الصليبية ، فطبقوه بعد ذلك فى قلاعهم بأوربا ، وظهرت هذه الظاهرة بوضوح فى قلعة بوماريس Beaumais فى انجلترا وفى قلعة كاركاسون فى فرنسا » [2]

كما نستطيع أن نلمس هذا التأثير الأوربى بالحضارة الإسلامية فيما نقلوه عن المسلمين من الحمامات واستعمالها ، وفيما شاع فى أوربا من العقاقير والأصباغ والتوابل الشرقية وغيرها .

وبعد : فربما كان الأنسب للحديث عن تأثير الحضارة الإسلامية فى أوربا الغربية هو عندما نتكلم عن أثرها فى النهضة العلمية والأدبية والحضارية بعامة ، بعد أن نتحدث عن أثر الحروب الصليبية فى أوربا فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

وسوف نهتم ونحن نتحدث عن نتائج الحروب الصليبية فى دول أوربا بنقاط ثلاث :

أولها : نتائجها فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

وثانيها : نتائجها فى النهضة العلمية والأدبية والحضارية .

وثالثها : نتائجها فى إثارة مطامع الصليبيين فى العالم الإسلامى .

وبهذا ننهى الحديث فى الباب الثالث من أبواب الكتاب بعون الله وتوفيقه .

---

١ ـ زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٨٦١ .

٢ ـ مارتن برجر : تراث الإسلام : ص ١٣٧ .

أ ـ فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة

تركت الحروب الصليبية آثارا فى المجتمع الأوربى بعامة ، بحيث حدث فى بناء المجتمع الأوربى تغير ملموس ندركه فى أمور عديدة ، كان من أبرزها :

١ ـ إضعاف نظام الإقطاع :

فقد كانت أوربا تعيش على نظام الإقطاع فى العصور الوسطى حيث سمى بعض الباحثين هذه العصور بعصور الإقطاع ، وهو نظام سبق أن أشرنا إليه فقلنا إنه نظام اجتماعى يعتمد على قاعدة عريضة من أقنان الأرض ومن العبيد ، الذين كانوا يقومون بفلاحة الأرض وخدمتها لصالح سادتهم من الأمراء والفرسان والنبلاء •

وكان هؤلاء العبيد أو الأقنان يعاملون معاملة آلات الحرث والسقى التى تلزم الأرض ولا تقوم حياتها إلا بها ، ولا تسأل عن حقوق هؤلاء العبيد أو أقنان الأرض ، فإنك لست بواجد لهم من هذه الحقوق شيئا يمكن أن يسمى حقا ، اللهم إلا الطعام الضرورى واللباس والمأوى على أحط المستويات وأدناها ، ولم يكن أبناء هؤلاء العبيد والأقنان إلا عبيدا أو أقنانا ولم يكن لأحد من كل هؤلاء الحق فى الخروج عن إرادة سيده ولو بأدنى درجات الخروج ، ولقد كان لهذا النظام من المساوئ والمفاسد مالا يتسع كتابنا هذا للحديث عنه ، وبحسبنا هنا أن نقول : إنه نظام غير إنسانى وكفى •

وقد كان النظام الإقطاعى ـ هذا يفتت المجتمع الأوربى من داخله ويولد من البغضاء والشحناء ما لا مزيد عليه بين العبيد والأقنان نحو السادة والنبلاء ثم كان يولد تنافسا بغيضا بين أصحاب الإقطاع كثيرا ما أدى إلى التنازع والتعادى •

وما إن قامت الحروب الصليبية حتى وجد فيها الأقنان فرصتهم للهروب من عناء الإقطاع وسخرة السادة ، متعللين بأنهم يحاربون من أجل الصليب والكنيسة ، ولم يكن السادة وأصحاب الإقطاع بقادرين على منع الأقنان من المشاركة فى تلك الحروب ، لأن الكنيسة باركتها وباركت من يشارك فيها ، فخرج عن طوع الملاك ألوف الأقنان فارين من العبودية المقنعة ـ عبودية الأرض ـ إلى حيث المال والثروة فى البلاد التى تفيض لبنا وعسلا ، فلقد شارك فى الحملة الصليبية الأولى وحدها أكثر من عشرة آلاف من أقنان الأرض على حد قول بعض المؤرخين ، ولقد أدى ذلك إلى أن يبحث أصحاب الإقطاع لإقطاعاتهم عن عمال من الأحرار الذين يأخذون على عملهم أجرا ، وممن يشترطون حقوقا ، ولا يعملون مسخرين مقهورين ، وأدى ذلك إلى تقلص نفوذ السيد صاحب الإقطاع إلى حد ما ، ثم أدى فى النهاية إلى تصدع نظام الإقطاع ، وإلى انقراض طبقة الأقنان وإلى تقلص عدد طبقة العبيد على مدى غير كبير من الزمان .

وإذن فقد ضعف نظام الإقطاع وقارب الانهيار ، وكان سبب ذلك اشتراك الأقنان فى الحروب الصليبية .

ولا يفوتنى هنا أن أنبه إلى أن بعض القواد والفرسان الأوربيين الذين وفدوا على الشرق الإسلامى غازين معتدين ، قد استطاع بعضهم أن يكون لنفسه إقطاعا فى بلاد المسلمين ـ كما كان الشأن فى عدد من ملوك الممالك الصليبية فى الشرق الإسلامى ـ وإن كانوا لم يجدوا من العبيد والأقنان من يقومون لهم بالعمل فى إقطاعهم .

٢ ـ تقوية السلطة المركزية لملوك أوربا :

ولقد كان نظام الإقطاع فى أوربا من أهم أسباب إضعاف السلطة المركزية لملوك أوربا ، حيث كان يستعصى عليهم إخضاع كبار الإقطاعيين أو السيطرة عليهم ، لأن هؤلاء الإقطاعيين يعتدون بقوتهم وثروتهم وعبيدهم ، وأقنانهم ، ولا يرون للملوك سلطانا

عليهم ، فأدى ذلك إلى أن بعض ممالك أوربا كانت من الداخل ممالك متعددة بتعدد أصحاب الإقطاع فيها ، وأن بعض الملوك كانوا يرضخون لكبار الإقطاعيين خشية ثورتهم أو تمردهم مع أتباعهم على الملك .

فلما كانت الحروب الصليبية وضعف نظام الإقطاع وتقلص نفوذ الإقطاعيين عادت السلطة المركزية فى بعض ممالك أوربا ، وأصبح بعض ملوكها فى مكانة تجعله يفرض سلطانه على كافة أرجاء مملكته ، وكان ذلك على حساب كبار الإقطاعيين .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن بعض كبار الإقطاعيين كانوا قد شاركوا فى الحروب الصليبية ، مستجيبين لدعوة الكنيسة مضحين بأموالهم ومكانتهم مستنفدين من أجل هذه الحروب كثيرا من إقطاعاتهم ، حتى إن عددا منهم كان يستدين لكى يشارك فى الحروب الصليبية إذا لم تسعفه أمواله وثروته .

إذا أضفنا ذلك إلى ما سبق ، علمنا أن سلطة الملوك فى أوربا عادت أقوى مما كانت عليه قبل هذه الحروب .

كما أن بعض الأسر الإقطاعية الشهيرة فى أوربا كان زعماؤها قد شاركوا فى الحروب الصليبية أو قادوا معاركها فكان نصيبهم الموت فى تلك المعارك كأسرة تولوز وأسرة بوايون وغيرهما .

٣ ـ إحداث تغيرات اجتماعية وسياسية فى أوربا :

كل ذلك كان له أثره الهام فى إضعاف نظام الإقطاع ، وبإضعاف هذا النظام حدثت تغيرات اجتماعية وأخرى سياسية فى أوربا كانت كلها أو جلها بسبب الحروب الصليبية .

ولعل أوضح هذه التغيرات تقارب الفوارق بين طبقات المجتمع ، وظهور الطبقة الوسطى من العمال غير الأقنان أو العبيد ـ الأحرار ـ كما ساعد ذلك على ظهور القوميات المتعددة فى أوربا ، فقد كان الإقطاع يوحد بين الناس فى ظل السيد أو الملك أو الإقطاعى الكبير ، فلما ضعف هذا النظام أوى الناس إلى ظل قومياتهم يعيشون فى ظلها .

ولقد كان نظام الإقطاع قبل الحروب الصليبية يُصْلي دول أوربا نار حرب حامية بين السادة أصحاب الإقطاع حتى تدخلت الكنيسة لتحرم الحرب فى أوقات معينة أطلقت عليها « هدنة الله » . أما فى هذه الفترة فقد تزعمت الكنيسة إشعال نار الحرب على المسلمين وعَدَّت ذلك قربى إلى الله وعملا يستوجب غفران الذنوب . فهدأت أوربا من حروبها الداخلية وارتاحت من تنازع السادة بعضهم مع بعض ، أو تنازع السادة الإقطاعيين والملوك . وأستطيع أن أقول : إن الحروب الصليبية ، قد جعلت من أوربا وحدة بعد أن كان الإقطاع قد جعل منها دولا مختلفة متعادية ، وهذا تغير اجتماعى سياسى له أهميته .

٤ ـ ظهور جماعات دينية تحترف الحرب :

ولقد استطاعت الحروب الصليبية أن تسهم فى ظهور جماعات محاربة تحترف الحرب وتتفرغ له ، كفرسان المعبد أو الداوية والاسبتارية وفرسان تيوتون .

فالداوية هيئة عسكرية دينية تابعة للكنيسة ، شكلت هذه الهيئة أثناء الحروب الصليبية بحجة حماية الحجاج إلى الأماكن المقدسة .

والاسبتارية هيئة عسكرية دينية تابعة لمستشفى القديس يوحنا المقدسى ويسمون أحيانا بفرسان القديس يوحنا ، وقد شكلت هذه الهيئة فى القرن الحادى عشر الميلادى بحجة حماية الحجاج إلى الأماكن المقدسة كذلك .

والتيوتون هيئة عسكرية ألمانية دينية تأسست فى أخريات القرن الثانى عشر الميلادى فى البلاد المقدسة .

وكل هذه الجماعات الدينية المحاربة شاركت فى الحروب الصليبية وحاربت المسلمين فى أماكن متعددة وعلى مدى زمن غير قصير .

٥ ـ دعم مركز البابا وتقوية نفوذه :

كما استطاعت الحروب الصليبية أن تدعم مركز البابا وأن تزيد نفوذه وأن تجعل ملوك أوربا ـ الذين كانوا كثيرا ما يتمردون على سلطته ـ خاضعين لنفوذ البابا إذ يقود حربا مقدسة ويمنح المشترك فيها حق غفران الذنوب بينما يصدر قرار الحرمان ضد كل من يتقاعس عن الاشتراك فيها ، كما قويت تبعا لذلك مراكز بعض ملوك أوربا الذين أسرعوا بالاستجابة إلى دعوة البابا بالمشاركة الإيجابية فى الحروب الصليبية •

تلك آثار الحروب الصليبية فى الاجتماع والسياسة ـ بصورة مجملة ـ فى دول أوربا الغربية نرى أن نكملها بحديث خاطف عن الآثار الاقتصادية التى تركتها الحروب الصليبية فى أوربا على النحو التالى :

١ ـ انخفاض أثمان الأراضى والعقارات :

كان من أبرز النتائج الاقتصادية للحروب الصليبية أن اشتد الإقبال والطلب على النقود ، التى اشتدت الحاجة إليها من أجل إعداد المقاتلين وإعداد المؤونة والأسلحة طول الطريق ، فضلا عن الإعداد للمعركة ، فرغب كثير من الناس ـ فى سبيل مواجهة هذه النفقات ـ فى بيع ممتلكاتهم ومزارعهم للحصول على المال ، الأمر الذى أدى إلى انخفاض ثمن الأرض والعقارات وغير المنقولات بصفة عامة •

وهنا برز اليهود ليستغلوا هذه الفرصة فقدموا قروضا بربا فاحش وزادوا أصحاب الهموم هموما ، واستطاعوا أن يجعلوا الأوربيين يعيشون قلقا واضطرابا وضيقا ، فوق ماكانوا يشعرون به من جراء هذه الحروب • ولقد استاء الأوربيون من مسلك اليهود ـ هذا ـ فحقدوا عليهم وعندما حانت لهم الفرصة اضطهدوا عددا كبيرا من اليهود •

٢ ـ فرض ضرائب جديدة من أجل الحروب الصليبية :

كما اضطر بعض الملوك إلى فرض ضرائب جديدة من أجل الحروب الصليبية كما فعل

لويس السابع لتجهيز الحملة الصليبية الثانية ، حيث فرض ضريبة قدرها عشرة من كل مائة على جميع المنقولات الخاصة برجال الدين فى مملكته ، وكما فعل فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد حيث فرضا ضريبة قدرها عشرة من كل مائة على ممتلكات رجال الدين والعلمانيين لحرب صلاح الدين ـ الذى كان قد استعاد من الصليبيين بيت المقدس ـ لذلك سميت هذه الضريبة : ضريبة صلاح الدين أو عشور صلاح الدين مما يؤكد تأثير هذه الحروب فى النظم الاقتصادية الأوربية •

٣ ـ انتعاش بعض المدن الأوربية اقتصاديا :

مما لا شك فيه أن الحروب الصليبية قد زادت من الأنشطة التجارية بين الشرق والغرب ، وجعلت من بعض المدن الأوربية مراكز اقتصادية هامة مثل : جنوا والبندقية وبيزا •

ومثل : مرسيليا وناربون وبرشلونة •

حيث أصبح النشاط التجارى فى أوربا يحتل مكان النشاط الزراعى فيها ، وأخذت بضائع الشرق تشق طريقها نحو جنوبى أوربا وغربيها ووسطها فزاد النشاط التجارى فى إقليم فلاندرز وحوض الراين وسهول لمبارديا ، وأخذت هذه المدن تؤمن نفسها وتدعم أمنها وتكون وحدة سياسية مستقلة ـ برضا الملوك والأمراء ـ فى شئونها الداخلية •

وقد أدى ذلك إلى اتساع نشاط المصارف واتساع نطاق عملها ، كما أدى إلى تحسين طرق التجارة ، وإنشاء بعضها ، وكذلك أدى إلى إنشاء طرق ملاحية ذات خطوط منتظمة بين البلدان الأوربية من ناحية ، وبينها وبين بلدان الشرق الإسلامى من ناحية ثانية •

ب ـ فى النهضة العلمية والأدبية والحضارية

نحاول فى هذا الجزء من البحث أن نتعرف على أثر الحروب الصليبية ونتائجها فى النهضة الأوربية فى مجالات العلم والأدب والحضارة ، غير خاضعين لفكرة مسبقة مهما كانت ، سواء أكانت من تلك الأفكار التى تبالغ فى تأثير هذه الحروب على أوربا من حيث استفادتها من حضارة الإسلام أم كانت من تلك الأفكار التى تهون من شأن تأثير هذه الحروب ، وبالتالى تقلل من شأن ما جنته أوربا من ثمار شهية فى العلم والأدب والحضارة ، معتمدة فى ذلك على ما أطلعتها عليه الحروب الصليبية من حضارة المسلمين ، وما قربته إليها من جنى هذه الحضارة الإسلامية ۰

سوف لا نخضع فى كلامنا لفكر مسبق ، وإنما سندع البحث يشق طريقه متعرفا على هذه الآثار ، راصدا لنماذج منها فى تلك المجالات التى حددناها آنفا ، ذلك أننا نؤمن أن الأصالة قدر مشترك بين الحضارات جميعا ، فكل حضارة أبدعت ونقلت وكانت لها سمة تميزها بين الحضارات العالمية ، ولم توجد قط حضارة تفردت بالإبداع أو تفردت بالنقل أو خلت من السمة التى تميزها بين سمات الحضارة[1]

ودعوانا هنا هى:أن الحروب الصليبية التى عرفت دول غرب أوربا على الحضارة الإسلامية بشكل أعمق وأعرض تركت فى حضارة أوربا فى عصر النهضة سمات ودلائل ، تشير إلى التأثر بالحضارة الإسلامية وإلى النقل عنها فى مجالات عديدة ۰

ونود أن نوضح هنا أن الفكرة السائدة لدى بعض الباحثين والتى تدعى أن أوربا فى العصور الوسطى لم تكن على معرفة بالعلوم والدراسات العلمية ، فكرة خاطئة تقوم على المبالغة التى لا تقبل مع البحث والتحرى ۰

---

١ ـ عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوربية ۰ ص ٢٨ ط دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م

إذ الحق أن تاريخ العلوم والدراسات العلمية فى أوربا مر بمراحل ثلاثة :

الأولى منها كانت مظلمة حقا وهى تقع فى الفترة بين نهاية القرن الثالث ونهاية القرن التاسع الميلاديين وكانت معبرا انتقل عليه القديم إلى مابعده ·

والثانية منها ، كانت تشهد تدفق العلوم والدراسات العلمية الإسلامية على أوربا الغربية وهى تقع بين بداية القرن العاشر ونهاية القرن الثانى عشر الميلاديين ـ وهى مستغرقة أكثر من قرن فى زمن الحروب الصليبية ·

والثالثة منها : وهى المرحلة التى أدت إلى ازدهار العلوم والدراسات العلمية تمتد من بداية القرن الثالث عشر الميلادى حتى نهاية العصور الوسطى ، وهى التى أفادت تماما من اتصال دول أوربا الغربية بالعالم الإسلامى عن طريق الحروب الصليبية ·

ولقد أفادت أوربا من علوم المسلمين وطبهم فى هذه المراحل الثلاثة جميعا ، وليس بين الباحثين من ينكر أن المسلمين قد فاقوا فى الطب والعلوم من عاصروهم من سكان أوربا منذ ظهر الإسلام وإلى أن كان عصر النهضة العلمية فى أوربا ، ففى الوقت الذى كانت الكنيسة تحرم صناعة الطب لاعتقادها أن المرض عقاب إلهى لا ينبغى للإنسان أن يصرفه عمن يستحقه وهو الوقت المسمى عندهم بعصر الإيمان ، فى هذا الوقت عند استهلال القرن الثانى عشر الميلادى ، كان المسلمون يمارسون الطب منذ زمن مبكر عن ذلك ، ففى عهد الخليفة العباسى المقتدر بالله (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) بداية القرن العاشر الميلادى ، دعى إلى الامتحان فى بغداد تسعمائة طبيب ، فكم كان عدد الأطباء الفعليين فى بغداد وحدها آنذاك ؟ فضلا عن سائر حواضر العالم الإسلامى ·

ولم يقنع الأطباء المسلمون والعرب بما كان سائدا من كتب طبية للإغريق أو الفرس أو الهنود ، وإنما توسعوا فى المباحث الطبية ، كتوسعهم فى بحوث الهندسة والنجوم وسائر العلوم ، ووضعوا الكتب فيما قرءوه وترجموه فإذا هو موسوعات تشمل « الوصفة » الهندية إلى جانب

الوصفة العربية أو الفارسية أو اليونانية ، واذا هي مباحث تهذيب واستقصاء وليست متاجر أرباح[1]

« ومن موسوعات الطب الإسلامية مالم يوضع له نظير في الضخامة والتمحيص على قدر أسباب التمحيص في زمانه ، وقد ترجمت كلها إلى اللاتينية فنقلت هذه الصناعة بين أطباء أوربة من حال إلى حال . ولم يضارع مؤلفي العربية فيها أحد من علماء الأوربيين إلى مطلع العصور الحديثة ، مع شغف الأوربيين أخيرا بادعاء ملكة العلم للعلم ، واتهام الشرقيين بأنهم لا يطلبون العلم إلا للصناعة وأرباحها ..[2]

ولكي نتعرف على أثر الطب العربي في الغرب الأوربي ، كان علينا أن نذكر بعض أمهات الكتب الطبية الجامعة التي أفادت منها دول أوربا ، بل اتخذتها لمدى زمني طويل أساسا تعتمد عليه ، ومن هذه الكتب :

١ ـ كتاب « القانون » للشيخ الرئيس ابن سينا ، فقد اعتمدت عليه جامعات أوربا في تدريس الطب حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادي ، وهو كتاب نال تقدير الأوربيين وغيرهم ، ولا تزال موضوعات كثيرة مما تحدث عنها ابن سينا جديرة بالتقدير حتى الآن ـ على الرغم من التقدم « التكنولوجي » الذي نعيشه في هذا العصر .

٢ ـ كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » لخلف بن عباس الزهراوي المتوفى ٤٢٧ هـ ، وهو كتاب ترجم الى اللاتينية ، أفاد منه الأوربيون في الطب وفي الجراحة ، فهو يذكر في كتابه آلات جراحية من عمله ويبين بالرسم شكلها ويوضح طريقة استعمالها .

٣ ـ كتاب « الحاوي » لمحمد بن زكريا أبي بكر الرازي المتوفى سنة ٣١١ هـ وهو كتاب في الطب « الإكلينيكي » والرازي هو الذي ابتدع علم التشخيص المقارن واستقصاء الدلالات والتمييز بين الأمراض المتشابهة ، وهو الذي قدر التدوين في ذلك كله .

---
١ ـ السابق : ص ٣٨ .
٢ ـ السابق : ص ٣٩ .

٤ ـ كتاب « الأدوية المفردة » لعبد الله بن أحمد البيطار المتوفى سنة ٦٤٦ هـ ، وقد أفاد الغربيون منه أكبر فائدة فى علم العقاقير والأدوية المركبة والمفردة . وظل كتاب ابن البيطار مرجعا للأوربيين حتى أواسط القرن الثامن عشر الميلادى .

٥ ـ نظام المستشفيات « البيمارستانات » وهو نظام عرفه المسلمون ونقله عنهم الأوربيون . وقد عنى البابوات وبعض ملوك أوربا باقامة المستشفيات على نظام البيمارستانات العربية .

« والواقع أن الطب العربى كان ناجحا جدا فى القرون الوسطى . وكانت الأمم اللاتينية تجهل الطب جهلا يكاد يكون تاما . وكان حتما أن يأخذوه عن العرب . فأخذوا ينقلون الطب العربى كله علما وعملا إلى بلادهم . وعرفوا منه القدر الذى سمح به تقدمهم الفكرى حينذاك . وكان حتما أن يسيروا بهذا العلم الجديد سيرا حثيثا حتى يتأصل فيهم وينمو عندهم نموا ذاتيا .

ولكن العلم التجريبى والتفكير الحديث بدأ عندهم بعد ذلك بقليل . وبذلك كُتب الفصل الأخير فى طب القرون الوسطى وعفى عليه الزمن[١] .

هذا بالنسبة للطب . أما سائر العلوم التى قامت عليها النهضة الأوربية من رياضيات وفلك وطبيعة ـ علوم الطبيعة ـ ومن كيمياء ونبات وحيوان ومعادن وصيدلة ـ علوم الحياة ـ فقد كان للمسلمين فيها قبل عصر النهضة أثر ملحوظ وجهد تأسيسى غير منكور .

وكان ذلك قبل عصر النهضة بزمن بعيد . فما إن استقرت الدولة الإسلامية وامتد سلطانها من مشارف الصين شرقا إلى مشارف فرنسا غربا ، حتى أخذ العلماء المسلمون ينهلون من موارد العلم بمختلف فروعه وفنونه . فأخذوا يترجمون الذخائر العلمية ، وينقلون

١ ـ د. محمد كامل حسين : أثر العرب والإسلام فى النهضة الأدبية : ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٧٠ م .

إلى اللغة العربية علوم الإغريق والرومان والفرس والهنود •• ترجموا عن الإغريقية والفارسية والقبطية والآرامية والهندية ، ونقلت ألوف الكتب من المكتبات القديمة ، وأقيمت دور الكتب والمكتبات ، وفتح الخلفاء والأمراء قصورهم للعلم والعلماء ، وتنافس الخلفاء والحكام فى رعاية العلم والعلماء وتسابقوا فى الإنفاق فى سخاء على العلم والعلماء •

وقبل هارون الرشيد الجزية كتبا ، كما دفع المأمون وزن ماترجم ذهبا •

وقبل إنشاء المدارس كانت قصور الخلفاء ومنازل العلماء ودور الكتب والمساجد بمثابة جامعات يحج إليها طلاب العلم من كل أرجاء الأرض •

وجاء وقت كان كل طالب علم يجد معهدا يتعلم فيه ، ومعلما يقوم على تعليمه وراتبا يقوم بأوده •

وكان جامع المنصور فى بغداد ، والجامع الأموى فى دمشق والجامع الأزهر فى القاهرة ، وجامع القيروان بتونس ، وجامع القرويين بفاس ، وجامع قرطبة بالأندلس ، والجامع الكبير بصنعاء ، إلى جانب بيت الحكمة فى بغداد ، ودار العلم فى الموصل ، ومكتبة ابن سوار بالبصرة ، ومكتبة ابن الشاطر بالشام ودار الحكمة بالقاهرة •• كانت جميعا بمثابة معاهد للعلم فى أرقى صوره ، وكانت فى رعاية الخلفاء والحكام من أمثال : المأمون ونظام الملك ، ونور الدين زنكى والحاكم بأمر الله وصلاح الدين الأيوبى ممن يوضعون على القمة من حيث رعاية العلم والعلماء •

فى هذه البيئة العلمية الصالحة ، وفى هذا الجو العلمى الحافل ، نشأ عدد من العلماء يقرنون إلى أعاظم العلماء فى كل عصر وأوان •

وكانت العربية لغة العلم يكتب بها العلماء ليقرأها الناس فى أى صقع من أصقاع الوطن الإسلامى الكبير ، وازدهرت حركة الترجمة أيما ازدهار ، ثم أقبل العلماء على التأليف والكتابة فى مختلف فروع المعرفة العلمية نقلوا علوما وابتكروا أخرى ، وأضافوا كثيرا من الآراء والنظريات التى نسبت إلى غيرهم •

تكلموا فى التطور ، وإن نسب إلى « داروين » فى القرن التاسع عشر وقد كتب فيه « ابن مسكويه » وإخوان الصفا وابن خلدون قبل داروين بقرون[1] .

وتحدثوا فى الجاذبية والربط بين السرعة والثقل والمسافة وإن نسب كل ذلك إلى نيوتن دون سواه ، وقد ثبت أن الخازن وغيره كتبوا فى ذلك قبل نيوتن بمئات السنين .[2]

وتحدثوا فى أثر البيئة على الأحياء قبل « لامارك » كما نسب ذلك إلى ابن خلدون . وشرح ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى قبل « هارفى » ببضعة قرون ، وكذلك الحال فى طبيعة الضوء وسرعته وانكساره ، والذى كتب فيه ابن الهيثم قبل ابطاله من علماء أوربا . [3]

كذلك قاسوا محيط الأرض وسجلوا مبادرة الاعتدالين ، وقدروا حجوم الكواكب وما بينها من مسافات قبل « جاليليو وكبلر وكوبرنيق » وأضافوا إلى المعارف الفلكية الشىء الكثير ، أضافها : البتانى والفرغانى والكندى والخوارزمى والصوفى وغيرهم .

وابتدع الخوارزمى استعمال الأرقام فى الحساب بدلا من حساب الجمل الذى كان سائدا ، واختار سلسلتين من الأرقام : الأولى مايعرف بالأرقام الهندية (١ ، ٢ ، ٣) والثانية مايعرف بالأرقام الغبارية أو العربية (1. 2. 3....) وتستعمل الأولى فى أغلب البلاد العربية ، والثانية فى بلاد المغرب العربى وفى أوربا .

وكذلك أنشأ الخوارزمى من معلومات مشتقة فى الحساب والجبر . علم الحساب وعلم الجبر ، وعلمهما للناس أجمعين .

وكذلك ألف العلماء العرب فى النبات والحيوان والمعادن والفلك والرياضيات والكيمياء والصيدلة وحساب المثلثات والهندسة والطب والموسيقى وغيرها .

---

١ ـ ابن مسكويه : تجارب الأمم .

٢ ـ قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى .

٣ ـ مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم .

ولا يمكن أن يحجب فضل ابن الهيثم والبيرونى والكندى والغافقى والبغدادى والقزوينى وابن مسكويه والجاحظ والخازن وجابر بن حيان ، وابن النفيس وابن البيطار ، وداود الأنطاكى والمقدسى والبنانى والفرغانى والإدريسى وابن ماجد والدينورى والدميرى والصوفى وابن حمزة وابن يونس والرازى والجلدكى والخوارزمى وموسى بن شاكر وغيرهم •

وظلت مؤلفات هؤلاء العلماء المراجع المعتمدة فى جامعات أوربا حتى القرن السابع عشر ، واعترف عدد كبير من مؤرخى العالم بفضلهم على العلم والإنسانية حتى قال قائلهم : إنه لولا أعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة الأوربية أن يبدءوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدنية عدة قرون •

وحتى قال آخر : « إن كثيرا من الآراء والنظريات العلمية حسبناها من صنعنا فإذا العرب سبقونا إليها •

وظلت الأمة الإسلامية والعربية حاملة لواء النهضة عدة قرون ، فى وقت كانت أوربا ماتزال غارقة فى الظلام •

وأهدى الفكر العلمى فى العصر الإسلامى إلى الإنسانية كثيرا من مظاهر الترف والحضارة والرفاهية ، كما أهداها معلماها الثانى والثالث : الفارابى وابن سينا •

ولو قدر لهذه النهضة الشاملة أن تستمر فى عنفوانها وانتشارها لكانت هذه النهضة التى تتيه بها أوربا فى العصر الحاضر من نصيب أمتنا العربية وكانت تتقدم على تاريخها الحالى عدة قرون ، ولكن وقعت بغداد تحت سنابك الغزاة من المغول والتتار ، وسقطت الأندلس فى يد الفرنجة فى الغرب ـ واضطرب الشرق الإسلامى وعانى من ويلات الحروب الصليبية وتحالف دول أوربا الغربية ضد المسلمين قرنين من الزمان ـ وتداعت دويلات المشرق والمغرب بعد ذلك واحدة بعد الأخرى تحت وطأة الاستعمار الغربى ••• وصحت أوربا[1]

---

١ ـ د• عبد الحليم منتصر : أثر العرب والاسلام فى النهضة الأدبية ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦ •

وكانت جهود المسلمين فى الجغرافية ذات أثر واضح فى النهضة الأوربية ، وبخاصة الجغرافية الوصفية والفلكية ، وكانت كتابات العرب والمسلمين أساسا من الأسس التى قامت عليها النهضة الأوربية فى العصر الحديث ، وكيف كانت أبحاثهم وآراؤهم نبراسا اهتدى به علماء الغرب ، فنقلوا عنهم وساروا على سننهم ، فلقد ظهر بين العرب والمسلمين علماء أفذاذ أضافوا إلى العلم أحسن التحقيقات عن طريق الأرصاد الفلكية ، ومشاهد الرحلات وتمحيص الروايات والمقارنة بينها لتبين السليم من الزائف غير الصحيح .

لقد كانت الكشوف الجغرافية وارتياد المجهول من أرجاء الأرض أهم ما تمخضت عنه النهضة الاوربية ، وما كانت هذه الكشوف لتتم لولا ماوقف عليه الغرب من كتابات العرب ومصنفاتهم ، ولولا ما وصل إليهم من الأجهزة والأدوات التى سهلت عليهم الانتقال بسفنهم عبر المحيطات .

وقد استمر الرحالة الأوربيون يعتمدون إلى حد كبير على المصادر الإسلامية فى ارتياد ماكان مجهولا لديهم من أرجاء الأرض ، ويظهر هذا بشكل واضح عند ماركو بولو الذى تكلم عن المعلومات التى استقاها من رسوم المسلمين البحرية فى سيلان ، والذى استخدم كثيرا من الأعلام الجغرافية فى صيغها الإسلامية العربية والفارسية .[1]

ولا نحب أن نستطرد فى الحديث فنتجاوز نتائج الحروب الصليبية فى أوربا إلى أثر الحضارة الإسلامية بعامة فيها .

فما هو واضح لدى المؤرخين حتى الأوربيين منهم ، وبخاصة المنصفون من هؤلاء وأولئك أن جغرافيى المسلمين كانوا رواد الجغرافية فى العالم كله ، يقول جوستاف لوبون : « كان من نتائج ريادات العرب ومعارفهم الفلكية التى ذكرتها أن اتفق لعلم الجغرافية تقدم مهم ، ولا غرو فالعرب الذين اتخذوا فى البداءة علماء اليونان ، ولا سيا بطليموس ، أدلاء لهم فى علم الجغرافية ، لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم فيه على حسب عادتهم كانت مواضع

---

١ ـ أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ص ١٥٠ ط القاهرة ١٩٦٦ م .

المدن الكثيرة التى عينها بطليموس تعيينا جغرافيا غير مطابقة للحقيقة تماما ، وبلغ مقدار غلطه فى تعيين طول البحر المتوسط وحده أربعمائة فرسخ .

ويكفى أن نقابل بين الأمكنة التى عينها الأغارقة والأمكنة التى عينها العرب ليظهر لنا مقدار التقدم الذى تم على يد العرب ، فهذه المقابلة تدل على أن مقدار العرض الذى حققه العرب يقرب من الصحة بما لايزيد على بضع دقائق ، وأن خطأ الأغارقة فيه بلغ درجات كثيرة ..

وكتب العرب التى انتهت إلينا فى علم الجغرافية مهمة إلى الغاية ، وكان بعضها أساسا لدراسة هذاالعلم فى أوربة قرونا كثيرة ..

وأشهر جغرافيى العرب هو الإدريسى ومن كتب الإدريسى التى ترجمت إلى اللاتينية ، تعلمت أوربة علم الجغرافية فى القرون الوسطى .. ألف الإدريسى كتابه الجغرافى العظيم مشتملا على ماقيده المتقدمون فى علم الجغرافية وعلى ما رواه عن السياح من المعارف الكثيرة وعلى عدة خرائط فاقتصرت أوربة على نسخه بدناءة مدة ثلاثة قرون .[1]

والإدريسى ألف كتابه سنة ١١٥٤م أثناء وجود الصليبيين فى الشرق الإسلامى وإن كان هو من مواليد الأندلس وممن عاشوا فى بلاد الملك روجر ملك صقلية التى كان لها فى الإسلام شأن ، وكذلك أفادت أوربا من القزوينى وياقوت الحموى اللذين عاشا فى القرن الثالث عشر للميلاد .

ونعود إلى جوستاف لوبون لننقل عنه قوله فى جغرافيى العرب : « فالعرب هم الذين انتهوا إلى معارف فلكية مضبوطة من الناحية العلمية عدت أول أساس للخرائط فصححوا أغاليط اليونان العظيمة فى المواضع ، والعرب من ناحية الريادة هم الذين نشروا رحلات عن بقاع العالم التى كان يشك الأوربيون فى وجودها فضلا عن عدم وصولهم إليها .

---

١ ـ جوستان بوبون : حضارة العرب ص ٤٦٨ ط الحلبى القاهرة ترجمة عادل زعيتر .

والعرب من ناحية الأدب الجغرافى هم الذين نشروا كتبا قامت مقام الكتب التى ألفت قبلها ، فاقتصرت أمم الغرب على استنساخها قرونا كثيرة .[1]

ومن أبرز آثار الحروب الصليبية فى أوربا أن أخذت بعض مدن أوربا تنشىء مدارس لتعليم اللغة العربية ، وعلى قدر ما كان ذلك سببا فى شيوع اللغة العربية ، فإنه كان يحمل فى طياته أهدافا معادية للإسلام والمسلمين ، وذلك أن الحروب الصليبية حينما وضعت أوزارها وطرد المسلمون آخر جندى صليبى من بلاد المسلمين ، أخذت أوربا تفكر من جديد فى معاودة الكرة وغزو بلاد المسلمين ، وكانت فى هذه المرة تتحرك نحو هذا الغزو بدوافع أكثرها اقتصادى وسياسى بينما كان العامل الدينى فى الحروب الأولى هو الغالب أو هو الأكثر بروزا .

ولقد تحالفت فى تحقيق هذه الرغبة قوى ثلاث : الكنيسة تحركها أطماعها الدينية وهى القضاء على الإسلام وإدخال أهله فى النصرانية ، والملوك يحركهم الطمع فى الحصول على امتيازات لتجارتهم فى الموانىء الإسلامية ، ورجال المال والاقتصاد يحركهم طمعهم فى الاتجار وتبادل المنافع .

ولقد أدرك هؤلاء جميعا أن تعلم اللغة العربية أمر ضرورى للوصول إلى هذه الأهداف أو هذه الأطماع ، من أجل ذلك أنشئت فى بعض مدن أوربا مدارس لتعليم اللغة العربية فى إيطالية وصقلية وفرنسا وغيرها ، ولقد أفاد تعليم اللغة العربية فى بعض مدن أوربا ـ عن غير قصد ـ اللغات الأوربية الشعبية ، فقد كانت لغة التعليم والثقافة فى أوربا هى اللاتينية والإغريقية وكان لهما قداسة وهما وقف على رجال الكنيسة أما سائر الناس فكانوا نتيجة لذلك فى شبه انعزال عن الثقافة ، فلما أخذت بعض المدن فى تعليم اللغة العربية للسبب الذى ذكرنا آنفا ، أهملت اللاتينية والإغريقية إلى حد كبير ، وكان ذلك خطوة لا بد منها لإحياء اللغات الشعبية وتداول فروع المعرفة عن طريق غير طريق القسوس والرهبان .

---

١ ـ السابق : ٤٧١ .

وإلى جانب هذه المدارس التى كانت تعلم العربية ، صنفت المعاجم العربية الأوربية لمعاونة المترجمين والمتعلمين ، وفى ذلك الوقت كانت المطبعة قد اخترعت فطبع القرآن الكريم وطبعت ترجمات له باللغات الأوربية ، كما طبع الإنجيل والتوراة بالعربية ٠

أما فى مجال الأدب فقد كان أثر الحروب الصليبية محدودا إذا قيس بأثر الأدب العربى كله فى الأدب الأوربى ، وعلى الرغم من أن الأثر الأدبى للحروب الصليبية فى أوربا محدود ، فإنه هام وجدير بأن نتعرف عليه فى هذه الصفحات من الكتاب ٠

على أننى أحب أن أنبه إلى أن صلب هذا الكتاب وعموده هو أثر هذه الحروب الصليبية فى الفكر والأدب عند المسلمين ـ وهو عندى أوسع أبواب الكتاب ٠ وهو الباب الرابع والأخير منه ٠

وقد اعترف بأثر العرب فى الآداب الأوربية أكثر من كاتب من الكتاب الأوربيين أنفسهم ، يقول : ماكييل فى إحدى محاضراته عن الشعر : « إن أوربة مدينة لبلاد العربية بنزعتها المجازية الحماسية Romamance كما هى مدينة بعقيدتها لبلاد اليهودية » ٠٠ « وإننا ـ يعنى الأوربيين ـ مدينون لبطحاء العرب وسورية بمعظم القوى الحيوية الدافعة ـ أو بجميع تلك القوى ـ التى جعلت القرون الوسطى مخالفة فى الروح والخيال للعالم الذى كانت تحكمه رومة » (١)

ومن المعروف لدى المؤرخين والمثقفين بصفة عامة أن أوربا كانت تتلقى آثار الثقافة العربية الإسلامية فى فترة القرون الوسطى بعامة وفى زمن الحروب الصليبية بخاصة من روافد ثلاثة هى : القوافل التجارية التى كانت دائبة التنقل بين آسيا وأوربة الشرقية وأوربة الشمالية مخترقة طريق بحر الخزر حينا وطريق القسطنطينية حينا آخر ، والرافد الثانى هو البلاد أو الممالك التى أقامها الصليبيون فى الشرق الإسلامى بعد أن حققوا انتصارات عسكرية على المسلمين فأقاموا مملكة بيت المقدس ومملكة طرابلس ومملكة

---

١ ـ هاملتون جب : مجموعة تراث الإسلام ، أثر العرب فى الآداب الأوروبية

أنطاكية . فقد عاش الصليبيون فى الشرق الإسلامى بين سوريا ومصر وفلسطين وغيرها مايقرب من قرنين من الزمان . والرافد الثالث هو الوجود الإسلامى فى أوربا عن طريق الأندلس وصقلية وغيرهما من البلاد التى قامت فيها للمسلمين حضارة وانتشرت فيها اللغة العربية .

هذه الروافد الثلاثة ـ على تباعد أزمانها التاريخية نسبيا . وإن شملتها القرون الوسطى ـ لابد أن تكون قد أمدت أوربة وأدبها بتأثيرات كبيرة وتركت فيها فى أذواقها وأفكارها وموضوعات الأدب عندها مالايمكن نكرانه ولا الشك فيه .

وإن المتصفح لموضوعات الأدب العربى الكبرى كرسالة الغفران لأبى العلاء وحى بن يقظان لابن طفيل وألف ليلة وليلة وهى من القصص الفلسفى أو الصوفى . ومثل مجموعة قصص كليلة ودمنة ـ وهى ذات أصل هندى موغل فى القدم . وإن كانت لم تُعرف فى أوربا إلا فى نصها العربى ـ ومجموعة قصص السندباد ـ التى هى هندية الأصل أيضا وإن كانت انتقلت إلى أوربا كذلك عن طريق نصها العربى ـ وقد ترجم إلى اللغة القشتالية سنة ١٢٥٣ م تحت عنوان : « كتاب مكايد النساء وحيلهن » وغيرها .

أقول : إن الناظر لموضوعات الأدب العربى الكبرى يجد عددا من كبار الأدباء الأوربيين خلال القرن الرابع عشر الميلادى ومابعده قد ثبتت صلتهم الوثيقة بهذه الموضوعات وبالثقافة العربية الإسلامية بوجه عام . هؤلاء الأدباء الأوربيون الكبار هم : بوكاشيو ودانتى وبترارك الإيطاليين . وسرفانتيز الإسبانى وشوسر الإنجليزى وهؤلاء هم الذين كان لهم أثر بارز فى تجديد الآداب القديمة ببلادهم .

بل لقد استمرت الصلة الوثيقة بين أعلام مشاهير من أدباء أوربا وبين الثقافة الإسلامية والعربية من القرن السابع عشر الميلادى إلى الآن . ومن هؤلاء المشاهير : شكسبير وأديسون وبيرون وسوزى وكولروج وشلى من أدباء الإنجليز . ومنهم جيتى وهرور ولسنغ وهينى من أدباء الألمان . ومنهم فولتير ومونتسكيو وهيجو من أدباء

الفرنسيين ، فهؤلاء جميعا قل أن تجد أدب واحد منهم يخلو من أثر إسلامي أو نادرة إسلامية ، وقد صرح بعضهم بذلك •

يقول الأستاذ العقاد : « وقد بلغت المفردات العربية التى أضافها الإسبان وأهل البرتغال إلى لغتهم مايملأ معجما غير صغير •

ولكن العبرة مع ذلك بدخول تلك المفردات فى الحياة الاجتماعية والمقاصد النفسية • لابمجرد دخولها فى صفحات المعجمات ، فإنها لم تتمثل على الألسنة إلا بعد أن تمثلت فى أحوال المعيشة ونوازع الإحساس والتفكير ، ومن هنا يُعزى إليها من فعل الإيحاء والتوجيه أضعاف مايُعزى إليها من فعل النقل والتلقين » (١)

أما تأثير الشعر العربى فى الأدب الأوربى فقد كان أصل فنون الأدب تأثيرا فى آداب أوربا ، أصل من القصة وأصل من غيرها •

ذلك أن الشعر العربى عربى خالص لم يتأثر فيه العرب بما نقلوا عن الحضارات الأخرى كما تأثروا فى الفلسفة والطب وغيرهما ، إذ كانت ترجمتهم متجهة إلى الحكمة والفكر والعلم لا الفن أو العاطفة •

ومن الواضح أن الشعر العربى لم ينتقل إلى أوربا عن طريق الترجمة كغيره من مظاهر الحضارة الإسلامية ، بل كان لابد من انصهار سكان جنوب غربى فرنسا وإسبانيا وصقلية فى بوتقة الحضارة العربية أولا ليستسيغوا النماذج الشعرية العربية ، كما أنه كان لابد لشكل هذا الفن ومضمونه من أن يتطور بفضل هذا الشعب الخليط الجديد لتوجد النماذج المؤثرة فى شكل متجدد متطور ليس من السهل رصد حلقاته •

ولقد أخذ الدارسون المدققون يستخرجون نصوص هذه النماذج حديثا ليدلوا بالبرهان العملى على عملية التأثير والعطاء العربيين لشعر النهضة الأوربية •

---

١ ـ عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوربية : ص ٧٢ ـ ٧٣ •

وإذا كانت الأندلس أهم ميدان اتصلت فيه الحضارة الإسلامية العربية بأوربا ، قد فاقت غيرها من الميادين فى تمثل الأدب العربى والشعر العربى والحضارة العربية التى لاتزال سماتها وقسماتها واضحة فى الشعبين الإسبانى والبرتغالى حتى اليوم ، فإن الميدان الثانى لهذا الاتصال وهو صقلية والشطر الجنوبى من إيطاليا ، وإن كان لم يستمر فيه الوجود الإسلامى سوى فترة من الزمان لم تبلغ القرون الثلاثة ، إلا أنها امتصت الثقافة الإسلامية والأدب العربى وتمثلته وإن كان ذلك فى صورة أقل .

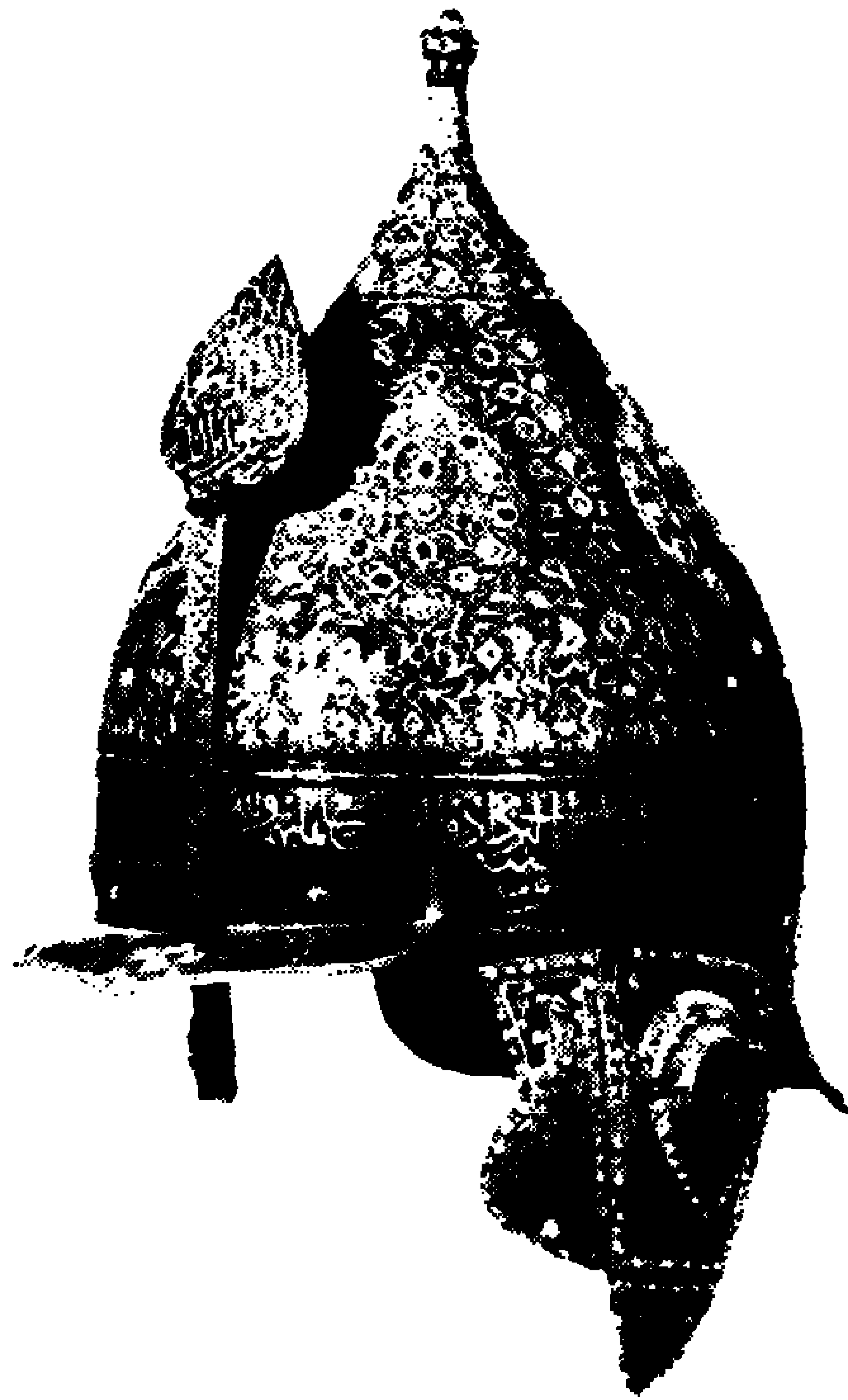
أما الميدان الثالث لهذا الالتقاء وهو الممالك الصليبية فى العالم الإسلامى كأرمينية والرها وطرابلس وأنطاكية والقدس ، فقد كانت استفادة الصليبيين فيه من تمثل الأدب العربى والشعر محدودة إذا قورنت بما أفاده الصليبيون من مظاهر الحضارة الإسلامية فى فنون الحرب والصناعة والزراعة والعمارة والتجارة ونظم الحياة الاجتماعية ، وذلك لأن الصليبيين كانوا غزاة طامعين ومحاربين متوحشين ـ على وصف بعض كتاب أوربا لهم ـ أكثر من كونهم طلاب ثقافة وأدب وشعر وفن ، فهم لم يتذوقوا الشعر العربى ولم يتمثلوه ، وإنما استمعوا إليه وربما أعجبوا به لكنهم بالضرورة لم يستطيعوا تمثله على نحو مافعل الإسبان والبرتغاليون أو أهل صقلية وجنوبى إيطاليا .

ومن نافلة القول أن نؤكد أن تأثر الصليبيين بمظاهر الحضارة الإسلامية فى مجالات العمارة والفنون والقلاع والحصون ، والملابس وأدوات الزينة ، وأساليب الحياة اليومية فى الطعام والشراب وبعض العادات كان أكبر من تأثرهم بالأدب والشعر .

فلقد فتن بعضهم بأسلوب الحياة اليومية وماكانت تتصف به قصور بعض المسلمين من نظام ونظافة وتنسيق فقلدوهم وهم فى الشرق الإسلامى وبخاصة الأمراء الصليبيون وكبار التجار ، فضلا عن انتقال تلك النظم إليهم بعد أن عادوا إلى بلادهم .

حتى إن بعض الصليبيين قلدوا المسلمين فى طرق طهى الأطعمة وتجنب أكل لحم الخنزير ، كما روى ذلك أسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار .[1]

ولقد أجمل جوستاف لوبون أثر الشرق الإسلامى فى تمدين الغرب فقال : « ... ظهر مما تقدم أن تأثير الشرق فى تمدين الغرب كان عظيما جدا بفعل الحروب الصليبية ، وأن ذلك التأثير كان فى الفنون والصناعات والتجارة أشد منه فى العلوم والآداب . وإذا مانظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية العظيمة باضطراد بين الغرب والشرق وإلى مانشأ من تحاك الصليبيين والشرقيين من النمو فى الفنون والصناعة ، تجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش ، وأعدوا النفوس إلى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التى أخذت جامعات أوربة تعول عليها فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم »[2]



١ ـ ص ١٤٠ ط برنستون ١٩٣٠ م نشرة وحققه . فيليب حتى .

٢ ـ جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٣٩ .

جـ - فى إثارة المطامع فى العالم الإسلامى

فى مستهل هذه النقطة من البحث ، أحب أن أشير فى إيجاز إلى نتائج الحروب الصليبية من وجهة نظر مؤرخ أوربى من شيوخ المؤرخين هو جوستاف لوبون ، لأجعل من ذلك مدخلا إلى الحديث عن نتيجة لم يتحدث عنها لوبون ، تعد عندى من أبرز نتائج الحروب الصليبية ، وهى : إثارة مطامح الأوربيين فى العالم الإسلامى بعد تلك الحروب •

يقول جوستاف لوبون : « آراء المؤرخين فى نتائج الحروب الصليبية متناقضة إلى الغاية ، وقد أسهب أكثرهم فى مدحها ، وعدها بعضهم ذات نتائج سيئة •

وإذا نظرنا إلى هدف الحروب الصليبية القريب الذى هو فتح فلسطين رأيناها لم تسفر عن أية نتيجة مع ماخسرته أوربة فى قرنين من المال والرجال ، فقد بقى المسلمون سادة لتلك الأماكن التى أراد النصارى أن يستولوا عليها بأى ثمن كان •

ولكننا إذا نظرنا إلى النتائج البعيدة التى أسفرت عنها الحروب الصليبية تجلت لنا أهمية تلك النتائج التى كان بعضها نافعا وبعضها ضارا - وإن شال الميزان ورجحت كفة النافع منها - فقد كان اتصال الغرب بالشرق مدة قرنين من أقوى العوامل على نمو الحضارة فى أوربة •• وإذا أراد المرء تصور تأثير الشرق فى الغرب وجب عليه أن يتمثل حال الحضارة التى كانت عليها شعوبها المتقابلة ، فأما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب [1] ، وأما الغرب فكان غارقا فى بحر من الهمجية •

---

١ - لودقق لوبون لتال : بفضل الإسلام ، فمن هم العرب وما هى حضارتهم قبل الإسلام ؟ غير أن كثيرا من المستشرقين يصعب عليهم أن يضيفوا أى فضل للإسلام ، فيرون إضافته للعرب أو للترك أو للمغول أو غيرهم••• وإن كان لوبون من أكثرهم ! إنصافا للحق •

وقد ظهر من بياننا الوجيز عن الحروب الصليبية أن الصليبيين كانوا فى سلوكهم وحوشا ضارية ، وأنهم كانوا ينهبون الأصدقاء والأعداء ويذبحونهم على السواء ، وأنهم خربوا فى القسطنطينية مالا يقدر بثمن من الكنوز القديمة عن اليونان والرومان ٠

ولم يكن عند أولئك البرابرة مايفيد الشرق ، ولـم ينتفـع الشرق منهـم بشئ فى الحقيقة ٠٠٠ ومن أشأم نتائج الحروب الصليبية أن ساد عدم التسامح العالم عدة قرون وأن صبغته بما لم تعرفه ديانة ، خلا اليهودية ، بصبغة القسوة والجور ، أجل كان العالم قبل الحروب الصليبية يعرف الشئ الكثير من عدم التسامح . ولكنه ندر أن كان عدم التسامح هذا يصل إلى حد الجلف والطغيان ٠

وقد بلغ عدم التسامح هذا مبلغا من الحميا الشديدة فى الحروب الصليبية ما لا يزال العالم يقاسى أثره إلى زماننا تقريبا ٠ [1]

أقول : لقد ألقى لوبون الضوء على أسوأ نتائج الحروب الصليبية وأشأمها وهى : أن ساد عدم التسامح العالم عدة قرون ، وأنه وصل إلى عصرنا هذا ٠٠

ولقد صدق الرجل ، فلقد أدت الحروب الصليبية بهذه الروح التى أشاعتها بـين الشرق والغرب إلى عديد من المشكلات وإلى مزيد من الكوارث امتدت إلى وقتنا هذا ، كما سنوضح فى هذه النقطة من الكتاب ٠

فبعد أن انتهت مرحلة من مراحل الحروب الصليبية ـ أو الغزو الصليبى الغربـى للعالم الإسلامى ـ بطرد آخر جنود الصليبيين من عكا فى تلك الحرب التى قادها السلطان خليل بن قلاوون ، وماترتب على ذلك من ضعف شأن البابوية ، وانفصام عرى الوحدة الأوربية دينيا وسياسيا إلى حد كبير ٠ بعد هذه المرحلة لم تهدأ رغبة أوربا فى العودة ثانية إلى الشرق الإسلامى ، وإنما أخذ بعض أصحاب المصلحة فى التخطيط لغـزو العالـم الإسلامى من جديد ٠

---

١ ـ جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٣٣ ـ ٣٣٥ باختصار واختيار ٠

وكان أن أخذوا فى دراسة أسباب هزيمتهم أمام المسلمين ، حتى تتلافى فى الغزو القادم ، واعتبر القرنان الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين قرنى المشروعات الصليبية الجديدة لغزو العالم الإسلامى •

غير أن الهدف فى الحروب الأولى كان دينيا فى الغالب ، أما فى هذه المرة فقد سيطر على أوربا طمع مادى فى بلدان العالم الإسلامى ، ونستطيع أن نلمس مظاهر هذه المطامع ونحس روحها عندما نتعرف على حوافز هذه الحروب ودوافعها ، وعلى أولئك الذين يشجعون على خوضها •

فقد غدا واضحا لكل دارس لظروف أوربا فى هذين القرنين بالنسبة للرغبة فى العودة إلى احتلال بلدان العالم الإسلامى فى الشرق ، أن هذه الحوافز وإن كان بعضها دينيا وتبشيريا ، إلا أن الأغلب عليها هو الأطماع السياسية والاقتصادية •

ولا ندعى هنا أننا نستطيع إحصاء كل هذه الحوافز ـ فإن ذلك يخرج بنا عن سمت البحث وموضوع الكتاب ـ وإنما نكتفى بالقول بأن هذه الحوافز قد تعددت وتكاثرت ، وأنها جميعا مع اختلافها وتعددها تستهدف أمرا واحدا هو العودة إلى الشرق الإسلامى الذى يدر عسلا ولبنا من جديد •

ولقد شجع على تلك العودة إلى احتلال الشرق الإسلامى جهات متعددة :

أولها : الكنيسة التى كانت تحلم بأن تكون من أجل ذلك جيشا أوربيا ضخما يعيد للكنيسة هيبتها ، ويعطيها السلطة التى كانت لها على ملوك أوربا أثناء الحملات الصليبية السابقة ، كان ذلك هدف الكنيسة الأعظم ، وإن كانت قد ألحقت به هدفا آخر لايقل خطرا عن الجيوش الغازية ، وهو العمل على دعوة المسلمين فى الشرق إلى الدخول فى النصرانية أى مايسمونه « بالتبشير » ونسميه نحن ـ تجاوبا مع الدلالة اللغوية للكلمة ـ تنصيرا ، لاتبشيرا •

ثانيها : رجال المال والاقتصاد الذين بهرهم الشرق بمصنوعاته وخاماته . والذين بدءوا يستغلون النهضة الأوربية ـ آنئذ ـ للحركة الاستكشافية الجغرافية التى تمكنهم من التعرف على عوالم جديدة وبلاد غير معروفة لهم يحصلون منها على مافيها ويبيعون لها ماعندهم أو مما فى الشرق الإسلامى . هؤلاء كانوا من المشجعين على العودة إلى الشرق الإسلامى ، بل كانوا من أكثر الجهات رغبة فى ذلك .

وثالثها : ملوك أوربا الراغبون فى أن يحصلوا لتجارة ممالكهم وتجارها على أسواق رائجة وموانىء إسلامية حافلة ـ كما كان الشأن أيام كانوا يتعاملون مع موانىء الشام ومصر ـ غير أنهم فى هذه المرة زادت رغبتهم فى الاستيلاء على هذه الموانىء والسيطرة على تلك الأسواق لتكون لهم فيها امتيازات السادة الغزاة ، لاحقوق المتحالفين المتعاهدين .

كل هذه الجهات تعاونت على أن تجعل العودة إلى الشرق الإسلامى من جديد أملا يراود عيون أوربا الغربية كنيسة وملوكا وتجارا وشعوبا .

من أجل هذا أخذوا يخططون للوصول إلى هدفهم ذاك . فكان مما خططوا أن قاموا بأعمال عديدة ، نتحدث هنا عن أبرزها ، وأهمها من وجهة نظرنا ـ وقد قرأنا تاريخ هذه الحقبة ـ فنقول وبالله التوفيق .

من أبرز ماقامت به أوربا من أعمال تستهدف العودة إلى السيطرة على العالم الإسلامى : الاهتمام بتعلم اللغة العربية لسان المسلمين فى الشرق الإسلامى ، ليسهل أمامهم التفاهم ، ويسهل عليهم التعرف الدقيق على هذا العالم الإسلامى تاريخه وعاداته وتراثه .

وقد التقت عند ضرورة تعلم اللغة العربية رغبات جميع الجهات ، فالكنيسة رغبت فى ذلك ليسهل على رجالها نشر النصرانية فى المسلمين ، والتجار رغبوا فى ذلك ليسهل التعامل ، وكذلك الملوك ليقوم بينهم وبين بلدان العالم الإسلامى سفراء يعرفون العربية .

ولكى تتم صورة التعرف الدقيق على الإسلام والمسلمين كان لابد أن تصنف معاجم عربية أوربية تعين المترجمين وتعين المتعلمين للعربية بصفة عامة ، فصنف المعجم العربى القشتالى سنة ١٥٠٥ م ألفه المستعرب الإسبانى الغرناطى بدرو الكالا Pedro Alcala

كما ظهر كتاب وصف إفريقية للحسن بن الوزان المشهور بليون الإفريقى ، وفى كتابه معلومات جيدة عن إفريقيا وعن المسلمين عاداتهم وأخلاقهم (١)

وفى سنة ١٥٣٩ م نشر المستعرب الفرنسى جيوم بوستل G. Postel
كتابا عن : « جمهورية الترك » لما اهتم هذا المستعرف بجمع مخطوطات عربية كثيرة باعها لمكتبة هيدلبرج بألمانيا ، فكانت نواة صالحة اعتمدت عليها أغلب الدراسات العربية فى ألمانيا ، واتخذها كثير من المستشرقين مصادر أساسّية لما قاموا به من دراسات عن الإسلام والعرب •

ومن هذه الأعمال ـ التى تخدم من يدعون المسلمين إلى النصرانية ـ عملان :
أحدهما : ترجمة القرآن الكريم إلى عدد من اللغات الأوربية المختلفة لتَيسير عمل من يقومون بهذه الدعوة أو الدعاية •

ثانيهما : ترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية ليستعين به الداعون إلى النصرانية من جانب ، وليكون فى متناول المسلمين لقراءته والاطلاع عليه من جانب آخر ، لعل هذه القراءة تزحزحهم عن القرآن •

ومن أبرز هذه الأعمال : الاستشراق وهو دراسة تراث الشرق وتاريخه وعاداته وتقاليده ، وأبرز مافى الشرق الدين الإسلامى ، لذلك عنى المستشرقون بدراسته ، وإن كان قليل منهم من استطاع أن يتخدث عن الإسلام بروح العلم المنصفة ، أما أكثرهم فكتب عن الإسلام بروح التحامل والجهل بالدين وباللغة العربية •

---

١ ـ نشرت جامعة الإمام هذا الكتاب بعد ترجمته للعربية لأول مرة عام ١٣٩٩ هـ بمناسبة المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول الذى عقد فى صفر ١٣٩٩ هـ • ١٩٧٩ م • الذى نظمته كلية العلوم الاجتماعية بالجامعة •

وقد بدأت طلائع المستشرقين تعنى بهذه الدراسات منذ القرن العاشر الميلادى إلى يومنا هذا ، وعلى امتداد هذه الفترة لم يكن للاستشراق سوى هدف أصيل هو التمهيد بهذه الدراسات لغزو أرض المسلمين منذ كان للصليبيين وجود فى العالم الإسلامى وإلى أن أصبح لهم الآن نفوذ فيه ٠

ونستطيع أن نعد من طلائع المستشرقين :

فى زمن الحروب الصليبية وقبلها :

١ ـ جربر دى أورالياك ٩٣٨ ـ ١٠٠٣ م الذى رحل إلى دومة وانتخب حبرا أعظم وتسمى سلفستر الثانى ٩٩٩ ـ ١٠٠٣ م فهو أول بابا فرنسى ، وقد أمر بإنشاء مدرستين عربيتين وترجم عن العربية ٠

٢ ـ قسطنطين الإفريقى المتوفى ١٠٨٧ م المولود فى قرطاجنة والذى ترجم عن العربية فى الطب والفلك والعلاج ٠

٣ ـ أوجودى سانتالا ١١٠٧ ـ ١١١٩ م ترجم شرح البيرونى على الفرغانى ورسائل فى الكيمياء ٠

٤ ـ ديكوبل الذى لمع اسمه عام ١١٢٥ م ٠ راهب أرلنـدى ، زار مصر ووصف أهراماتها ٠

٥ ـ أدلرد أوف باثا (١٠٧٠ ـ ١١٣٥م) وهـو أستـاذ الملك الإنجليزى هنـرى الثانى ، كان متضلعا فى الثقافة العربية ٠

٦ ـ بطرس المكرم ١٠٩٤ ـ ١١٥٦م كان رئيسا لدير كلونى أكبر مركز لنشر الثقافة العربية فى فرنسا ٠

وغيرهم ٠ [1] ممن عدد منهـم صاحـب كتـاب « المستشرقـون » ثمانية وعشرين مستشرقا آخرهم : ليون الإفريقى (الحسن بن الوزان) ١٤٩٤ ـ ١٥٥٢م

١ ـ نجيب عقيقى : المستشرقون : ١/١١٨ ـ ١٢٢ ٠ ط دار المعارف القاهرة ١٩٦٤ م

وقد استتبع الاستشراق إنشاء مكتبات شرقية فى أوربا مثل : مكتبة باريس الوطنية (١٦٥٤) وفيها حوالى سبعة آلاف مخطوط عربى ومكتبة جامعة ستراسبورج ومكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية • ومكتبة الجمعية الأسيوية فى باريس •

كما استتبع ذلك إنشاء المطابع الشرقية : كمطبعة إيطاليا ومطبعة فرنسا ، كما استتبع إنشاء المجلات الشرقية التى كان للمستشرقين الفرنسيين فيها جهود معروفة ومن أشهر هذه المجلات :

صحيفة العلماء (١٦٦٥ م) ومجلة الجمعية الملكية الآسيوية والمجلة الإفريقية والمجلة التاريخية ومجلة تاريخ الأديان وغيرها •

وقد استمر إصدار المجلات حتى وقتنا هذا •

وقد أعد المستشرقون دراساتهم باسم العلم والتحقيق وخدمة التراث العربى والإسلامى ، ولكن قل منهم من أنصف أو أجاد •

وأغلب أعمال المستشرقين إنما أفادت بالدرجة الأولى دعاة النصرانية فى العالم الإسلامى ، ثم أفادت من أسموا أنفسهم بالمستعمرين وهم محتلون غاصبون لأرض المسلمين ، كما أفادت منها الصهيونية العالمية •

أما ماأفاده المسلمون فقد جاء دون قصد من المستشرقين •

ولقد تولد عن هذه الأعمال التى خططت لها أوربا وفكرت فيها منذ طردت من بلاد المسلمين ، تولد عنها احتلال ثان لكثير من بلدان المسلمين غداة تحالفت دول أوربا الغربية والشرقية على دولة الخلافة العثمانية حتى قضت عليها وورثت أملاكها وراثة غير شرعية ، ثم أخذت تذيب الشخصية الإسلامية بما أغرقتها فيه من تيارات ومذاهب ونظريات وملل ونحل • (١)

---

١ ـ للتوسع فى هذا الموضوع : انظر : التيارات المعادية للإسلام فى المجتمع المعاصر • للمؤلف ط دار البحوث العلمية ـ الكويت ١٩٧٨ م •

ولقد كانت النتيجة لهذه الجهود التى بذلت لتحقيق مطامع دول أوربا فى العالم الإسلامى ، أن استطاعت القوى الكبرى فى هذا العصر أن تسيطر على معظم العالم الإسلامى سيطرة منظورة فيها قهر وغلبة للمسلمين ـ كما هو الحال فى الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى ، أو سيطرة غير منظورة كمعظم دول العالم الإسلامى .

والخلاص من كل ذلك معروف وطريقة واضحة ، ومايحتاج من المسلمين فى العالم الإسلامى المعاصر سوى الاعتزاز بدينهم بمنهج قرآنهم وسنة نبيهم فى الحياة ، مع الاستقلال فى الشخصية ، وعبور التخلف إلى الحضارة القائمة على أصول الإسلام ، وتجاوز مظاهر الحضارة الراهنة إلى مابعد هذه المظاهر وماهو أرقى منها دون الانمياع فى حضارات تعارض ديننا أو تختلف فى قليل أو كثير مع هدى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

الإيمان بالله والإسلام له وحده والجهاد فى سبيله لتكون كلمته هى العليا والعمل بكتابه وسنة نبيه ، وتعلم كل مانفع فى الدنيا والآخرة ، والاعتزاز بالانتماء لهذا الدين الذى وصفه الله بأنه أكمل الأديان « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » . (٢)

---

٢ ـ انظر للمؤلف : مع العقيدة والحركة والمنهج فى خير أمة أخرجت للناس ـ نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .



الباب الرابع



الفكر والأدب فى الحروب الصليبية

الباب الرابع
الفكر والأدب فى الحروب الصليبية

ويتناول :

١ ـ توطئـة

الفصل الأول : فن الشعر

ويشمل :

أ ـ موضوعاته وأغراضه وفنونه .

ب ـ نماذج من موضوعاته .

جـ ـ من شعراء فترة الحروب الصليبية .

د ـ بعض المذاهب الشعرية فى تلك الفترة .

الفصل الثانى : فن النثر :

ويشمل :

أ ـ موضوعاته وفنونه .

ب ـ نماذج من موضوعاته .

جـ ـ من كتّاب فترة الحروب الصليبية .

د ـ بعض المذاهب النثرية فى تلك الفترة .

١ ـ توطئة

أكثر نتائج الحروب الصليبية أهمية ، وأعمقها أثرا فى العالم الإسلامى هى تلك النتائج التى تركتها فى الفكر والأدب ، والتى وقف المفكرون والأدباء منها مواقف أملتها عليهم مشاعرهم إزاء هذا العدو البغيض الجاثم على الصدور المحتل للأرض المنتهك للعرض ٠

وأحب أن أوضح ـ فى مستهل هذا الباب من البحث ـ أننى لا أقصد بالفكر والأدب شيئين متغايرين تمام التغاير ، كما قد يوهم بذلك عطف أحدهما على الآخر ، وإنما أقصد بكل واحد منهما شيئا وإن غاير الآخر إلا أنه يشاركه من وجه من الوجوه ٠

أقصد بالفكر : مجال التأليف والكتابة العلمية التى دعت هذه الحروب إليها ككتب التاريخ وكتب المعارك ، وسائر الكتب التى أُلفت استجابة لظروف هذه الحروب ، كالمناظرات وكتب المناقب والمثالب ، وكتب الرد على اليهود والنصارى وكتب القصص وما إليها ٠

وأقصد بالأدب : مجال النصوص الأدبية من شعر متعدد الفنون والأغراض ، ومن نثر مختلف الأجناس من رسالة إلى وثيقة إلى مناظرة إلى وصف معارك وفتح حصون ، وتدخل الخطابة فى هذا النثر ، حتى لا نفصلها بحديث خاص ٠

ومن الواضح لدى كل متخصص من المشتغلين بالقضايا الأدبية . ولدى الغالبية العظمى من الدارسين للأدب ، أن الأدب لا يخلو من الفكر وإنما يرتكز عليه ويتخذه منطلقا ، وإلا لم يكن عملا إنسانياً ، كما أن مجال التأليف والكتابة العلمية لا يتجاهل مطلقا لمسات الجمال التى يضيفها الأدب على الفكر ، وبخاصة إذا كان المجال فى كتابة التاريخ أو الفلسفة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو كل ما نسميه دراسات إنسانية ٠

نعم ، قد يتنحى التعبير الأدبى وتتجاهل الكلمة الموحية ، ويستبعد الأسلوب المجازى عندما تكون الكتابة فى حقائق علمية بحتة كالرياضيات وقضايا الكيمياء والفيزياء ونحوها ·

هذا ما أحببت أن أوضحه فى مستهل هذا الباب ، وتلك واحدة مما أرغب فى الحديث عنه فى هذه التوطئة ·

أما الثانية فى تلك التوطئة فهى قيد أضعه حول عنوان هذا الباب وهو « الفكر والأدب فى الحروب الصليبية » قيد للفكر والأدب يخص به الفكر والأدب النابعين أو الصادرين من المسلمين ، استجابة لظروف هذه الحروب الصليبية ، وتقيدهما بذلك يخرج من الحديث ما صدر من فكر وأدب استجابة لهذه الحروب من الصليبيين ـ على سبيل المثال ـ فقد صدرت عن بعضهم مؤلفات ، وكان لبعضهم نماذج أدبية تأثرت بهذه الحروب ، وبغيرها من الموضوعات التى عرفها الصليبيون عن المسلمين أثناء وجودهم البغيض فى الشرق الإسلامى ·

فهذا القيد يصرفنى ـ وبخاصة وأنا أتحدث عن الأدب العربى ـ عن الحديث عن فكر الصليبيين وأدبهم اللذين جاءا استجابة لهذه الحروب بلغاتهم المتعددة ، وإن كنت أرى أن من تمام الصورة وكمالها عن هذه الحروب أن تضاف تلك الدراسة بلغاتهم إلى دراستنا هذه ، غير أنه أمر بعيد التحقيق من جانب ، وخارج عن إطار الكتاب ـ كما رسمناه ونحن نتحدث فى التمهيد لهذا الكتاب ـ ·

وأما الثالثة مما أحب التعرض له فى هذه التوطئة فهى قيد آخر أسميه تحديدا لهذا الفكر والأدب فى إطار زمانى وآخر مكانى وثالث فنى ·

أما الإطار الأول فهو : الفكر والأدب الذى صدر عن المسلمين فى الشرق الإسلامى علمائهم وأدبائهم ممن اصطلوا بنيران تلك الحروب فى هذه الفترة التى حددتها من قبل بقرنين من الزمان فى وعائها الزمنى ·

وأما الإطار الثانى فهو : هذا الفكر والأدب اللذين صدرا فى مصر والشام فى وعائهما المكانى •

وأما الإطار الفنى فيتناول فنَّىْ الشعر والنثر ، الشعر بأشهر أغراضه والنثر بأشهر فنونه •

ولابد من تحديد هذه الأطر ، لتسقيم منهجية البحث ويدخل فى حيز الإمكان ، وإلا فإن استيعاب كل ما قيل فى هذه الفترة من فكر وأدب أمر يفوق طاقتى بل يفوق طاقة عدد من الباحثين •

وحسبى أن أذكر فى هذا الباب من الكتاب نماذج وأمثلة تدل على ما أريد توضيحه من قضايا ، وتشهد لما أطرحه من مسائل •

كما يكفينى وأنا أتحدث عن شعراء الفترة وكتابها أن أذكر نبذا يسيرة عن بعض شعرائها ومشاهير كتابها ، لأن الاستيعاب فى الحديث عن الشعراء والكتاب والعلماء فى هذين القرنين من الزمان ، أكبر بكثير مما نحن بصدده ، فقد ألهبت هذه الحروب عواطف المسلمين وحركت مشاعر كل قادر على القول فقال ، ومن هنا يكثر المفكرون ويتعدد الأدباء ، وتتعاظم الكتب والدواوين الشعرية ، وتفوق كثرتها كل راغب فى الاستيعاب أو عامد إلى التفصيل ، كما تفوتنى فى هذا الكتاب من حيث موضوعه ومن حيث حجمه •

ولابد لى أن أشير إلى أن هذه الفترة قد ذخرت بكبار العلماء والمفكرين ، وكان لكثير منهم من الحروب الصليبية مواقف سجلوها فى نتاج قرائحهم ، كما ذخرت تلك الفترة من تاريخ المسلمين بعدد عديد من الشعراء والكتاب والعلماء ، وكان لكل منهم ضرب من القول ونوع من التأليف استجابة لظروف الحروب الصليبية وملابساتها ، ومن يتصفح قوائم الكتب والدواوين فى هذه الفترة يجد مئات الكتب والدواوين بل ألوفا مؤلفة •

ويكفى للدلالة على كثرتهم فى هذه الفترة « القرنين السادس والسابع الهجريين » أن أشير إلى عدد الشعراء والأدباء والعلماء الذين ورد ذكرهم واختيرت نماذج من إنتاجهم فى الكتب الجامعة التى ألفت فى هذه الفترة أو بعدها من مثل :

كتاب صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ـ للقلقشندى ٠

وكتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب ـ للنويرى ٠

وكتاب خزانة الأدب ـ لابن حجة الحموى ٠

وكتاب حسن التوسل فى صناعة الترسل ـ للشهاب محمود الحلبى

وكتاب خريدة القصر وجريدة العصر ـ للعماد الأصفهانى ٠

وكتاب معجم الأدباء ـ لياقوت الحموى ٠

وكتاب وفيات الأعيان ـ لابن خلكان ٠

وكتاب الوافى بالوفيات ـ لصلاح الدين الصندى ٠

وكلها كتب لمؤلفين عاشوا هذه الفترة أو بعدها بقليل ٠

تلك صورة دالة على كثرة شعراء هذه الفترة وعلمائها وكتابها ٠

أما كثرة الكتب فى هذه الفترة فتتحدث عنها المكتبة العربية بعامة والمكتبة الإسلامية على وجه الخصوص ، ويكفى أن عيون كتب التراث فى مجالات المعرفة أغلبها ألفت فى هذا العصر أو بعده بقليل ٠

ويكفى للدلالة على ذلك أن أشير إلى أن هذه الفترة من تاريخ الأمة كانت أخصب فتراتها فى مجال العلم والعلماء ، فقد كانت فترة مدارس كثيرة ومدرسين مرموقين فى تاريخنا كله ، ولا بأس أن أشير إلى بعض مجالات العلم وبعض مشاهير العلماء فى تلك الفترة :

فى مجال علم القراءات :

برز : عبد الرحمن بن عتيق بن خلف ، والقاسم بن فيرة الشاطبى الذى كان حجة فى عدد من الفنون ، وعلم الدين السخادى الذى فاق أستاذه الشاطبى ٠

ومجال علم التفسير :

برز : عالى بن إبراهيم الغزنوى أحد المبرزين من علماء حلب له : تقشير التفسير ، والجمال المصرى يونس بن بدران ، قاضى قضاة الشام ، والمرسى السلمى والإمام القرطبى صاحب التفسير الشهير ، والزمخشرى ، وابن منير السكندرى وابن النقيب ، والدميرى الديرنى والعلم العراقى وغيرهم •

وفى مجال الحديث النبوى :

برز : ابن عساكر محدث دمشق ومؤرخها ، وأبو طاهر السلفى ، وعبد الغنى المقدسى ، وابن عمته الموفق ابن قدامة ـ وإن غلب على ابن قدامة الفقه ـ وابن الصلاح ، والمنذرى ، والنووى ، والشرف الدمياطى •

وفى مجال الفقه :

برز : أبو إسحق إبراهيم بن على الشيرازى صاحب « التنبيه » فى فقه الشافعى ، والغزالى وكتبه الثلاثة الشهيرة فى الفقه : البسيط والوسيط والوجيز ، والقزوينى وكتابه : المحرر ، والنيسابوى والقفطى والبغدى ، ونجم الدين القزوينى ، وإمام الحرمين الجوينى ، وابن عصرون ، والعز بن عبد السلام وكتابه الذى قيل عنه « ليس لأحد مثله » وهو : القواعد الكبرى •

وبرهان الدين المرغينانى صاحب كتاب الهداية فى فقه الأصناف ، ومحمد بن أحمد القاضى وكتابه المبسوط فى نحو ثلاثين مجلدا ، وعبد الرحمن بن القاسم وكتابه الذائع الصيت فى فقه المالكية : « المدونة » ، وصفى الدين بن شكر وكتابه : البصائر •

والخرقى ومختصره الشهير فى فقه الحنابلة ، والشيخ الموفق وشرحه لمختصر الخرقى الذى سماه المغنى ، وابن تيمية فخر الدين الذى ألف فى فقه الحنابلة على طريقة البسيط والوسيط والوجيز ، وغير أولئك كثير كثير •

وجمال الإسلام على بن المسلم ، وكمال الدين الشهر زورى ، وبهاء الدين بن شداد ، وسلطان بن إبراهيم المقدس ، وتاج الدين بن بنت الأعز ، وجلال الدين الدشناوى وابن دقيق العيد ، والقنطى وابن سيد الناس والقرافى وابن العديم .

وفى مجال أصول الفقه وفى مجال الخلاف والجدل وفى مجال أصول الدين ، وفى مجال النحو برز : ملك النحاة الحسن بن صافى وتاج الدين الكندى والزواوى ابن عبد المعطى صاحب الألفية فى النحو ، وابن الحاجب ، وابن مالك وابن النحاس ، وفى العروض والقافية برز : ابن القطاع الصقلى وسليمان بن بنين وغيرهما .

وفى اللغة برز ابن منظور صاحب لسان العرب وابن ظفر الصقلى وابن برى وفى البلاغة برز ضياء الدين ابن الأثير وكتابه المثل السائر ، وابن أبى الإصبع وبدر الدين بن مالك وغيرهم .

وفى التاريخ برز : عز الدين بن الأثير ، وابن الصيرفى وأسامة بن منقذ وعماد الدين الكاتب وابن أبى طى والوزير القفطى وأبو شامة المقدسى وابن خلكان وابن واصل ، وفى الجغرافية : ياقوت الحموى ، وفى الفلسفة أعلام ، وفى الرياضيات والكيمياء أفذاذ وفى الفلك وفى الطب وفى البيطرة وفى السياسة وغيرها مما لا أستطيع إحصاءه .

ولعلى فى هذا الكتاب بعامة وفى هذا الباب بخاصة أكون قد أشرت إلى ذلك ونوهت به ودللت عليه ، إن ذلك لو وفقت إليه أعد نفسى به قد بلغت كثيرا مما أردت بعون من الله وتوفيق .

الفصل الأول
فن الشعر

أ ـ موضوعاته وأغراضه وفنونه :

عايش الشعر والشعراءُ أحداث الحروب الصليبية وظروفها على مستويين متميزين ، أولهما : تسجيل انتصارات المسلمين على الصليبيين فى بعض المعارك والإشادة بأولئك الأبطال الذين حققوا هذه الانتصارات ٠

والثانى : تسجيل الغضب والحقد على الصليبيين فى كل معركة يكسبونها وفى كل بلد يحتلونه ، مع الزراية بأولئك المتوحشين وذكر مثالبهم ٠

والحق أن الشعر والشعراء على كل مستوى من هذين المستويين ، كانت الروح الإسلامية هى التى تسيطر عليه وهى التى تملى وتلهم ٠

ومهما قيل عن أضرار الحروب الصليبية فى السياسة والاقتصاد والاجتماع فإن لها فائدة سياسية للعالم الإسلامى لاشك فيها ، إذ وحدت بين المسلمين الذين كانوا يعيشون فرقة وانقساما ، ويكفى للدلالة على تلك الروح الإسلامية التى سرت فى المسلمين فأيقظت مشاعرهم ووحدت إلى حد كبير صفوفهم أن نعلم أن معركة ينتصر فيها المسلمون على الصليبيين فى دمياط ـ مثلا ـ تهز بالفرح والبشر أرجاء العالم الإسلامى كله ، كما نقرأ هذا فى قول البهاء زهير ، مشيدا بانتصار الملك الكامل على الصليبيين واسترداده منهم ثغر دمياط :

وما فرحت مصر بذا النصر وحدها ... لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
فلو لم يقم بالله حق قيامه ... لما سلمت دار السلام من الذعر
واقسم لولا همة كاملية ... لخافت رجال بالمقام وبالحجر
فمن مبلغ هذا الهناء بمكة ... ويشرب ينهيه إلى صاحب القبر

ولقد بدت هذه الوحدة فى الفرحة بالانتصار كما رأينا ، كما بدت فى الحزن المخيم على العالم الإسلامى كله يوم احتل الصليبيون القدس ، نلمس ذلك فى قول شهاب الدين بن المجاور غداة ضاعت القدس من المسلمين :

لِتَبْكِ على القدس البلاد بأسرها وتعلق بالأحزان والترحات
لتبك عليها مكة فهى أختها وتشكو الذى لاقت إلى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة وتشرحه فى أكرم الحجرات

وعندما وقف الشعر يسجل انتصارات المسلمين على الصليبيين طرق فى هذا المجال موضوعات عديدة ، وكان بحق أدبا صادقا أصيلا عبر عن عوطف العالم الإسلامى فى غير تزييف أو نفاق ، أما هذه الموضوعات التى طرقها فمن أبرزها :

١ ـ إظهار الفرحة بالنصر على الصليبيين فى العالم الإسلامى كله ٠
٢ ـ الإشادة بالبطولات والأبطال فى هذه المعارك وتصويرها ٠
٣ ـ التهنئة بهذه الانتصارات ، تهنئة العالم الإسلامى كله وبعض الحكام ٠
٤ ـ تحريض حكام المسلمين على قتال الصليبيين وتتبع وجودهم والقضاء عليه ٠
٥ ـ إغراء المسلمين وقادتهم بخوض المعارك فى سبيل الله ٠
٦ ـ دعوة المسلمين إلى الاتحاد فى مواجهة الأعداء ٠

وفى كل موضوع من هذه الموضوعات صال الشعراء وجالوا وكان لهم فى ذلك قصائد ودواوين ٠

وعندما وقف الشعر يسجل غضب المسلمين على الصليبيين وكراهيتهم لوجودهم الظالم الغاشم ، طرق فى هذا المجال موضوعات عديدة كذلك ، وكان أدبا صادقا أصيلا استطاع أن يعبر عن غضب المسلمين على الصليبيين من غير تزييف كذلك ولا نفاق ، وكانت هذه الموضوعات سمة بارزة فى شعر هذه الفترة ، أما هذه الموضوعات التى طرقها فمن أبرزها :

١ ـ هجاء الصليبيين وإظهار مثالبهم وعيوبهم ووحشيتهم ٠

٢ ـ البكاء على المدن والحصون التى وقعت فى أيدى الصليبيين •

٣ ـ رثاء بعض المقاتلين والقادة الذين يقعون شهداء فى معارك الصليبيين أو فى أسرهم ويُقتلون صبرا •

٤ ـ الطعن فى النصرانية واليهودية وإظهار ما فيهما من تحريف وتزييف •

٥ ـ المقارنة بين عدل الإسلام والمسلمين وجور الصليبيين وبطشهم •

وكل هذه الموضوعات جديدة على الشعر جاءت استجابة مباشرة للحروب الصليبية ، سائرة فى هذين التيارين تيار تسجيل الانتصارات على الصليبيين وتيار تسجيل غضب المسلمين على الصليبيين الذين احتلوا الأرض واستباحوا العرض وقتلوا الشيوخ والأطفال •

وإلى جانب هذه الموضوعات وجدت موضوعات أخرى جديدة إلى حد كبير ، نرصد منها فى هذا المجال :

١ ـ الاتجاه بالمديح النبوى إلى الاستغاثة بالنبى وطلب النصر ببركته . وذلك غير جائز شرعاً ، وخصوصاً بعد وفاته ﷺ

٢ ـ ابتكار موضوع من الشعر يمكن أن نسميه شعر « طلب الفرج » إذ كثرت القصائد التى أطلق عليها : دعاء المنفرجة ، أو المنفرجة ، ودعاء المنفرجة ألفها أبو حامد الغزالى ، وأما المنفرجة فللتوزى المعروف بابن النحوى المتوفى عام ٥١٣ هـ ، وقد حظيت المنفرجة بعناية الشراح والمشطرين والمخمسين ، كما كان لابن القيم باع طويل فى شعر طلب الفرج وللبوصيرى مثله •

٣ ـ الاتجاه إلى محاربة البدع والنحل التى ظهرت فى المسلمين نتيجة لهذه الحروب ، وإمام هذا اللون من الشعر ابن القيم •

وكل هذه الموضوعات كسابقتها صادرة عن روح إسلامية جياشة رأت الغزو الصليبى لبلاد المسلمين فهالها ما رأت ففاضت قرائحها بهذا الشعر الجم المتعدد الموضوعات •

أما سائر موضوعات الشعر التقليدية من مديح وغزل ووصف وهجاء وفخر ورثاء ، فقد بقيت كما هى فى عصورها السابقة وربما دخل بعضها بعض التغيير استجابة للظروف الاجتماعية والسياسية التى يعيشها المسلمون فى ظل هذه الحروب •

ويمكن أن نجمل هذه الموضوعات التى أوحت بها الحروب الصليبية إلى الشعراء فى عنوان كبير هو : الصّراع بين الإسلام والنصرانية أو بين المسلمين والصليبيين ، ونستطيع أن نجد لهذا شعراء وقفوا جانبا كبيرا من شعرهم تحت هذا العنوان كالجلياني صاحب « المبشرات والقدسيات » وهى مجموعة من شعره قصرها على وصف الأحداث التى أدت إلى فتح القدس على أيدى المسلمين أيام صلاح الدين الأيوبى •

وكما صنع ابن القيسرانى فى مجموعة قصائده التى تسمى « الثغريات » والتى تحدث فيها عن الثغور الإسلامية التى كانت تحت سلطة الصليبيين ووصف حياتها السياسية والاجتماعية كما وصف نساء الفرنجة ونساء الروم •

أما أغراض الشعر التى دخلها فى هذا العصر نوع من التطوير فمن أهمها شعر المدح ، وشعر السياسة « الصراع بين الإسلام والنصرانية » ومنه التهانى بالفتوح والبشارات بها ، وشعر وصف حياة الفرنجة •

ونستطيع أن نتحدث عن هذا التطور فى إيجاز يناسب موضوع الكتاب فنقول :

المدح فى هذه الفترة وإن بقى جانب منه على ما كان عليه من قبل فاتجه إلى مدح الأمراء والكبراء والأغنياء والأصدقاء ، إلا أن التطور الذى حدث له انحصر ـ تقريبا ـ فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم •

فمنذ منَّ الله على البشرية بنبيها ورسولها وهاديها محمد صلى الله عليه وسلم نشأ نوع إسلامى من الشعر تميز بمدح المعصوم صلى الله عليه وسلم والإشادة برسالته وجهاده وعمله وهديه وانسحب ذلك على مبادئ الدين ونظمه وبرز فى هذا الميدان رجال معروفون بقدم فى الشعر راسخة كالنابغة الجعدى وطويلته التى مطلعها :

أتيتُ رسولَ الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتابا كالمجرة نيرّا

والأعشى ميمون بن قيس فى قصيدته التى مطلعها :

ألــم تغتمض عينـاك ليلـة أرمــدا   وعــادك ما عــاد الســليم السهــدا

والتى منها قوله :

نبــى يـرى مـا لا ترون وذكـره   أغـار لعمـرى فى البـلاد وأنجـدا

لـه صدقـات مـا تغِــب ونائـل   وليس عطـاء اليـوم مانعـه غـدا

وكعب بن زهير فى مشهورته التى مطلعها :

بانـت سعــاد فقلبـى اليـوم متبـول   متيم إثــرهــا لم يفـد مكبــول

ومنها قوله :

مهلا هداك الذى أعطـاك نافلـة الـ   ـقــرآن فيهــا مواعيظ وتفصيـل

وحسان بن ثابت رضى الله عنه شاعر النبى والمدافع عنه وعن الدين • أمام الشعراء والخطباء ، وله فى ذلك قصائد عديدة •

وقد كان حسان رضى الله عنه ـ لقربه من الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وكثرة ما قال من مدائح فى الرسول وفى دينه وخلقه ، مثلا احتذاه غيره من الشعراء الذين مدحوا النبى صلى الله عليه وسلم على مر العصور إلى أن كانت فترة الحروب الصليبية التى نتحدث عنها ، فاتخذ مديح النبى شكلا جديدا مختلفا عن ذى قبل •

ففى زمن الحروب الصليبية وجد المسلمون أنفسهم أمام عدو يتخذ الصليب شعارا والكنيسة وبابواتها قدوة ، وجدوا أنفسهم أمام عدو همه هدم الإسلام وإبادة المسلمين وتحويل المساجد كنائس ، فكان لابد لهم من الدفاع عن هذه المقدسات وكان لابد لهم من الإشادة بهذا الدين وبرسوله نبى الرحمة ونبى الملحمة ، فاتخذوا من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم منطلقا لوصفه وتعظيمه وشرح دين الإسلام وبيان ما فيه وما فى منهجه من كمال ، ثم اتخذوا من هذا المدح منطلقا للاستشفاع به والاستعانه ببركته على قتال أعدائهم أعداء الإسلام وهذا الاستشفاع وما إليه غير جائز شرعا ، وبخاصة بعد وفاته ﷺ

وظهرت فى ذلك قصائد كثيرة لشعراء أفذاذ ، فهذا هو البوصيرى يمدح الرسول ﷺ بهمزتيه التى مطلعها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

والتى تنيف على أربعمائة بيت ، وبقصيدته ذات الحظ الأوفى فى الشعر كله المسماة البردة والتى مطلعها :

أمِنْ تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعاجرى من مقلة بدم

والتى نيفت على ثمانين بيتا • وقد حظيت « البردة » باهتمام لم تحظ به قصيدة عربية فى مختلف العصور ، فمنذ القرن الثامن الهجرى « والبردة » ملء سمع المسلمين ونهبة أعينهم وموضع إعجاب الشعراء ومحاكاتهم ، فقد شطروها وخمسوها وسبعوها وعارضوها ، وكانت سببا لشيوع مدح النبى صلى الله عليه وسلم فى تلك الفترة بما لم يمدح به فترة مماثلة •

فهذا ابن حجة الحموى وذاك ابن نباتة المصرى ، وسيف الدين على بن قزعل ، وابن الساعاتى ، والشاب الظريف وعشرات من الشعراء سواهم •

بل وجد فى هذه الفترة دواوين شعر بأكملها فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم : مثل :

« أهنى المنائح وأسنى المدائح » ديوان للشهاب محمود الحلبى •

و« بشرى اللبيب بذكر الحبيب » ديوان لابن سيد الناس •

ومن أشهر مدائح النبى صلى الله عليه وسلم تائية تقى الدين السبكى الذى افتتحها بالتذكير والتحذير فقال :

تيقظ لنفس عن هداها تولت وبادر ، ففى التأخير أعظم وحشة

فحتام لا تلوى لرشد عناتها وقد بلغت من غيها كل بُغْيَة

ومما أحب أن أنبه عليه فى هذا المجال أن الشعراء لم يكونوا على مذهب واحد فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فى نهج قصائدهم ، وإنما كان منهم من يبتدئ قصيدته بالوعظ والتذكير كما فعل البوصيرى فى إحدى مدائحه التى استهلها بقوله :

إلى متى أنت باللذات مشغول … وأنت عن كل ما قدمتَ مسئول
فى كل يوم ترجى أن تتوب غدا … وعقد عزمك بالتسويف محلول

ثم ينتقل بعد ذلك إلى التعريض بأهل الديانات الأخرى ثم يخلص إلى مدح الأمة الإسلامية ثم يختم القصيدة بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

ومنهم من كان يبدأ مدائحه النبوية بالتشبيب ببلاد الحجاز والتشوق إليها وبكائها وذكر الرحلة إليها ووصف أماكنها ، ثم ينتهى إلى مدحه صلى الله عليه وسلم كما فعل البوصيرى فى بردته والشهاب محمود فى تائتيه التى مطلعها :

رأى الركائب تحدى فانثنى كلفا … صب بكى أسفا والبين قد أزفا
مغرىً بحب الحمى تهفو جوانحه … إن برقه لاح أو قمريه هتفا

ومن الشعراء من كان يبدأ مدائحه النبوية بالرد على النصارى واليهود ثم يخلص من ذلك إلى مدحه صلوات الله عليه كما فعل البوصيرى فى لاميته التى مطلعها :

جاء المسيح من الإله رسولا … فأبى أقل العالمين عقولا

ومنهم من كان يتجه رأسا إلى مدح النبى صلى الله عليه وسلم كالبوصيرى فى همزتيه وغيرها ٠

وكما فعل ابن دقيق العيد فى قصيدة له استهلها بقوله :

شرف المصطفى رفيع عماده … ليس يحصى بكثرة تعداده

هكذا تطور فن مدح النبى صلى الله عليه وسلم فى تلك الفترة ٠

غير أن طائفة من الشعراء اتخذوا مذهبا فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أساءوا فيه إلى أنفسهم أولا وإلى من يقرأون لهم ثانيا ، وذلك أنهم عمدوا إلى أن يفتتحوا قصائد مدح النبى صلى الله عليه وسلم بالغزل بل بالغزل الفاحش بل بالغـزل بالمذكر ، ثم يخلصون من ذلك إلى مدحه صلى الله عليه وسلم ٠

ومن هؤلاء العزازى ـ من شعراء القرن السابع ـ الذى استهل مدحته النبوية بقوله :

دمـى بأطـلال ذات الخـال مطلـول وجيش صـبـرى مهـزوم ومفلـول
ومن يلاقـى العيـون الفاتـكـات بـلا صبر يـدافـع عنـه ، فهـو مخـذول

ويستمر فى هذا الغزل المادى الرخيص ثم ينتهى إلى مدحه صلوات الله عليه ٠

وقد فعل ذلك ابن نباتة المصرى فى قصيدته التى مطلعها :

شـجـون نحـوهـا العشـاق فاءوا وصـب مـالـه فى الـصـبـر راء

وكذلك هبط إلى أدنى من ذلك أبو حيان النحوى صاحب التفسير حيث بدأ قصيدته بقوله :

لا تعـذلاه فمـا ذو الحـب معـذول العقـل مختبـل والقلـب متبـول
هـزت لـه أسمـرا من خوط قامتهـا فمـا انثنى العـبـه إلا وهـو مقتـول
جميلـة فُصـل الحسـنُ البـديع لهـا فكم لهـا جمـل منـه وتفصيـل

ومما ضل فيه بعض شعراء المدائح النبوية أنهم أخذوا يتغزلون بذات الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويذكرون حسنه وجماله وبهاءه ، كما فعل البوصيرى فى قصيدتـه التـى مطلعها :

نبـى كامـل الأوصـاف تمت محاسـنـه فقيـل لـه الحبيب
وصفـتُ شمائـلا منـه حسانـا فمـا أدرى أمـدح أم نسيب

وكما فعل الصرصرى فى قصيدته التى مطلعها :

أوجهـك أم ضوء الصــبـاح تبلجـا   أم البـدر فى برج السماء محـا الدجى

ولقد استنكر بعض علماء هذه الفترة وأجلائها هذا الأسلوب ، ورموا أصحابه بفساد الذوق واختلال الفكر ، والضلال عن الحق •

وأما شعر السياسة أو شعر الصراع بين الإسلام والنصرانية ، فقد شمر له الشعراء ، وأعطوه من عواطفهم الدينية كفاء ما أملت عليهم تلك الحروب ، من إحساس بأن هؤلاء الصليبيين يستهدفون دينهم قبل دنياهم وأرضهم ، ويعادون الإسلام قبل أن يعادوا المسلمين •

انطلق الشعراء فى هذا الضرب من الشعر يتحينون كل فرصة ليشيدوا بانتصار المسلمين على الصليبيين وبسماحة الإسلام وتوحش النصارى وبربريتهم فيمدوحون قادة المسلمين الذين واجهوا الصليبيين ووحدوا صفوف المسلمين وحققوا النصر على أعداء الإسلام ، كعماد الدين زنكى وولده نور الدين محمود ، وصلاح الدين والعادل والكامل ، وقلاوون وابنه الأشرف خليل •

كما يظهرون فرحهم بمقتل قادة الصليبيين أو وقوعهم فى أسر المسلمين أو فرارهم أمام المسلمين •

نلمس ذلك فى شعر غير واحد من الشعراء ، فهذا ابن القيسرانى تنطلق شاعريته سخية أتية غداة انتصر عماد الدين زنكى على الصليبيين فاستعاد منهم الرها فيقول :

سمـت قبـة الإسـلام فخـرا بطولـه   ولم يـك يسـمـو الـدين لولا عمـاده

ومنها فى الإشادة بالفتح والسخرية من الصليبيين وتسميتهم « علوجا » :

لقـد كان فى فتـح الـرهـاء دلالـة   على غير ما عـنـد العلـوج اعتقـاده

يرجـون ميـلاد ابـن مـريم نصرة   ولـم يغـن عنـد القـوم عنـه ولاده

ومنها فى أسراهم ووجوب استسلامهم وتسليم ما بأيديهم من مدن المسلمين :

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها لقد ذل غاويكم وعز رشاده
رويدكم لا مانع من مظفر يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأى لو أن عزمه رمى سدً ذى القرنين أحمى سداده

وهذا ابن منير الطرابلسى يشيد بنور الدين محمود ويعتز بأنه استطاع أن يهدم الكنائس ويحطم الصُّلب فيقول :

يا لها همة ثغر أضحكت من بنى القلف ثغور الشامتين
كم كنيس كنستْ قدرامها منه بعد الروح فى ظل السينن
ومنار يجتلى صلبانه بين بيض تتبارى فى البرين

ومن شعر السياسة فى تقديرى شعر التهانى والبشارات ، فهو نمط من الشعر أدخل فى السياسة منه فى أى غرض آخر .

وشعر التهانى بالفتوح ، والبشارات بالانتصارات ، قد وجد فى أحداث تلك الفترة وتلاحق معاركها التى يحقق المسلمون فيها نصرا تلو نصر ، ويستردون ثغرا وراء ثغر ومدينة فى إثر مدينة ، وجد الشعر فى ذلك مجالا يعبر فيه بصدق وحرارة عن روح الأمة الإسلامية المعتزة بهذه الانتصارات ، التى أدركت أنها ما حققت النصر على الصليبيين فى معركة مًا ، إلا برفع راية الجهاد فى سبيل الله ، وبقتال الصليبيين صفا كالبنيان المرصوص .

حقا أعادت هذه الانتصارات للمسلمين ثقتهم فى أنفسهم وملأت نفوسهم أملاً فى القضاء النهائى على هذا العدو الغاصب الرجيم .

فعندما انتصر نور الدين على الصليبيين وكسرهم فى بغراس وقُتل البرنس وحملت رأسه على أسنة الحراب ، سجل ذلك ابن منير الطرابلسى فى قوله :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته وعلا الهدى وتبلجت قسماته

ومنها قوله :

صـدم الصـليب على صلابـة عـوده فتفرقـت أيـدى سبـا خشباتُـه
وسقـى البـرنس وقـد تبـرنس ذلـةً بالـروح ممقـر[1] ما جنـت عذراتـه

وعندما انتصر صلاح الدين انتصاره التاريخى على الصليبيين فى حطين ، ذلك الانتصار الذى أعقبه استرداد بيت المقدس بعد أن بقى مائة عام فى أيدى الكفرة الصليبيين ، نظم الحكيم أبو الفضل بن حسان قصائد عديدة فى هذه المناسبة التاريخية وسماها « القدسيات » جاء فى إحداها قوله مخاطبا صلاح الدين :

يا فاتـح المسـجـد الأقصى على بهم وقـانص الجيش لا يحصى بقفزتـه
أبشر بملك كظهـر الشـمس مطلـع على البسيطـة فتـاح بنشرتـه
حتـى يكون لهـذا الـدين ملحمـة تحـكى النبـوة فى أيـام فترتـه

وقال أبو على الحسن بن على الجوينى فى هذه المناسبة قصيدة منها :

هـذى الفتـوح فتـوح الأنبياء ومـا لهـا سوى الشـكر بالأفعـال أثمـان
أضحت ملوك الفرنـج الصيد فى يـده صيـدا ومـا ضعفـوا يومـا ومـا هانـوا

ولقد كثر الشعر فى هذا الفتح إلى حد كبير ، حتى إن معظم شعراء العصر قد شاركوا فى التهنئة بهذا الفتح العظيم الذى أعقب كسر الصليبيين فى حطين .

وهذا العماد الكاتب يدلى بدلوه فيقول قصيدة تُعد من أشهر ما قال جاء فيها :

يا يوم حطـين والأبطـال عابسة وبالعجاجـة وجـه الشـمس قد عبسا
رأيت فيهـا عظيم الكفـر محتقرا معفـرا خده والأنف قد تعسا
يا طهر سيفٍ ترَى رأس البرنس فقد أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا

١ ـ بمعنى شديد .

ومنها قوله :

أفناهم قتلهم والأسر فانتكسوا   وبيت كفرهم من خبثهم كنسا

وللعماد فى هذا المقام قصائد عديدة كلها تفيض حمية إسلامية وتحمل البشرى إلى المسلمين فى العالم كله بهذا الفتح العظيم .

وللنسابة المصرى محمد بن أسعد الجوانى قصيدة جاء فيها :

أترى مناماً ما بعينى أبصر   القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقمامة قُمَّتْ من الرجس الذى   بزواله وزوالها يتطهر
ومليكهم فى القيد مصفود ولم   ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذى   وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشآم وطهر القدس الذى   هو فى القيامة للأنام المحشر

وللعماد الكاتب قصيدة فى التهنئة بانتصار المسلمين فى حوران على الروم يقول فيها مهنئا نور الدين محمود بهذا النصر : منها :

يا خيبة الإفرنج حين تجمعوا   فى حيرة وأتوا إلى حوران
وجلوت ـ نور الدين ـ ظلمة كفرهم   لما أتيت بواضح البرهان
أصبحت للإسلام ركنا ثابتا   والكفر منك مضعضع الأركان

وفيها إشارة إلى وحدة المسلمين من كل جنس لمواجهة الصليبيين فى قوله :

للروم والإفرنج منك مصائب   بالترك والأكراد والعربان
أذعنت لله المهيمن إذْ عنت   لَهُ أوجه الأملاك بالإذعان
سِيرٌ لو أن الفتح ينزَّل أنزلت   فى شأنها سور من القرآن

ولابن الساعاتى قصيدة جيدة وقد دخل طبرية بعد أن فتحها الله على صلاح الدين الأيوبى ، فيها :

جلـت عزماتـك الفتـح المبينا فقـد قرت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الإسـلام لما غدا صرف القضـاء بهـا ضمينا
وهـان بك الصـليب وكان قدما يعـز على العـوالى أن يهونا

وهذا رشيد بن بدر النابلسى يتحدث عن فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، فيذكر أنه كان حلما يداعب كل مسلم ، وأملا يراود كل شاعر من شعراء المسلمين ، فيشيد بصلاح الدين الذى تحققت على يديه الآمال ، فيقول فى قصيدة « قدسية » :

هـذا الـذى كانـت الآمـال تنتظر فليُوفِ لله أقـوام بمـا نـذروا
بمثـل ذا الفتـح لا والله ، ماحكيت فى سالف الدهـر أخبـار ولاسِيَرَ
حَيْـنٌ به حان هلك المشركين فيا لله طيبُ العشـايا منـه والبكـر
الآن قرت جنـوب فى مضاجعها ونـام من لم يزل حلفـا له السهر
يا بهجة القـدس إذ أضحى به علـم الإسـلام من بعد طىّ ـ وهـو منتشر
يا نور مسجده الأقصى ، وقـد رفعت بعـد الصـليب به الآيات والسور
شتـان مابـين ناقـوس يدان به وبـين ذى منطـق يصغـى له الحجـر
الله أكبـر ، صوت تقشعـر لـه شم الـذرا ، وتـكاد الأرض تنفطر

أما الشعر الذى وصف به الشعراء حياة الفرنجـة فأود أن أوضح أنه لم يكن قصد الشعراء هو وصف حياة الفرنجة ، بمقدار ما كان شعرا يصور ملاحم بطـولية خاضهـا المسلمون ضد الصليبيين ، ولكن عندما تحدث الشعراء عن تلك الملاحم وصفوا فيها حياة الفرنجة وتحدثوا عن عاداتهم وتقاليدهم ، وأدلوا الحديث عن أخلاقهم أهمية خاصة ، نظرا لما تميزت به أخلاقهم من غدر وخيانة وتجبر عند القدرة وذلة ومهانة عند العجز ، ونكث بالعهود وخلف للوعود .

على أن عددا من الشعراء كابن القيسراني اهتموا بالحديث عن نساء الفرنج وتغزلوا بهن ، ومنهم من قال فأفحش ، مما نمسك عن ذكره هنا ، إذ لا فائدة ترجى من ورائه ، وشعر الجد فى هذا المجال يغنى عن سواه •

وبعض الشعراء اهتموا بأن يتحدثوا عن عقائد الصليبيين وعاداتهم الدينية واحتفالاتهم ، وقارنوا ذلك بما للمسلمين من عقائد تقوم على التوحيد وعادات تقوم على مكارم الأخلاق •

يقول ابن القيسرانى واصفا غدر القمص ونكثه وخيانته وتجبره فى غيبة نور الدين :

وأرى صياح القمص كان خديعة ... فطغى وجار وليس ثم وجارُ
خان الصنيعة غير محقوق بها ... والخير يهدم مابنى المختار
ذئب إذا ما غبتَ أقدم عابثا ... إقدام من لم يدنُ منه قرار

وكان من أشد مقاتلى الصليبيين فئتان الداوية أو فرسان المعبد والاسبتارية

وقد ورد ذكر كل طائفة منهما فى شعر شعراء المسلمين فى معرض الحديث عن جبنهم وهزيمتهم •

قال فى ذلك ابن رواحة الحموى يمدح صلاح الدين ويعرض بجبن الراوية :

أرى داوية الكفار خافت ... به داءً يضعف كل متن
أبَوْا نَسْلاً مخافة نسل بنت ... تفارق دينهم أو قتلة ابن
فقد عقموا به من غير عقم ... كما جبنوا به من غير جبن

ووصف أبو الفضل الجليانى صاحب القدسيات والمبشرات جبن الداوية يوم وقعة تل حطين فقال :

ووقعة يوم التل إذ قبضت به ... جبابرة الإفرنج حيرى وشُرَّدا
ترى المنسر الديوى يلقى سلاحه ... وينساق مابين السبايا ملهدا

وأما الاستبارية فقد ورد ذكرهم فى شعر العماد الكاتب وزير صلاح الدين عندما اقترح على صلاح الدين أن يقتلهم فهم أهل غدر بالمسلمين ، فقال :

فسروا فتح القدس واسفك به دماءً ، متى تجرها ينظف
وأهد إلى الاستبار البتا ر وهدً السقوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلا د يخلصك ربك فى الموقف

قال ابن واصل : « ورأى صلاح الدين أن المصلحة تقتضى تطهير البلاد من هاتين الطائفتين ـ بإحضار كل داوى واستبارى يعثر عليه ليمضى فيه حكم السيف ، وجعل لكل من يأتيه بأسير منهما خمسين دينارا ٠

وماضرب عنق أحدهم حتى عرض عليه الإسلام ، فامتنعوا إلا بعض الأفراد الذين أسلموا وحسن إسلامهم » (١)

وتحدث الشعراء عن عقائد النصارى وتثليثهم ، وعقائدهم الزائفة فى وصف الرب بما لايجوز وصفه به ٠

قال العماد الكاتب فى حديثه عن تثليثهم : من قصيدة له جاء فيها :

ولا يفتح البيت المقدس غيركم وبيتكم من كل عاب مقدس
لهم كل يوم فى جهاد مثلًث إذا نصروا التوحيد فيئ مخمسً

وقال أبو الفضل الجيلياني فى مدح صلاح الدين قصيدة جاء فيها وصف لزائغ عقائد الصليبيين :

يامنقذ القدس من أيدى جبابرة قد أقسموا بذراع الرب تدخله
فأكذبوا كذبهم فى وصف ربهم وصدّق الوعدَ مأمونا محوله
هاج الفرنج وقد خاروا لفتكته فاستنفروا كل موهوب تغلغله

١ ـ ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ـ تحقيق د ٠ جمال الدين الشيال جـ ٢ ص ١٩٦ ط القاهرة ١٩٥٧م ٠

لما سبى القدس قالوا : كيف نتركها والرب فى حفرة منها تمثله
فكم مليك لهم شق البحار سرى لينصر القبر والأقدار تخذله

وما أكثر ماتحدث شعراء المسلمين عن الصليب وكيف نكس ، فلما فتح صلاح الدين بيت المقدس ، وخرب بيت الأحزان أحد حصون الصليبيين ويسمى حصن المخاض ، قال ابن الساعاتى مخاطبا صلاح الدين :

وقفتَ على حصن المخاض وإنه لموقف حق لا يوازيه موقف
وما رفعت أعلامك الصفر ساعة إلى أن غدت أكبادها السود ترجف
كبا من أعاليه صليب وبيعة وساد به دين حنيف ومصحف
صليبية عبّاد الصليب ومنزل الـ ـنزال ، لقد غادرته وهو صفصف
نصحتكم ، والنصح فى الدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف [1]

وهكذا وقف الشعر يصف حياة الفرنجة فى ثنايا المدح والشعر السياسى الذى تناول الصراع بين المسلمين والصليبيين والتهانى والبشارات ، فكان الشعر فى المعركة يسجل وينقل ويثير ويشجع •

أما فنون الشعر فى هذه الفترة فقد دخلها تطور يجدر بنا أن نلحظه ونتحدث عنه •

قال صفى الدين الحلى : « ومجموع فنون النظم عند سائر المحققين سبعة فنون ، لا اختلاف بين أهل البلاد ، وإنما الاختلاف بين المغاربة والمشارقة فى فنين منها ـ وسيأتى ذكرها ـ

والسبعة المذكورة هى عند أهل المغرب ومصر والشام :

١ ـ الشعر القريض •

٢ ـ والموشح •

٣ ـ والد وبيت •

---

١ ـ يقصد ببيت يعقوب : أرض القدس ، وبيوسف : صلاح الدين فذاك اسمه •

٤ ـ والزجل •

٥ ـ والمواليا •

٦ ـ والكان كان •

٧ ـ والحماق •

وأهل العراق وديار بكر ومن يليهم يثبتون الخمسة منها ، ويبدلون بالزجل والحماق : الحجازى والقوما ؛ وهما فنان اخترعهما البغاددة للغناء بهما فى سحور شهر رمضان خاصة فى عصر الخلفاء الراشدين من بنى العباس (١)

وهذه الفنون منها ما هو معرب ومنها ما هو ملحون ، يقول الحلى :

« هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبدا لايغتفر فيها اللحن وهى :

١ ـ الشعر القريض •

٢ ـ والموشح •

٣ ـ والدو بيت •

ومنها ثلاثة ملحونة أبدا وهى :

١ ـ الزجل •

٢ ـ الكان كان •

٣ ـ القوما •

ومنها واحد هو البرزخ بينهما ، يحتمل الإعراب واللحن ، وإنما اللحن فيه أحسن وأليق وهو : المواليا (١)

وقد حدث فى هذا تطور على النحو الذى سنبينه ، وهو تطور شمل اللغة والـوزن والقافية •

---

١ ـ صفى الدين الحلى : العاطل الحالى والمرخص الغالى • ص ٧ منه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية توفى صفى الدين الحلى سنة ٧٥٠ هـ •
٢ ـ السابق ص ٨

وهناك تطور آخر شمل هيكل الأوزان الشعرية المعروفة ، تمثل فى محاولة أن يجد الشعراء فى البحور الشعرية الستة عشر المعروفة مجالا ليستنبطوا منها بحورا جديدة ، فعكسوا دوائر البحور المعروفة ، فكان لهم من هذه المحاولات بحور جديدة عدها بعضهم ستة بحور هى :

١ ـ المستطيل ·

٢ ـ والممتد ·

٣ ـ والمتئد ·

٤ ـ والمنسرد ·

٥ ـ والمتوافر ·

٦ ـ والمطرد ·

ولنتحدث الآن عن التطور الذى حدث فى فنون الشعر فى هذه الفترة ·

أما الشعر القريض :

وهو الشعر العمودى الذى ورثته هذه الفترة عن العصور السابقة فقد استمر على ما كان عليه إلى حد كبير ، وكل ما جد فيه أو دخله من تطور هو أن بعض الشعراء أضافوا إليه بعض المعانى التى ولدوها والتى دعتهم إليها ضرورات حياتهم وعصرهم ، كما جددوا فى بعض الأساليب التعبيرية وكان تجديدا يميل إلى تجاهل الفصيح واستعمال العامى من الألفاظ ·

وقد أغرم بهذا التجديد عدد كبير من الشعراء ، فدخلت فى أشعارهم كلمات عامية وتعبيرات « شعبية » كما نجد ذلك فى شعر كبار شعراء هذه الفترة من أمثال العماد الأصفهانى وابن القيسرانى وابن عنين وغيرهم ، نعم لم ينزلوا إلى العامية المخالفة لقواعد اللغة ولكن إلى عامية حرصوا هم على أن يعربوها ، غير أن هذا التبسط فى نقل كلمات السوقة إلى العربية لم يعجب النقاد ولم يرض أذواق الخاصة وإن كان قد سرى فى الشعر وبلغ فيه حدا جعل العصور التالية تشكو من ذلك وقد أصبح تيارا يجرف أمامه كثيرا من

الفصيح من الكلمات ، كما رأينا بعد ذلك بقليل فى شعر أبى الحسين الجزار والحمامى وابن دانيال وغيرهم •

كما أن هناك ظاهرة هامة بدت فى شعر القريض وفى غيره من فنون الشعر وهى ظاهرة الإكثار من المحسنات البديعية إلى حد الإسراف ، وقل أن تجد شاعرا من شعراء هذه الفترة إلا أغرم بالبديعيات ، حتى إن بعضهم كان ينشئ القصيدة لا هدف له منها إلا حصر البديعيات ، حتى لقد عرف هذا العصر بعصر البديعيات ، واشتهرت فيه قصائد بعينها دارت حول المديح النبوى وتضمنت ألوانا من البديع حتى طغى البديع فى بعضها على الموضوع نفسه •

ومن أشهر هذه البديعيات :

بديعية صفى الدين الحلى •

وبديعية ابن جابر الأندلسى •

وبديعية ابن حجة الحموى •

كما يجب أن نلحظ فى الشعر فى هذه الفترة ظاهرة لاتقل أهمية عن شيوع العامية والإسراف فى استخدام ألوان البديع تلك هى : شيوع النظم وكثرة محترفيه ، وقد يكون هذا النظم على حساب الشعر الأصيل القادر على نقل الأحاسيس ، ولكنه ظاهرة فشت فى تلك الفترة لابد من تسجيلها ولو حسبت على العصر كله وعدت من سلبياته •

وربما كان شيوع النظم نتيجة لقلة عدد الشعراء الذين يقفون أنفسهم على قرض الشعر ويعيشون من ورائه ـ كما كانت الحال فى عصور سلفت ـ وربما كان نتيجة لأسباب أخرى لا أستطيع هنا أن أستقصيها •

وقد شاع النظم بين العلماء والفقهاء والقضاة وبخاصة علماء النحو اللغة والقراءات ، كما شاع بين عدد من أصحاب الحرف الذين نالوا خطأ غير قليل من العلم والمعرفة •

ومن مشاهير النظامين فى تلك الفترة : ابن دقيق العيد ، وابن سيد الناس ، وصدر الدين الوكيل ، ومحيى الدين بن عربى وتقى الدين السبكى ، وأبو حيان أثير الدين ، وتاج الدين السبكى ، وابن مالك النحوى وابن معط النحوى وغيرهم ٠

ولقد كان ضروريا أن يكثر فى نظم هؤلاء النظامين مصطلح العلوم التى يمارسون كثرة ربما تخرج به عن حد القبول ، عبر عن ذلك الصلاح الصفدى حين قال :

« وكل من عانى النظم وغلب عليه فن من الفنون مال به إلى ذلك الفن وغلبت عليه قواعده ، واستعملها فى مقاصدها الشعرية وتخيلات معانيه ، وظهر على مايرويه اصطلاح ذلك الفن وأحكامه ، ألا ترى إلى الفتح البستى ومقاطيعه المشهورة فى الآداب والحكم كيف يغلب عليها ألفاظ المنجمين » (١)

ومن غير اللازم أن ننوه إلى أن هذا النظم لم يرق إلى مستوى الشعر ، فذلك أنه معروف لدى معظم دارسى الأدب ، إذ يقف النظم رهن الوزن والقافية لايتجاوزها إلى تعبير عن عاطفة أو إحساس ، أو إلى صور أدبية رفيعة كما يحاول الشعر أن يحلق فى هذه الأجواء ٠

ومن الظواهر الشعرية الجديرة بالتسجيل فى هذه الفترة أن عددا من الشعراء اشتهروا بين الشعراء بأنهم أصحاب قصيدة واحد مشهورة جيدة ، ولقد كان أصحاب هذه الواحدة أعلاما فى تلك الواحدة وبلغوا فيها من الجودة حدا ، جلب إليها اهتمام الشعراء والنقاد والشراح ، فكانت هذه الواحدة كثيرا ماتشرح وكثيرا ماتعارض ، وكثيرا ماتشطر أو تخمس ٠

ومن أصحاب هذه الواحدة :

الطغرائى فى لاميته المسماة : لامية العجم ٠ التى مطلعها :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل ٠٠٠٠٠٠٠٠ وهى أشهر شعر ديوانه ٠

---

١ ـ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى : شرح لاميه الطغرنى : ١٢٤/١

ومنهم : ابن الفارض الذى قال عنه الذهبى : « كان سيد شعراء عصره وشيخ الاتحادية ، وماثَمَّ إلا زِىّ الصوفية وإشارات مجملة ، وتحت الزىّ والعبارة فلسفة وأفاع »

وقد اشتهرت لابن الفارض واحدة هى التائية الصوفية الكبرى التى بلغت سبعمائة وستين بيتا ، وتائية صغرى ، فضلا عن ديوان كبير الحجم ٠

ومنهم : الخيمى وبائيته التى مطلعها :

يامطلبا ليس لى فى غيره أرب

ومنهم : البوصيرى فى بردته التى مطلعها :

أمن تذكر جيران بذى سلم

هذا عن شعر القريض ٠

أما الموشح ، فقدْ كان فنا شعريا معروفا فى الأندلس العربية المسلمة منذ زمن بعيد ، ثم انتقل إلى المشرق ، يقول ابن بسام : « انتشرت الموشحات فى الأندلس بعد أن لقيت الاستحسان والقبول ، وحاول الشعراء فى القرن الرابع الهجرى أن يبلغوا بها مستواها الفنى اللائق ، وكانت محاولاتهم خلال هذا القرن تتعثر ، وتلقى بعض المقاومة حتى جاء : عبادة بن ماء السماء [1] فكان شيخ الصناعة وإمام الجماعة ، سلك إلى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرائبه : مرحبا وأهلا [2]

فلما كان ابن سناء الملك انطلق عليه فن الموشحات إلى قمة النضج ٠

وقد أرخ صلاح الدين الصفدى للمشاهير من أصحاب الموشحات بمصر والشام [3]

وأما فى هذه الفترة التى نتحدث عنها فقد طبعت الموشحات بطابع صوفى حينا وبطابع زهدى حينا آخر ، وقد اشتهرت موشحات ابن عربى على مافيها من شطحات صوفية ملغزة غالبا ، مغرقة فى التفلسف والغزل بذات الله ، وهو مما لا يليق ، كما اشتهرت موشحات الشهاب التلعفرى ، والسراج المحار وغيرهم ٠

---

١ ـ هو رأس الشعراء فى الدولة العامرية فى الأندلس ت ٤٢٢ هـ ٠

٢ ـ ابن بسام : الذخيرة : ح ٢ ص١

٣ ـ صلاح الدين الصفدى : توشيع التوشيح : ص ٣٨ ٠

على أن موشحات أخرى قد اشتهرت واشتهر أصحابها فى هذه الفترة فهناك موشحات غزلية وموشحات مدحية وموشحات خمرية ٠

ومن موشحة للشهاب التلعفرى فى مدح الأديب شهاب الدين العمادى العزازى ، جوابا عن الموشحة التى كتبها إليه ، قوله :

بحـــر آداب وفضـــل قد طما فاخش من تيـــاره الملتطم

العمادى الشهـــاب التاقب

شكره فرض علينـــا واجب

فهو إذ تبلوه نعم الصاحب

سهمـــه فى كل فن صائب

جائـــل فى حلبـــة الفضـــل كما جال فى يوم الـــوغى شهـــمٌ كمى

شاعـــر أبـــدع فى أشعاره

ومتـــى أنـــكرت قولى باره

لو جرى مهيار فى مضماره

والخوارزمـــى فى آثاره

قلـــتُ : عودا وارجعـــا ، من أنتما ذا امـــرؤ القيس إليـــه ينتمـــى (١)

ولقد اتصفت الموشحات عموما بالاهتمام بالبديعيات ، ومنها ما ظهر فيـه التـكلف والتصنع ٠

وأما الدوبيت وذاك اسمه الذائع وإن كان غير عربى التسيمة ٠ أما اسمه العربى فهو « الرُّبَاعِى » وإنما سماه العرب بذلك لأنه يتكون من مصاريع أربعة ، وقد سمـوا الواحدة منه « رباعية »

وكلمة « الدوبيت » فارسية تعنى ، بيتان وهو معروف فى الفارسية منذ زمن سابق على معرفة الأدب العربى له ٠

---

١ ـ ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات : ٣٥١/٢ ٠

وقد اهتم شعراء هذه الفترة بهذا النوع من الشعر وأكثر بعضهم من نظمه بل كان لبعض الشعراء فيه دواوين مستقلة ، كما ذكر ابن خلكان عن الشهاب الشاغورى وقال : نظم ديوانا خاصا جميع مافيه دوبيت [1] وقد رآه بن خلكان ونقل عنه .

كما ذكر ابن خلكان أن للعماد الكاتب « ديوان صغير ، جميعه دوبيت » [2]

وقد نقل أبو شامة فى الروضتين من ديوان العماد الكاتب أبياتا فى الجهاد قالها العماد على لسان الملك العادل نور الدين منها :

للغـزو نشاطـى وإليـه طربى   مالى فى العيش غـيره من أرب
بالجـد بالجهـاد نجـح الطلب   والراحـة مستودعـة فى التعب

* * *

لاراحـة لى فى العيش سوى أن أغزو   وسيفـى طربـا إلى الـطلى يهتز
فى ذل ذوى الكفـر يكـون العز   والقـدرة فى غـير جهـاد عجز

* * *

أقسمـت سوى الجهـاد مالى أرب   والراحـة فى سواه عنـدى تعب
إلا بالجـد لاينـال الطلب   والعيش بلا جهـادٍ جدٍّ لعـب [3]

وأنواع الرباعى ثلاثة :

أولها : يكون بأربع قواف مثل « المواليا » الآتى ذكره بعد .

وثانيها : يكون بثلاث قواف ويسمى الأعرج .

وثالثها : يكون بأربع قواف ويسمى المردوف .

وكل الثلاثة الأنواع على وزن واحد ، قال صفى الدين الحلى فيه : « ويتميز من غيره لتحليه بالإعراب ونسجه على منوال لفظ الأعراب » [4]

---

١ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٤٠٨/١ .

٢ ـ السابق : ٧٧/١

٣ ـ أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين : ٢٠٧/١ .

٤ ـ صفى الدين الحلى : العاطل الحالى : ٦ .

ومن أمثلة الأعرج منه قول الشاب الظريف :

قاسيت بك الغرام والهجر سنينْ   مابين بكا وأنين وحنينْ
أرْضينك ولاتزداد إلا غضبا   الله ـ كما أبلى بك القلب ـ يعينْ (١)

ولعل الإقبال الذى حظى به الرباعى يعود إلى أن بعض الشعراء رغبوا فى أن يتخففوا من قيود القافية ، وقيود الوزن ، أما القافية فمن الواضح أن الشعر الرباعى أيسر وأهون • وأما الوزن فإنه لايتقيد بالأوزان المعروفة وإنما يخضع لأوزان كثيرة أشهرها كما قال الرجوى :

فعلن متفاعلن فعولن فَعلن (٢)

كما كان هذا الفن من الشعر أكثر ملاءمة للغناء والتلحين •

وتلك هى الثلاثة المعربة أبدا التى لايغتفر فيها اللّحن من فنون الشعر وهى : الشعر القريض والموشحات والرباعى •

أما الأربعة الباقية كما عدها الحلىِّ : فهى :

الزجل :

وهو من فنون الشعر ملحون أبدا يلتزم العامية غير المعربة ، وهو من الفنون الشعرية التى ولدت فى الأندلس وواكبت الموشح أو ظهرت بعده بقليل فى أواخر القرن الرابع الهجرى •

وفى القرن الخامس الهجرى استطاع الزجال المشهور أخطل بن نمارة أن يخلص الزجل من الموشح ، وأن يظل الموشح فصيحا بينما يبقى الزجل ملحونا •

وفى القرن السادس الهجرى برّز فيه زجاّل عصره أبو بكر بن قزمان وخليفته مدغليّس أحمد بن الحاج •

---

١ ـ ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات : ٢/٢٦٧ •

٢ ـ الرجوى محمد بن مرزوق : بلوغ الأمل فى بعض أحمال فن الزجل : و١٩ مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم : ١١٨٢

ووفد الزجل على المشرق فى الفترة التى نتحدث عنها وهى فترة الحروب الصليبية ، وقد أغرم به المتصوفة على وجه الخصوص ، ولبعضهم فيه إنتاج معروف كابن عربى والتسترى على بن عبد الله المتوفى ٦٦٨ هـ ، ثم اشتهر فيه غيرهم كعلاء الدين بن مقاتل والأمشاطى ، وقد قال ابن حجر عن الأمشاطى : « كان قيم الشام فى وقته فى الأزجال والبلاليق ونحو ذلك مات فى شهر رمضان سنة ٧٢٥ هـ ولم يكمل الستين واشتهر له الزجل الذى عايا فيه ابن مقاتل وأوله :

لك خد ما أح قد حاز ملحْ
روضو اصطبح فيه واعتبقْ
خال من سبح أسبى المهجْ
زهرو خرج أظهر فرجْ

من هام به ليس يلام

ولقد أوضح لنا الفرق بين الزجل والموشح ، وبين الزجل والبليق ، صفى الدين الحلى حينما أوضح أنهم سمّوا « كل ما أعرب موشحاً وكل ما خلا من الإعراب زجلا ، وما اشترك فيه الإعراب واللحن مُزَنَّمًا فى أى فن قصد الناظم » .

ثم قال : « وقد قسموه على أربعة أقسام يفرق بينها بمضمونها المفهوم لا بالأوزان واللزوم ، فلقبوا ماتضمن الغزل والنسيب والخمرى والزهرى : زجلاً ، وماتضمن الهزل والخلاعة والإحماض : بليقاً ، وما تضمن الهجاء والثلب : قرقيا ، وما تضمن المواعظ والحكمة : مكفرا ، وأطلقوا على كل ما أعرب بعضُ ألفاظه من هذه الفنون لقب : المزنمّ » (١)

والزجل بصفة عامة لغة الفئات الشعبية من أصحاب الحرف ، ولا يزال رائجا فى العالم العربى وبخاصة فى مصر فى وقتنا هذا

---

١ ـ صفى الدين الحلى : العاطل الحالى : ١٠ ـ ١٢ باختصار .

وأما الكان وكان : فسمي بهذا الاسم لأن شعراءه كانوا ينظمون فيه الحكايات والخرافات فى بداية الأمر عندما ظهر فى بغداد .

فلما كان ابن الجوزى وشمس الدين الكوفى نظما فيه المواعظ والحكم [1]

وفى مصر ظهر نظير لهذا الفن الشعرى سمى الزكالش ، قال على ابن ظافر : « وأخبرنى بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن رزيك أنشد بمجلسه بيتا من الأوزان التى يسميها المصريون « الزكالش » ويسميها العراقيون « الكان وكان » .

ولاقى هذا النظم رواجا فى العراق والشام ، وكان محدود الانتشار فى مصر والشكل المعتاد له فى العراق يمثله قول البغدادى :

لما تزايد وجدى فيكم وقل اصطبارى
وعرفتكم عداىْ وقلت الحركات

* * *

يا حاضرين بقلبى يا غائبين عن النظر
متى يجينى مبشر من عندكم بقدومكم
ويفرحون أصدقائى وأكمد الشمات

* * *

حتى تدق طبول الهنا وتفتح أبواب الرجا
وأقول للعين قرى قد رد ما قد فات

وساعد هذا الوزن ، مع سهولة القافية لتعاقبها كل ثلاث شطرات على نظم الحكايات والقصص والأحداث ، وقد سجل فيه التاريخ جماعة من الناظمين فى وقعة الأمير قوصون سنة ٧٤٢ هـ [2]

---

١ - تاريخ الموصل : ص ٨٢ .

٢ - ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : ٤٨/١٠ . ط دار الكتب بالقاهرة .

وأما الحماق : فنوع من الشعر ملحون أبدا ، يتضمن الهزل والخلاعة والأحمـاق أو الهاجاء والثلب ، ويسميه صفى الدين الحلى إذا تضمن الهزل والخلاعة والأحماق يلقيا ، وإذا تضمن الهجاء والثلب : قرقيا •

أما المحبى فى خلاصة الأثر فإنه يسمى ماتضمن الهجاء والثلب « الحماق » وهو هو الذى يسميه الحلى « قرقيا » •

والحق أن التحديد الدقيق لهذه الفنون الشعرية العامـة خاف حتـى على العلماء والخاصة ، ولعل سبب ذلك أن الأمور قد اشتبهت عليهم وأن الأسماء قد كثـرت وأن الفروق قد لطفت ودقت •

وربما كان الهزل والخلاعة والأحماق والهجاء والثلب موضوعا لشعر الحماق ، فاختلطت البلقيات بالحماق •

وهذه الثلاثة : الزجل والكان وكان والحماق ـ ملحونة أبدا كما أشرنا إلى ذلك آنفا •

وأما البرزخُ بين هذه الثلاثة الملحونة وتلك الثلاثة المعربة فهو« المواليا » وهو نوع من الشعر يرد فيه الإعراب واللحن وإن كان يغلب عليه الفصيح ، وهو يجرى على وزن واحد ، ولكنَّ له أشكالا خاصة فى القافية •

والمؤرخون يرون أن المواليا نشأ فى العراق فى القرن الخامس الهجرى وبعضهم يرى أنه عرف منذ القرن الثانى الهجرى على عهد هارون الرشيد •

وهو فن عراقى النشأة على كل حال ، ثم وفد إلى مصر وفيها تأصل وأصبحـت له مكانة •

ويعلل صاحب تاريخ الموصل لتسمية المواليا فيقول : « إن أهل واسط هم الذين أحدثوا المواليا ، فنظموا فيها الغزل ، وتناولها العبيد والغلمان لسهولتها فصاروا يتغنون بها فى بساتين النخل وسقى الأراضى وكانوا يقولون فى آخر كل صوت : « يامواليا ! » إشارة

إلى أسيادهم ، ثم أخذها عنهم البغداديون وأدخلوا عليها بعض الإصلاح حتى عرفت بهم دون مخترعيها » [1] .

وقال ابن خلكان : « وقد ألم بعض البغاددة فى مواليا على اصطلاحهم فإنهم مايتقيدون بالإعراب فيه ، بل يأتون به كيفما اتفق وهو :

ظفرتْ ليلةْ بليلىَ ظفرة المجنونْ
وقلت وافى لحظى طالع ميمونْ
تبسمتْ فأضاءْ اللؤلؤ المكنونْ
صار الدجى كالضحى فاستيقظ الواشونْ

ويدور موضوع المواليا على الغزل أو شكوى الحال ، وهو بذلك يشبه الموشح والزجل ، وقد دأب شعراء المواليا على أن يكثروا فى شعرهم ذاك من التورية وأن يتناولوا المحسنات البديعية بنصيب كبير .

وقد استعمل المواليا فى المدح ، واستعمل فى المجون ، وفى الرثاء ، كما استخدمه الصوفية فى مواجدهم .

وقال البهاء خضر بن سحلول يمدح يلبغا الناصرى صاحب حلب أثناء نزاعه مع السلطان برقوق :

ياناصرى سهم عزك فى العدا مرشوقْ
وأنت منصورْ ومن حنّت إليه النوقْ
اصبر فما دامت الشدّة على مخلوقْ
غدا يجى الخوخْ وتذهبْ دولة البرقوقْ

ومن أشهر أصحاب المواليا ـ كما يقول ابن حجة ـ أبو بكر بن العجمى .

وأما القوما : « فهى أربعة أقفال : ثلاثة متساوية فى الوزن والقافية والرابع أطول منها وزنا ، وهو مهمل بغير قافية اخترعه البغداديون ـ كذلك ـ فى الدولة العباسية برسم

١ ـ عماد الدين بن باطش تاريخ الموصل : ٨٢ .

السحورة فى شهر رمضان ، وسمى بهذا الاسم من قولهم : قوما للسحور قوما ، ونظموا فيه الزهدى والخمرى والعتابى ، وكان أول من اخترعه ابن نقطة للخليفة الناصر وكان يعجبه ويطرب له حتى جعل لابن نقطة وظيفة عليه فى كل سنة » [1]

وبعد فلعلنى أكون بذلك قد أوضحت التطور الذى حدث فى الشعر فى هذه الفترة التى أتحدث عنها وهى فترة الحروب الصليبية .

وإلى ذكر نماذج من شعر هذه الفترة .

---

١ ـ السابق : ٨٢ .

ب ـ نماذج من موضوعات الشعر

نحاول فى هذا الجانب من البحث أن نستعرض عددا من القصائد الشعرية ذات الموضوعات المتعددة لنوضح بها كيف كان الشعر يواكب كل حركة من حركات الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، التى عاشها المسلمون فى مواجهة الغزو الصليبى ·

ولا ندعى أننا فى هذا الجانب من البحث سوف نستوعب جميع الموضوعات التى استجاب لها الشعر فى هذه الفترة ، وإنما سنذكر نماذج لأبرز هذه الموضوعات من جانب ، ولأشهر شعراء هذه الفترة من جانب آخر ·

والذى أود أن أوضحه هنا هو أن الشعر استجاب لهذه الحروب وظروفها بصورة جيدة وإيجابية ، ووقف مع انتصارات المسلمين على الصليبيين يشيد بهذه البطولات والأمجاد ، كما وقف مع الانكسارات التى وقعت للمسلمين يرثى ويبكى ويستحث الهمم ·

وقد سبق أن تحدثت فى مستهل هذا الباب من البحث عن أبرز الموضوعات التى طرقها الشعر فى هذا العصر ، وعددت منها ما يزيد على عشرة موضوعات وقلت حينئذ إن هذه الموضوعات جميعا يمكن أن ندرجها تحت عنوان كبير هو : « الصراع بين الإسلام والنصرانية أو بين المسلمين والصليبيين » ·

وتحت هذا العنوان سوف أختار عددا من القصائد فى هذا الجانب من البحث ·· وأسأل الله التوفيق ·

وسنحاول ما وسعنا ذلك أن نذكر من هذه القصائد ما نراه أكثر دلالة على ما نريد ، معترفين بأن الذى نذكره ليس أجود ما قيل فى هذه الفترة وإنما هو ـ فى تقديرنا ـ من أجوده ، ذلك أن ادعاء اختيار الأجود ادعاء عريض ، ينبغى أن يسبقه استقراء لشعر هذه الفترة كلها ، وهو أمر لم يتيسر لنا ، ويوم ييسره الله نعيد طبع الكتاب بإذنه تعالى ، ونرتب هذه القصائد بمعيار الأجود فالأجود ·

١ ـ تيار الشعر الذى سجل انتصارات المسلمين على الصليبيين :

لابن القيسرانى يمدح عماد الدين زنكى ويهنئه باستعادة الرها من الصليبيين التى كان لها أعمق رنة فرح فى العالم الإسلامى ، لأنها من أهم المعارك الأولى التى حقق فيها المسلمون على الصليبيين انتصارا هاما :

هــو السيف لا يغنيك إلا جلاده ... وهــل طوق الأمــلاك إلا نجاده
وعـن ثغـر هذا النصر فلتأخـذ الظبا ... سناهــا وإن فات العيــون اتقاده
سمــت قبــة الإسلام فخــرا بطوله ... ولــم يك يسمــو الــدين لولا عماده
وذاد قسيــم الدولــة ابــن قسيمها ... عن الله ما لا يستطــاع ذياده
ليهــن بنــى الإيمــان أمــن ترفعت ... رواسيــه عزا وأطمــأن مهاده
وفتــح حديــث فى السماع حديثه ... شهــى إلى يوم المعــاد معاده
أراح قلوبــا طرن عن وكناتها ... عليهــا ، فوافى كلَّ صدر فؤاده
لقــد كان فى فتــح الرهــاء دلالة ... على غـير ما عنـد العلــوج اعتقاده
يرجـون ميــلاد ابــن مريــم نصرة ... ولـم يغـن عنـد القــوم عنــه ولاده
مدينــة إفــك منــذ خمسين حجةً ... يفــل حديــدَ الهنــد عنهــا حداده
تفــوت مدى الأبصار حتــى لو أنها ... ترقّــت إليــه خان طرفــاً سواده
وجامحــة عز الملــوك قيادها ... إلى أن ثناهــا من يعــز قياده
فأوسعهــا حر القــراع مؤيد ... بصير بتمــرين الألــد لداده
فأضرمهــا نارين حربــا وخدعة ... فما راع إلا سورهــا وانهداده
فصدت صدود البكر عنـد افتضاضها ... وهيهــات كان السيف حتما سناده
فيــا ظفــرا عم البــلاد صلاحه ... بمــن كان قد عمّ البــلادَ فساده
فــلا مطلــق إلا وشد وثاقه ... ولا موثــق إلا وحــل صفاده
ولا منبــر إلا ترنــح عوده ... ولا مصــحف آلا أنــار مداده

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها   لقد ذل غاويكم وعز رشاده
رويدكم لا مانع من مظفَّر   يعاند أسبابَ القضاء عناده
مصيب سهام الرأى لو أن عزمه   رمى سدَّ ذى القرنين أحمى سداده
وقل لملوك الكفر تسلم بعدها   ممالكها إن البلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح فلينته الدجى   فيا طالما غال الظلام امتداده
ومن كان أملاك السموات جنده   فأية أرض لم ترضها جياده ؟
ولله عزم ماء سيحان ورده   وروضة قسطنطينية مستراده

فالشاعر فى هذه القصيدة قد أشاد بهذا النصر العظيم ومدح قائده وجنوده وهنأ المؤمنين به وأوضح تأثيره فى نفوس العالم الإسلامى ، وأشاد بتطهير الرها من الرجس الصليبى وقد تدنست به خمسين سنة ، وسخر من معتقدات الصليبيين وهددهم بعماد الدين الذى تحارب فى صفوفه جنود الله من الملائكة .

ولما كان نور الدين محمود وسار على نهج أبيه فى حرب الصليبيين وتخليص ديار المسلمين من أيديهم ، ودارت المعارك الرهيبة ضدهم .

استطاع نور الدين محمود أن يستعيد منهم « انطرسوس » ، « ويحمور » فقال ابن منير الطرابلسى يمدحه ويهنّىء بهذا الفتح :

غسلَ العواصمَ أمس من أدرانهم   واليوم ردّ به السواحل بُورا
أخلى ديار الشرق من أوثانها   حتى غدا ثالوثهن نكيرا
رفع القصور على نضائد هامهم   من بعد ما جعل القصور قبورا
غادرت « انطرسوس » كالطرس امّحى   رسماً وحمّرُ ربوعها « يحمورا »
ألقِ العصا فيمن أطاع ومن عصا   منهم ، ودمّر أرضهم تدميرا
لا يلههم أن قد مننتَ وشنّها   شعواء تصلى الكافرين سعيرا

باكـــر بركـــز قنـــاً تنسف أُسَّها والخيل صور كى تزيـــرك « صورا »
وتـريك لامعـة التـريَك بساحـــة الـ أقصى مطهّـــرة له تطهيرا
ضحكـت لك الأيـام واكتـــأب العدا قلقـــا ، فجئـــتَ مبشرا ونديـــرا [1]

ففى هذه الأبيات مع الإشادة بالنصر والتهنئة به والمدح عليه دعوة لنور الدين بأن يدمّر الصليبيين ولا يبقى لهم أثرا فى أرض المسلمين حتى يستولى على كل ما كانوا قد نهبوه من بلاد المسلمين حتى يصل إلى صور والأقصى فيطهرهما من رجسهم تطهيرا ٠

وقد كان نور الدين قد وضع نصب عينيه أن هزيمة الصليبيين تتطلب منه توحيـد صفوف المسلمين وبخاصة مصر والشام ، وقد بذل من الجهود فى هذا السبيل ما مكنه من توحيد مصر والشام بمعاونة قائده صلاح الدين الأيوبى الذى قضى على الخلافة الفاطمية فى مصر وأعاد مصر إلى حظيرة السنة ٠

لما تم هذا بعث العماد الكاتب إلى نور الدين يهنئه بهذا العمل الجليل ، فقال :

لله درُّك نور الـــدين من ملك عدلٍ لحفـــظ أمـــور الـــدين ملتزمِ
كانـــت ولايـــةُ مصر قبـــل عزتها بكشف دولتهـــا ، لحما على وضم
فـــالنيل ملتطـــمٌ جارٍ على خجل جارٍ لبحـــر نوال منـــك ملتطم
اغـز الفرنـــج فهـــذا وقـــت غزوهم واحطـــم جموعهـــم بالذبـــل الحطم
وطهر القدس من رجس الصليب وثبْ على البغـاة وُثـــوبَ الأجـــدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما فى عقـــد عز من الإسلام منتظم

وهذه الأبيات على قلتها تنم عن وعى المسلمين وإدراكهم لأهمية توحيد الصفوف وفيها تحريض من الشاعر لنور الدين بأن يغزو الصليبيين الآن مادام قد وحد مصر والشام فى ظل الإسلام ٠

---

١ ـ أبوشامة : الروضتين ٠٠ ٨٧/١ ـ ٨٨ ٠

وعندما هزم نور الدين الصليبيين وكسرهم فى بغراس وهزمهم إلى حصن حارم أشاد ابن منير الطرابلسى بهذا العمل الكبير وهنأ بقتل أمير الصليبيين « البرنس » ، ونادى على نور الدين بأن يتابع هذه الانتصارات قال :

أقــوى الضلال وأقفــرت عرصاته ... وعــلا الهــدى وتبلجــت قسماتُه
وانتــاش دينَ محمــدٍ محمودُه ... من بعــد ما غلبــت دمــا عبراته
ردت على الإسلام عصر شبابه ... وثباتــه من دونــه وثباتــه
أرسى قواعــده ومــد عماده ... صُعُــدًا ، وشيــد سورَه سوراتُه
فتــح تعممــت السماء بفخره ... وهفــت على أغصانهــا عذباته
سبغــت على االإسلام بيض حجوله ... واختــال فى أوضاحهــا جبهاته
لله بلجــة ليلــة محصت به ... واليــومُ ذبــحُ وشيــه ساعاته
حــطَّ القــوامص فيــه بعــد قماصها ... ضربٌ يصلصــل فى الــطُّلى صعقاته
صدم الصليــب على صلابــة عوده ... فتفرقــت أيــدى سبــا خشباته
وسقــى البــرنس وقــد تبــرنس ذلةً ... بالــروح ممقــر ما جنــت غدراتــه
تــرك الكنــائس والكنــاس لناهب ... بالبيض نَهــب ما حواه عفاته
لازال هذا الملك يشمــخ شأنه ... أبــدا ويلفــت فى الحضيض وشاته
مــا أخطأتــك يد الزمــان فدونه ... من شاء فلتسرع إليــه هناته
أنــت الــذى تحلى الحيــاةَ حياتُه ... وتهــب أرواح القصيــد هباتُه[1]

ولما سقطت حطين فى أيدى المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبى ، كان لذلك فرح غامر وسرور عميم فى أرجاء العالم الإسلامى كله ، ووقف الشعراء يسجلون هذا الانتصار العظيم ، وتكاثر الشعر وتعددت القصائد للشاعر الواحد فى هذه المناسبة ، كما كان شأن العماد الكاتب فقد كان له فى حطين عدة قصائد حتى ليمكن أن نقول عنها : قصائده الحطينية ٠

١ ـ السابق : ١/٦٠ ـ ٦١ ٠

ومنها سينيته المشهورة التى نذكر منها هذه الأبيات :

يـــا يوم حطـــين والأبطـــالُ عابسةٌ   وبالعجاجـة وجـه الشـمس قد عبسا
رأيـت فيهــا عظيـــم الكفـــر محتقرا   معفــرا خده والأنف قد تعسا
يا طهرُ سيفٍ برى رأس البرنس فقد   أصاب أعظـم من بالشرك قد نجسا
عــرّى ظبــاه من الأغماد مهرقة   دمــاً من الشرك ردّ إهابــه وكسا
مــن سيفُـه فى دمــاء القــوم منغمس   من كل من لم يزل فى الكفر منغمسا
أفناهــم قتلهــم والأسر فانتكســوا   وبيــت كفرهـم من خبثهــم كُسِفا [1]

وقد ذكر ابن واصل فى مضمون هذه الأبيات قصة أمير الكرك الصليبى وكان من شأنه فيما سبق مع المسلمين أن اعتدى على قافلة من المسلمين متجهة من مصر إلى الشام وغدر بهم ، وقال للمسلمين متهكما ساخرا ـ وقد وقعوا فى أسره ـ « قولـوا لمحمدكـم يخلصكم » .

فلما وقع هذا الغادر فى أسر صلاح الدين يوم حطين بادره صلاح الدين يرد على تهكمه : « ها أنا انتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم » ثم عرض عليه صلاح الـدين الإسلام تكفيرا عن جريمته فأبى ، فضربه السلطان بيده وأجهز عليه الجند ، وذلك وفاء بنذر كان قد قطعه السلطان على نفسه وأشهد الله عليه إن أظفره الله به [2] .

وعندما منّ الله على المسلمين بالفتح الأكبر فتح بيت المقدس ـ وقد غبر فى أيدى الصليبيين قرابة مائة عام ـ استيقظت فى نفوس المسلمين عموما والشعراء خصوصا ذكريات فتح بيت المقدس للمرة الأولى على أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

---

١ ـ السابق : ٨٣/٢ .
٢ ـ ابن واصل : مفرج الكروب : ١٩٤/٢ .

وانطلق الشعراء يدبجون فى هذا الفتح قصائد وقصائد حتى لكان لبعضهم ـ كما أوضحت آنفا ـ دواوين خاصة بهذا الفتح أطلقوا عليها القدسيات حينا والمبشرات حينا •

ومن قدسيات حكيم الزمان أبى الفضل بن عمر بن حسان ، اخترت هذه القدسية التى قالها حينما دخل المسلمون بيت المقدس فاتحين منتصرين ، ومنها قوله :

أبا المظفَّر أنت المجتبى لهدى ... أخرى الزمان على خبر بخبرته
فلو رآك وقد حزت العلا عمر ... فى قلة التل[1] قضى كنه عبرته
ولو رآك وأهل القدس فى وله ... أبو عبيدة فدًّى[2] من مسرته
غداة حزوا النواصى فى قيامته ... وأعولوا بالتباكى حول صخرته
دارت بك الملّة الحسنى فنحن على ... عهد الصحابة فى استمرار ملته
وأنت كاسمك صديق وصاحبه الـ ... ـملك المظفرّ سام فى مبرته
وفى الثلاثة عثمان يؤيده ... عُلا علىٍّ عَلىَ إيثار ضربته
وكم لديك ذوو قربى رقوا شرفا ... وكم بعيدٍ رأى الزلَفى بهجرته
يشبّه الفتح ما بين البزاة لقى ... ملك الفرنج أخيذاً بين عترته
أما رأيت معالى يوسف نسقت ... حتى رمت كل ذى ملك بحسرته
أضحى لنشر الهدى فى فتح منهجه ... وبات يطوى العدا فى سد ثغرته
واستقبح الرجس ممنوًّا بمشهده ... فاستفتح القدس محشوا بزمرته
لكن بأس صلاح الدين أذهلهم ... بوقعة التل واستشراء سورته
يغنى الجوارح والفرسان وهو على ... بدء النشاط عشيا مثل بكرته
يا فاتح المسجد الأقصى على بهم ... وقانص الجيش لا يحصى بقفزته
أبشر بملك كظهر الشمس مطلع ... على البسيطة فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة ... تحكى النبوة فى أيام فترته

---

١ ـ يقصد تل حطين •

٢ ـ اى قال لصلاح الدين : فداك نفسى أو فداك أبى وأمى •

ومن روائع قدسيات أبى الفضل قدسيته الكبرى التى بلغت مائة واثنين وخمسين بيتا والتى شرح فيها جهود صلاح الدين فى حطين وفى القدس ، وتحدث فيها عن نوايا « البرنس » قتيل يد صلاح الدين ، عندما هم أن يغزو الحجاز فسار إلى تيماء ولكن الله رده وأخزاه .

وهذا أبو الحسن الجوينى العراقى المولد المصرى الدار يشيد بفتح بيت المقدس فى نونية ، جابت الآفاق وملأت الأسماع يقول فيها :

جند السماء لهذا الملك أعوان ... من شك فيه فهذا الفتح برهانُ
متى رأى الناس ما تحكيه فى زمن ... وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما ... لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده ... صيدا وما ضعفوا يوما وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم ... خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس ... فخام عنها وصمت منه آذان
هذا .. وكم ملك من بعده نظر ... يطوى ويحوى وهو سكران
تسعون عاما بلاد الله تصرخ والـ ... إسلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبَّى صلاحُ الدين دعوتهم ... بأمر من هو للمعوان معوان
للناصر ادّخرت هذه الفتوح وما ... سمت لها همم الأملاك مذ كانوا
حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا ... ل الناس داود هذا أم سليمان
فى نصف شهر غدا للشرك مصطلما ... فطهّرتْ منه أقطار وبلدان
فأين مسلمة عنها وإخوته ... بل أين والدهم بل أين مروان ؟
وعدّ عمن سواه ، فالفرنجة لم ... يبدهمُ من ملوك الأرض إنسان
لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد ... تنزلت فيه آيات وقرآن
يا قُبحْ أوجه عبّادِ الصليب وقد ... غدا يبرقعها شؤم وخذلان
خزنت عند إله العرش سائر ما ... ملكته وملوك الأرض خزان

فـــالله يبقيك للإسلام تحرسه من أن يضام ويلفـــى وهـــو حيران
وهـــذه سَنَـــةٌ أكـــرم بهـــا سنـةً فالكفـــر فى سِنـــةٍ والنصر يقظان
يـا جامعـاً كلِمـة الإيمـان قامِـــعَ مَنْ معبـودُه ـ دون رب العـرش ـ صلبانُ
إذا طوى الله ديـــوان العبـــاد فما يطـوى لأجـــر صلاح الـــدين ديوان

ولقد استمرت الحروب بعد صلاح الدين بين المسلمين والصليبيين تشب نارها ولا يهدأ أوارها ، تذكيها هجمات الصليبيين الغادرة على المسلمين فى الشام وفى مصر ، ومحاولتهم العديدة لاستعادة بيت المقدس ، الذى ضاع عليهم إلى الأبد ، وتؤرثها عواطف المسلمين الذين أضحى لديهم إصرار على طرد الصليبيين من العالم الإسلامى إلى غير رجعة •

وظهر فى هذه الفترة ـ عهد خلفاء صلاح الدين من بنى أيوب ـ رجال مؤمنون وقادة مخلصون لدينهم وأوطانهم ، فدارت المعارك الرهيبة بين القواد الأيوبيين الذين خلفوا صلاح الدين ، ابتداء من الحملة الصليبية الرابعة ثم حملة الأطفال ثم حملة الصليبيين الخامسة على مصر التى استطاعت أن تستولى على دمياط وأخذت تزحف إلى القاهرة ، ولكن الله خذلهم •

ولقد ظلت محاولات الصليبيين مستمرة للاستيلاء على مصر والشام واستعادة بيت المقدس ، وكان للملك الكامل جهوده الموفقة فى طرد الصليبيين من دمياط وإعادتها ثغرا إسلاميا كما كان ، مما ألهج ألسنة الشعراء بهذا النصر العظيم ، فزفوا تلك البشرى للعالم الإسلامى كله ، وجاءت القصائد تترى تشيد بهذا العمل الجليل والنصر المؤزر •

روى المؤرخون أن الملك الكامل دخل دمياط فى احتفال مهيب وكان ذلك يوما مشهودا أقبل فيه الشعراء على الملك مهنئين مادحين ، ومن القصائد التى صورت فرحة العالم الإسلامى كله بهـذا النصر ، وأشادت ببطـولات الأبطـال المسلمـين ، وصورت خزى الصليبيين ، قصيدة البهاء زهير التى يقول فيها مخاطبا الملك الكامل :

بك اهتزَّ عطفُ الدين فى حلل النصرِ وردت على أعقابهـــا ملـــة الكفرِ
فقـــد أصبحـــت والحمـــد الله نعمة تقصر عنهـــا قدرة الحمـــد والشكر

يقـل بهـا بذل النفـوس بشارة ... ويصغـر عنهـا كل شيء من النذر
ألا فليقـل ما شاء من هو قائل ... ودونـك هذا موضع النظـم والنثر
وجـدتَ محـلاً للمقالـة قائلا ... فما لك إن قصرتَ فى ذاك من عذر
لك الله من مولى إذا جاد أوسطا ... فنـاهيك من عرف ونـاهيك من نكر
تميّس به الأيـام فى حلل الصبا ... وترفـل منـه فى مطارفـه الخُضر
أياديـه بيض فى الـورى موسوية ... ولكنهـا تسعـى على قدم الخِضر
ومـن أجلـه أضحـى المقطـم شامخا ... ينـافس حتى طور سينـاء فى القدر
تـدين له الأمـلاك بالكـره والرضا ... وتخدمه الأملاك فى النهى والأمر[1]
فيـا ملكـا ضاهـى[2] الملائـك رفعة ... ففـى المـلأ الأعلى له أطيـب الذكر
يهينـك[3] ما أعطـاك ربـك إنها ... مواقف هن الغـر فى موقف الحشر
وما فرحت مصر بهذا الفتح وحدها ... لقـد فرحـت بغـداد أكثـر من مصر
فلـو لم يقـم بالله حق قيامه[4] ... لمـا سلمـت دار السلام من الذعر
وأقسم لولا همـة كاملية ... لخافـت رجـال بالمقـام وبالحجر
فمـن مبلـغ هذا الهنـاء بمكة ... ويثـرب ينهيـه إلى صاحـب القبر
فقـل لرسول الله إن سميه ... حمـى بيضة الإسلام من نوب الدهر
هـو الكامـل المـولى الـذى إن ذكرته ... فياطـرب الدنيـا ويـا فرح العصر[5]
بـه ارتُجِعتْ دميـاط قهـرا من العدا ... وطهرهـا بالسيف والملـة الطهر
وردّ على المحـراب منهـا صلاته ... وكـم بات مشتاقـا إلى الشفـع والوتر
وأقسم إن ذاقت بنو الأصفر الكرى ... فلا حلمـت إلا بأعلامـه الصفر
عجبـت لبحـر جاء فيـه سفينهم ... ألسنـا نراه عندنـا ملك الغمر

١ ـ وهذا مما يؤخذ على الشاعر شرعاً

٢ ـ فى رواية : سامى .

٣ ـ فى رواية : ليهنك

٤ ـ فى رواية : جهاده .

٥ ـ فى رواية : الدهر .

ألا إنهـا من فعلـة لكبيرة سيطلـب منهـا عفـو أنملك العشر
ثلاثـة أعـوام أقمـت وأشهرا تجاهـد فيهـم لا بزيـد ولا عمرو
صبـرت إلى أن أنـزل الله نصره لذلك قد أحمـدت عاقبـة الصبر
وليلـة غزو للعـدو كأنها بكثـرة من أرديتـه ليلـة النحر
سددت سبيل البـر والبحـر منهم بسابحـة دهـم وسانحـة غـر
أساطيل ليست فى أساطير من مضى بكل غراب راح أفتـك من صقر
وجيش كمثـل الليل هولا وهيبة وإن زانـه ما فيـه من أنجـم زهر
وكل جواد لم يكن قط مثله لآل زهـير لا ولا لبنـى بـدر
وباتـت جنـود الله فوق ضوامر بأوضاحهـا تغنـى السراة عن الفجر
فمازلـت حتـى أيـد الله حزبه وأشرق وجـه الأرض جذلان بالنصر
فرويـت منهـم ظامـىء البيض والقنا وأشبعت منهـم طاوى الذئـب والنسر
وجـاءت ملوك الـروم نحـو خضعا تجـرر أذيـال المهانـة والصغر
أتـوا ملكـا فوق السحـاب محله فمن جوده ذاك السحاب الذى يسرى
فمَـنَّ عليهـم بالأمـان تكرما على الرغم من بيض الصوارم والسمر
كفـى الله دميـاط المخـاوف[1] إنها لمن قبلـة الإسلام فى موضع النحر
ومـا طاب ماء النيل إلا لأنه يحـل محـل الريـق من ذلك الثغر
فللـه يوم الفتـح يوم دخولها وقـد طارت الأعـلام منهـا على وكر
لقـد فاق أيـام الزمـان بأسرها وأنسى حديثـا عن حنـين وعـن بدر
ويـا سعـد قوم أدركـوا فيـه حظهم لقـد جمعـوا بـين الغنيمـة والأجر
وإنـى لمشتـاق إلى كل قادم إذا كان من تلك[2] الفتوح على ذكر
فيطربنـى ذاك الحديـث وطيبه ويفعـل بى ما ليس فى قدرة السحر

١ ـ فى رواية : المكاره ٠

٢ ـ فى رواية : ذاك ٠

وأصغــى إليــه مستعيــدا حديثه — كأنــى ذو وقــر ولست بذى وقر
يقـوم مقـام البـارد العــذب فى الظما — ويغنــى عن الأزواد فى البلــد القفر
فكــم مر لى يوم إذا ما سمعته — أُقــر به سمعــى وأُذكــره فكرى
وهــا أنــذا حتــى إلى اليــوم ربما — أكــذّب منــه بالصحيــح من الأمر
لك الله ، من أثنــى عليك فإنما — من القتــل قد أُنجيتــه أو من الأسر
يقصر عنــك المــدحُ من كل مادح — ولــو جاء بالشــمس المنــيرة والبدر

وفى الحملة الصليبية السابعة على مصر التى قادها ملك فرنسا لويس التاسع فى خمسين ألف مقاتل فى أيام الملك الصالح أيوب سنة سبع وأربعين وستمائة ودخل دمياط ثم اتجه إلى المنصورة حيث نازلته هناك جيوش الملك الصالح وقتلت منهم ثلاثين ألفا وأسروا منهم عدد كبيرا منهم لويس نفسه وحبس فى دار الصاحب فخر الدين بن لقمان ٠

تحدث عن ذلك الشاعر جمال الدين يحيى بن مطروح فقال :

قــل للفــرنسيس إذا جئته — مقــال صدق من قئــول نصوحْ
أتيــت مصرا تبتغــى ملكها — تحسب أن الزمَــر يا طبــل ريحْ
وكــل أصحــابــك أودعتهم — بحســن تدبــيرك بطــن الضــريح
خمسين ألفــا لا ترى منهم — غــير قتيل أو أسير جريح
وفقــك الله لأمثالها — لعــل عيسى منكــم يستريح
آجــرك الله على ما جرى — أفنيــت عبّــاد يسوع المسيح
فقــل لهــم إن اضمــروا عودة — لأخــذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابــن لقمان على حالها — والقيــد باق والطــواشى صبيح[١]

---

١ ــ القلقشندى : صبح الاعشى : ٥/٤١٤ ٠ ط وزارة الثقافة المصرية ٠

وفى عهد السلطان قلاوون استولى المسلمون بقيادته على طرابلس الشام ، وفى معركة ضارية استطاع السلطان قلاوون أن يستولى على حصن المرقب وهو من أمنع الحصون التى كانت فى أيدى الصليبيين ، فمدحه الشهاب محمود الحلبى بقصيدة جاء فيها :

الله أكبـر هذا النصر والظفر ... هذا هو الفتـح لا ماتزعـم السِّيَرُ

هذا الذى كانت الآمـال إن طمحت ... إلى الكواكـب ترجـوه وتنتظر

فانهض وسر واملك الدنيا فقد نحلت ... شوقـا منابرهـا وارتاحـت السُّور

وكيف تمنحـه الأيـام مملكة ... كانـت لدولتـك الغـراءِ تدُخَرُ

وكيف يسمـو إليهـا من تأخـر عن ... إسعـاده منجـداك القَـدْر والقَدَر

غـرّ العـدا منـك حلـم تحتـه همم ... لأشقـر البـرق من تحجيلهـا غُرُر

لها وإن أشبهت لطف النسيـم سرى ... معنـى العـواصف لاتبقـى ولاتذر

أوردتهـا المرقـب العـالى وليس سوى ... ماء المجـرة فى أرجائهـا نَهَر

كأنـه وكـأن الجـو يكنفه ... وهـم تمثلـه فى طيهـا الفكر

يختـال كالغـادة العـذراء قد نظمت ... منـه مكـان الـلآلى الأنجـمُ الزهرُ

لهـا الهـلال سوار والسهـا شنف ... والقلـب قلـب ومُسْوَدّ الدجـا طرز

تعلـو الريـاح إليـه كى تحيـط به ... خُبرا ، وتدنـو ومـا فى ضمنهـا خبر

ويـومض البـرق يهفـو نحـوه ليرى ... أدنـى ربـاه ويأتـى وهـو معتذر

وليس يروى بمـاء السحـب مصعدة ... إليـه من فيه إلا وهو منحدر [1]

وأُضرمـت حولـه نار لهـا لهب ... من السيوف ومـن نبـل الوغـى شرر

كأنهـا ومجانيـق الفرنـج لها ... فرائس الأسد فى أظفارهـا الظفر

وكم شكا الحصن مايلقى فما اكترثت ... ياقلبهـا : أحديـدٌ أنـت أم حجر

وللنقـوب دبيـب فى مفاصله ... تثـير سقماً ولايبـدو له أثر

أضحـى به مثـل صبّ لاتبـين به ... نار الهـوى ، وهـى فى الأحشاء تستعر

ركبتَ فى جنـدك الأولى إليـه ضحاً ... والنصر يتلـوك منـه جنـدك الآخر

---

١ ـ ليس هذا صحيحاً ولا جائزاً شرعاً .

قـد زال تجلى قواه عن قواعده وخـر أعـلاه نحـو الأرض يبتدر
وساخ وانكشفـت أقبـاؤه وبدا لديك من مضمـرات النصر ماستروا
فمال يهـوى إليهـم كل ليـث وغىً له من البيض ناب والقنـا ظُفُرُ
إن لم يوفِّ الورى بالشكر ما فَتَحتْ يداك فالله والأمـلاك قد شكروا[1]

وكان على يد الأشرف خليل بن قلاوون طرد آخر الصليبيين من عكا أمنع الحصون آنذاك على الإطلاق ، والتى بقيت فى أيدى الصليبيين قريبا من مائة عام ٠

وقد أشاد الشعراء بهذا النصر وقالوا فيه من الشعر مايفوق الوصف وقد شهد الشاعر شهاب الدين محمود الحلبى هذه المعركة وعبر عن ذلك بقصيدة رائعة منها قوله :

الحمـد لله زالـت دولـة الصلب وعـز بالتـرك دين المصطفى العربى
مـا بعـد عكـا ، وقـد هُدّت قواعدها فى البحر للشرك عنـد البرّ من أرب
عقيلـة ذهبـت أيـدى الخطـوب بها دهـراً وشدّت عليهـا كف مختضب
لم يبق من بعدها للكفـر إذ خرجت فى البـر والبحـر ماينجـى سوى الهـرب[2]

وبعد : فلعلنا بهذه النماذج التى أوردنا نكون قد استشهدنا للموضوعات التى تحدثنا عنها فى بداية هذا الباب من البحث ، فذكرنا فى هذه القصائد شعرا يصور فرحة المسلمين بالنصر على الصليبيين ويشيد ببطولات الأبطال ويهنىء ويبشر بهذه الانتصارات ، كما نرجو أن نكون قد وفقنا إلى أن نتخيره بحيث يوضح تحريض الشعراء للقادة على حرب الصليبيين ، ودعوة المسلمين إلى الاتحاد والفرحة بالوحدة حينما تمت بين مصر والشام ٠

وكان ذلك ـ كما سبق أن أوضحت آنفا ـ يمثل تيار تسجيل الانتصارات ، ويبقى أمامى أن أذكر نماذج من الشعر تمثل التيار الآخر الذى يسجل غضب المسلمين على الصليبيين والذى يتمثل فى ذكر مثالبهم والطعن على معتقداتهم ، وذلك ما أنا بصدده الآن ـ وأسأل الله التوفيق ٠

---

١ ـ ابن تغرى بردى : النجوم الذاهرة : ٣١٧/٧ ـ ٣١٨ ٠
٢ ـ ابن تغرى بردى : المنهل الصافى : ٧٥/٢ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١١١٣ تاريخ

٢ ـ تيار الشعر الذى سجل غضب المسلمين على الصليبيين :

تمثل هذا التيار أوضح ما تمثل فى الرد على النصارى أو الطعن فى معتقداتهم الضالة ٠

وأود أن أوضح أن هذه الردود وتلك المطاعن تكفل بها العلماء فى مؤلفاتهم العديدة ـ على نحو ما سنذكر فى الفصل الثانى من هذا الباب من الكتاب وهو عن النثر ـ ٠

ولكنا سنذكر هنا كيف تكفل الشعر كذلك بالرد على الصليبيين وطعن عليهم وندد بمفاسد معتقداتهم ومنحرف تفكيرهم ٠

لابن قيم الجوزية أكثر من قصيدة فى الرد على النصارى ، نذكر منها هذه القصيدة التى يقول فيها :

أعبادّ المسيح لنا سؤال ... نريد جوابه ممن وعاه
إذا مات الإله بصنع قوم ... أماتوه فما هذا الإله ؟
وهل أرضاه ما نالوه منه ... فبشراهم إذا نالوا رضاه
وإن سخط الذى فعلوه فيه ... فقوتهم إذن أوهت قواه
وهل بقى الوجود بلا إله ... سميع يستجيب لمن دعاه ؟
وهل خلت الطباق السبع لما ... ثوى تحت التراب وقد علاه ؟
وهل خلت العوالم من إله ... يدبرها وقد سُمرت يداه ؟
وكيف تخلت الأملاك عنه ... بنصرهم وقد سمعت بكاه ؟
وكيف أطاقت الخشبات حمل الإ ... له الحق شُد على قفاه ؟
وكيف دنا الحديد إليه حتى ... يخالطه ويلحقه أذاه ؟
وكيف تمكنت أيدى عداه ... وطالت حيث قد صفعوا قفاه ؟
وهل عاد المسيح إلى حياة ... أم المحيى له رب سواه ؟
وياعجبا لقبر ضم ربا ... وأعجب منه بطن قد حواه
أقام هناك تسعا من شهور ... لدى الظلمات من حيض غذاه

وشق الفرج مولودا صغيرا ضعيفا فاتحا للثدى فاه
ويأكل ثم يشرب ثم يأتى يلازم ذاك هل هذا إله ؟
تعالى الله عن إفك النصارى سيسأل كلهم عما افتراه
أعبّاد الصليب لأى معنى يعظم إذ يقبح من رماه
وهل تقضى العقول بغير كسر وإحراق له ولمن نعاه
إذا ركب الإله عليه كرها وقد شدت لتسمير قفاه
فذاك المركب الملعون حقا فدسه لاتبسه إذ تراه
يهان عليه رب الخلق طرا وتعبده فإنك من عداه
فإن عظمته من أجل أن قد حوى رب العباد وقد علاه
وقد فقد الصليب فإن رأينا له شكلا تذكرنا ثناه
فهلا للقبور سجدت طرا لضم القبر ربك فى حشاه
فيا عبد المسيح أفق فهذى بدايته وهذا منتهاه

وقد ناقش ابن القيم النصارى فى هذه الأبيات نقاشا محرجا ألزمهم الحجة وأبان فساد عقائدهم فى الصليب وفى المسيح وفى سائر ضلالاتهم .

وكان البوصيرى واحدا من أولئك العلماء الذين ردوا على النصارى فى شعرهم وفى غير شعرهم ، ففى الشعر له قصيدة مشهورة بلغت أبياتها مائتين وثلاثة وثمانين بيتا وهى لامية تسمى « المخرج والمردود على النصارى واليهود » مطلعها :

جاء المسيح من الإله رسولا فأبى أقل العالمين عقولا
قوم رأوا بشرا كريما فادعوا من جهلهم لله فيه حلولا

وقد اختتمها بقوله فى الدعاء والاستغاثة بالله سبحانه والصلاة على رسوله :

فاجعل لنا اللهم جاه محمد فرطا تبلغنا به المأمولا [1]
واصرف به عنا عذاب جهنم كرما وكف ضرامهما المشعولا
واجعل صلاتك ديمة منهلة لم تلف دون ضريحه تهليلا
ماهزت القضب النسيم ورجعت ورقاء فى غصن الأراك هديلا

١ ـ ليس الشاعر على حق فى الدعاء بجاه النبى ﷺ .

وللبوصيرى قصيدة ناقش فيها النصارى وقارن بينهم وبين المسلمين وأوضح فيها أغلب مافى دين النصارى من باطل وضلال ، وجمع إليهم اليهود المغضوب عليهم ، وقد جاء فى هذه القصيدة قوله :

قوم عيسى عاملتم قوم موسى ... بالذى عاملتكم الحنفاء
صدقوا كتبكم وكذبتم كتبهم ... إن ذا لبئس البواء
لو جحدنا جحودكم لاستوينا ... أوَ للحق بالضلال استواء
مالكم إخوة الكتاب أناسا ... ليس يرعى للحق منكم إخاء
يحسد الأول الأخير ومازا ... ل كذاك المحدثون والقدماء

ومنها .. :

خبرونا أهل الكتابين من أ ... ين أتاكم تثليثكم والبداء
ما أتى بالعقيدتين كتاب ... واعتقاد لانص فيه ادعاء
والدعاوى مالم تقيموا عليها ... بينات أبناؤها أدعياء
ليت شعرى ذكر الثلاثة والوا ... حد نقص فى عدكم أم نماء
أإله مركب ما سمعنا ... بإله لذاته أجزاء
ألكل منهم نصيب من الملك ... فهلا تُميز الأنصباء
أتراهم لحاجة واضطرا ... را خلطوها وما بغى الخلطاء
أهو الراكب الحمار فيا عجز ... إله يمسه الإعياء
أم جميع على الحمار لقد جل ... حمار بجمعهم مشّاء
أم سواهم هو الإله فما نسْبة ... عيسى إليه والإنتماء
أم أردتم بها الصفات فلم خصت ... ثلاث بوصفه وثناء
أم هو ابن الله ما شاركته ... فى معانى البنوة الأنبياء

ومن الواضح أن الذى أثار هذه الموضوعات فى نفوس الشعراء هو الحروب الصليبية وماجرته على المسلمين من ويلات ونكبات ، وما أدنت منهم من هؤلاء الضالين المنحرفين عن المسيحية إلى الصليبية العمياء .

وما نستطيع أن ننهى هذه النماذج الشعرية دون أن نذكر طرفا من شعر الرثاء الذى رثى به الشعراء قادة المسلمين وعظماءهم من أمثال عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين ، فإن هذا اللون من الشعر إنما جاء نتيجة لما أبلاه هؤلاء القادة من إبلاء حسن فى حرب الصليبيين والتغلب عليهم واستعادة ماكانوا قد اغتصبوه من بلدان المسلمين .

رثى العماد الكاتب عماد الدين زنكى عندما قتل بيد أحد خدمه من الفرنجة غدرا وغيلة ، فى قصيدة نذكر منها قوله :

وكـــم معقـــل قد رامـــه بسيوفه   وشامـــخ حصـــن لم تفتـــه غنائمه

وكانـــت ولاة الأرض فيهـــا لأمره   وقـــد أمنتهـــم كتبـــه وخواتمه

وأمّـــن مَنْ فى كل قطـــر لهيبةٍ   يراع بهـــا أعرابـــه وأعاجمه

ومنها قوله :

وكـــم ثغـــرِ إسلام حواه بسيفه   من الـــروم لمـــا أدركتـــه مراحمه

فمـــن ذا الـــذى أ[illegible]ى بهيبـــة مثله   وينفـــذ فى أقصى البـــلاد مراسمه

فلـــو رقيـــت فى كل عصر بذكره   أراقمـــه ذلـــت هنـــاك أراقمه

وعندما لقى ربه نور الدين محمود رثاه عماد الدين الكاتب كذلك بمرثية صادقة الإحساس قال فيها :

الـــدين فى ظُلَـــم لغيبـــة نوره   والدهـــر فى غُمـــم بفقـــد أمـــيره

فلينـــدب الإسلامُ حامـــى أهله   والشامُ حَافـــظ ملكـــه وثغوره

ومنها قوله :

مَـــنْ للمساجـــد والمـــدارس بانيا   لله طوعـــا عن خلـــوص ضمـــيره

مَـــنْ ينصر الإسلام فى غزواته   فلقـــد أصيـــب بركنـــه وظهيره

مَـــنْ للفرنـــج ومـــن لأسر ملوكها   مَنْ للهـــدى يبغـــى فكـــاك أسيره

ومنها قوله :

أنـــت الـــذى أحييـــت شرع محمد   وقضيـــت بعـــد وفاتـــه بنشـــوره

كـــم قد أقمـــت من الشريعـــة معلما   هو منـــذ غبـــتَ معـــرَّض لدثوره

كم قد أمرت بحفر خندق معقل حتى مكنت اللحد فى محفوره
كم قيصر للروم رمت بقسره إرواء بيض الهند من تاموره [1]
أوتيت فتح حصونه وملكت عقر بلاده وسبيت أهل قصوره
أزهدتَ فى دار الفناء وأهلها ورغبت فى الخلد المقيم وحوره
أوَ ما وعدت القدس أنك منجز ميعاده فى فتحه وظهوره ؟
أفما تجير القدس من دنس العدا وتقدس الرحمن فى تطهيره

ولما فجع العالم الإسلامى بموت صلاح الدين الأيوبى ، أحدث موته هزة عنيفة فى قلوب المسلمين ، ورجة قوية فى عواطف الشعراء ، فرثاه كثير منهم ٠

ومن أهم تلك المراثى مرثية العماد الكاتب أيضا التى بلغ عدد أبياتها مائتين واثنين وثلاثين بيتا ، والتى نذكر منها قوله :

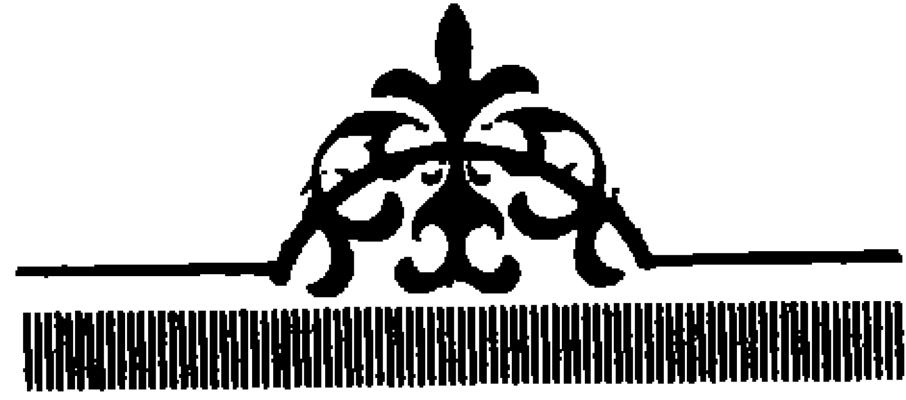
شملُ الهدى والملك عمَّ شتاته والدهر ساء وأقلعت حسناته

ومنها قوله :

بالله أين الناصر الملك الذى لله خالصةً صفت نياته
أين الذى عنت الفرنج لبأسه ذلاًّ ، ومنها أدركت ثاراته
مَنْ فى الجهاد صفاحُه ما أُغمدت بالنصر حتى أغمدت صفحاته
مَنْ فى صدور الكفر صدرُ قناته حتى توارت بالصياح قناته
لَذَّ المتاعب فى الجهاد ولم تكن مذ عاش قط لذاته لَذَّاته
فى نصرة الإسلام يسهر دائما ليطول فى روض الجنان سناته
لا تحسبوه مات شخص واحد فمماته كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محاميا أبداً إذا ما أسلمته حماته

١ ـ كلمة معربة عن السريانية تعنى : القلب أو الدم أو الحياة ٠

وبعد : فهذا ما أردت ذكره من النماذج الشعرية التى تمثل فيها ذانك التياران ، الذى سجل أحدهما انتصارات المسلمين على الصليبيين وسجل الثانى غضبة المسلمين على الصليبيين والتصدى لباطل معتقداتهم وفاسد عاداتهم ، وكل ذلك أملته على الشعراء عواطفهم الإسلامية الجياشة فى هذه الفترة من الزمان .



جـ ـ من شعراء فترة الحروب الصليبية

كثر عدد الشعراء فى هذين القرنين من الزمان كثرة ملفتة ، وإذا كانت الأحداث والظروف تسهم فى صناعة الشعراء ، فإن أحداث هذين القرنين كانت جديرة حقا بأن تهيئ للشعر دولة مترامية الأطراف يقودها أمراء عديدون ·

فلقد كان القرنان السادس والسابع الهجريان مضطربا واسعا لصراع سياسى اجتماعى مع الصليبيين ، وميدانا فسيحا لصراع دينى وقف فيه الإسلام يواجه جحافل الكفر وجيوش الظلام المتبربرة ·

ولقد دارت فى أرض المسلمين معارك ضارية بينهم وبين صليبية تحيط بهم من شرق ومن شمال وصليبية آتية من غرب ومن شمال ، لقد قاوم المسلمون فى هذه الآونة الصليبيين الشرقيين كما قاوموا الصليبيين الغربيين فى معارك طاحنة راح ضحيتها من المسلمين عشرات ومئات وألوف ، وذاقوا فيها مرارة الأسر والهزيمة ، كما نعموا بحلاوة النصر فى مواقع عديدة ·

وكانت تلك الفترة أرضا خصيبة أنبتت للعالم الإسلامى مشاهير الأبطال ، وكبار السياسيين ، وعددا كبيرا من العلماء والحكماء ، وصفوة مختارة من الكتاب والوزراء ، وعشرات بل مئات من متقدمى الشعراء ·

وليس كالحرب ـ وبخاصة حرب العقيدة ـ مجال ، يبرز فيه الفرسان فى الحرب وفى البيان ·

ولا أستطيع أن أتحدث فى هذا الكتاب عن شعراء الفترة جلهم ، بل ولا مشاهيرهم ، لأن المشاهير منهم عشرات إن لم يكونوا مئات ، وإنما يكفينى أن أتحدث عن شاعرين أحدهما سكن القطر الشامى والثانى سكن القطر المصرى ، وهما قطرا هذه الحروب وميداناها ·

وليس عبثا ماكان يفعله الصليبيون وهم يهاجمون مصر لتأييد حكمهم وتثبيت سلطانهم فى بيت المقدس وطرابلس ، كذلك لم يكن عبثا ولا صدفة أن تتضح فى أذهان القادة المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية آنذاك فكرة توحيد القطرين لمواجهة الصليبيين مواجهة حاسمة •

أما شاعر الشام الذى تخيرت أن أتحدث عنه فهو : شرف الدين أبو المحاسن المعروف بابن عنين والذى يتصل نسبه البعيد بأنصار رسول الله ﷺ •

وأما شاعر مصر فهو : أبو الفضل زهير محمد بن على بن يحيى الملقب ببهاء الدين والذى يتصل نسبه بالمهلب بن أبى صفرة القائد المعروف ، الذى وصفه عبد الله بن الزبير بأنه سيد أهل العراق •

وليس معنى هذا الاختيار أن هذين أفضل شعراء هذه الفترة ، فإن هذا الحكم لم يخطر ببالى وأنا أختار ، لأنه يجب أن يقوم على دراسة جميع الشعراء والموازنة بينهم والمفاضلة ، وهو أمر لم يتيسر لى ولا أتصور - فيما أعلم - أنه قد تيسر لغيرى من الباحثين ، على الرغم من تعدد الكتب والدراسات فى هذه الفترة قديما وحديثا •

وإنما قام الاختيار عندى على ماكان لكل منهما من صلة بالحروب الصليبية - موضوع كتابنا هذا - وإن كانا لم يتفردا بذلك بين سائر الشعراء كذلك ، ولقد تكون قراءتى فى تاريخ هذه الفترة زمنا ليس بالقصير هى التى جعلت هذين الشاعرين أقرب إلىّ من سواهما ، وقد تكون خفة ظلهما وبساطتهما فى التعبير هى التى أغرتنى بالحديث عنهما دون سواهما •

غاية ما أرجو أن أدقق فى الكتابة عنهما فى هذا المجال ، مجال الغزو الصليبى •• والعالم الإسلامى ، وآية التوفيق عندى أن يهتم بعض الباحثين الجامعيين من أبنائنا طلاب الدراسات العليا بهذين الشاعرين ، عندئذ تتاح فرصة جيدة لبحث جامعى جاد يكشف عنهما وعن أبعاد شعرهما فى هذا الغزو الصليبى الذى ضرب العالم الإسلامى من شرق ومن غرب • ذلك عندى من آيات التوفيق ، وعلى الله التوكل •

شرف الدين ابن عنين

٥٤٩ ـ ٦٣٠ هـ

أولا : نسبه ونشأته :

هو : شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن علي بن محمد بن غالب المعروف بابن عنين ·

ولد في دمشق يوم الاثنين تاسع شعبان سنة تسع وأربعين وخمسمائة وفي دمشق نشأ ، وعلى كبار المشائخ في الجامع الأموي تعلم ·

وابتدأ يقول الشعر وهو ابن ست عشرة سنة ، وكان ذلك في عهد الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ·

وتلقى ابن عنين تعليمه على عدد من شيوخ الجامع الأموي منهم :

الحافظ الكبير أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر ·

وأبو الثناء محمود بن نعمة بن أرسلان الشيزري ·

وقطب الدين النيسابوري رئيس الشافعية ·

وكمال الدين الشهرزوري قاضي قضاة دمشق ·

كما تلقى ـ بعد أن ذهب إلى بغداد ـ على منوجهر بن تركان شاه راوي مقامات الحريري ·

كما تلقى فيما بعد على يد الفخر الرازي ·

وكانت أسرة ابن عنين من الأسر الفقيرة ، ولا يذكر في المراجع التي وقفنا عليها شيء ذو بال عن تلك الأسرة ·

ثانيا : أطوار حياته الأدبية :

نعنى بحياته هنا : حياته الأدبية المنتجة . وقد انقسمت حياته بالنظر إلى أدبه وإنتاجه إلى أطوار ثلاثة :

أولها : طور صلته بنور الدين وبصلاح الدين ·

وثانيها : طور نفيه عن دمشق وتنقله فى كثير من بلدان العالم الإسلامى ·

وثالثها : طور عودته الى دمشق وتوليه الوزارة ·

أ ـ صلته بنور الدين وبصلاح الدين

تفتحت موهبة الشعر فى ابن عنين وهو ابن ست عشرة سنة . وكان ذلك سنة خمس وستين وخمسمائة فى عهد الملك العادل نور الدين ، وحسب ابن عنين أنه يستطيع بشعره أن يتقرب إلى نور الدين ، ولكنه لم يكن موفقا فى حسبانه ولا فى آماله التى علقها على هذه الصلة ، فقد كان نور الدين حاكما مسلما نقيا يقرب العلماء ، ولايقبل على الشعراء ·

وكانت سيرة نور الدين وتقواه وعدم ترحيبه بالشعراء قد أثارت حفيظة أهل الطمع منهم ، لأن زهده جعل أيامه غير حافلة بالعطايا للشعراء ، صور أسامة بن منقذ نور الدين وأيامه فقال :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا ... له فكل على الخيرات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم خالية ... من المعاصى وفيها الجوع والعطش [1]

كما عبر عن قريب من ذلك ابن برهان حيث قال :

أأمدح الترك أبغى الفضل عندهم ... والشعر مازال عند الترك متروكا [2]

---

١ ـ ياقوت الحموى : معجم الأدباء : ٢١٤/٥ ط دار المأمون القاهرة ·

٢ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٣٢١/١ ·

ولذلك لم يجد ابن عنين عند نور الدين مايرضى طموحه ، وإنما وجد إهمالا له ولغيره من الشعراء ، ولعل ذلك هو الذى صرف ابن عنين بشعره عن نور الدين فقد تصفحت ديوانه فما وجدت فيه قصيدة واحدة ولا عددا من الأبيات فى نور الدين ممدوحا ولا مرثيا ، وربما كان إلى هذا السبب سبب آخر هو قصر المدة التى قال فيها ابن عنين الشعر فى حياة نور الدين ، فقد قلنا إنه قال الشعر سنة خمس وستين وخمسمائة بينما توفى نور الدين بعد ذلك بسنوات أربع ، فلعل هذه السنوات الأربع مع حداثة ابن عنين على الشعر كانت أحد الأسباب التى صرفته عن توجيه شعره إلى نور الـدين ، بالإضافـة إلى ماذكرنـا من أسباب •

وعندما استولى صلاح الدين على دمشق ، وأضحى فى نظر المسلمين موحد القطرين مصر والشام ، كان أشبه بنور الدين فى زهده وعدم إعطائـه للشعـراء من بيـت مال المسلمين •

غير أن صلاح الدين يختلف عن نور الدين فى أنه كان يتذوق الأدب ويحفظ الحماسة لأبى تمام ـ كما ذكر ذلك عنه غير واحد ممن أرخوا له ـ فكان ذلك سببا فى إقباله على الشعراء أو تقبله لهم •

ولكن ابن عنين صدم فى صلاح الدين إذ لم يجد عنده للشعر سوقا رائجة ، وكأن إحساسا بالضياع والخيبة وبوار الشعر قد ملأ نفس ابن عنين ، وحوله ـ بعد أن كان أخذ يمدح بعض الأمراء دون طائل ـ إلى الهجاء بل الهجاء المقذع يتناول به الناس بعامة ، وبعض الأمراء والوزراء أحيانا ، ولعله وجد فى ذلك مندوحة عن ضياعه وخيبته فى أن يحقق بشعره مالا وجاها ، فما هى إلا فترة وجيزة حتى أصبح ابن عنين موضع كلام الناس من راض عليه وغاضب وربما أغرته تلك الشهرة الهجائية فغالى فى هجائه وتناول به كبار الناس فهجى السلطان صلاح الدين نفسه وهجا وزيره القاضى الفاضل ونائبه العماد الكاتب وخطيبه الدولعى وواعظه ابن باقا ومحتسبه عبد اللطيف وصاحب أمره وعارض جيشه ••

يقول فى ذلك ابن عنين هاجيا صلاح الدين وأعوانه :

قد أصبح الرزق ماله سبب   فى الناس إلا البغاء والكذب
سلطاننا أعرج وكاتبه   ذو عمش والوزير منحدب
وصاحب الأمر خلقه شرس   وعارض الجيش داؤه عجب

ثم ذكر أبياتا فاحشة فى هجو أعوان صلاح الدين ثم ختم هذه النفثة الحاقدة بقوله :

عيوب قوم لو أنها جمعت   فى فلك ماسرتْ به شهبُ

وكانت له فى هجاء أهل دمشق جميعا قصيدة شهيرة سماها مقراض الأعراض ، ولم يخلها من هجاء أعوان صلاح الدين ، بلغت أبياتها ثلاثة وخمسين بيتا ، ختمها بهجاء القاضى الفاضل ، حيث يقول :

وحين أبصرت دولة الأحدب الفا   ضل أربتْ على عُلا الشهب
قلت للمفلسين ويحكم   تحادبوا فهى دولة الحدب

ولم يكن من المتوقع لابنَ عنين أن يسلم من كيد من هجاهم من المسئولين فى دولة صلاح الدين ، غير أن عدالة صلاح الدين وتقواه لم تسمح له بأن يعاقب الشاعر المتمرد على هيبة هذه الدولة الفتية بأكثر من أن ينفيه عن دمشق إلى الهند ـ كما يذكر بعض المؤرخين ـ أو إلى أى بلد شاء كما تذكر بعض الروايات •

ويقال : إن الذى أقنع السلطان بنفيه هو الموفق بن مطران أحد أعوان صلاح الدين المقربين ، وهو أحد من هجاهم الشاعر وسخر منهم •

ولقد تساءل وهو مرتحل قائلا :

فعلام أبعدتم أخاثقه   لم يقترف إثما ولا سرقا
انفوا المؤذن من بلادكم   إن كان ينفى كل من صدقا

وكذلك لم أجد فى ديوانه مدائح لصلاح الدين ـ على الرغم من أن انتصاراته ملأت شهرتها العالم كله ، ولاوجدت مراثى له فى صلاح الدين على الرغم من أن عددا كبيرا من الشعراء قد رثاه ، وأن العالم الإسلامى كله قد بكا صلاح الدين أحر بكاء •

وإذن فإن الطور الأول من أطوار حياة ابن عنين كان طور هجاء وتهجم على الكبار والصغار ، بعد فشل فى البحث عن سلطان أو أمير يستظل بظله وينال من عطاياه ٠

وحصيلة هذا الطور عدد من قصائد من الهجاء والسخرية والتهكم والوقائع والمحاضرات والأحاجي والألغاز . أما الشعر الذى صور الحروب الصليبية وأبطالها فليس له فى هذه المرحلة من حياته وجود ملموس ٠

ب ـ طور تنقله فى العالم الإسلامى بعد نفيه عن دمشق

عندما رحل الشاعر عن دمشق أخذ يطوف آفاق العالم الإسلامى ، فدخل الجزيرة والعراق ، ومن العراق انتقل إلى خراسان وأذربيجان وغزنة ، ومن نيسابور كتب إلى الفخر الرازى مدحة سبقته إليه جاء فيها :

ريح الشمال عساك أن تتحملى ... خدمى إلى صدر الإمام الأفضل
وقفى بواديه المقدس وانظرى ... نور الهدى متألقا لا يأتلى
من دوحة فخرية عمرية ... طابت مفارش مجدها المتأثل
مكية الأنساب زاك أصلها ... وفروعها فوق السماك الأعزل
لو أن رسطاليس يسمع لفظةً ... من لفظه لعرته هزة أفكل
ولحار بطليموس لو لاقاه من ... برهانه فى كل شكل مشكل
فلو انهم جمعوا لديه تيقنوا ... أن الفضيلة لم تكن للأول [١]

ولما وصل الشاعر إقليم خوارزم ذهب إلى الرازى فى هراة ، وانخرط فى سلك تلاميذه ، وأخذ ابن عنين يمدحه والفخر الرازى يعطيه والشاعر راض بالدرس على الشيخ وسعيد بعطاياه ٠

---

١ ـ ديوانه : تحقيق خليل مردم : ص ٥٣ ـ ٥٤ ٠

ولقد بدأ ابن عنين رحلته كما قلنا بالجزيرة والعراق ، وفى بغداد أقام مدة وأخذ عن منوجهر بن تركان شاه ، ولكن الشاعر لم تعجبه الإقامة فى بغداد فخرج منه هاجيا الخليفة ورجال دولته وقضاته .

ومن بغداد اتجه نحو الشرق ، فزار جميع ممالك الشرق الإسلامية ولكنه لم يجد فى كنف أحد منهم ما يصبو إليه ، وعندئذ أحس بالغربة وتشوق إلى دمشق ، وأيقن أن بنى أيوب خير من كل من لقى من الحكام والسلاطين سجل ذلك على نفسه وهو فى بلاد ماوراء النهر ، فكتب قصيدة يحن فيها إلى دمشق ويذم الأعاجم فى ممالك الشرق ويمدح بنى أيوب ، بل يندم على ماقدمت يداه فى هجاء رأس بنى أيوب صلاح الدين وهجاء أعوانه .

وذلك حيث يقول :

أحن ومن وراء النهر دارى ... حنين العوْد أو ثقه العراسُ
وكيف تبيت تطمع فى مديحى ... رجاء نوالها العجمُ الخساسُ
ولو أنى مدحت ملوك قومى ... تراغت حولى النعم الدخاس
فإن الناس فى طرق المعالى ... لهم تبع وهم للناس راس

ثم اتجه إلى الهند ولكنه لم يجد فيها طلبته ، فخرج منها ساخطا يدعو عليها بالصواعق والدماء ، حيث يقول :

وإذا سقى الله البلاد فلا سقى ... بلد الهنود سوى الصواعق والدما[1]

ويسخط على الهند ويضيق بقضاتها فيقول فى أحدهم وهو قاضى دينبور :

لله قاضى دينبور فإنه ... قاض إذا أسدى أطال وأعرضا

ويبدو أن مالقيه فى الهند من إحساس بالفشل ، أيقظ فى نفسه الرغبة فى العودة إلى بلاده وإلى بنى أيوب ، غير أنه لم يكن قادرا على العودة إلى دمشق للأسباب التى ذكرنا ، فاتجه إلى أحد بنى أيوب فى اليمن وهو سيف الإسلام أخو صلاح الدين ، وقد قابله سيف الإسلام بترحاب وتقريب وجعله من خواصه وجلسائه ، وأغدق عليه مما يطمع فيه من

١ ـ ديوانه : ص ٧٤ .

هبات وعطايا ، فاستقر ابن عنين فى كنفه وفى جاهه ومنحه راضيا هانئ البال ، وعبر عن ذلك الاستقرار والرضى فى قوله :

فلما استقــرت فى ذراه بى النوى   وألقـت عصاهـا بـين مزدحـم الوفد
تنصل دهرى واستراحـت من الوجى   قلـوصى ونامـت مقلتـى وعــلا جدى

ويبدو أن الشاعر أخذ يقول الشعر من موقع الرضا والاطمئنان ، لذلك فلسنا نبالغ حين نقول : إن أجود شعره هو ماقاله فى كنف سيف الإسلام وظل ابن عنين فى كنف صاحب اليمن مدة ليست بالقصيرة كان فى أثنائها يتردد على مصر ويعود إلى اليمن ، متجرا مثمرا لأمواله التى أحدثها فى اليمن حتى إنه ـ من كثرة ماكان يحمل من نفائس تعرض له من نهبه فى مكة وهو فى الطريق مابين مصر واليمن ، فقال أبياتا يحرض سيف الإسلام على أشراف مكة وحكامها آنذاك منها :

وإن أردت جهــادا روّ سيفــك من   قوم أضاعــوا فروض الله والسننا
طهـر بسيفــك بيــت الله من دنس   ومــا أحــاط به من خسة وخنا
ولا تقــل إنهــم من آل فاطمة   لو أدركــوا آل حرب قالتــوا الحسنا

ومن الواضح أن الأسباب الشخصية هى التى حركت هذا الشعر ودفعته إلى تلك المبالغة .

ومن اليمن حمل متاعه وماله ـ وما كان أكثره ـ وذهب إلى مصر فهنئ له العيش فيها وصاحب طائفة من شعراء مصر فسعدوا به وبخفة روحه وظرفه ، وما يقدر عليه من دعابة وفكاهة ، ذكر ذلك ابن خلكان فى وفياته وهو يترجم ابن سناء الملك .

ومن مصر زاد حنين ابن عنين إلى دمشق فأخذ يحتال إلى أن دخلها ، وما من شك فى أن الفترة التى قضاها ابن عنين منفيا عن دمشق قد طالت حتى وصل بها بعض المؤرخين إلى عشرين عاما ، ولاشك أنه أحس فى هذه الفترة بقلق واضطراب وربما كان عزاؤه الأوحد قبل أن يتجه إلى اليمن هو لقاؤه للفخر الرازى ودرسه عليه ونواله من منحه وعطاياه .

ولكنه عندما اتجه إلى بنى أيوب فى اليمن بدأت الدنيا تبتسم له ؛ بالمقياس الذى طمح إليه وهو تحقيق المال وتثميره ، وقد بلغ من ذلك ما أراد . فلما حل بمصر كانت نهاية مطاف وغاية رحلة ، ولكنه أخذ يحن إلى دمشق .

ولقد جاء شعره وهو فى اليمن شعرا جيدا ، وجاء شعره وهو فى مصر أكثر جودة ، حتى إن قصيدته التى قالها يستسمح فيها الملك العادل ويستأذنه فى العودة إلى دمشق ، والتى تتصدر ديوانه ، عدت من أحسن شعره [1] ، ومطلعها :

مــاذا على طيف الأحبــة لو سرى   وعليهــم لو سامحونــى بالكرى

جـ - عودته إلى دمشق وتوليه الوزارة

بعد أن أنس ابن عنيين إلى سيف الإسلام - أخى صلاح الدين - فى اليمن ، اتجه إلى إرضاء الأيوبيين ، وعندما توفى صلاح الدين سنة تسع وثمانين وخمسمائة وآلت دمشق إلى ابنه الأفضل ثم إلى أخيه العادل - وكانت لابن عنين صلة بالأفضل فساء ابنَ عنين أن يستولى العادل على دمشق من ابن أخيه الأفضل ، فى ذلك الوقت كتب إلى ابن عنين أخوه يستدعيه إلى دمشق ، رفض ابن عنين هذه الدعوة ، واتهم العادل بالطغيان على ابن أخيه الأفضل ، أملا منه أن يعود السلطان للأفضل .

غير أن الأمور سارت مع الأفضل إلى حيث لايريد ولايشتهى ، إذ أصبح العادل صاحب مصر والشام معاً ، بينما باء الأفضل بالفشل ، عندئذ حول ابن عنين ولاءه نحو العادل ، وكأنه يئس من الأفضل ، فكان أن كتب للملك العادل قصيدته الرائية الجيدة يستعطفه ويستأذنه بالعودة إلى دمشق ولما أذن له العادل بذلك فرح واغتر ، وقال فى ذلك أبياتا منها :

هجـــوت الأكابـــر فى جلّق   ورعــت الــرفيــع بسب الوضيــع

وأُخـرجــت منهـــا ولــكننى   رجعــت على رغـــم أنف الجميــع

---

١ - خليل مردم : ديوان ابن عنين - مقدمة الديون ص ١٢ .

وفى دمشق استقر ابن عنين وهدأت بلابله وكان يسافر عنها ثم يعود إليها ، ولم يحن إلى بلد زاره بعد أن استقر فى دمشق إلا إلى مصر حيث قال :

أحــن إلى مصر ويااليــت أن لى إذا ذكـرت مصر جناحـا أُعــاره [1]
فـآوى إلى ظل ظليل ونائل جزيل وملك حالف العــز جاره

وكان من حظ ابن عنين ـ وهو مقيم بدمشق ـ أن كان أمرها إلى الملك المعظم ابن الملك العادل ، وكان الملك المعظم فى بنى أيوب كالمأمون فى بنى العباس عالم فاضل أديب ، برع فى الفقه واللغة والنحو ، يقرب العلماء ويجالسهم ويجرى عليهم الجرايات ، ويقترح عليهم تأليف الكتب ويضع الخطط لها ٠٠ ألف هو نفسه كتابا يرد به على الخطيب البغدادى منتصرا للإمام أبى حنيفة ذكر فى مقدمته أنه ألفه وهو يدفع هجوم الصليبيين عن نابلس [2]

وقد أحب الملك المعظم ابن عنين وقربه وجعله من خواصه ، بل فتن به فكان لايصبر عنه ، فيصحبه فى سفره ويعتمد عليه فى مهام الأمور ، وما زال تقدير الملك المعظم لابن عنين يتزايد حتى ولاه الوزارة بدمشق فضبط الأمور وأحسن السيرة وعف عن الأموال ٠

وبقى ابن عنين وزيرا للملك المعظم حتى توفى الملك سنة أربع وعشرين وستمائة بل بقى وزيرا فى حكم الملك الناصر بن الملك المعظم ، وما تركها إلا عندما آلت دمشق للأشرف موسى سنة ست وعشرين وستمائة ، وكانت سن ابن عنين قد علت فلزم بيته ٠

وفى هذه المرحلة من مراحل حياة ابن عنين كان شعره الجم بل الرائع قد أنضجته التجربة وصقله السن وجودته مجالسة العلماء والفضلاء ٠

ومن مدائحه للأيوبيين ، مدحه للملك العادل واستئذانه بالرجوع إلى دمشق وهى الرائية التى تصدرت الديوان ، كما مدح بنى أيوب جميعا بقصيدة واحدة ومـدح الملك الأشرف بواحدة ومدح الملك الناصر بأبيات ٠

---

١ ـ ديوانه : ص ٩١ ٠

٢ ـ خليل مردم : مقدمة الديوان ٠ نقلا عن الكامل لابن الأثير والوفيات لابن خلكان ٠

ولكنه مدح سيف الإسلام بست قصائد ومدح الملك المعظم بسبع هكذا وجدت فى ديوانه •

وتكاد هذه القصائد الست عشرة تبلغ ثلث ديوانه من حيث عدد الأبيات وفى باب الرثاء فى ديوانه ثلاث قصائد منها اثنان فى بنى أيوب إحداهما فى رثاء الملك المعظم والأخرى فى رثاء ولد صغير للملك المعظم •

ثالثا : نماذج من شعره

سوف أذكر فى هذه النماذج من شعره ، ماله صلة بالحروب الصليبية أو بقادة الأيوبيين الذين حاربوا الصليبيين فتحدث عنهم ابن عنين فى شعره مادحا أو راثيا •

أما سائر شعره فسوف أتحدث عنه عند الحديث عن ديوانه •

قال يمدح الملك المعظم ويذكر وقعة الفرنج على ثغر دمياط سنة تسع عشرة وستمائة :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... إذا جُهلت آياتُنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لايحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمةً ... ودينا وإن كانوا قد اختلفوا لُسنا
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت ... جموع كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذى كلُّ مفاضة ... دلاص كقرن الشمس قدأحكمت
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا ... إلينا سراعا بالجياد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم ... بأطرافها حتى استجاروا بنا مِنّا
سقيناهم كأسًا نفتْ عنهم الكرى ... وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا ... طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من رزق الأسنة أحمراً ... فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنّا
ومابرح الإحسان منا سجية ... توارثها عن صيد آبائنا الإبْنا

منحنـا بقاياهـم حيـاة جديـدة   فعـاشوا بأعنـاق مقلـدة منـاً
ولـو ملكـوا لم يأتلـوا فى دمائنا   ولوغـا ، ولكنـا ملكنـا فأسجحنا
وقـد جربونـا قبلهـا فى وقائع   تعلـم غمُـر القـوم منابهـا الطعنا
فكـم من مليك قد شددنـا إساره   وكم من أسير من شقـا الأسر أطلقنا
أسود وغـىً لولا قراع سيوفنا   لمـا ركبـوا قيـدا ولاسكنـوا سجنا
وكـم يوم حر مالقينـا هجيره   بستـر وقـرّ ما طلبنـا له كنّا
فـإن نعيـم الملك فى شطف الشقا   ينـال وحلْـو العـز من مرّه يجنى
يسير بنـا من آل أيـوب ماجد   أبـى عزمُـه أن يستقـر به مغنى
كريـم الثنـا عارٍ من العـار باسل   جميل المحيّا كامـل الحسـن والحسنى
لعمـرك ما آيـات عيسى خفية   هى الشـمس للأقصى سنـاءً وللأدنى
سرى نحـو دميـاط بكل سميذع   نجيب يرى ورد الوغى المـورد الأهنا
فـأجلى علـوج الـروم عنهـا وأفرحت   قلـوب رجـال حالفـت بعدهـا الحزنا
وطهرهـا من رجسهـم بحسامه   همام يرى كسب الثنا المغنـم الأسنى
مآثـر مجـد خلدتهـا سيوفه   لهـا نبـأ يفنـى الزمـان ولا يفنى
وقـد عرفـت أسيافنـا ورقابهم   مواقعهـا فيهـا فإن عاودوا عدنا[1]

وقال يرثى الملك المعظم ويعدد مناقبه :

يادهـر ويحـك ماعـدا ممـا بدا   أرسلـت سهـم الحادثـات فأقصدا
أغمـدت سيفـا مرهفـا شفراتـه   قد كان فى ذات الإلـه مجرّدا
فافعـل بجهـدك ماتشاء فإننى   بعـد المعظـم لا أبـالى بالردى
مـا خلتـه يفنـى وأبقـى بعـده   يابـؤس عيشى ما أمـرّ وانكدا

١ ـ ديوانه : ٢٩ ـ ٣٢ .

ومنها قوله :

كـم ليلـة قد بت فيهـا لاترى ... إلا ظهـور الأعوجيـة مرقـدا
تحمـى حمـى الإسلام منتصرا له ... بعزائـم تستقـرب المستبعدا

ومنها قوله :

لـولا دفاعـك بالصوارم والقنا ... عن حوزة الإسلام عاد كما بدا
وديـار مصرٍ لو ونـت عزماته ... عن نصرهـا لتمكنـت فيهـا العدا
ولأمست البيض الحرائـر أسْهمـاً ... فيهـا سبايـا والمـوالى أعبُدا
ولأصبحـت خيل الفرنـج مغيرة ... تجتـاب مابـين البقيـع إلى كدَى
وبثغـر دميـاط فكـم من بِيعةٍ ... عبـد الصليـب بهـا وكانـت مسجدا
أنقذتهـا من خطـة الخسف التى ... كانـت أحلتهـا الحضيض الأوهدا
أجليت ليل الكفـر عنهـا فانطوى ... وأنـرتَ فى عرصاتهـا فجـر الهدى
ولقـد شهدتـك يوم قيسارية ... والشـمس قد نسج القتـام لهـا رِدا
والكفـر معتصم بسور مشرف الـــــلأبراج أحكـم بالصفيـح وشيدا
فجعلـت عاليهـا مكـان أساسها ... وألنـت للأخشاب فيهـا الجلمدا[1]

وبعد : فهاتان القصيدتان مفعمتان كما نرى بالعواطف الإسلامية وفيهما من تسجيل أحداث الحروب الصليبية مايقنعنا بأن ابن عنين الشاعر ـ وإن برع فى فن الهجاء والتهكم والسخرية ـ إلا أن الحروب الصليبية ظروفها وملابساتها قد أنطقه بهذا الشعر الجيد المسجل بأمانة لما دار من حروب بين الصليبيين والمسلمين فى الفترة التى عاشها الشاعر ٠

---

١ ـ ديوانه : ص ٥٩ ـ ٦٢ باختصار ٠

رابعا : إنتاجه الأدبى

ليس لابن عنين فى هذا المجال سوى عملين غير الديوان

أحدهما : أنه صنف « التاريخ العزيزى » فى سيرة الملك العزيز عثمان • وهو مخطوط حتى الآن ـ ولم أطلع عليه • [1]

وثانيهما : « مختصر الجمهرة » ذكره صاحب كشف الظنون

أما ديوانه ، فقد تواتر لدى من كتبوا عنه أنه لم يعن فى حياته بجمع ديوانه ، وأنه كان ضنينا بشعره •

وقد جَمع ديوانه بعد وفاته بثمان سنوات محمد بن المسيب بن بتهان الدمشقى التغلبى[2] •

وللديوان ثمان نسخ مخطوطة فى الظاهرية بدمشق وفى كمبردج ونسخة فى الموصل ونسخة فى باريس ونسخة حجازية ونسخة مصرية وثامنة للشاعر أحمد الصافى النجفى وهى لاتكاد تختلف عن نسخة كمبردج • [3]

وقد حقق الديوان ونشره خليل مروم فى شهر رمضان ١٣٦٥ هـ وقد أخرجه فى سبعة أبواب هى :

باب المديح •

وباب الرثاء •

وباب فى الحنين إلى دمشق •

وباب فى الوقائع والمحاضرات •

وباب فى الدعابة والتهكم والسخرية •

وباب فى الألغاز •

وباب فى الهجاء •

---

١ ـ الإركلى : الإعلام

٢ ـ حاجى خليفة : كشف الظنون : ٢٢٨/١ •

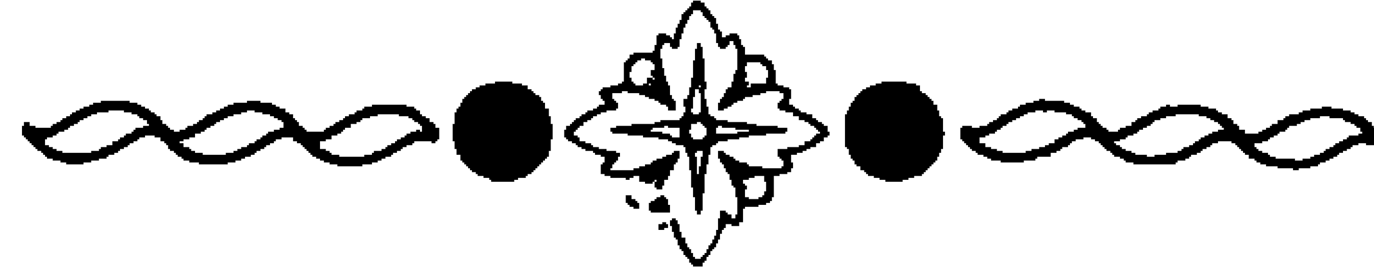
٣ ـ خليل مردم : مقدمة الديوان •

ثم زاد المحقق على ذلك : « المستدرك من شعر ابن عنين » جمع فيها المحقق أشعارا لابن عنين عثر عليها فى كتب التاريخ والأدب لم ترد فى ديوانه فى النسخ الثمانية التى ذكر ٠

ويقال إن قصيدته « مقراض الأعراض » التى هجا بها أهل دمشق والتى ورد فى الديوان منها اثنان وخمسون بيتا وأورد محقق الديوان منها ثلاثة وخمسين بيتا ، يقال إن هذه القصيدة فى الأصل خمسمائة وخمسون بيتا وأورد محقق الديوان منها ثلاثة وخمسين بيتا ، يقال إن هذه القصيدة فى الأصل خمسمائة بيت ٠

وبعد فتلك صورة للشاعر ابن عنين نرجو أن تكون قد دلت على شاعر الشام الذى أردنا أن نتحدث عنه ٠

وإلى الحديث عن شاعر مصر الذى اخترناه للحديث عنه فى هذا الكتاب ٠



البهاء زهير

٥٨١ ـ ٦٥٦ هـ

أولا : نسبه ونشأته :

هو أبو الفضل زهير محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عاصم المهلبي العتكي الأزدي ـ كما أملى هو نسبه على معاصره المؤرخ : ابن خلكان والمهلبي هذه نسبة إلى المهلب بن أبي صفرة المشهور في التاريخ والذي وصفه عبد الله بن الزبير بأنه : سيد أهل العراق .

وكنية شاعرنا : أبو الفضل ، ولقبه : بهاء الدين

ولد بمكة في خامس ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، هكذا قال بهاء الدين نفسه ، وقال هو أيضا عن نفسه إنه ولد بوادي نخلة . [١] ولاتعارض في ذلك فوادي نخلة داخل في مكة على اعتبار أن مكة تعريف بالأعم الأشهر .

وقد قضى البهاء زهير طفولته في الحجاز ثم انتقل إلى قوص في صعيد مصر وهو صبي كذلك حتى إنه ينسب إلى قوص فيقال : القوصي .

وتلقى البهاء زهير دروسه الأولى في مدينة قوص التي كانت حينئذ قصبة صعيد مصر والتي أدت الحروب الصليبية إلى ازدهارها فكانت مركزا هاما من مراكز العلم والثقافة ، ومن الواضح أن يكون البهاء زهير قد تلقى في قوص علوم الشريعة وعلوم اللغة والأدب ، فضلا عن المعارف والعلوم الأخرى التي أهلته لأن يكون يتولى ديوان الإنشاء ، وما كان من يتولاه إلا في الدرجة العليا من المعرفة والبلاغة والبيان . [٢]

---

١ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٨٥/٢ .

٢ ـ القلقشندي : صبح الأعشى .

تخرج البهاء من قوص « أحسن الفضلاء نظما ونثرا وخطا على حد تعبير ابن خلكان رفيق البهاء زهير وصديق طفولته فى قوص ·

ومن شعر البهاء ندرك أنه من أسرة فقيرة أو متوسطة لأنه كتب إلى أحد ممدوحيه يستعطفه ويستمنحه لأنه يعول أطفالا ونسوة ، يقول :

ولولا أمور ليس يحسن ذكرها   لكنتُ عن الشكوى أصدو أصدف
ولكن أطفالا صغارا ونسوة   ولا أحد غيرى بهم يتلطف
سرورى أن يبدو عليهم تنعم   وحزنى أن يبدو عليهم تقشف

ولكن أباه كان من الصالحين إذ وصف فى مقدمة ديوان البهاء بأنه « العارف قدس الله روحه » (١)

وكان البهاء نفسه ذا وفاء ومروءة ، عالى الهمة ، صادقا فيما يقول ، يعين الناس على حوائجهم ويلقاهم ببشاشة ولطف ، بكل ذلك نطق شعره ، ولعل الأبيات التالية ترسم لنا صورة لأخلاق البهاء زهير ·

ويارب داع قد دعانى لحاجة   فعلت له فوق الذى كان أمّلا
سبقت صداه باهتمامى لكل ما   أراد ، ولم أحوجه أن يتمهلا
وأوسعته لما أتانى بشاشة   ولطفا وترحيبا وخلقا ومنزلا
بسطت له وجها حيبا ومنطقا   وفيّا ومعروفا هنيا معجلا
وراح يرانى منعما متفضلا   ورحت أراه المنعم المتفضلا

---

١ ـ نسخة من ديوانه بدار الكتب المصرية رقم ٢٠٥١ أدب مخطوطة ·

ثانيا : أطوار حياته الأدبية :

كانت أطوار حياة البهاء زهير المتعددة تخدم فى كل طور منها قدراته الأدبية وتصقلها ، كما كانت قدراته تمكن له عند وجهاء القوم وكبرائهم ونستطيع أن نقسم حياة البهاء زهير إلى أطوار ثلاثة :

أ ـ طور اتصاله بالكبراء والأعيان •

ب ـ طور عمله بالديوان والوزارة •

جـ ـ طور خلعه من الديوان واضطرابه فى الأرض •

وفى كل طور من هذه الأطوار نستعرض شيئا من شعره نستدل به على ماتميز به هذا الطور من حياته •

أ ـ طور اتصاله بالكبراء والأعيان

من قوص قصبة صعيد مصر ، ومركز الثقافة والعلم والمكتبات ، استطاع البهاء زهير أن يكون شخصيته العلمية والأدبية ، وإن المتصفح لديوان البهاء زهير ليرى أثر هذه الثقافة فى شعره ، وهى ثقافة إسلامية تعتمد القرآن الكريم والحديث النبوى والفقه وعلم الكلام • ثم هى ثقافة عربية أدبية تعتمد الأدب والتاريخ وعلوم اللغة وفنونها من نظم ونثر •

وبعد أن استكمل البهاء زهير عدة العالم الأديب أخذ يتصل بكبار القوم وأعيان العلماء •

فكانت له صلة بجمال الدين بن مطروح الشاعر الأديب المعروف بخفة الروح وممارسة السياسة والحرب والشعر ، وقد التقى البهاء زهير مع ابن مطروح فى مجلس الأمير مجد الدين إسماعيل بن اللمطى ، وتوثقت بينهما العلاقة طوال حياة الرجلين ، يقول ابن خلكان عن ذلك : وتأكدت الصلة بينه وبين البهاء حتى كانا كالأخوين [١]

---

١ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٣٠٦/٥ •

وكانت له صلة بأمير قوص : المكرم مجد الدين إسماعيل اللمطى ·

فعندما تولى ابن اللمطى إمارة قوص سنة ست وستمائة تشوفت نفس البهاء زهير إلى أن يعقد به صلة فمدحه بقصيدته المؤرخة فى ديوانه بسنة سبع وستمائة ، والتى جاء فيها تهنئته له بهذه الإمارة :

ورب قواف قد طويت برودها ... فلم أرض أن تغدو لغيرك ملبسا
أقمن حبيسات كحبسك مَنْ جنى ... على أنها لم تجن يوما فتحبسا
فها هى كالوحشى من طول حبسها ... عساها ببر منك أن تتأنسا

ومنها :

به أصبحت قوص إذا هى فاخرت ... أعزّ قبيل فى الأنام وأنفسا

وماهى إلا فترة حتى أصبح البهاء زهير كاتب ابن اللمطى وأثيره وجليسه واستمرت العلاقة طيبة حسنة بينه وبين أميره أكثر من خمسة عشر عاما يغذيها شعر البهاء فى مدح أميره كلما سنحت سانحة حتى ليهنئه بشهر الصوم بقوله :

وافاك شهر الصوم يامن قدره ... فينا كليلة قدره لن يجحدا

ويمدحه بقصيدة منها قوله :

مولى بدا من غير مسألة بما ... جاز المدى كرما وعاد كما بدا
وأنال جودا لا السحاب ينيله ... يوما وإن كان السحاب الأجودا

ومن عمل بهاء الدين للمطى وشعره فيه يطير ذكره وتصل شهرته إلى الأسماع فى القاهرة ، وتحدث البهاءَ نفسه بأنه لو ذهب إلى القاهرة لكان أليق به وأحسن ، وربما انفتح له باب السلطان فحقق الآمال ، غير أن الشاعر الوفى يعز عليه أن يهجر أميره هكذا طلبا للمجد ، فيتخذ من قصائده إلى الأمير تعلات واعتذارات ذاكرا لأميره حسن رعايته وجميل مودته ، فيقول له :

مولاى مجد الدين ، عطفاً إنّ لى ... لمحبةً فى مثلها لايمترى
يامن عرفت الناس حين عرفته ... وجهلتهم لما نبا وتنكرا

خلـق كماء المـزن منـك عهدته ويعـز عنـدى أن يقـال تغيرا
مـولاى لم أهجـر جنابـك عن قِلىً حاشاى من هذا الحديـث المفترى

وما سمح وفاء البهاء زهير له بأن ينسى فضل أميره اللمطى عليه حتى بعد أن استقر فى القاهرة ونال حظا من صلته بأمرائها ٠

فيقول له فى إحدى قصائده :

أسفـى على زمـن لديك قطعته وكأنـنـى للفرقـدين نزيـل
وإذا انتسبـت بخدمتـى لك سابقا فكأنهـا لى معشر وقبيل
هـذا هو الأدب الـذى أنشأتـه فاهتـز منـه روضه المطلـول

كما كانت للبهاء زهير صلة ومدائح بالوزير الصاحب صفى الدين بن شكر الذى وزر للملك العادل الأيوبى ، ثم للملك الكامل ابن الملك العادل من بعد ، وكان ابن شكر صاحب مكانة وله فى العلم قدم ٠

وقد كتب البهاء زهير لابن شكر قصائد يستمنحه فضله ، وقصائد يشيد فيها بعلمه وفضله ٠

ب ـ طور عمله بالديوان والوزارة

عندما اتجه البهاء زهير إلى القاهرة كان طامعا فى أن تكون له بالملك العادل صلة ، فمدحه وتقرب إليه ، فمن مدائحه فيه قصيدته التى فيها قوله :

إلى العـادل المأمـول للدهـر إن سطا بـــه يتجلى ظلمـه وظلامُـهُ

ومنها قوله :

أمنـتُ بلقيـاك الزمـان وحدقه فغـيرى من يُخشى عليـه اهتضائـه

ثم تولى الملك الكامل بعد أبيه العادل ، فحاول البهاء زهير أن يجد فرصة للقرب منه فمدحه ، وحاول أن يحدث صلة بولديه الملك المسعود يوسف والملك الصالح نجم الدين ، وينجح البهاء فى إحداث تلك الصلة ٠

وكان أن كتب البهاء زهير إلى الملك المسعود قصيدة يرجوه أن يجعل منه شاعر القصر لينشر ذكر الملك المسعود بين الملوك ، فيقول له فيها •

فيا صاحبي هب لى بحقك وقفة يكون بها عندى لك الحمد والأجرُ
لدى ملك رحب الخليقة قاهر فمجلسه الدنيا وخادمه الدهر
سأذكى له بين الملوك مجامرا فمن ذكره ندٌّ ومن فكرى الجمر

وقد قبله الملك المسعود وقربه ، وعظم هذا فى عين البهاء زهير حتى تساءل أفى يقظة هو أم فى منام ، فقال :

وقد قرب الله المسافة بيننا فها أنا يحوينى وإياه إيوان
أشك وقد عاينته فى قدومه وأمسح عن عينى ، هل أنا وسنان ؟

لكن حظ البهاء زهير ـ بالمقياس الذى وضعه لنفسه وهو قربه من السلطان ـ وافاه على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حيث يرغب الملك فى أن تكون صلة الشاعر به وثيقة ، ويطير البهاء زهير فرحا بهذه الرغبة ، فيصبح البهاء أثير الملك الصالح ثم سفيره إلى عديد من البلاد •

ولما ملك الملك الصالح دمشق عينّ البهاء كاتبا بها ، ولما ضاعت دمشق من الملك الصالح وأصبحت فى ملك الناصر داود عاد البهاء زهير إلى مصر وظلت العلاقة بين الملك الصالح والبهاء زهير حتى تغير عليه الملك قبيل وفاته فصرفه من منصبه •

ولما مات الملك الصالح وكلفت شجرة الدر زوجة الملك الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بتدبير أمور الدولة ، أعاد البهاء زهير إلى منصبه •

ولكن توران شاه كان له موقف من الجهاز الإدارى كله للدولة ، فصرف كبار الأمراء والأعوان وصرف البهاء زهير معهم •

وبهذا تنتهى المرحلة الثانية من مراحل حياة البهاء زهير ، ويستعد لاستقبال نمط آخر من الحياة ليس فيه مما يريد شيئا ولا مما يمنى به نفسه من جاه أو سلطان قليل أو كثير •

غير أن هذا الطور الثانى من حياة البهاء زهير مضى وقد وقف فيه موقفين كريمين مع الملك الصالح ، يستحقان التسجيل •

أما أولهما ، فيوم استطاع عماد الدين إسماعيل أن يقهر ابن أخيه الملك الصالح وأن يفرق عنه جنده حتى لم يبق معه سوى مائة جندى ، فى ذلك الوقت أثبت البهاء زهير أن الوفاء عنده فوق كل اعتبار فثبت مع الملك وأصر على أن يكون فى صفه ، حتى أخرجه الله من تلك الأزمة •

والموقف الثانى يوم غضب الملك الصالح على البهاء وصرفه من خدمته فقد كان البهاء زهير قادرا على أن يتنصل من تهمة ألصقت به ولكنه لم يفعل ، وحمل عبء خطأ ارتكبه السلطان نفسه ، وذلك أن البهاء كان قد كتب إلى الملك الناصر داود كتابا باسم الملك الصالح ، فلما قرأه الملك الصالح زاد فيه بين السطور عبارة فيها حرج وإهانة ، ثم بدا للملك الصالح أن يتراجع عما كتب فطلب من البهاء أن يغير الكتاب ، ولكن البهاء عندما جاءه كتاب الملك لم يغير فيه شيئا لأنه لم يطلع على تلك العبارة التى زادها الملك الصالح ، ولما وصل الكتاب إلى الملك الناصر بهذه العبارة غضب وكتب للملك الصالح يعاتبه ، فثار الملك الصالح على البهاء زهير وعزله من عمله •

جـ ـ طور خلعه من الديوان واضطرابه فى الأرض

بعد أن خلع توران شاه بهاءَ الدين زهير من منصبه ، لم ييأس البهاء وإنما شرع يخط لنفسه طريقا آخر ، فمضى إلى بلاد الشام لعله يجد فيه متنفسا فمدح الناصر يوسف بن العزيز ـ وكان قد ملك دمشق سنة ثمان وأربعين وستمائة ـ وعرض عليه شعره ومدائحه ، وبثه شكواه ، وكان يغريه بأن يجعله منه فى مكان الأمير لإحدى الإمارات •

بث تلك الأمانى كلها فى قصيدة طويلة جيدة جاء فيها :

لكم منى الود الذى ليس يبرح ولى فيكم الشوق الشديد المبرح

وكم لى من كتب ورسل إليكم ولكنها عن لوعتى ليس تفصح

وفى النفس مالا أستطيع أبثه ولست به للكتب والرسل أسمح

ومنها قوله :

وإن مديح الناصر بن محمد ليصبوا إليه كل قلب ويجنح
مديح ينيل المادحين جلالة ومدحا بمدح ثم يربو ويمنح
وليس بمحتاج إلى مدح مادح مكارمُه تثنى عليه وتمدح
وكل فصيح ألكنٌ فى مديحه لأن لسان الجود بالمدح أفصح
وقد قاس قوم جود يمناه بالحيا وقد غلطوا ، يمناه أسخى وأسمح

ومنها فى التصريح بما يريد قوله :

وبعض عطاياه المدائن والقرى فمن ذا الذى فى ذلك البحر يسمح
فلو سئل الدنيا رآها حقيرة وجاد بها سرًّا ولا يتبجح

ومع كل ذلك فإن السلطان لم يعطه ، ولم يحقق آماله ، فاتجه البهاء إلى أسلوب آخر معه ، إذ أخذ يشكو له بؤسه وفاقته ، ويطلب منه أن يعينه على نوب الزمان •

سجل ذلك فى قصيدة أخرى تعد من أجود شعره كان مطلعها :

طريقتك المثلى أجل وأشرف وسيرتك الحسنى أبرّ وأرأف

ولكن السلطان لم يستجب لأى من نداءات البهاء زهير ، فلم يحقق له أمله فى الإمارة ولم يعنه على نوب الدهر وأحداث الزمان •

اتجه البهاء زهير بعد يأسه من الملك الناصر يوسف بن عبد العزيز إلى مدح الملك المنصور على بن الملك العزيز بن الملك المعز أيبك الصالحى ، وكانت سنّ البهاء قد علت وظروفه قد ساءت ، فمدح البهاء هذا الملك بقصيدة يؤكد فيها إخلاصه له ، ويرجوه أن ينعم عليه ، ويذكره بأنه قد أصبح فى آخر أيام عمره •

ومن هذه القصيدة قوله :

لعل الذى فى أول العمر فاتنى تعوضنيه أنت فى آخر العمر

بل إن البهاء مدح من هم أقل من الملوك والسلاطينَ لما ساءت حاله وطلب منهم النوال والعون على الزمان •

غير أننا لانجد فى تاريخه ولا فى ديوانه مايدل على أنه قد وجد فى واحد من هؤلاء الذين مدحهم فى أخريات حياته من يخفف عنه آلامه وبؤسه فضلا عن أن يستوزره أو يجعله أميرا •

وهكذا قدر للكاتب الوزير المقرب أن ينهى حياته فقيرا بائسا ، حيث مات سنة ٦٥٦ هـ ست وخمسين وستمائة من الهجرة •

ثالثا : نماذج من شعره

على نحو ما فعلنا فى ذكر النماذج الشعرية لابن عنين آنفا ، سوف نذكر من شعر البهاء زهير ماله صلة بالحروب الصليبية ، مكتفين بذلك عما ورد فى ديوانه من شعر جم غلب عليه الغزل عند بعض الباحثين •

ومن هذه النماذج التى تنفع فيما نحن بصدده من تسجيل الشعر للحروب الصليبية ، قصيدته الرائية الشهيرة التى مدح فيها الملك الكامل بن الملك العادل عندما انتصر على الصليبيين واستعاد منهم ثغر دمياط ، بعد أن كان قد ظل فى أيدى الفرنجة قريبا من ثلاث سنوات •

وقد كان لهذا النصر فرحة عمت العالم الإسلامى كله ، وتولى بهاء الدين زهير حمل أنباء هذا النصره بشعره إلى العالم الإسلامى كله •

قال فى هذه الرائية الجيدة :

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر   ورُدّت على أعقابها ملة الكفر
فقد أصبحت والحمد لله نعمة   تقصر عنها نعمة الحمد والشكر
يقل بها بذل النفوس بشارةً   ويصغر فيها كل شئ من النذر
ألا فليقل ماشاء من هو قائل   ودونك هذا موضع النظم والنثر

إلى آخر القصيدة التى ذكرناها كاملة ونحن نتحدث عن موضوعات الشعر فى هذه الفترة [١] وهى خمسون بيتا ، عدها الباحثون من أجود شعره ، ونعدها من أهم شعره الذى تحدث فيه عن انتصارات المسلمين على الصليبيين ٠

ونكتفى بهذه المطولة ، لنتحدث عن ديوانه ٠

رابعا : إنتاجه الأدبى

ليس للبهاء زهير إنتاج أدبى له أهمية سوى ديوانه ، أما كتاباته فى ديوان الإنشاء فلم تجمع بعد ، وإن كانت غير قليلة لكن ديوانه الشعرى هو الذى يعنينا من هذا المجال ٠

ديوان البهاء :

روى ابن خلكان ديوان البهاء زهير ـ وكان البهاء قد أجاز له تلك الرواية ، وكان ديوان البهاء كثير الوجود فى أيدى الناس على عهد البهاء زهير ، كما يذكر ابن خلكان ٠

ويذكر المستشرق إدوارد بالمر (١٨٤٠ ـ ١٨٣ م) الذى نشر ديوان البهاء زهير متنا وترجمة شعرية بمقدمة مسهبة وتعليقات جمة فى جزئين (كمبريوج ١٨٧٦ ـ ١٨٧٧ م) ٠ [٢] ، يذكر أن الذى جمع ديوان البهاء زهير هو شرف الدين المعروف بابن الحلاوى الموصلى ، ويوضح أن ذلك مذكور فى نسخة حسنة موجودة بمكتبة أكسفورد ٠

ولاتزال للديوان أكثر من نسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية ٠

وقد طبع الديوان مرات عديدة منها :

طبعة فى مصر سنة ١٢٧٧ هـ وثانية سنة ١٢٨٧ هـ وثالثة سنة ١٢٩٧ هـ ورابعة سنة ١٣٠٠ هـ وخامسة سنة ١٣٠٥ هـ وسادسة سنة ١٣١١ هـ وسابعة سنة ١٣٢٢ هـ ٠

وطبع فى بيروت طبعته المكتبة العمومية وصاحبها سليم إبراهيم صادر ، ولكن هذه الطبعة دون تاريخ ٠

---

١ ـ جاء ذكرها فى ص ٣٢٨ ـ ٣٣١ من هذا الكتاب ٠

٢ ـ نجيب العقيقى : المستشرقون ٤٨٢/٢ ٠

ولايزال ديوان البهاء زهير ـ على الرغم من كل هذه الطبعات ـ يحتاج إلى عناية علمية وإخراج فني جيد ، على نحو مانرى في الدواوين التي خدمت هذه الخدمة ٠

ومما أثر عن البهاء زهير من آثاره الأدبية النثرية كتابه الذي رد فيه على تهديد لويس التاسع ، ذلك التهديد الذي وجهه لويس التاسع للملك الصالح أيوب ٠

د ـ بعض المذاهب الشعرية في تلك الفترة

امتدت فترة الحروب الصليبية على مدى قرنين من الزمان ، فكان لابد أن تترك أثرها في الفكر والأدب ، ولقد رأينا فيما سلف من الكتاب كيف تركت هذه الحروب أثرها في موضوعات الشعر وأغراضه وفنونه ، بل كيف أثرت في الشعراء أنفسهم ٠

ونود في هذه الصفحات أن نلقي ضوءا على ماتركته هذه الفترة من أثر في بعض المذاهب الشعرية ٠

ومن المسلم لدى الباحثين في مجالات الفكر والأدب أن كل فترة زمنية ـ مما اصطلح على تسميته عصرا ـ تبرز فيها مذاهب في الفكر وفي الأدب ، نتيجة ضرورية للتغير المستمر في الحياة ، واستجابة طبيعية لهذه المتغيرات ، حتى لنستطيع أن نقول مطمئنين : إن كل عصر أو كل قرن من الزمان ـ بل ربما ، كل أقل من ذلك ، يحدث هذا التغير وينقسم الناس أمامه ـ في الغالب ـ أقساما ثلاثة :

بعضهم يقف من هذه المتغيرات موقف الرافض لمعطياتها ، المصر على أن يمضي على السنَّة التي كان عليها ، بل ربما ازدرى هذه التغيرات وسخر من المستجيبين لها ، وهذا النمط من الناس لايصح لنا أن نسميهم ـ كما يحلو للبعض أن يفعل ـ بالرجعيين أو المتخلِفن ، وإنما الأصوب أن نقول عنهم : إنهم محافظون على القديم متمسكون به ، ولاضير عليهم طالما أن التمسك بهذا القديم لم يحدث لهم ضررا ، أو لم يحرمهم من خير ٠

نجد هذا النمط من الناس في مجالات الفكر والأدب ، وغالبا ما يسميهم الباحثون في مجالات الدراسة الأدبية بالتقليديين ٠

وبعض الناس يقف من هذه المتغيرات موقف من ينظر فيها ويبحث عن أفضل مافيها فيمارسه بينما يرى فيها مالايلائمه فيرفضه ، وبالتالى تكون استجابة هؤلاء لتلك المتغيرات محدودة ، ولكنهم يأخذون منها بما يحبون ، ويصدفون عما لايرضى أذواقهم أو عاداتهم أو ما ألفوه فيما ورثوا عن أسلافهم •

وهذا النمط من الناس أكثر تجاوبا مع متغيرات الحياة من سابقيهم • بل أكثر عمقا فى النظر إلى حياتهم وعصرهم ومالابد أن يأتى به كل عصر من جديد •

وفضيلتهم أن مازوا ورازوا ، ونظروا واعتبروا ، وأخذوا وتركوا ، وتلك علامة نضج ومرونة مافى ذلك شك ، فهم يحافظون على بعض القديم ويأخذون ببعض الجديد ، وقد جرت عادة الباحثين أن يسموا هؤلاء : بالمحافظين •

والقسم الثالث من الناس يرتمى فى أحضان الجديد ، ويقبل عليه إقبال الراغب فيه المؤمن بجدواه ، المقتنع حقا بالكلمة التى تقول : الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم •

غير أن مالوحظ على أولئك المقبلين على الجديد ـ فى كل عصر تقريبا ـ أنهم يتنكرون للقديم ويعدون التمسك به رجعة إلى الوراء ، وتقيداً بما لابد أن يتحرر الناس منه ، وهنا يكمن الخطر ، لأن القديم لن يكون شرا كله كما أن الجديد لن يكون خيرا كله ، لكنهم على كل حال متطورون مع كل تطور متغيرون استجابة لكل متغير •

يكاد الناس ينقسمون إلى هذه الأقسام الثلاثة فى كل عصر من عصور حياتهم على هذه الأرض ، وإن جرت عادة الباحثين أن يجمعوا القسمين الثانى والثالث فى قسم واحد ويسمونهم : المجددين •

وكان الأمر كذلك فى فترة الحروب الصليبية التى امتدت قرنين من الزمان وكان الشعراء كذلك •

لذلك نحن فى صدد هذا الموضوع من الكتاب نجد من الضرورى أن نلقى ضوءا على المحافظين من الشعراء فى هذه الفترة ، وعلى المجددين منهم كذلك •

ولن نسمى ذلك مدرسة وإنما نسميه مذهبا ، فإن تسمية « المذهب » أدق فى الدلالة ، وأصل فى لغتنا وتاريخنا وتراثنا ، فنتحدث عن مذهبين : مذهب المحافظين ، ومذهب المجددين •

أ ـ مذهب المحافظين من الشعراء فى هذه الفترة

تمثل مذهب هؤلاء المحافظين فى رفضهم للجديد الذى جاء به العصر جملة ، ثم انضمت أبعاد هذا المذهب فى أمور عديدة منها :

المحافظة على إطار القصيدة العربية الأصيلة من حيث الوزن والقافية بحيث لم يستجيبوا لما طرأ على العصر من رغبة فى التمرد على هذا القديم فى مجال الوزن والقافية •

ومنها : المحافظة على مضمون القصيدة من حيث شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ والإصابة فى الوصف ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الموضوعات التى فرضتها ظروف العصر لم ترفض وإنما استجاب لها الشعر وخاصة تجاربها ولكن فى الإطار المعروف للشعر العربى •

وقد وجد هذا الاتجاه أنصارا وأعوانا ليسوا بالقليلين ، فتقيد كل أولئك بالمحافظة على عمودية الشعر كما سماها بعض العلماء ، ولم يخرجوا فى أشعارهم على عمود الشعر بحال •

وعمود الشعر العربى كما عرفه المرزوقى فى شرحه لديوان الحماسة هو من الأهمية بمكان إذ يترتب على معرفته تمييز التليد من الطريف ومعرف مواطىء أقدام المختارين فيما اختاروا •

يقول المرزوقى : « ••• فالواجب أن يتبين ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب ، ليتميز تليد الصنعة من الطريف ، وقديم نظام القريض من الحديث ، ولتعرف مواطىء أقدام المختارين فيما اختاروه ، ومراسمُ أقدام المزيفين على ما زيفوه ، ويعلم أيضا فرق ما بين المصنوع والمطبوع ، وفضيلة الأتِيّ السمح على الأبى الصعب فنقول وبالله التوفيق :

إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالةِ اللفظ واستقامه ، والإصابة فى الوصف ـ ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات ـ

والمقاربة فى التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخيرٍ من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكله اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما •

فهذه سبعة أبواب هى عمود الشعر ، ولكل باب منها معيار ••• »[1] •

وبدا الشعر على ألسنة الشعراء المحافظين أصيلا رصينا محافظا على كل قواعد اللغة ، ولكنه ذو طابع يميزه عن شعر العصور السابقة ، طابع يتمثل فى موضوعات فرضها العصر وأملتها الظروف الاجتماعية والسياسية وفرضتها فرضا الحروب الصليبية على النحو الذى ذكرنا ونحن نتحدث عن موضوعات الشعر وأغراضه وفنونه[2] •

ب ـ مذهب المجددين من الشعراء فى هذه الفترة

قام هذا المذهب ـ كما ذكرنا ـ على الرغبة فى التجديد ، سواء أكان تجديدا محدودا أم كان تجديدا كاملا •

ونستطيع أن نتعرف على خصائص هذا المذهب فى أمور :

منها : الرغبة فى التحرر من الوزن والقافية فى بعض الأحيان والاتجاه إلى استحداث بحور غير البحور المعروفة الستة عشر ، حيث نجحت هذه المحاولات فكان من نتيجتها بحور جديدة ستة هى : المستطيل ، والممتد والمتئد والمنسرد والمتوافر والمطرد •

ومنها : الرغبة فى التحرر من بعض قيود اللغة من حيث الإعراب ومن حيث التساهل فى استعمال العامى من الألفاظ فى الشعر •

ومنها : الإقبال على ألوان من فنون الشعر لم تكن شائعة فى المشرق وإنما كانت شائعة فى الأندلس الإسلامية كالموشح والدوبيت والمواليا •

---

١ ـ المرزوقى : شرح ديوان حماسة أبى تمام : ٨/١ ـ ٩ نشرة : أحمد أمين وعبد السلام هارون ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥١م ـ القاهرة

٢ ـ ص ٢٩١ من هذا الكتاب •

ومنها : الإقبال على ألوان من فنون الشعر لا تقال إلا ملحونة وهى :

الزجل والكان وكان ، والقوما والبلاليق •

وأهم ما يلاحظ على الشعراء المجددين فى هذه الفترة اتجاهان :

أولهما : الاتجاه إلى الإسراف فى استخدام التورية •

وثانيهما : الاتجاه إلى الإسراف فى استخدام الطباق والجناس •

أقبل الشعراء على التورية فى هذه الفترة حتى أصبحت من لوازم الشعر ومن سيما التجويد فيه ، فأكثروا من استخدامها ، حتى تعصب لها بعضهم كابن حجة الحموى الذى ألف فيها كتابا سماه « كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام » •

وقد شاعت التورية فى مصطلحات العلوم والفنون ، وبخاصة فى الحديث والفقه والنحو وغيرها من الفنون •

ولولا أن نطيل ونخرج عن سمت البحث لذكرنا للتورية نماذج وأمثلة •

وأما الاتجاه إلى الإسراف فى استخدام المحسنات البديعية بعامة والطباق والجناس بخاصة ، فقد أكثر منه بعض الشعراء حتى دخلوا حيز التكلف والتصنع ، وأصبح فى شعرهم عبئا على المعنى بل عبئا على اللفظ فى كثير من الأحيان •

وبعض الشعراء فى هذه الفترة اتخذوا من الطباق الجناس والاستعارة مذهبا فى شعرهم التزموا به ، ولكنهم كانوا أقل فى التكلف والتصنع من سابقيهم الذين التزموا الطباق والجناس •

ولا نحب ـ كذلك ـ أن نذكر الأمثلة والشواهد ، حتى لا نخرج من سمت الكتاب إلى تلك المسائل الفنية التى تلتمس فى مظانها من كتب البلاغة •

وبعد : فلعلنا بهذا الذى ذكرناه فى هذا الفصل عن فن الشعر نكون قد أوضحنا موقف الشعر من الغزو الصليبى للعالم الإسلامى ، فى موضوعاته وأغراضه وفنونه وبعض ما عرف من مذاهبه •

الفصل الثانى : فن النثر

أ ـ موضوعاته وفنونه

لم يكن تأثر النثر الفنى بالحروب الصليبية قليلا ، كما لم يكن غير عميق ، وربما قلنا : إن أنواعا وفنونا من النثر قد تأثرت بهذه الحروب أكثر مما تأثر بها الشعر ، وبخاصة النثر الوصفى فى مجال وصف الصليبيين وذكر مثالبهم ، والنثر الديوانى فى مجال التهانى بالفتوح والتحريض على الحرب والجهاد فى سبيل الله .

ليس هدفنا الآن أن نقارن بين الشعر والنثر أيهما كان أشد تأثرا بهذه الحروب ، وإنما الهدف هو أن نوضح أن النثر تأثر بهذه الحروب كما تأثر الشعر .

وإذا كان للنثر موضوعات كان يعالجها قبل فترة الحروب الصليبية ، فإن هذه الموضوعات بقيت وربما دخلها بعض التطور استجابة لما تطلبته الحروب الصليبية من أمور .

غير أن الموضوعات التى أدخلتها الحروب الصليبية على النثر ولم يكن لها قبل هذه الحروب وجود ، يمكن أن نشير إلى بعضها فى الآتى :

١ ـ ذكر مثالب الصليبيين وعيوبهم فى عقائدهم وعاداتهم وأخلاقهم .

٢ ـ الرد عليهم وعلى اليهود ، فيما يتصل بما فى ديانتيهم من تحريف وتبديل وإبطال مزاعمهم فى ذات الله وفى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام .

٣ ـ وصف هؤلاء الصليبيين فى حياتهم .

٤ ـ تأريخ تلك الفترة التى دارت فيها الحروب الصليبية ، وقد جرت هذه الحروب إلى أن يتناول النثر فيما يتناول .

٥ ـ ذكر مناقب المسلمين وبخاصة مشاهير القادة والفاتحين فى الماضى وفى تلك الفترة .

٦ ـ المناظرة بين السيف والقلم ، والإيمان والكفر ، والمسلمين والصليبيين مناظرة تستهدف الإقناع حينا وتبرير المواقف حينا ٠

٧ ـ الإكثار من الأدعية والاستغاثات والمناجاة ٠

٨ ـ تنميق الأذكار والأوراد ٠

٩ ـ الإكثار من المواعظ والتذكير والدعوة إلى خوض هذه الحروب ٠

١٠ـ الاهتمام بتنميق التهانى بهذه الفتوح والاهتمام بأسلوب البشارات ٠

هذه الموضوعات شغلت النثر والناثرين وكانت مجالا تبارى فيه كبار الكتاب والمنشئين ٠

فإذا أضفنا إلى ذلك ما تناولته الخطابة الدينية والخطابة فى الحرب والجهاد من موضوعات ، وجدنا أنفسنا أمام حصيلة ضخمة من موضوعات النثر الفنى ٠

وعندما نضيف إليه الموضوعات التى تناولها كتاب الدواوين ومحترفوا الكتابة الديوانية من تقاليد وتواقيع ومناشير ووثائق ورسائل ، نصبح على يقين من أن النثر الفنى قد تعددت أمامه الموضوعات استجابة لهذه الحروب إلى الحد الذى يؤكد لنا إيجابية فن النثر وتجاوبه مع تلك الأحداث ٠

أما فنون النثر فى تلك الفترة ، فإنها الفنون التى عرفها فن النثر من قبل من رسالة ومقامة وقصة وأدب وصفى يتناول عديدا من الموضوعات ٠

غير أن الذى أضيف إلى هذه الفنون فى تلك الفترة ولم يكن له وجود من قبل ـ فيما نعلم ـ هو : المنامات الأدبية ووصف الفرنجة والرد عليهم ٠

ونستطيع أن نقسم فنون النثر فى هذه الفترة إلى أقسام كبرى يندرج تحت كل واحد منها أقسام أخرى ، أما تلك الأقسام الكبرى فيما أتصور فهى :

أولا : الكتابة الديوانية ٠

ثانيا : الكتابة الوصفية ٠

ثالثا : الخطابة ٠

وأما ما يندرج فى تلك الأقسام من فروع فيمكن أن نتصوره على النحو التالى :

الكتابة الديوانية وتشمل :

١ ـ التقليد والتواقيع والمناشير ٠

٢ ـ التهانى بالفتوح والبشارات بها ٠

٣ ـ وصف الحروب والجهاد فى سبيل الله ٠

٤ ـ الوثائق السياسية من معاهدات ، وتهديدات وردود على تهديدات ٠

الكتاب الوصفية وهى نوعان :

١ ـ كتابة وصفية موضوعية تشمل :

أ ـ التاريخ ٠

ب ـ التراجم والرحلات ٠

جـ ـ وصف الخيل وآلات الحرب ٠

د ـ المقامات ٠

٢ ـ كتابة وصفية ذاتية تشمل :

أ ـ الرسائل الإخوانية ٠

ب ـ القصص ٠

جـ ـ المنامات الأدبية ٠

الخطابة وهى نوعان :

١ ـ خطابة دينية ، تتناول موضوعات عديدة مناسبة لتلك الحروب ٠

٢ ـ خطابة سياسية ٠

وأود أن ألقى ضوءا سريعا على هذه الفروع معرفا بها ، فأقول :

الكتاب الديوانية عموما فى ديوان الإنشاء ، يقول عنها القلقشندى :

« ٠٠٠ كان لا يتولاه إلا أجل كتاب البلاغة ، ويخاطب بالأجل ، وكان يقال له عندهم كاتب الدست الشريف ، وإليه تسلم المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها على

الخليفة من يده ، وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة عنها ، ويستشيره الخليفة فى أكثر أموره ، ولا يحجب عنه حتى قصد المثول بين يديه ، وربما بات عنده الليالى ... »[1] .

تلك مكانة الكتابة الديوانية وهذا مكان كاتبها .

ومن أبرز فنون الكتابة الديوانية : التقليد والتواقيع والمناشير ، وهى كتب من الحاكم إلى عماله ونوابه أو منهم إلى الحاكم ، وقد ازدهر هذا الفن من النثر لأن الحروب الصليبية - فى هذه الفترة - قد جرت على البلاد بأحداث جسام أدت إلى كثرة التقليد والمناشير والتواقيع .

والأحسن فى هذا النوع من النثر بسط الكلام ، وتعتبر كثرته وقلته بحسب الرتب .

ويجب أن تراعى فيه أمور كثيرة : منها .. براعة الاستهلال ، ومراعاة المناسبة ، وما تقتضيه الحال ، منها : اختيار الكلام والمعانى ، فإنه مما يذيع ويشيع ولا يعذر المقصر فى ذلك بعجلة ولا ضيق وقت .

والتقليد - فى العادة - أقسام أربعة متقاربة المقادير : خطبة التقليد ، وذكر مواقع الإنعام فى حق المقلِدّ وذكر أوصاف المقلد ، والوصايا التى يجب على المقلِدّ أن يوصى بها المقلَّد ... » .

والتواقيع والمناشير مثلها .

أما كتب التهانى بالفتوح والبشارات بها ، فقد تفنن فيها الكتاب وأظهروا فيها غاية الروعة فى الأسلوب ومنتهى التخير فى المعانى ، وكانت هذه الكتب تسيرً إلى البلاد حاملة إلى الناس التهنئة والبشارة إثر فتح من الله به على المسلمين ، وهزيمة يمنى الله بها الكافرين الصليبيين .

وأما كتب وصف الحرب والنفير والجهاد ، فقد كان فيها لكتاب ديوان الإنشاء إجادة أى إجادة ، حتى بدا بعضها فى وصف جيش أو أسطول قطعة أدبية جديرة بأن تحفظ على أنها نص أدبى بالغ الإتقان .

---

١ - القلقشندى : صبح الأعشى : ٤٨٦/٣ .

٢ - الشهاب محمود الحلبى : حسن التوسل فى صناعة الترسل : ١٠٩ - ١١٠ .

وأما الوثائق السياسية فقد كثرت فى هذه الفترة لأن الأمة الإسلامية كانت متشابكة العلاقات بمن جاورها من أمم أجنبية ، فضلا عما أوجبته الحروب الصليبية من وثائق ومعاهدات وردود على تهديدات •

وسنذكر نماذج لهذه الفنون فيما بعد •

وأما الكتابة الوصفية الموضوعية ، كالتاريخ والتراجم والرحلات ووصف آلات الحرب ، والمقامات ، فلا تحتاج منها إلى تعريف بها فأسماؤها دالة عليها • أما المنامات الأدبية فهى أحلام يقص صاحبها ما يدعى أنه رآه فى المنام ، وقد ينتقد فى هذه المنامات ما لا يعجبه ، وكثير منهم أدعى أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له كذا وأوصاه بكذا •••

وكذلك الشأن فى الخطابة فهى معروفة وإن كانت الحروب الصليبية فى هذه الفترة قد أمدتها بموضوعات جديدة ، وفتحت لها فى باب الجهاد مجالا للقول ربما لم ينفتح بهذه الصورة فيما مضى من الأيام ؛ فقد كانت جيوش الكفر تغلب وتحتل الأرض وتهتك العرض ، وكان لابد من إثارة حماس الناس ودعوتهم إلى النفير والجهاد وتحبيبهم فى أداء فرائض الله •

ولقد استطاعت الخطبة فى هذه الفترة أن تثير النخوة وأن تحرك الناس إلى خوض غمار الحروب •

فضلا عن تلك الخطب التى قيلت عقب استعادة إحدى بلاد المسلمين من أيدى الكفار ، نعم لقد ازدهر فن الخطابة فى هذه الفترة ازدهارا نستطيع أن ندرك أبعاده عندما نستحضر فى أذهاننا أن المسلمين فى هذه الفترة قد عاشوا قرنين من الزمان ما هدأت لهم نفوس ، ولا استراحت من عناء الحرب جيوش ، ولا شعروا بأمن وعدوهم يحتل بلادهم ، وكل ذلك من أهم العوامل التى تذكى أسباب الخطابة فى نفوس الخطباء وتمدهم من موضوعاتها بما لا تمدهم به ظروف أخرى فى فترات متطاولة من التاريخ ، ولعل النماذج الموجودة للخطب فى هذه الفترة أقوى دليل على ما نقول •

ب ـ نماذج من موضوعات النثر فى هذه الفترة

١ ـ من المناقب :

أدت الحروب الصليبية إلى الاهتمام بمناقب المسلمين وبخاصة الفاتحون والقادة منهم كأبى بكر وعمر وأبى عبيدة وخالد وغيرهم ممن خاضوا حروبا ضارية ضد أعداء الله ٠

واتجه الكتاب إلى أن يشيدوا بالقادة الذين واجهوا الصليبيين وانتصروا عليهم كعماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وغيرهم ، ومما كتبوا فى مناقب نور الدين ما نقله صاحب الروضتين عن ابن الأثير قال :

« حدثنى صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين قال : كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس فى المكان المختص به وتقوم فى خدمته لا تتقدم إليه إلا أن يأذن فى أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذى يختص بها ، وينفرد هو : تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال ، أو فى مطالعة كتاب أتاه ويجيب عنها ٠

وكان يصلى فيطيل الصلاة وله أوراد فى النهار ، فإذا جاء الليل وصلى العشاء ونام يستيقظ نصف الليل ويقدم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة ، فيظهر الركوب ويشتغل بمهام الدولة ٠

قال : وإنها قلّت عليها النفقة ، ولم يكفها ما كان قرره لها ، فأرسلتنى إليه أطلب منه زيادة فى وظيفتها ، فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ؟ ما يكفيها مالها ؟ والله لا أخوض نار جهنم فى هواها ، إن كانت تظن أن الذى بيدى من الأموال إلىّ ، فبئس الظن ، إنما هى أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتقٍ ـ إن كان ـ من عدو الإسلام ، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ، ثم قال : لى بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها إياها فلتأخذها ٠ قال : وكان يحصل منها قدر قليل »[١] ٠

---

١ ـ أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ٠

وهناك مناقب كثيرة عن صلاح الدين رحمه الله تعالى ·

كما سجلوا مناقب للمدن والقلاع والبلاد وبخاصة تلك التى حققت انتصارات على الصليبيين ·

٢ ـ من المثالب :

اهتم أدباء هذه الفترة بالحديث عن مثالب الصليبيين وعيوبهم ، ذلك أن مثالبهم كثيرة حقا ، وأعمالهم المخزية المتوحشة التى مارسوها فى الشرق الإسلامى لا تدع لأحد فرصة السكوت عنهم ، فما كان يذكر الفرنجة فى ذلك الوقت إلا ويقال : عليهم لعنة الله أو يدعى عليهم بالخذلان ·

تحدث أسامة بن منقذ الذى شاهد معايب الصليبيين فقال :

« ··· وليس عندهم ـ أى الفرنج ـ شىء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طولت عليه خلاها مع التحدث ومشى » ·

وقال العماد الأصفهانى فى وصفهم : « ···· فظاظ غلاظ جهنميون ، كلامهم شرر ، وأنفاسهم شواظ ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ، خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة فهم المكنى عنهم بوقود جهنم حين قال : وقودها النار والحجارة ، وإلا فالحجارة لا تستحق الوقود إلا أن يراد بها القلوب التى هى كالجلمود فى الجمود » ·

٣ ـ من المناظرات :

أدت الحروب الصليبية إلى ظهور تنافس شديد بين رجال السيف المحاربين وبين رجال القلم المحرضين ، كل قبيل يفخر بما صنع ، كما قام تنافس بين بعض الأقاليم مثل تفضيل مصر على الشام أو تفضيل الشام على مصر ، وسر هذا التفضيل البلاء فى الحروب الصليبية والوقوف فى وجه أعداء الدين من الكفرة الصليبيين ·

لجمال الدين بن بناتة المصرى فى المناظرة بين السيف والقلم :

« ... أما بعد : فإن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعليا ، ومجداح سبب الخير إذا احتاجت الهمم إلى السقيا ، ومفتاح باب اليُمن المجرب إذا أعيا ، وسفير الملك المحجب ، وعذيق الملك المرجب ، وزمام أموره السائرة ، وقادمة أجنحته الطائرة ... به رقم كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل ، وسنة نبيه ﷺ التى تهذب الخواطر الخواطل ، فبينه وبين من يفاخر الكتاب والسنة ... » .

وقال السيف : « ... أما بعد : فإن السيف زند الحق الورى ، وزنده القوى ، وحده الفارق بين الرشيد والغوى ، والنجم الهادى إلى العز وسبيله ... به أظهر الله الاسلام وقد جنح خفاء ، وجلّى شخص الدين الحنيفى وقد جمح جناء . وأجرى سيوفه بالأباطح ، فأما الحق فمكث وأما الباطل فذهب جفاء وحملته اليد الشريفة النبوية ، وخصته على الأقلام بهذه المزية ... »

وقد أراد ابن الوردى أن يصلح بين السيف والقلم فألف رسالة سماها « إصلاح الخصمين » أوضح فيها أنه لاغنى عن واحد منها بالآخر ، ولا غنى لدولة عنها معا .

٤ ـ من الرد على النصارى :

قال ابن القيم : « ومن بعض حقوق الله على عبده ردّ الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه ، ومجاهدتهم بالحجة والبيان والسيف والسنان والقلب والجنان وليس وراء ذلك حبة خردل من الايمان » .

لذلك ألف ابن القيم كتابه المشهور : هداية الحيارى فى الرد على اليهود والنصارى جاء فى مقدمة الكتاب :

« ... وكيف لايميز من له أدنى عقل يرجع إليه بين دين قام أساسه وارتفع بناؤه على عبادة الرحمن والعمل بما يحبه ويرضاه من الإخلاص فى السر والإعلان ، ومعاملة خلقه بما أمريه من العدل والإحسان ، مع إيثار طاعته على طاعة الشيطان ، وبين دين أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار بصاحبه فى النار ، أسس على عبادة النيران وعقد الشركة بين

الرحمن والشيطان ، أو دين أسس بنيانه على عبادة الصلبان ، والصور المدهونة والسقوف والحيطان ، وأن رب العالمين نزل عن كرسى عظمته فالتحم ببطن انثى وأقام هناك مدة من الزمان ٠٠٠ »

ثم أخذ يناقش النصارى فى دعواهم أن المسيح هو الله ، فيورد حججا قوية ويؤكد للقارئ أنه مطلع على النصرانية أحسن الاطلاع[١] ٠

ولشيخ الإسلام أحمد بن تيمية كتاب فى هذا الموضوع جليل القدر عظيم النفع هو : الجواب الصحيح لمن بدل دبين المسيح[٢] وهو كتاب ضخم الحجم ألفه ردا على كتاب ورد من قبرص يحتج لدين النصارى ٠

٥ ـ من الأدعية والاستغاثة والمناجاة :

كانت الحروب الصليبية وما جرته من متاعب على المسلمين سببا فى انتشار الأدعية والاستغاثة والمناجاة ، واختلف الناس حينئذ فى جدواها منهم من ينكر ومنهم من يؤيد ، حتى سئل الإمام ابن تيمية فى ذلك فقيل له ٠ ما رأيك فيمن يقول : لا يستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل يحرم عليه هذا القول ، وهل هو كفر أم لا ٠٠٠ أفتونا مأجورين ٠

فكان رد ابن تيمية رحمه الله : « ٠٠٠ وأما من أقر بما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من شفاعته والتوسل به ونحو ذلك ، ولكن قال : لا يدعى إلا الله ، وأن الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله فلا تطلب إلا منه مثل غفران الذنوب وهداية القلوب وإنزال المطر وإثبات النبات ونحو ذلك ، فهذا مصيب فى ذلك ، بل هذا مما لا نزاع فيه بين المسلمين أيضا »[٣] ٠

وأما المناجاة فمن أشهرها مناجاة الرحمن بآى القرآن لمحى الدين بن عربى ومنها قوله : « يا مالك يوم الدين ، يا من جعل الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء

١ ـ ابن قيم الجوزية : هداية الحيارى : ص ٢ ـ ٣ ط القاهرة

٢ ـ طبع فى الرياض ٠

٣ ـ مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية : ١/٤٧٠ ـ ٤٧١ ط المطبعة الشرقية بمصر ٠

فاخرج به من الثمرات رزقا لكم ، يا من خلق لنا ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليهم ••• يا من أنزل الكتاب مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوارة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان •••• » •

وكذلك كان شأن الأذكار والأوراد •

٦ ـ من المواعظ :

اشتهرت المواعظ وراجت سوقها ، ولم يكن الناس بحاجة ماسة إلى الموعظة فى وقت من الأوقات مثل ما كانوا بحاجة إليها فى هذه الفترة فقد انتشرت بسبب هذه الحروب الضلالات وكثرت الانحرافات وساءت العادات •

ذكر الغزالى موعظة جاء فيها : « يأيها الناس اعملوا على مهل وكونوا من الله على وجل ، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة ••• فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم وانتهوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان عليل ، أو مدفف ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ؟ أو هل إلى الطبيب من سبيل ؟ فتدعى لك الأطباء ولا يرجى لك الشفاء ، ثم يقال فلان أوصى ، ولما له أحصى ، ثم يقال قد ثقل لسانه فما يكلم إخوانه ولا يعرف جيرانه ، وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك وثبت يقينك وطمحت جفونك ، وصدقت ظنونك وتلجلج لسانك وبكى إخوانك ، وقيل لك هذا ابنك فلان ، وهذا أخوك فلان ، ومنعت من الكلام فلا تنطق ، وختم على لسانك فلا ينطلق ، ثم حل بك القضاء ، وانتزعت نفسك من الأعضاء ثم عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانك ، وأحضرت أكفانك ، فغسلوك وكفنوك ، فانقطع عوادك ، واستراح حسادك ، وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتهنا بأعمالك »[١] •

٧ ـ من وصف الفرنجة :

شغل بعض الأدباء بوصف الفرنجة ، فمنهم من وصف جيوشهم وحربهم ومنهم من وصف أخلاقهم وعاداتهم ومنهم من وصف نسّاءهم •

١ ـ الغزالى : إحياء علوم الدين : ٢١١/٣ ط المطبعة المصرية •

قال أبو شامة : « ... وفى تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألبوا ، وهم يسيرون فى الساحل بالفارس والراجل ، وعن يمينهم البحر وعن يسارهم الرمل ، وكانت الرجالة حولهم كالسور ، وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة ، بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون وهم يرمون بالزنبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم ، ولقد شاهدتهم وفى ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ، وثَمَّ قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح واستراح القسم العمّال ، هذا والخيالة فى وسطهم لا يخرجون عن الرجالة إلا فى وقت الحملة لا غير ... »[1] .

ووصف العماد الأصفهانى بعض نساء الصليبيين وما كن يبذلنه فى سبيل هذه الحرب من نفس ونفيس ، فقال :

« ... ووصلت أيضا فى البحر امرأة كبيرة القدر وافرة الوفر ، وهى فى بلدها مالكة الأمر ، وفى جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم وغلمانهم وأشياعهم وهى كافلة بكل ما يحتاجون إليه من المئونة ، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة ، وهم يركبون بركباتها ويحملون بحملاتها ويثبون لوثباتها »[2] .

٨ ـ ومن تاريخ تلك الفترة :

تاريخ تلك الفترة سجل فى عشرات الكتب ، بل إن تاريخ تلك الفترة جر إلى تاريخ ما قبله حتى آدم عليه السلام ، فقد وصلت إلينا مؤلفات تاريخية لمؤلفين من هذه الفترة ، تعد حتى الآن من أجمع كتب التاريخ وأشملها .

---

١ ـ أبوشامة : الروضتين : ١٩٠/٣ .

٢ ـ العماد الأصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى : ٢٣٠ ط ليون .

فمن الكتب العامة التى ذكرت هذه الفترة :

الكامل لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وتاريخ دول الإسلام للذهبى ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، والمختصر فى تاريخ البشر لأبى الفداء ، وعيون التواريخ لابن شاكر الحلبى ، والتبر المسبوك فى تواريخ الملوك للملك عماد الدين الأيوبى ٠

وأما الكتب الخاصة بهذه الفترة أو بأشهر ملوكها وقادتها فهى كثيرة منها :

كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين النورية والصلاحية لأبى شامة والنوادر السلطانية لابن شداد ، والفتح القسى فى الفتح القدسى للعماد الأصفهانى ، وسيرة صلاح الدين لابن مماتى ، وسيرة الظاهر بيبرس لابن عبد الظاهر ، وسيرة الأشرف خليل لشافع بن على والبرق الشامى للعماد الأصفهانى وخطفة البارق وعطفة الشارق للعماد أيضا ٠

وغير ذلك مما سنذكره فى مصادر البحث ومراجعه ٠٠

ومن الملاحظ أن بعض هذه الكتب أو كثيرا منها جاء بلغة مسجوعة ككتاب العماد : الفتح القسى فى الفتح القدسى ٠٠ وغيره ٠

٩ ـ ومن التقاليد والتواقيع :

جاء فى تقليد كتبه الشهاب محمود لسلامس بمملكة الروم حين ورد كتابه قبل حضوره ، قوله بعد خطبة التقليد : « وليعلم أن جيوشنا فى المسير إليه متى قصد عدوا سابقت خيولنا خيالها ، وجارت جيادنا ظلالها ، وأبت سنابكها أن تجعل غير جماجم الأعداء نعالها ، وهاهى قد تقدمت وأقدمت ونهضت لانجاده ، فلو سامها أن تخوض البحار فى سبيل الله لخاضت أو تصدم الجبال لصدمت » [1] ٠

١٠ ـ ومن التهانى بالفتوح :

جاء فى كتاب صلاح الدين إلى الخليفة الإمام الناصر لدين الله بإنشاء العماد قوله بعد خطبة الكتاب وذكر الفتوح التى أفاءها الله على المسلمين : « ٠٠٠٠ وتلك سبع ليالٍ

---

١ ـ الشهاب محمود : حسن التوسل ٠٠ ص ١١٤ ٠

وثمانية أيام حسوما ، سخرها الله على الكفار فترى فيها القوم صرحى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وإذا رأيت ثَمَّ رأيت البلاد على عروشها خاوية ، ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة ، وكانت من الكفر باكية ·· » ثم قال : وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور وقلب ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور ، والحديد الكافر الذى كان فى يد الكفر يضرب وجه الإسلام قد صار حديدا مسلحا يعوق خطوات الكفر عن الإقدام ·· »[1] ·

١١ ـ ومن وصف الحرب والجهاد :

قال ابن الأثير : « وأقبلت أحزاب الكفر وهى معتصمة بصليبها ، ورفعته على أعواد عالية كهيئة خطيبها ، ولم تعلم أن الله كتب عليه الهوان بعد تلك المرامة وأنه ذو شعب أربع والتربيع نحس فى حكم النجامة ، وكيف ترجو بكفرها ظهورها ولها منه معنى الاختفاء وللإسلام معنى السلام ·· »[2] ·

ووصف القاضى الفاضل فتح بيت المقدس فقال :

« ···فنصبنا عليها المنجنيقات تمطر سماءها نبل الوبال ، وتملأ أرضها بالنكاية والنكال ، وتهد بساريات حجارتها راسيات الجبال ، وتنزل نوازل الأسواء بالأسوار ، وتوسع مجال الدوائر فى الديار ، وتخطف بخطافاتها أعمار الأغمار ، وتطير حمامها بكتب الحمام ، وتديم إغماد سهامها فى أهلها بتوفير سهام الإرغام ، وكشف النقّابون نقاب السور المحجوب فتهدم بنيانه ، وتداعت أركانه بتظاهر المنجنيقات عليها والنقّابين » ·

١٢ ـ ومن المقامات فى تلك الفترة :

قال الشهاب محمود الحلبى فى وصف حصن ـ فى أسلوب مقامة :

« قد تقرط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ورسا أصله فى التخوم ،

---

١ ـ ابن واصل : مفرج الكروب : ٢٠٢/٢ ، ٢٠٥ ·

٢ ـ ابن الأثير : المثل السائر : ٩١/١ ·

تختال الشمس إذا علت أنها تنتقل فى أبراجه ، ويظن من سما إلى السها أنه فى ذبالة سراجه ، لا يعلوه من مسمى الطير غير نسر الفلك ومرزمه ، ولا يرمق متبرجات بروجه غير عين شمس ، والمقل التى تطرف من أنجمه ، وحوله من الجبال كل شامخ ، تتهيب عقاب الجو قطع عقابه ، وتقف الرياح حسرى إذا توقلت فى مصابه ، وتخاف العيون إذا رمقته سلوك ما دونه من المحاجر ، ويتخيل الفكر صورة الترقى إليه ، ثم لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الحناجر وحوله من الأودية خنادق لا تعلم منها الشهور إلا بأنصافها ولا تعرف فيه ولا تعرف فيه الأهلة إلا بأوصافها »[١] .

١٣ ـ ومن الخطب فى هذه الفترة :

خطبة لمحيى الدين بن زكى قاضى دمشق وأشهر خطبائها ، ألقاها بعد فتح بيت المقدس بحضور صلاح الدين الأيوبى فى أول يوم جمعة بعد الفتح العظيم .. جاء فيها :

« قطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ... » وظل فى تحميدات إلى أن قال : « الحمد لله معز الإسلام بنصره ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ...

أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهير بيت المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمدَ من استشعر الحمدَ باطنُ سره وظاهرُ جهاره ...

إلى أن قال : الله أكبر ، فتح الله ونصر وغلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر ، واعلموا رحكم الله ـ أن هذه فرصة فانتهزوها وفريسة فناجزوها ومهمة فأخرجوا إليها هممكم وأبرزوها ، وسيروا إليها سرابا عزماتكم وجهزوها فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول ، وهم مثلكم أو دون ، فكيف وقد أضحى فى قبالة الواحد منهم منكم عشرون ، وقد قال تعالى : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » .

---

١ ـ الشهاد محمود الحلبى : حسن التوسل : ١٠١

ثم ختمها بقوله : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين »[1] ٠

وهى من أطول الخطب وأقواها ، ومن أراد أن يقرأها كاملة فليعد إليها فى الروضتين أو مفرج الكروب ، فهى جديرة بأن تقرأ حقا ٠

وبعد : فأرجو أن أكـون قد بلغـت بذكـر هذه النماذج ما أردت من الحديـث عن موضوعات النثر وفنونه التى تأثرت بالحروب الصليبية وعبرت عنها أصدق تعبير ٠



١ ـ ابن واصل : مفرج الكروب : ٢١٨/٢ ـ ٢٢٨ ٠ والروضتين : ١١٠/٢ ـ ١١٨ ٠

جـ ـ من كتّاب فترة الحروب الصليبية

ضياء الدين بن الأثير

٥٥٨ ـ ٦٣٧ هـ

أولا : نسبه ونشأته :

هو : أبو الفتح ، ضياء الدين ، نصر الدين ، نصر الله بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الحراني المعروف بابن الأثير الكاتب ٠

ولد يوم الخميس العشرين من شهر شعبان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فى جزيرة ابن عمر الواقعة أقصى الشمال الشرقى من بلاد الشام وعلى الشاطئ الغربى لدجلة ؛ ولذلك لقب بالجزرى نسبة إلى جزيرة ابن عمر ٠

وهو أصغر أبناء الأثير الثلاثة بعد المبارك وعلى ، قضى طفولته فى هذه الجزيرة ، ثم انتقل إلى الموصل ونشأ فيها ، وتلقى علومه الأولى بها ، وقد حفظ القرآن الكريم ، وسمع الحديث الشريف وحفظ منه ، وقد قال عن نفسه : « وكنت جردت من الأخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل فى الاستعمال ، ومازلت أواظب على مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنت أنهى مطالعته فى كل أسبوع مرة حتى دار على ناظرى وخاطرى مايزيد على خمسمائة مرة ، وصار محفوظا لايشذ عنى منه شئ »[١]

ولقد نال حظًّا من اللغة والنحو والبيان ، وحفظ كثيرا من الشعر ، وقال هو عن نفسه : « ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفذت شطرا من العمر فى المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحرا لايوقف على ساحله ، وكيف ينتهى إلى إحصاء قول لم تُحْص أسماء قائله ، فعند ذلك اقتصرت منه على ماتكثر فوائده وتتشعب مقاصده »[٢]

١ ـ ابن الأثير : المثل السائر : ١٢٨/١ ٠

٢ ـ السابق : ٣٦٨/٢ ٠

وفى اللغة قرأ لأبى على الفارسى كما قرأ الخصائص لابن جنى والأمثال للميدانى ، وفى الأدب قرأ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، ومقامات الحريرى ، وديوان الحماسة لأبى تمام يقول عن نفسه : « حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة مالا أحصيه كثرة ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين حبيب بن أوس وأبى عبادة البحترى وشعر أبى الطيب المتنبى فحفظت هذه الدواوين الثلاثة ، وكنت أكرر عليها الدرس مدة سنين حتى تمكنت من صوغ المعانى وصار الإدمان لى خلقا وطبعا »[1]

ومن الجدير بالذكر أن والده كان ذا جاه ومنصب ومال ، فقد كان يعمل لدى أتابكة الموصل وبخاصة بيت قطب الدين ، وعمل أولاده فى خدمة هذا البيت أيضا ٠

وضياء الدين أصغر أخويْه الذين نالا شهرة وجاها وهما : مجد الدين الأكبر المحدث المعروف والمولود سنة ٥٤٤ هـ وعز الدين المؤرخ الذى ولد سنة ٥٥٥ هـ ٠

وقد قضى ضياء الدين طفولته وشبابه فى الموصل حيث حصل علومه وأعد نفسَه لتولى الأعمال ، ولم يبرح الموصل إلا وهو فى سن التاسعة والعشرين ، حيث ذهب إلى الشام وهناك وافاه حظه وأضحى له من الجاه والمكانة ماله ٠

تلك صورة مجملة عن نشأة ضياء الدين وأسرته أردت أن تكون موجزة دالة ، ولعلها كذلك بإذن الله تعالى ٠

وليس فى نشأة ضياء الدين مايلفت الانتباه أو يستحق أن يؤخذ بعين الدهشة والإعجاب ، فهو قد نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء الأسر ذات الجاه والمال وتثقف ثقافة عصر ، لم يشذ عن أمثاله فى لون من الثقافة يتفرد به ٠

ثانيا : أطوار حياته الأدبية

مرت حياة ضياء فى طورين كان لهما فى مكانته أبلغ تأثير وهما :

١ ـ طور ذهابه إلى الشام سنة سبع وثمانين وخمسائه ٠

٢ ـ وطور اتصاله بالملك الأفضل وماجرّه على الملك من متاعب ٠

---

١ ـ السابق : ٢٦٩/٢ ٠

وهناك طور ثالث بعد أن ترك الأفضل وحاول الاتصال بالظاهر ثم استقر به المقام فى الموصل منشئه ومرباه والتى تنقل منها إلى بغداد وإربل وسنجار وهى فترة استمرت تسعة عشر عاما ٠

١ ـ الطور الأول من أطوار حياته الأدبية

وهو الطور الذى رحل فيه عن الموصل متجها إلى الشام ، والتحق بخدمة صلاح الدين ، وذلك ـ كما يذكر ابن خلكان ـ أنه لدى وصوله إلى دمشق اتصل أولا بالقاضى الفاضل ـ وكان القاضى الفاضل سمحا يعطف على الأدباء والعلماء ويقربهم ويعمل فى نفعهم ٠

ويذكر ابن خلكان أن القاضى الفاضل قدم ضياء الدين بن الأثير للسلطان صلاح الدين فى شهر جمادى الآخرة من سنة سبع وثمانين وخمسمائة وهى نفس السنة التى وصل فيها ضياء الدين إلى دمشق ، وكان السلطان إذ ذاك مستجما فى بيت المقدس شتاء وقد سرح جنده فى إجازة استجمام ، وكان ابنه الأفضل فى دمشق ، فسمح السلطان بالتحاق ضياء الدين بخدمة ابنه الأفضل على ، وأعجب الأفضل بالأديب الشاب ورغب إليه أن يلازمه ، فاستأذن أباه فى ذلك ، فبعث السلطان إلى ضياء الدين يخيره بين البقاء فى خدمة السلطان أو اللحاق بابنه الأفضل ، فاختار ضياء الدين أن يلازم الأفضل ، ولحق به فى شهر شوال من سنة ٥٨٧ هـ ٠

وظل ضياء الدين فى صحبة الأفضل ، وفى بداية عام ٥٨٨ هـ خرج مع الأفضل حيث كانت جيوش السلطان تتجمع من جديد متربصة بجيوش الصليبيين الذين كانوا متحفزين على الساحل قرب يافا وغيرها من الثغور ٠

ويذكر ضياء الدين أنه كان بأرض فلسطين : قبالة العدو الكافر من الفرنج ـ لعنهم الله ـ وتقابل الفريقان على مدينة يافا عام ثمان وثمانين وخمسمائة ، [1] ولكن لم يحرز أى من

---

١ ـ السابق : ٥٥/١ ٠

الفريقين نصرا حاسما على الآخر ، فتوقفا عن القتال ، وعقدت الهدنة ، وعاد السلطان وولده الأفضل وكبار رجال الدولة كالقاضى الفاضل والعماد الأصفهانى والقاضى ابن شداد ، وضياء الدين بن الأثير ، عادوا جميعا إلى دمشق ·

استمرت علاقة ضياء الدين بالأفضل منذ قدومه على الشام سنة ٥٨٧ هـ إلى سنة ٥٨٩ هـ حيث لحق صلاح الدين بربه ، وتولى بعده ابنه الملك الأفضل مخدوم ضياء الدين ·

وهى فترة قصيرة نسبيا فى عمر ضياء الدين ولكنها هامة إذ فيها استطاع ضياء الدين أن يكون بالنسبة للأفضل وزيره ومستشاره وجليسه وأثيره فعلا ، وركن إليه الأفضل ـ وهو أمير ـ واطمأن إلى تدبيره وأعجب به وقدمه على كل من يحيطون به ·

ب ـ طور عمله مع الملك الأفضل ·

عندما تولى الملك الأفضل بعد أبيه صلاح الدين ملك دمشق فآلت الأمور كلها إلى ضياء الدين فاستقل بالوزارة وأصبح بيده الأمر والنهى ، وذلك أن الملك الأفضل كان شابا قليل التجربة فيه من غرور الشباب وتسرعه شيئا كثيراً ، بل كان ـ على ماتذكر بعض كتب التاريخ ـ مضطربا تنتابه من حين لآخر حالات اكتئاب فيبكى ، ويكون فى بعض الأحيان فى غاية القسوة ، وربما استبد به الوجد فتصوف وغالى فى العبادة ، وكان كثيرا مايترك الأمور كلها بيد ضياء الدين ·

وقد أفاد ضياء الدين من ذلك فاستبد بأمور الدولة بعد أن أصبح الأفضل زاهدا منقطعا إلى العبادة يقرأ القرآن وينسخه بخطه ·

غير أن الملك الأفضل أخذ يعتسف فى سياسته مع الناس ، ويتصرف تصرفا يتصف بالتسرع الذى يصل إلى حد الحمق أحيانا ، فيسئ إلى رجال الدولة ، بل يسئ إلى كثير من الناس ، والمؤرخون يكادون يجمعون على أن هذه التصرفات كانت بتأثير ضياء الدين وإيحائه ، وربما كانت بسبب ماكان يعانيه الأفضل من اضطراب نفسى ·

يقول ابن كثير : وكان الأفضل بعد وفاة أبيه قد أساء التدبير ، فأبعد أمراء أبيه وخواصه ، وقرب الأجانب ، وأقبل على اللعب ٠٠ واستحوز عليه وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزرى ، وهو الذى كان يحدوه إلى ذلك فتلف وأتلفه ، وضل وأضله وزالت النعمة عنهما ٠[1]

وقال العماد الأصفهانى « ووزيره الجزرى قد بلى الناس منه ببلايا وهو فى غفلة عن تلك القضايا ، وكان يدخل إليه ويوهمه من قبل أقوام أنهم عليه ، وأنهم يميلون إلى أخيه ، فيصدقه الأفضل فيما يدعى ، فصار يبلغ العادلَ عنه أحوالٌ ماتعجبه ، بل تغضبه ، وصار يتصل به كل من هاجمه من الشام إلى مصر ومامنهم إلا من يشكو الوزير الجزرى »[2]

وقد سخط الناس على ضياء الدين وسياسته حتى قال فيه الشهاب فتيان الشاغورى ، يتمنى قلعه من الوزارة :

متى أرى وزيركم وماله من وَزَر ؟
يقلعه الله فذا أذان قلع الجزر(ى)

وأيا ماكانت درجة الحق فى أقوال المؤرخين فى ضياء الدين ، فإنه على الرغم من أننا سوف نتهم المؤرخين ـ جدلا ـ فإننا نأخذ عليه أنه لم يكن الناصح الأمين لملكه الذى كان فى هذه الظروف النفسية والعصبية ولو نصحه ـ وهو المصدَّق لديه ـ لاستجاب ٠

وما يعنينا أن نقرره الآن أن وزارة ضياء الدين للأفضل وسياسة الرجلين معا قد جرت عليهما النكال والوبال ؛ فقد تجمع كارهو الأفضل ووزيره فى القاهرة عند العزيز أخى الأفضل ، وبدأت الوحشة بين الأخوين العزيز والأفضل وزين الأمراء للعزيز أن يستبد بالملك دون الأفضل وبرروا تزيينهم بسوء سياسة الأفضل وفساد تدبيره وسخط الناس عليه ٠

---

١ ـ ابن كثير : البداية والنهاية : ٩/١٣ ٠

٢ ـ أبوشامة : الروضتين ١٣٠/٢ ٠

وخرج العزيز من مصر قاصداً الشام للاستيلاء عليها من أخيه فهاجمه سنة ٥٩٢ هـ واستعان عليه بعمهما العادل وقال له : تكون دمشق لك وتكون الخطبة والدعاء لى ، وفعلا استوليا على دمشق وطردا الأفضل إلى صرخد وهم الأمراء بقتل ضياء الدين ولكن حاجبه أخرجه مخفىً فى صندوق ٠

ولما هدأت الأمور استدعى الأفضل إلى القاهرة ليلى نيابة ابن أخيه الملك المنصور فذهب إليها وقد اصطحب وزيره ضياء الدين ، ولما جاء العادل إلى مصر أخرج منها الأفضل وعوضه الديار الشرقية ، وخرج ضياء الدين مستخفيا مرة ثانية اتقاء لغضب الناس وظل يحتال حتى وصل إلى الأفضل فى سميساط وظل معه حتى فارقه ـ بعد اختلاف ـ سنة ٦٠٧ هـ ، وكان ذلك آخر العهد بالملك الأفضل ٠

جـ ـ طور اتصاله بالظاهر غازى ملك حلب ثم استقراره بالموصل

لما ترك ضياء الدين الملك الأفضل اتصل بالظاهر غازى ملك حلب غير أن اللقاء بينهما لم يكن وديا ولم يكن على الصورة التى يرغب فيها ضياء الدين لأن الظاهر كان يحذر ضياء الدين ويحذر أثر كراهية الناس له على ملكه ، لذلك لم تصف الحياة لضياء الدين فى حلب ، فعزم على الرحيل عنها إلى موطنه « الموصل » والتحق هناك بخدمة أميرها مسعود الثانى فى أولى سنوات حكمه من (٦٠٧ هـ إلى ٦١٥ هـ) ٠

وأخذ ضياء الدين يتنقل بين الموصل وبغداد وسنجار وكان بين البلاد الثلاثة عداء ونزاع انتهى بتحالف إربل مع الموصل ، وكان أمير الموصل إذ ذاك ناصر الدين محمود وكان طفلا يقوم على دولته أتابكه بدرُ الدين لؤلؤ ، وقد لزم ضياء الدين بلاط ناصر الدين محمود وخدم أتابكة لؤلؤا وكتب له الإنشاء ٠

وظل ضياء الدين فى الموصل تسعة عشر عاما وهى آخر فترات عمره ، وقد كانت أحفل فترات حياته فى التأليف والقراءة والتعليم ، إذ كان يدرس كتابه : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، كما درّس كتب أخيه مجد الدين المبارك ٠

وقد تمنى ابن خلكان أن يتلقى على ضياء الدين شيئا ولكنه لم يوفق فى ذلك ٠ (١)

ثم آذنت حياة الرجل بالانتهاء ، فلقى ربه فى سنة سبع وثلاثين وستمائة وقد بلغ عمره ثمانين عاما ، تاركا وراءه ثروة علمية أدبية تستحق التقدير ٠

ثالثا : نماذج من نثره :

نحاول فى هذا الجزء من البحث أن نذكر لضياء الدين نماذج من نثره فى مجالات ثلاثة : مجال نثره الديوانى ومجال نثره الذاتى ومجال نثره فى التأليف ٠

أما نثره الديوانى فمنه تقليد للسلطان صلاح الدين من الخليفة المستضئ ولهذا التقليد قصة ، فقد كان كتبه الصابى أولا ثم عرض على ابن الأثير فوجد فيه ـ على حد قوله ـ كلاما نازلا بالمرة ، وسأله بعض إخوانه بمدينة دمشق أن يعارضه بتقليد فى معناه ، فأنشأ تقليدا معارضا ومتحديا جاء فيه :

« وقد قلدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمنية غورا ونجدا ، وما اشتملت عليه رعية وجندا ، وما انتهت إليه أطرافها برا وبحرا ، وما يستنقذ من مجاوريها مسالمة وقهرا ، وأضاف إليها بلاد الشام ، وماتحتويه من المدن الممدنة والمراكب المحصنة » (٢)

والنثر الديوانى عنده جم كثير ويلاحظ عليه تغلب السجع والمحسنات البديعية ، ولابن الأثير فى المحسنات البديعية رأى يلتمس فى كتابه : المثل السائر وهو جدير بالتأمل والمناقشة ٠

ومن نثره فى ذم المشيب قوله :

« والعيش كل العيش فى سن الحداثة ، وما يأتى بعدها فلايدعى إلا بسن الغثاثة ، وليس بعد الأربعين من مصيف للذة ولا مربع وهى القوة الصالحة من الطبائع الأربع ، فإذا تجاوزها المرء أشفت ثمار عمره على خرصها ، وصارت زيادته كزيادة التصغير التى هى

١ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٢٦/٦ ٠

٢ ـ ابن الأثير : المثل السائر : ٢٣٠/١ ٠

زيادة تدل على نقصها ، وأصبح بعد ذلك يدعى أباً بعد أن كان يدعى ابنا ، وتقمص ثوبا من المشيب لايجر ثوبه خيلاء ، ولايزهى به حسنا •

وإن قيل : إن أحسن الثياب شعار البياض ، قيل إلا هذا الثوب فانه مستثنى ، ويكفيه من الفظاعة أن ينظر الأحباب إليه نظر القتال ، ولولا أن الخمود بعده لما استعير له لفظ الاشتعال •• »[1]

ومن نثره فى فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين قوله :

« لو جمعت العصور كلها فى صعيد واحد لكان هذا العصر عليها فاخرا ، وفاز بسبق أوائلها وإن جاء آخرا •••

ومن أحسن مافعل أنه آنس قِبلته الثانية بقبلته الأولى ، وأطال منه كل ماقصرته يد الكفر وكانت هى الطولى ••

وكانت وجوه المؤمنين فى هذا المقام أحظى بلباس الإشراق وأتم أبدرا والبدور لايكون تمامها فى المحاق ، فما منهم إلا من عرض نفسه ليوم العرض ، ومشى إلى جنة عرضها السموات والأرض ••

ولما رأى الكفار أن زئيرهم قد انقلب خوارا ، أذعنت أيديهم باستسلامها وصانت بالمال عن الرقاب واسترقاقها ، وبالبلد عن النفوس وحمامها ، فأبى السيف أن يترك رقابا تغذى بأكلها •• »

ومن نثره التأليفى ما جاء فى مفتتح كتابه : المثل السائر بعد حمدا لله والثناء عليه قوله : وبعد : فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام ، وقد ألف الناس فيه كتبا وجلبوا ذهبا وحطبا ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه وعلمت غثه وسمينه ، فلم أجد ما ينتفع به فى ذلك إلا كتاب « الموازنة » لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وكتاب « سر الفصاحة » لأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى ، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا وأجدى محصولا ، وكتاب سر التفصاحة وإن

---

١ ـ السابق : ١٣٩/١ ط نهضة مصر ١٣٧٩ هـ •

نبه فيه على نكتب منيرة ، فإنه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها ، ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة إلى أكثره ، ومن الكلام فى مواضع شذ عنه الصواب فيها ، وسيرد بيان ذلك كله من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى » .[١]

رابعا : إنتاجه الأدبى

أهم إنتاج ضياء الدين بن الأثير إنتاج أدبى ، فقد ترك فى هذا المجال عددا من الكتب الجيدة ـ على الرغم من مشاغله العديدة فى ديوان الإنشاء والوزارة والعمل فى بلاط عدد من الملوك .

ومن أبرز هذا الإنتاج كما عدد ذلك ابن خلكان :

١ ـ « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » ـ « وهو فى مجلدين جمع فيه فأوعى ، ولم يترك شيئا يتعلق بفن الكتابة إلا ذكره .

ولما فرغ من تصنيفه ، كتبه الناس عنه فوصل إلى بغداد منه نسخة وقد طبع هذا الكتاب مرارا فى القاهرة .

٢ ـ « الوشى المرقوم فى حل المنظوم » وهو مع وجازته فى غاية الحسن والإفادة ، وهو مطبوع كذلك .

٣ ـ « الجامع الكبير فى صناعة المنظوم والمنثور » وهو مطبوع كذلك .

٤ ـ « البرهان فى علم البيان » مخطوط .

٥ ـ « ديوان الترسل » وهو فى عدة مجلدات والمختار منه فى مجلد واحد . مخطوط .

٦ ـ « المعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء » مخطوط .

٧ ـ له مجموع اختيار ، اختار فيه من شعر أبى تمام والبحترى والمتنبى وديك الجن ، وهو مجلد واحد كبير .

وله رسائل ومكاتبات ديوانية كثيرة قال عنها ابن خلكان : تقع فى عدة مجلدات[٢] .

---

١ ـ السابق : ١/٢٥ ـ ٢٦ .

٢ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٢/١٥٩ .

محيى الدين بن عبد الظاهر
٦٢٠ هـ ـ ٦٩٢ هـ

أولا : نسبه ونشأته :

هو عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن نجدة الجذامى المصرى مولدا ووفاة .

ولد فى مدينة القاهرة فى شهر المحرم من سنة عشرين وستمائة ونشأ فى القاهرة وتلقى على شيوخها علومه فى المساجد ، ولكنه برع فى الفقه والأدب ، وكان تلميذا على كتب القاضى الفاضل ، وكان شديد الإعجاب بطريقته فى الكتابة ، حتى تعصب له ولطريقته وجمع له عددا من الرسائل سماها الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ، ومما يدلنا على مدى إعجاب ابن عبد الظاهر بالقاضى الفاضل قوله فى مقدمة « الدر النظيم » أما بعد لقد جمعت فى هذا الكتاب من رسائل القاضى الأجلّ الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى رحمه الله ماينتفع به المبتدى ويتذكر به المنتهى والخير أردت وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت » .

وعاش ابن عبد الظاهر وليا للطريقة الفاضلية فى الكتابة ، حتى برع فى فن النثر براعة أطلقت فى مدحه ألسنة العلماء قال النويرى :

« كان رحمه الله من أجل كتاب العصر وفضلاء المصر ، وأكابر أعيان الدول والذى افتخر بوجوده أبناء عصره الأول ، له من النظم الفائق ماراق صناعة وحسنا ومن النثر الرائق مافاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ورسائله بأيدى الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه فى البلاغة أسهل طريق وفى الفصاحة أوضح محجة »[1]

١ ـ النويرى : نهاية الادب : ١٠١/٨ ط دار الكتب المصرية .

وقد عكف على دراسة الشعر فحفظ كثيرا منه ثم نظمه ، فجاء شعره فى المرتبة الثانية بعد نثره .

وكانت ثقافته التاريخية موضع إعجاب الدارسين له ، حتى اعتمد عليه المقريزى فى خططه ، وهو مؤرخ ممن اهتموا بِسِيَرَ الملوك والبلاد ، وله فى كل مجال منهما إنتاج جيد .

بدأ عمله فى ديوان الرسائل وظل يتدرج فيه حتى تولى رياسة الإنشاء فى عهد الظاهر بيبرس ، وكان أول من تولى منصب « صاحب ديوان الإنشاء » وكان أول من تولى كتابة السر لسلاطين المماليك ، فهو الذى يشير على السلطان فى الرسائل والمراسيم ويتلقى عنه المرسوم شفاها لصوغه بعبارته ثم يوقع السلطان عليه بخاتمه .

ثانيا : أطوار حياته الأدبية

لم نستطع أن نفصل هذه الأطوار من الناحية الزمنية ، وإنما استطعنا أن نتعرف له على أعمال ثلاثة ربما تمثل أطوار حياته الأدبية .

تلك الأطوار هى :

١ ـ طور عمله فى ديوان الإنشاء .

٢ ـ طور عمله فى القضاء .

٣ ـ طور عمله فى التأليف .

أما عمله فى ديوان الإنشاء فقد أفاد منه وأفاد فيه ، حتى عد فيه علما من أعلامه وإماما من أئمته قال عنه ابن كثير : آخر من برز فى هذا الفن على أهل زمانه وسبق سائر أقرانه »[1]

وكان ابن عبد الظاهر صاحب مذهب فى الكتابة الديوانية يأتسى فيه بمذهب القاضى الفاضل ويتبع طريقته ، فالتزم السجع واتبع المحسنات البديعية ، وأكثر من التورية .

وفى الحق إن محيى الدين بن عبد الظاهر قد وضع كثيرا من صيغ الكتابة الرسمية ، التى ظل الكتاب محافظين عليها طوال مدة عصر المماليك وفترة من عصر العثمانيين .

١ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ٣٣٤/١٣ .

وأما عمله فى القضاء ، فلعله أخذه عن أبيه القاضى محيى الدين ، ولم نعرف من أخباره فى القضاء مايفيدنا فيما نحن بصدده ، وإنما كان عمله ذلك دليلا على أن عمله فى الديوان أهم وأصل وألصق بمواهبه الفنية والأدبية •

أما عمله فى التأليف فهو بحق أبرز أعماله وهو طور النضج من أطوار حياته ، وسوف نتحدث بالتفصيل عما وصل إلينا نبأه من مؤلفاته بعد أن نذكر طرفا من نماذج نثره •

ثالثا : نماذج من نثره :

من رسالته الشهيرة برسالة ابن عبد الظاهر ، مخطوطة فى ست ورقات وهى رد على شخص تنقصه وذمه ، وقد جاء فيها :

« بلغنى أعزك الله ولابرحت رحيب فناء الفخر ، قشيب ملبس العمر ، يانع ثمر الشكر ، مفعم حياض البر ، أن فلانا غضّ منى كل غض الجنى ، وأنه عبث بى عبث الأيام بالمنى ، وأنه ردنى إلى أرذل العمر فى الاطراح ، وغلق فى وجه تنجحى أبواب النجاح ، وزعم أن إناء أناتى غير مفعم ، وبناء مجدى غير محكم ، وجواد إجادتى غير ملجم ، وأن ميلاد مجدى حديث ، وسبب سعدى رثيث ، وأن جوارح إجادتى جريحة ، وقرائح ارتجالى قريحة ، وأن صدور المجالس تنكر أقدامى ، وبطون الطروس لاتلقح بوطء أقلامى ، وأنى لا أعد فى جملة الكتّاب ، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للتكريم لاأدخل معهم فى باب •

وإذا أتتك مذمتى من ناقص   فهى الشهادة لى بأنى كامل

ومن نثره فى وقعة حصن المرقب الذى خلصه المنصور قلاوون من الصليبيين يقول :

« وهو حصن عظيم منيع مازال مولانا السلطان الملك المنصور ـ نصره الله ـ يدأب فى أمره ويتحيل فى تحصيله للإسلام ويستفيد الرأى والتدبير فى افتتاحه ، وإصحاب جماحه ، لأنه كان أعجز الملوك ، ولم يقدر أحد منهم على التقرب منه فكيف النزول عليه ، واجتهد الملك الظاهر فى الإغارة عليه مرارا فما قدر الله ذلك ولا سهله ، ولاعجله ، وتوجه إليه مرة

من حماة فصادفته ثلوج وبرد وأمطار وحجبته عنه ، وحجزته المضايق والأوعار ، ومرة من غير حماة ولم يحصل له منه قصد بالجملة الكافية ، وخبأه الله لمولانا السلطان ، ليكون من فتوحاته المثيرة ، ولتطرز به أحسن سيره .

وكان بيت الاسبتار الذين به قد زاد بغيهم وعدوانهم وكثر فسادهم ، حتى بقيت أهل البلاد المجاورة لهم كأنهم فى حبس بل فى رمس ، وكان الفرنج يعتقدون أنه لايدرك بحول ولاحيلة ، وأن الحيلة فيه قليلة واستمروا على هذا الطغيان ، ولم يقفوا عند الايمان ، وعملوا فى نوبة القليعات كل قبيح من العذر والأسر والنهب ، ومولانا السلطان المنصور رابض لهم كالأسد المصور ، وهو يهتم بأمر هذا الحصن من غير إظهار ، وكلما أوقدوا نارا لحربٍ أمدته من الهداية الربانية الأنوار .. وطلع مولانا السلطان يوم السبت ، واجتمع الأمراء الأكابر فى خدمته ، وضرب مشورة بين يديه فى هدم القلعة أو إبقائها ، فمنهم من أشار بهذا ومنهم من أشار بهذا ، ورأىْ مولانا السلطان يتقد نوره نفاذا ، فرأى إبقاءها لحصانتها ومنعتها ، وتحسينها وتزيينها وصمم على إبقائها حسرة فى قلوب الكفار ، وعضدا للحصون التى لها عليها حق الجوار »[1]

ومن نثره الذى استغل فيه علمه بالنحو ، فجاءت طريفة خفيفة حيث قال : « حرس الله نعمة مولاى ، ولازال كلم السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتلف ، ومنادَى جوده لايرخمً وأحمد عيشه لاينصرف ، ولاعدم مستوصلُ الرزق من براعته التى لاتقف الوصل ، ولاعدمت نحاة الجود فى نوالة كل موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود ، ولاخاطبت الأيام ملتسمه إلا بلام التوكيد ، ولا عدوه إلا بلام الجحود ،

هذه المفاوضة إليه أعزه الله ، تفهمه أنا بلغنا أن فلانا أضمر سيدُنا له فعلا غدا به منتصبا للمكايد ومعتلا ، وليس موصولا كالذى بصلة وعائد ، وماذاك إلا لأن معرفتها داخلها التنكير وقدر لها من الاحتالات أسوأ التقدير ، ونعوت صحبته تكررت فجاز قطعها بسبب ذلك التكرير .

١ ـ ابن عبدالظاهر : تشريف الأيام والدهور فى سيرة الملك المنصور ص ٨٠ .

وسيدنا يعلم بالعلمية المدكون من الإنافة ، وما الإضافة إلى جلالته من الانتماء الذى يجب أن يكون لأجله عيشه به خفضا على الإضافة •

وكان الظن أن الأشغال التى جمعت له لاتكون جمع تكسير بل جمع سلامة ، وآية لاتكلف تعليا على وصول لأنه فى الديوان كالحرف لايخبر به ولا عنه ، والحرف ليست له علامة •

وحاشى لله أن يصبح معرب إحسانه مبينا ، وأن نزيل كرمه يكون للنكرات بأى محكيا ، أو أن يأتى سيدنا بالماضى من الأفعال فى معنى الاستقبال أو أن لايجعل لمبتدأ محبته مخبرا ، أو أن لايكون له من أبنيته تدبير سيدنا مصدرا •

ولابرح سيدنا نسيج وحده فى أموره ، ولازال حلمه يتناسى الهفوات لايشتغل مفعوله عن فعله بضميره »[1]

ولنا أن نلحظ على هذه الرسالة أنها تكاد تكون قد جمعت من مصطلحات النحو مالامزيد عليه لراغب فى الاقتباس من هذه المصطلحات ، ولنا كذلك أن ندرك أن فى بعض هذه الاستعانات بمصطلحات النحو تكلف يجعل المصطلح النحوى فى بعض الأحيان كأنه مقصود لذاته •

فضلا عما يحفل به أسلوبه من سجع ومحسنات بديعية تنحو نحو الطريقة الفاضلية وتقفوا فى طول الجمل وقصرها أثرها •

رابعا : إنتاجه الأدبى :

لعل أهم إنتاج ابن عبد الظاهر كان فى التاريخ ، فقد اهتم بأن يؤرخ للسلاطين الذين وزر لهم وكتب لهم فى ديوان الإنشاء وهم :

الظاهر بيبرس •

والمنصور قلاوون •

الأشرف خليل بن قلاوون •

القلقشندى : صبح الأعشى • ١٧٦/١ ـ ١٧٧ ط دار الكتب المصرية •

فقد كتب تاريخ هؤلاء الثلاثة الذين خدمهم ، ويقال إن المقريزى أفاد كثيرا من ذلك التاريخ واعتمد عليه واستشهد ببعض ماجاء فيه ، وهو بصدد الكتابة عن تاريخ هؤلاء الثلاثة ٠

ومؤلفات ابن عبد الظاهر فيما استطعنا أن نحصل عليه من مراجع هى :

١ ـ سيرة الظاهر بيبرس وهى منظومة شعرية أرخ فيها للسلطان الظاهر بيبرس ولم أطلع عليها ٠

وقد نثرها : شافع بن على بن عباس العسقلانى ، بأمر من محيى الدين بن عبد الظاهر نفسه ٠

ولكى نتعرف على محتويات تلك السيرة نستمع إلى قول شافع بن على فيها : « وكان كاتب سره البليغ محيى الدين بن عبد الظاهر ـ قد افتتح أيامه بنظم سيرة ، رتل منها محاسنه صورة صورة ، وأرخ وقايعه فى صحايف حسناته مسطورة ، فأطال وأطاب ، وخطب بأمتع خطاب وأتى على مجموع أيامه يوما يوما ، لكن اقتضى الحال أن يثبت منها الغث والسمين ، وأن يكرر مايشافه به سمع سلطانه من إطراء وإن كان فيه صادقا لايمين ٠٠ » (١)

٢ ـ الألطاف الخفية فى سيرة الملك الأشرف خليل بن قلاوون مطبوع ٠

٣ ـ الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة ٠

وقد أفاد منه المقريزى فى خططه ، وإن كان ضائعا حتى الآن فيما قرأت ٠ أما سائر كتبه فهى :

٤ ـ رسالة ابن عبد الظاهر ٠

٥ ـ الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ٠

٦ ـ تمائم الحمائم ٠

٧ ـ رسالة فى الخيل ٠

---

١ ـ المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ورقة ١٤ ٠ لابن شافع ٠

٨ ـ النجوم الدرية فى الشعراء المصرية ٠

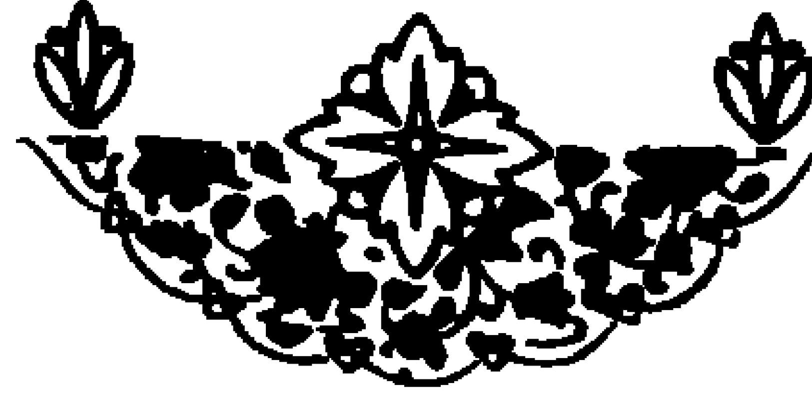
٩ ـ مقامة فى مصر والنيل ٠

١٠ـ ديوان شعر منه نسخة خطية بمكتبة الجامعة الأزهرية ٠

وبعد فذاك إنتاج القاضى ابن عبد الظاهر الذى توفى فى القاهرة سنة ٦٩٢ هـ ٠

ولعلى بذلك أكون قد عرفت ببعض مشاهير الكتاب فى تلك الفترة من الشام ومن مصر على نحو مافعلت وأنا أعرف ببعض مشاهير الشعراء فى هذه الفترة ، ولعلى ـ كذلك ـ أكون قد أشرت بهذا التعريف إلى ماتركه الغزو الصليبى للعالم الإسلامى فى كتَّاب هذه الفترة الهامة من تاريخ الأمة الإسلامية ٠

ولكى تتم الصورة عندى أتحدث الآن عن بعض المذاهب النثرية التى عرفت وشاعت فى هذه الفترة ٠٠ والله الموفق ٠



د ـ بعض المذاهب النثرية فى تلك الفترة

هذه الفترة التى نتحدث عنها وهى القرنان السادس والسابع الهجريان ورثت عن الأسلاف فى أسلوب النثر الأدبى طريقة كان الناس متمسكين بها معجبين بهـا غايـة الإعجاب ، وهى طريقة تقوم على العناية باللفظ والشكل والتزام التأنق اللفظى حتى لو بلغ حد التكلف ، كما تقوم على العناية بحسن اختيار الكلمة حتى ولو بلغت حد الغرابة ٠

وربما كان أبو العلاء المعرى أباً لهذه الطريقة فى عصره ـ الذى سبق هذه الفترة بأكثر من قرن من الزمان ـ غير أن الحريرى صاحب المقامات وهو من أبنـاء بدايـات هذه الفترة ـ إذ عاش بعد بدء الغزو الصليبى عشرين عاما تقريبا ، وسبق هذا الغزو بنحو نصف قرن ـ هو الذى أذكى فى النثر الأدبى روحا جديدة ربما كانت أكثر تكلفا مما فعل أبو العلاء المعرى ، ولقد أغرم الكتاب بأسلوب الحريرى فى كتابته يقول العماد الأصفهانى فى ذلك : « وَشْى بلاغة الحريرى ذهبى الطراز ، سحبانى الإعجاز ، قُسِّى الإسهاب والإيجاز ، ومتى قَدَر قُسّ على ترصيع كلمة وتصريع حكمه ، حريرى الوشى ، عراقى الوشم ، لؤلؤى النظم ، كلامه يتيمة البحر وتميمة النحر »[١]

ولعلنا لانعدو الحقيقة عندما نقول إن أدباء هذه الفترة التى نتحدث عنها من الناثرين قد اعتبروا طريقة الحريرى هى الطريقة المثلى فى الكتابة وهى طريقة تقوم على الإغراب وبعد الإشارة والتزام السجع وسائر المحسنات البديعية وكل وسيلة من وسائل ترصيع الأسلوب ونقشه ٠

بل قد اعتقد معظم الكتاب فى هذه الفترة أن الكتابة الجيدة هى التى تكون على هذا المستوى الذى ورثوه عن الحريرى وكان الحريرى ورثه عن التبريزى عن أبى العلاء المعرى ٠

---

١ ـ العماد الأصفهانى : خريدة القصر وجريدة العصر : ١ و ١٨٣ ٠

وقد ترتب على ذلك أن ظهر فى الكتابة النثرية فى هذه الفترة مذهبان أحدهما يقفو أثر الحريرى ، ونستطيع أن نسميه « مذهب المحافظين » والثانى يحاول أن يتخلص من هذه القيود وتلك الأثقال اللفظية ، ويمكن أن نسميه « مذهب المجددين » ٠

ولنلق ضوءا على كل من المذهبين لننهى بذلك حديثنا عن الفكر والأدب فى الحروب الصليبية ٠

أ ـ مذهب المحافظين

وقام هذا المذهب على القواعد والأسس التى وضعها الحريرى فى مقاماته من ناحية الألفاظ والأساليب ، وقام على رأس هذا المذهب الكاتب المبدع عبد الرحيم البيسانى القاضى الفاضل ، وكان القاضى الفاضل كاتبا مبرزا قبيل نهاية الدولة الفاطمية ٠

والقاضى الفاضل فى كتابته النثرية كان محافظا على ذاك الأسلوب الذى لقنه العصر عن الحريرى ومن لف لفّه من الكتاب ، وكان شيخا فى هذا الفن رئيسا لايبارى ولايجارى ، وله قلم ساحر آخذ ، اعترف به صلاح الدين نفسه حينما قال : « والله ماملكت البلاد بسيوفكم ولابرماحكم ، ولكن بقلم القاضى الفاضل » ويؤكد هذا المعنى ابن فضل الله العمرى إذ يقول : « كان القاضى الفاضل هو الدولة الصلاحية ، كان كاتبها ووزيرها وصاحبها ومشيرها »[١]

وكان القاضى الفاضل فى كتابته يعتمد أمورا قلما تفارقه ، يمكن أن نشير من هذه الأمور إلى مايأتى :

الاهتمام بألوان البديع اهتماما يجعله لايدع عبارة من عباراته تمر دون أن يجملها بإحدى المحسنات البديعية ، وكان الجناس من أحب الألوان البديعية إليه ٠

وتتميز عباراته بالطول ، ولعل هذا الطول هو الذى مكنه من الجناس والتنظير والتشخيص فى معظم ماكتب ٠

الميل إلى التشخيص فيما يكتب ، والاهتمام الزائد بالتورية ٠

---

١ ـ ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ٠ ج ٧ ورقة ٦٥٦ مخطوطة بدار الكتب المصرية ٠

كما لايخفى على قارئ لرسائل القاضى الفاضل أنه يقتبس من القرآن الكريم ليزين أسلوبه ، وأنه أحيانا يقتبس من الشعر أو من مشهور كلام السابقين ·

ومما اهتم به القاضى الفاضل فى كتابته الاقتباس والاستعانة بمصطلحات العلوم وبخاصة علم النحو ·

ومن رسالة للقاضى الفاضل بعد أن من الله على صلاح الدين بفتح بيت المقدس ، تؤكد لنا هذه الدعائم التى أقام عليها أسلوبه ـ قوله : « وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها ، واستتبت عقائد أهله على بصائرها ، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط ، وصدق الله أهل دينه ، فلما وقع الشرط حصل المشروط ، وكان الدين غريبا فهو الآن فى وطنه ، والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس فى ثمنه ، وأَمِر أَمْر الحق وكان مستضعفا ، وأُهِل ربعه وكان قد عيف حين عفا ، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمه ، فأولجت السيوف إلى الآجال وهى نائمة ، وصدق وعد الله فى إظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان الحين ، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النأى طارقا ، واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قُبَلهُم ، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تُشفى بالماء غُلَلهم »(١)

وكان من أئمة مدرسة المحافظين إلى جوار القاضى الفاضل تلميذه فى فن الكتابة وفى فن المحافظة على هذا النمط الفنى الحافل بالمحسنات البديعية : العماد الأصفهانى ·

فقد كان العماد الكاتب مغرما بالقاضى الفاضل وبطريقته فى الكتابة محتذيا حذوه فى كتابته ، حتى إن العماد قد فاق أستاذه فى التقيد بالمحسنات البديعية فى كل شئ ، حتى فى كتابه : التاريخ ، وإن نظرة إلى كتابة الفتح القُسِّى فى الفتح القدسى ، لتطلعنا على أسلوب كنفس الأسلوب وطريقة تحتذى حذو الطريقة وتعترف له بالأستاذية ·

---

١ ـ القلقشندى : صبح الأعشى : ٦/٤٩٧ ·

وإن نظرة فى مقدمة الكتاب لتطلعنا على ذلك إذ يقول : « وسميته الفتح القدسى تنبيها على جلالة قدره ، وتنهويها بدلالة فخره ، وعرضته على القاضى الأجل الفاضل ، وهو الذى فى سوق فضله تعرض بضائع الفضائل ، فقال لى : سمه « الفتح القُسِّى فى الفتح القدسى » فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته ، وصاغت صيغة بيانك فيه مايعجز ذوو القدر فى البيان عن صياغته »(١)

ولعل فى حديثه عن التاريخ والتزامه السجع والمحسنات وإطالة الجمل وكل ما ذكرنا عن أسلوب القاضى الفاضل مايؤيد مانقول ، فهو يقول : « ودخلت سنة ست وثمانين والسلطان مقيم بعسكره بمنزله الخروبة ، وكل من الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر فى خيمته المضروبة ، وعكا محصورة ، وجموع الفرنج إلى حصارها محشورة ، وعلى تعذرها عليهم محسورة ٠

وخرجت هذه السنة والحصر مستمر والسلطان فى ملازمة القتال مستمر ، وحيا النصر فى الأحيان مستدر ، وقد تسنت للإسلام مباهج ، ووضحت للسعادة مناهج ، وبانت للقتال مداخل ومخارج ، وانقطعت بين الوشيج وأرحام الأرواح وشائج ، واشتدت لتباريح الأشواق إلى لقاء الأعداء لواعج ، وتألقت فى الإقدام مقدمات ونتائج ، ولمناجح المنى منا فى مدى الرجاء مدارج ولخطباء الظبى فى منابر الطلى معارج ، وللجهاد جهات ، وللعزمات أزمات ، واتفقت حسنات وحسنت اتفاقات ، وكانت لنا مسرات هى لأعدائنا مساءات ووقعت عجائب ، وأعجبت وقائع ، وأبدعت غرائب وأغربت بدائع »(٢)

ومن الواضح أننا نقرأ هذا الكلام وكأننا نقرأ للقاضى الفاضل ، فهنا الاهتمام بألوان البديع مع التعلق بالجناس ناقص وتام ، وهنا الجمل الطويلة إلى حد مّا ، والتنظير الذى بدا أوضح مايكون ، والتشخيص ، وسائر ماذكرنا من أمور اهتم بها القاضى الفاضل فى كتابته ٠

١ ـ العماد الأصفهانى : الفتح القُسى فى الفتح القدسى : مقدمة الكتاب ص ٩ ط مطبعة الموسوعات القاهرة ـ دون تاريخ ٠

٢ ـ السابق : ص ١٧٤ ـ ١٧٥ ٠

فالعماد الأصفهانى إذن من عمد المذهب المحافظ على ما أثر عن أسلوب الحريرى فى عنايته الزائدة بالمحسنات وغيرها من تشخيص واقتباس ، وحب للتورية والجناس •

ونستطيع بعد هذا العرض الموجز لمذهب المحافظين أن نجمله فى أمور : الإكثار من البديعيات وبخاصة الطباق والجناس ، والاهتمام بالتورية مع الإكثار من الاقتباس ، والتشخيص •

ب ـ مذهب المجددين

لعل ظهور مذهب فى التجديد فى أسلوب النثر أمر ضرورى فى مواجهة المذهب المحافظ ، تلك سنة الأدب فى مختلف عصوره ، ما إن يتمسك بالمحافظة فريق حتى يخرج عن هذه المحافظة فيهتم بالتجديد فريق •

وربما كان لمذهب المحافظين دعم وتأييد بالقاضى الفاضل ومكانته الرفيعة وبالعماد الأصفهانى وقدراته المتعددة ، ولكن ذلك لم يمنع أبدا من وجود مذهب مجدد ، يلوم المحافظين على محافظتهم ، ويتهم أسلوبهم بالعقم حينا وبالشكلية والسطحية حينا ، ويكيل التهم جزافا للمحسنات البديعية عموما وللسجع على وجه الخصوص فى بعض الأحيان •

غير أن هذا المذهب الذى تبناه المجددون لم يكن له تأثير حقيقى إلا فى القرن السابع الهجرى وكان ذلك على يد ضياء الدين بن الأثير ـ الذى قدمه القاضى الفاضل إلى السلطان صلاح الدين ـ كما أشرنا آنفا ـ فابن الأثير كاتب متحرر فيه اعتداد شديد بنفسه وبعمله ، وقد نظر ابن الأثير إلى ماتركته طريقة القاضى الفاضل فى الكتاب ـ وهو شيخهم ورئيسهم ـ من رغبة ملحة فى تقليد هذا الأسلوب والنسج على منواله •

لم يعجب ابن الأثير هذا الأسلوب كما لم تعجبه هذه التبعية ، فثار على هذا وذاك ، ونادى أولا : بأن هذا الأسلوب متكلف مغرق فى الإغراب والتعقيد ، لايعدو أن يكون عبثا لفظيا وعبثا على المعنى والفكره ، وهذه الأحكام التى أصدرها ابن الأثير على مذهب

المحافظين كانت معاول هدم لهذا المذهب ، كما كانت ذات أثر فى تنفير بعض الكتاب من التأسى بهذا الأسلوب •

وكان ابن الأثير قد سُبق بكاتب آخر ثار على الأسلوب المثقل بالمحسنات البديعية ذاك هو محمد بن عبد الله بن ظفر المتوفى سنة ٥٦٥ هـ ، فلقد كان ابن ظفر من القصاص والوعاظ الذين حرروا قصصهم ووعظهم من السجع والمحسنات ، غير أن ابن ظفر لم ينل من الشهرة مثل مانال ابن الأثير ولاكان لرأيه ذلك التأثير الذى كان لرأى ابن الأثير فى تلك القضية •

ولننظر الآن فيما قال ابن الأثير فى السجع وهو عمود المحسنات البديعية فى الكلام المنثور ••

يقول : « هو تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد •• وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولاأرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به ، وإلا فلو كان مذموما لما ورد فى القرآن الكريم •• فإن قيل إن النبى ﷺ قال لبعضهم منكرا عليه وقد كلمه بكلام مسجوع : « أسجعا كسجع الكهان » ؟ ولولا أن السجع مكروه لما أنكره النبى ﷺ •؟

فالجواب على ذلك أنا نقول : « لو كره النبى ﷺ السجع مطلقا لقال : أسجعاً ؟ ثم سكت ، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لِـمَ كان ، فلما قال : أسجعا كسجع الكهان « صار المعنى معلقا على أمر وهو إنكار الفِعل لِـمَ كان على هذا الوجه ••

وأعلن أن الأصل فى السجع إنما هو الاعتدال فى مقاطع الكلام ، والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء ، والنفس تميل إليه بالطبع •• بل ينبغى أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حارة طنانة رنانة لاغثة ولا باردة •• وأن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى ، لا أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ »(١)

١ ـ ابن الأثير : المثل السائر : ٢٧١/١ ـ ٢٧٨ باختيار واختصار •

ثم شرع ابن الأثير يهاجم أسلوب الحريرى وأسلوب ابن نبانه الذى كان يحذو حذو الحريرى ـ وفى هذا هجوم على أسلوب القاضى الفاضل والعماد الأصفهانى إذ هما على ذلك المذهب ـ فقال :

« ولقد تصفحت المقامات الحريرية والخطب النباتية على غرام الناس بهما وإكبابهم عليهما ، فوجدت الأكثر من السجع فيهما على الأسلوب الذى أنكرته »[1]

ولكن ابن الأثير ـ وقد وضع للسجع شروطا ورأى له أقساما ـ لم يستقبحه على الإطلاق وإنما استقبح المتكلف منه ، ولما تناول هو السجع فى كتابته تناوله بنفس الشروط التى وضعها وفى الرسائل الديوانية والتقاليد السلطانية فحسب ، وربما فى بعض الرسائل الإخوانية .

أما ماوراء ذلك من مؤلفاته فلم يلتزم فيها السجع وإنما كان يرد فى كلامه عفوا غير مقصود فى أغلب الأحيان ، وإن الناظر فى كتابه المثل السائر ليجد مصداقا لما نقول .

وخلاصة مذهب ابن الأثير وهو رأس المجددين فى عصره يمكن أن نشير إليه فى أمور منها :

استخدام السجع بشروطه التى وضعها والتى أهمها أن تكون ألفاظه حلوة حارة ، طنانة رنانة لاغثة ولابارة ، وأن يكون المعنى فيه تابعا للفظ ، وان يكون استخدامه مقصورا على بعض الكلام دون بعض .

استبعاد غرائب الألفاظ واستعمال مألوفها ومعروفها مع الدقة فى الاختيار إذ لابد على حد قوله من أن يدرك الكاتب الفرق بين كلمتى غصن وعسلوج وكلمتى أسد وفدوكس ، كما استبعد التعقيد فى المعنى .

هجر التصنيع والتكلف فى أى صفة من صفات الأسلوب ، فقد سخط سخطا شديدا على الحريرى عندما وجد له مقامه معجمة الكلمات كلها وأخرى مهملة الكلمات كلها ،

---

١ ـ السابق : ٢٧٨/١ .

ومقامة فيها كلمة معجمة وأخرى مهملة وهكذا ، وعد ذلك من التكلف ، وجعله سببا فى أن معانيه أتت غثة باردة ، لأن الألفاظ استكرهت إكراها فلم تلائم أخواتها .

وبعد : فإن مذهب المجددين على يد ابن الأثير قد أثار ضجة كبرى لدى الأدباء والعلماء بل ولدى بعض الخلفاء كالخليفة العباسى فى بغداد .

وانقسم الناس حول هذا المذهب إلى قسمين : مؤيدين له راضين عن مذهبه وقد تمثل ذلك فى عدد من كتاب الشام والموصل ، ومعارضين له محاربين لمذهبه وقد تمثل ذلك فى بغداد .

ولقد كان ابن الأثير حادا فى مهاجمة معارضيه واتهمهم بأنهم يجعلون همهم مقصورا على الألفاظ التى لاحاصل وراءها ولاكبير معنى تحتها ، وأكد أن هؤلاء أحوج من صبيان المكاتب إلى التعليم .

وبهذا أكون قد بلغت بعض ماأريد من التعرف على بعض المذاهب النثرية فى تلك الفترة ، إكمالا للصورة وبحثا عن أبعادها المتعددة ، وأملا فى أن أكون قد وفقت فى تعريف القارىء بالفكر والأدب فى الحروب الصليبية ، وأن تكون صورة الغزو الصليبى بأبعادها المتعددة قد وضحت من خلال هذا الكتاب الذى أرجو أن يكون بداية سلسلة من الكتب تتتبع الغزو الصليبى للعالم الإسلامى فى مراحله التاريخية التى أشرت إليها فى التمهيد لهذا الكتاب .

خاتمة

لله الحمد رب السموات والأرض رب العالمين ، وله الشكر والامتنان على ما وفّق إليه وأعان عليه ، فى كل صواب قلته ، ومنه المغفرة والرحمة لكل خطأ وقعت فيه .

وعلى نبى الهدى والرحمة والملحمة أزكى الصلوات وأطيب التسليمات ، فهو القدوة ولا قدوة غيره ، وهو الذى هدى البشرية إلى الصراط المستقيم ، صراط الله ، وهو الذى جاءنا بالقرآن الكريم دستورنا الخالد ، ثم فصّله لنا بسنته التى من تمسك بها نجا وحقق بالأخذ بها سعادة الدنيا والآخرة .

بهذا الحمد وبذاك الثناء وبتلك الصلوات والتسليمات كنت قد بدأت الكتاب وبها - والفضل لله - أختمه ، وهى خير ما يفتتح به عمل وخير مايختتم به .

وليس بوسعى وأنا أكتب هذه الصفحات الأخيرة من الكتاب إلا أن أتوجه بخالص الدعاء إلى المولى سبحانه وتعالى أن يلهم الأمة الإسلامية فى حاضرها ومستقبلها نعمة الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فى مختلف ظروف حياتها ، فإنها إن تفعل تقف يقظة متنبهة لكل غزو يدبر لها ، ولكل كيد تحاط به من أعدائها .

فالغزو للعالم الإسلامى مستمر وإن لبس المسوح وتقنع بالمصالح المشتركة وتغلف بالسلام العالمى وحقوق الإنسان ، والأمة الإسلامية فى الماضى البعيد والماضى القريب والحاضر مطمع أعدائها والحاقدين عليها من كل ضال أو مغضوب عليه ، ومن كل صاحب مذهب مارق أو نظرية خادعة أو نظام ضال مضل ، وليس للأمة الإسلامية منجى من هذا الكيد ولا مهرب من هذه الحرب ولا فرصة لتحقيق النصر على عدوها إلا بالتمسك بهذا الدين والعض على نظمه وآدابه بالنواجذ .

وكما أشرت فى التمهيد لهذا الكتاب - ما أُتيت الأمة الإسلامية من قِبَل عدو أضر عليها - فى الماضى والحاضر والمستقبل - من بعدها عن التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولقد حاولت جهدى فى الباب الأول من هذا الكتاب أن أوضح دوافع الغزو الصليبى للعالم الإسلامى ـ فى الفترة الواقعة فى القرنين السادس والسابع الهجريين ـ سواء أكانت دوافع دينية تقودها الكنيسة ومن يسمون أنفسهم برجال الدين ، أم سياسية يقودها الملوك الطامعون ، أم اجتماعية واقتصادية يقودها التجار والإقطاعيون وينخرط فيها رقيق الأرض من الأفصال والأقنان والعبيد ، أوضحت هذه الدوافع لأنبه أمتنا الإسلامية ، حتى تأخذ الأمة الإسلامية حذرها وتعرف على وجه اليقين عدوها ، فتحسن التصدى له وتبطل عليه خططه لغزوها فى الحاضر أو المستقبل ·

وعندما كتبت ما كتبت فى الباب الثانى كانت تقوم فى نفسى رغبة ملحة فى أن أكشف بما قلت فيه لأمتنا الإسلامية اليوم عن المواطن التى ضرب فيها العالم الإسلامى فى الماضى فى غربه حيث الأندلس المسلمة وفى شرقه حيث مصر والشام وفلسطين ، وأن أوضح أسباب انهزام المسلمين أمام أعدائهم أول الأمر ، ثم أسباب انتصارهم على هؤلاء الأعداء آخره ·

مع اهتمامى بأن أبرز للضوء فى نظر الأمة الإسلامية صورة مشرقة لهؤلاء الأبطال من المسلمين الذين واجهوا الصليبيين فانتصروا عليهم لأنهم أدركوا أهم أسباب النصر وهى رفعُ راية الجهاد فى سبيل الله ـ لا فى سبيل قومية أو إقليمية ـ والوحدةُ فى وجه العدو · أسأل الله واسع رحمته ومغفرته لأولئك الأفذاذ من قادة المسلمين عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وغيرهم ·

فعلت ذلك أملا فى أن تدرك الأمة الإسلامية اليوم وهى تخوض أى معركة ـ وما أكثر المعارك التى تخوضها والمعارك التى تنتظرها ـ أن أهم أسباب النصر على أى عدو للأمة الإسلامية هى أخذ هذه الأمة الإسلامية بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فى سلمها وحربها ، ثم رفع راية الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ثم اتحاد الكلمة ووحدة الصف ، لأن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ·

وفى الباب الثالث من الكتاب كان رائدى أن أرصد نتائج هذا الغزو الصليبى للعالم الإسلامى ، رصدا يتتبع سلبياتها وآثارها الضارة فى المسلمين ، كما يذكر إيجابياتها من حيث حثّت المختلفين من المسلمين على الاتفاق ، ودعت المتفرقين منهم إلى الاتحاد .

ركزت على ذلك طمعا فى أن تنظر الأمة الإسلامية اليوم إلى أعدائها فتتجنب مايمكن أن تتركه معاركها مع أعدائها من سلبيات كالعادات المرذولة التى يغرسها عدونا فى مجتمعاتنا غرسا ، ومثل إذكائه لنيران العداوة والبغضاء بين المسلمين .

كما جعلت من همى فى نفس الباب أن أتحدث عن نتائج الغزو الصليبى للعالم الإسلامى فى أوربا نفسها ، لأوضح لأبناء الأمة الإسلامية أن حضارتنا الإسلامية كانت ذات أثر عميق فى حضارة أوربا التى قامت على معطيات عصر النهضة الأوربية الذى يشيدون به ، ويتغنى به من يعرف ومن لايعرف ، حتى يحدث ذلك فى نفوسنا اعتزازا بحضارة الإسلام تعصمنا من مجرد التصور بأن حضارة أخرى كائنة ماكانت قادرة على أن تعوضنا عن حضارتنا الإسلامية ، فضلا عن أن تكون فى صالح حاضرنا أو مستقبلنا ، وتحول بيننا وبين الارتماء على الحضارات المعادية حقيقة لكثير مما جاء به ديننا الذى أكمله الله لنا وأتم به نعمته علينا .

وفى الباب الرابع والأخير أردت أن أؤكد أن الفكر والأدب عند المسلمين - فى تلك الفترة - لم يقف مكتوفا إزاء هذا الغزو ، وإنما سجّله وسجل كل ما أحاط به من سلبيات وإيجابيات ، ووقف يوجه القادة والحكام من المسلمين إلى أن وحدة الصف ضرورة فى مواجهة العدو وإلى أن الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا هو هدف كل معركة .

فعلت ذلك لكى أشير إلى المفكرين والعلماء والأدباء فى هذا العصر الذى نعيشه إلى أن عليهم واجبا دينيا فى مساندة معارك الأمة الإسلامية فى كل مكان ، وأن عليهم عبئا كبيرا - بحكم أنهم ورثة الأنبياء - فى التوجيه المخلص النابع من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، لأئمة المسلمين وعامتهم .

ولعلى أكون بهذا الكتاب قد بلّغت ، وأملى كبير فى أن أكون قد قدمت فى هذا شيئا يفيدنى ويفيد من بلّغتهم وينفعنى وإياهم فى دنيانا وآخرتنا .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

الرياض : على عبد الحليم محمود
غرة المحرم من عام ١٣٩٩ هـ



مصادر البحث ومراجعه
ثبت بأهم مراجع الكتاب

١ ـ ابن الأثير « عز الدين » الجزرى :

أ ـ التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل — ط القاهرة ١٩٦٣م

ب ـ الكامل فى التاريخ — ط بيروت بدون تاريخ

٢ ـ ابن الأثير « ضياء الدين » الجزرى :

أ ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر — ط نهضة مصر ١٩٥٩م

ب ـ الوشى المرقوم فى حل المنظوم

٣ ـ أرنولد « توماس » :

الدعوة إلى الإسلام ـ مترجم — ط القاهرة ١٩٥٧م

٤ ـ أسامة بن منقذ :

أ ـ الاعتبار — برنستون ١٩٣٠م

ب ـ لباب الآداب — القاهرة ١٣٥٤ هـ

جـ ـ المنازل والديار — موسكو ١٩٦١م

٥ ـ الأصفهانى « عماد الدين الكاتب »

أ ـ تاريخ دولة آل سلجوق — ط القاهرة ١٣١٨ هـ

ب ـ الفتح القسى فى الفتح القدسى — ط القاهرة ١٣٢٢ هـ

جـ ـ خريدة القصر وجريدة العصر — ط بغداد والقاهرة

٦ ـ ابن إياس :

بدائع الزهور فى وقائع الدهور — ط القاهرة ١٣١١ هـ

٧ ـ باركر أرنست :

الحروب الصليبية ـ مترجم ط القاهرة ١٩٦٠م

٨ ـ ابن جبير :

رحلة ابن جبير ط بغداد ١٩٥٦م

٩ ـ ابن الجوزى :

المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ط الهند ١٣٥٩ هـ

١٠ ـ ابن حجة الحموى :

أ ـ ثمرات الأوراق

ب ـ خزانة الأدب ط بولاق ١٢٩١ هـ

جـ ـ كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام ط بيروت ١٣١٣ هـ

١١ ـ حسن إبراهيم

أ ـ تاريخ الإسلام السياسى . ط النهضة المصرية ١٩٧٠م

ب ـ النظم الإسلامية بالاشتراك مع أخيه على ط النهضة المصرية ١٩٧٠م

جـ ـ تاريخ الدولة الفاطمية ط القاهرة ١٩٥٨م

١٢ ـ حسن حبشى

أ ـ الحرب الصليبية الأولى ط القاهرة ١٩٤٧م

ب ـ نور الدين والصليبيون ط القاهرة ١٩٤٨م

١٣ ـ ابن خلدون :

أ ـ المقدمة ط بولاق ١٢٨٤ هـ

ب ـ بقية كتابه : العبر وديوان المبتدأ والخبر «تاريخه» ط بولاق ١٢٨٤ هـ

١٤ ـ ابن خلكان :

وفيات الأعيان ط القاهرة ١٢٩٩ هـ

١٥ ـ الخفاجى :

شقاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل — ط القاهرة ١٢٨٢ هـ

١٦ ـ خليفة « حاجى خليفة »

كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون — ط بيروت ١٩٧٠م

١٧ ـ ابن تغرى بردى :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — ط القاهرة ١٩٢٩م

١٨ ـ ابن رشيق :

العمدة فى صناعة الشعر وأدابه — ط القاهرة ١٩٥٥م

١٩ ـ الزركلى

الأعلام — ط بيروت ١٩٦٩م

٢٠ ـ سبط بن الجوزى — مخطوطة بدار الكتب المصرية

مرآة الزمان — ط الهند ١٣٥١ هـ

٢١ ـ السخاوى

التبر المسبوك فى ذيل الملوك — ط بولاق ١٨٩٦م

٢٢ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور

أ ـ الحركة الصليبية — ط القاهرة ١٩٧١م

ب ـ أوربا فى العصور الوسطى — ط القاهرة ١٩٦٢م

٢٣ ـ أبو شامة

أ ـ كتاب الروضتيين فى أخبار الدولتين — ط القاهرة ١٢٨٧ هـ

ب ـ ذيل الروضتين — ط القاهرة ١٩٤٧م

٢٤ ـ ابن شداد :

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية — ط القاهرة ١٩٦٢م

٢٥ ـ ابن شاكر :

فوات الوفيات   ط بولاق ١٨٨١م

٢٦ ـ شافع بن على :

أ ـ الأحكام العادلة فيا جرى بين المنظوم والمنثور من المفاضلة

ب ـ الدر المنتظم فى مناظهرة السيف والقلم •

جـ ـ سيرة الأشرف خليل بن قلاوون

د ـ مخالفة المرسوم فى الوشى المرقوم

٢٧ ـ الشهاب محمود الحلبى :

أ ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل   القاهرة ١١٩٨ هـ

ب ـ أسنى المنائح فى أهنى المدائح

٢٨ ـ شوقى حفيف :

أ ـ فصول فى الشعر ونقده   ط القاهرة ١٩٧١م

ب ـ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى   ط القاهرة ١٩٦٥م

جـ ـ الفن ومذاهبه فى النثر العربى   ط القاهرة ١٩٦٥م

٢٩ ـ صفى الدين الحلى :

أ ـ العاطل الحالى والمرخص الغالى   ط ألمانيا ١٩٥٥م

ب ـ ديوان شعره

٣٠ ـ الصفدى :

أ ـ الوافى بالوفيات   ط طهران ١٩٦١م

ب ـ أعيان القصر   مخطوطة بدار الكتب المصرية

٣١ ـ ابن ظفر

سلوان المطاع   ط بيروت ١٣٠٠ هـ

٣٢ ـ ابن العبرى

تاريخ مختصر الدول — ط بيروت ١٩٥٨م

٣٣ ـ ابن العديم

زبدة الحلب فى تاريخ حلب — ط دمشق ٤٥-١٩٥١م

٣٤ ـ ابن عساكر :

أ ـ التاريخ الكبير «تاريخ دمشق» ـ مخطوط بالظاهريةبدمشق

ب ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر اختصار الشيخ عبدالقادر بدران

٣٥ ـ العسكرى

كتاب الصناعتين — ط القاهرة ١٩٧١م

٣٦ ـ ابن عنين

ديوانه ـ تحقيق خليل مردم — ط بيروت بدون تاريخ

٣٧ ـ العمرى :

مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار — ط دار الكتب المصرية ١٣٤٢ هـ

٣٨ ـ الغزالى :

إحياء علوم الدين — القاهرة

٣٩ ـ الغزولى :

مطالع البدور

٤٠ ـ ابن العماد :

شذرات الذهب — ط القاهرة ١٣٥١ هـ

٤١ ـ ابن عبد الظاهر :

أ ـ الفاضل فى رسائل القاضى الفاضل

ب ـ الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة

٤٥ ـ أبو الفداء

المختصر فى أخبار البشر — القاهرة ١٣٢٥ هـ

٤٦ ـ القفطى

إنباه الرواة

٤٧ ـ ابن القلانسى

ذيل تاريخ دمشق — بيروت ١٩٠٨م

٤٨ ـ ابن كثير :

البداية والنهاية — القاهرة ١٣٥٨ هـ

٤٩ ـ المقريزى :

أ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك — القاهرة من ٣٤-١٩٥٨م

ب ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار — بولاق ١٢٧٠ هـ

٥٠ ـ القلقشندى :

صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء — مصورة عن المطبعة الأميرية ١٣٣٢ هـ

٥١ ـ ابن القوطى

أ ـ الدور الناصعة فى شعراء المائة السابعة

ب ـ ذيل تاريخ بغداد

٥٢ ـ النويرى :

نهاية الأرب فى فنون الأدب — ط وزارة الثقافة القاهرة

٥٣ ـ ابن واصل :

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب

٥٤ ـ ابن الوردى

أ ـ تتمة المختصر المعروف بتاريخ ابن الوردى — القاهرة ١٢٨٥ هـ

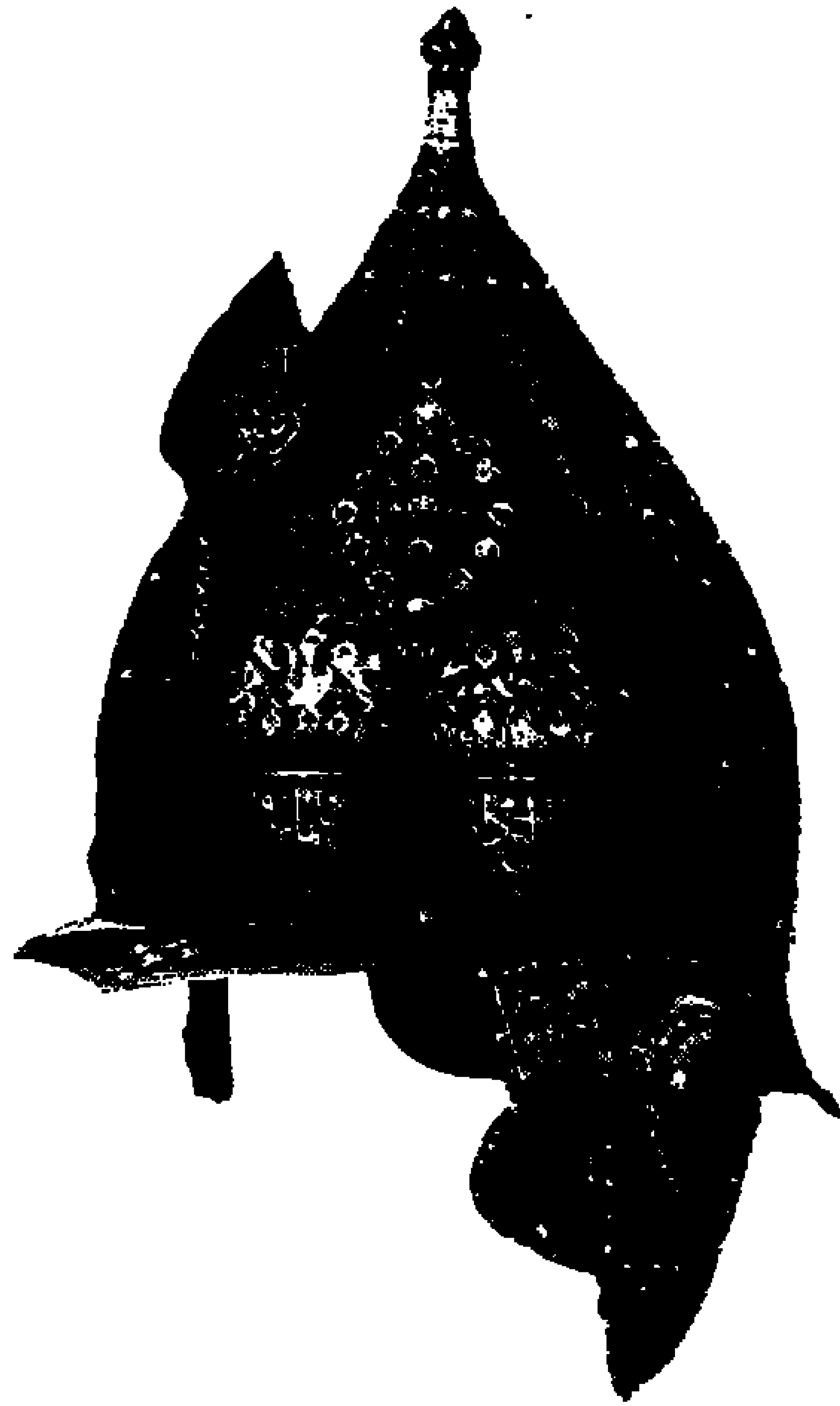
ب ـ أبكار الأفكار

جـ ـ أرجوزة فى تعبير المنامات

٥٥ ـ ياقوت الحموى :

أ ـ معجم الأدباء القاهرة ١٩٢٠م

ب ـ معجم البلدان بيروت ١٩٥٥م



ثبت الموضوعات

دار عكاظ للطباعة والنشر ـ جدة

هذا الكتاب

يركز هذا الكتاب على الفترة الواقعة بين نهاية القرن الخامس الهجرى ٤٩٠ هـ ـ ١٠٩٥ م ، ونهاية القرن السابع الهجرى ٦٩٠ هـ ـ ١٢٩١ م ، والتى بلغت فيها « الحرب الصليبية » ضد العالم الاسلامى أوجها ·

[illegible] الباب الأول عن : دوافعها : الدينية ، [illegible] ، والاجتماعية والاقتصادية ·

[illegible] الباب الثانى فتحدث عن : ظروف العالم [illegible] واجه الصليبيين إبان حكم [illegible] السلاجقة ، والأراتقة ، والأتابكة ، [illegible] المماليك ·

[illegible] الباب الثالث بالحديث عن : الفكر [illegible] من تلك الحروب ، وكيف انشغل بها ، [illegible] وتأثر بها · وكيف رصد احداثها فى فنون [illegible] شعرا ونثرا ، وتأليفا ، كما تحدث عن [illegible] : علماء ، وشعراء ، وكتاب ، ممن [illegible] فى الحديث عن هذه الحروب ·

[illegible]



[illegible] ـ جدة